



شجرة الحضارة قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث (الجزء الثالث)



المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1752

- شجرة الحضارة: قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث

(الجزء الثالث)

- رالف لنتون

- أحمد فخرى

- أحمد زكريا الشلق

2010 -

هذه ترجمة كتاب: The Tree of Culture (Part III) by: Ralph Linton

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محقوظة للمركز القومي للترجمة. شارع الجبلاية بالأويرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٢ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554



الجزء الثالث

تسأليسف: رالسف لسنتون تسرجسمة: أحسمد فخرى تقديم هذه الطبعة: أحمد زكريا الشلق





دیوی ۸۸, ۹۵۵

ف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة رُ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافَ اتهم بالضرورة عن رأى المركز.



القسم الثامن _ افريقيا

القسم العاشر ـ الدنيا الجديدة

فهرس الكتـــاب

٩	•	الفصل الثامن والعشرون : ما قبــل التاريخ ٠ ٠ ٠ ٠
77	•	الفصيل التاسيع والعشرون : مصــر • • • • • • • •
7 1	•	الفصل الشـــــــــــــــــــــــــــــــــــ
90	•	الفصل الحادي والثلاثون : الحضارات الأفريقية ٠ ٠٠٠٠
		القسم التاسع ـ الشرق الأقصى
۱۳۱	•	الفصل الثاني والثلاثون: الهند في عصر ما قبـل التاريخ • •
۱٦٤	•	الفصل الثــالث والثلاثون: الهند في عصرها التاريخي المبكر • •
۲۸۱	•	الفصل الرابع والثلاثون : البوذية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
۱۹۸	•	الفصل الخامس والثلاثون : الهند في العصر السابق للاستعمار •
719	•	الفصلالسادس والثلاثون : الصين في عصر ما قبل التاريخ • •
۲0٠	•	الفصل السابع والثلاثون : الصين في عصرها التاريخي المبكر ·
۲۸٠	•	الفصل الثامن والثلاثون : عصر الأسرات المتأخر في الصين ٠ •
٣٠٧	•	الفصل التاسع والثلاثون : اليابان ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

الفصل الأربعـــون : السكان الأصليون في أمريكا الشمالية •

الفصل الحادي والأربعون: الحضارات المتقدمة في أمريكا الجنوبية •

440

798

140





القتم المثامن اف ريقيا



الفصل الثامن العشرون ما قبل التاريخ

يعتقد دارسو التاريخ الحضارى أن القارة السوداء قد أحسنت تسميتها ؛ اذ بالرغم من أنها من أقدم القارات التى استوطنها الانسان — ان لم تكن أقدمها جميعا — فان ماضيها قد اكتنفه الكثير من الغموض ، اذ لم يعثر على أى وثائق فى أى جهة منها غير تلك التى خلفها الرحالة العرب فى العصور الوسطى ، وذلك اذا ما غضضنا النظر عن تلك المناطق المحدودة التى تشمل كلا من مصر واثيوبيا والساحل الشمالى لتلك القارة.

وهناك قصص وأخبار غير مكتوبة يتناقلها سكان الممالك الزنجية العظيمة التى تنتشر عبر القارة جنوبى الصحراء الكبرى ، وهى تِعِود الى تاريخ أقدم من كتابات أولئك الرحالة العرب بقرنين أو ثلاثة قرون ولا شك أن قوائم ملوكهم وقصص الهجرات والغزو ، فيها شيء كثير من الحقيقة ، ومع ذلك فان هذه الأخبار — اذا أردنا أن ننظر اليها كتاريخ — يجب أن نخضعها لكل ما يجب أن تخضع له جميع الوثائق الشفهية عند البحث ، أى يتحتم علينا الا نقبلها على علاتها .

أما بالنسبة للمناطق الواقعة أبعد من ذلك فى الجنوب ، فان مثل هذه الأخبار تنقصنا أيضا وتحل محلها القصص الفولكلورية . فنحن نجد بقايا ما خلفته حياة الانسان فى كل مكان فى أفريقيا ، ولكن ما زالت هناك مناطق واسعة ممتدة الأطراف لا يمكننا أن نعتبرها من الناحية العملية الا مناطق مجهولة من ناحية الدراسات الأثرية . فقد عثر فوق سطح الأرض على أدوات

يرجع تاريخها الى العصر الحجرى القديم ، فى جميع أجزاء القارة حيث اهتم بعض أعضاء الارساليات الدينية أو موظفى الحكومة بالبحث عنها .

وقد عثر فى بعض المناطق على عدد كبير منها مما أوحى الى الباحثين بأن ذلك دليل اما على كثافة نسبية فى عدد السكان ، أو أن أولئك الناس قد أقاموا فترة طويلة جدا من الزمن فى ذلك المكان ، وهو الأمر الأكثر احتمالا.

غير أن عملية تأريخ البقايا الأثرية الافريقية المبكرة تثير مشاكل خطيرة ؛ فالدورات المناخية العظيمة التى نتجت عنها المصور الجليدية الأوروبية ، والفترات التى بين العصور الجليدية ، لم تحدث فى افريقيا أكثر من مجرد تقلبات فى كمية سقوط الأمطار ، كما أن التغيرات التى طرأت على الحياة الحيوانية كانت من التدرج بحيث لا تفيد الحفريات الا فائدة قليلة فى معرفة تاريخ ما يعثر عليه ، كما أن تطور الحضارة ، بل ومن المحتمل جدا تطور الانسان نفسه ، لم يسر الاسيرا بطيئا هادئا خلال العصر الهليستوسينى.

وتختلف هذه الأحوال اختلافا تاما عن الأحوال التي كانت سائدة في أوروبا ، اذ لم يستطع الانسان خلال الفترات المتعاقبة من التقدم الجليدي ، أن يجد لنفسه الا مستقرا مزعزعا في المناطق الواقعة على حدود القارة في أقصى الجنوب. وابان هذه الفترات العصبية أصبحت افريقيا ، مثل «الكنيسة» في آراء « توينبي » أي كانت مستقرا للمكاسب الحضارية التي توصل اليها الانسان قبل ذلك ، وكانت افريقيا هي المكان الذي كان يعود منه الانسان للسكني في أوراسيا الغربية في كل مرة يصبح فيها الطقس دافئا الى حد كاف ولما كانت الأحوال المناخية في افريقيا ثابتة الى حد ما ، وكانت السكني فيها مستمرة فان مخلفات العصر الپاليوليتي الأدني في افريقيا يفتقر الى التغيرات المفاجئة التي كانت تعيز مختلف العصور الپاليوليتية المتأخرة في أوروبا . وقد عثر على أقدم البقايا الحضارية الافريقية التي كشفت حتى الآن في شمال شرقي افريقيا ، ونرى فيها حضارة قائمة على استخدام شطفات في شمال شرقي افريقيا ، ونرى فيها حضارة قائمة على استخدام شطفات

ومهاشم غير متقنة الصنع ، تذكرنا — ولو الى حد قليل غامض — بحضارات جنوب — شرقى آسيا . وعقب ذلك انتشرت فى افريقيا لمدة بضعة آلاف من السنين حضارات فأس « بلطة » اليد التى عمت المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ومدينة الكاب ، وهى الحضارات التى أخذت فيها أشكال الأدوات تتطور تطورا تدريجيا حتى اتخذت الأشكال التى رأيناها فى حضارات بلطة اليد التى انتشرت فى أوروبا فيما بعد .

ولسنا نملك ، مع الأسف الشديد ، الا القليل من المعلومات عن سكان افريقيا فى العصر الپاليوليتى الأدنى ، اذ أن المستكشفات الأفريقية التى عثر عليها حديثا فى جنوبى هذه القارة توحى بأن الانسان قد نشأ فيها . ومن المؤكد أن أشباه الانسان المنتصبى القامة من مجموعة الأوسترالو بيثيكى (Australopithicine) قد قاربت أن تصبح «حلقات مفقودة » أكثر من أى حفريات أخرى وجدت حتى الآن . فإن الجمجمة الغريبة المعروفة باسم جمجمة روديسيا ، وما عثر عليه أيضا منذ وقت قريب فى الكونغو البلجيكى ويحتمل أن يكون معاصرا الانسان النياندرتال ، يدلان على وجود سكان قطنوا فى هذه القارة فيما بعد وذلك قبل ظهور الانسان العاقل ، ولكن الدليل الذئ نملكه ما زال ينقصه الكثير حتى يصبح كافيا لاعطائنا نتائج نهائية .

بيد أنه بانتهاء العصر الپاليوليتى الأدنى يصبح من الصعب تطبيق النظريات الأوروبية التقليدية فى تتابع الآثار فى افريقيا . وبالرغم من أنه عثر فى بعض أجزاء أفريقيا على أدوات تشبه تلك الأدوات التى انتشرت فى حضارات الشطفة فى أوروبا ، وهى التى كانت تسمى فى وقت ما بالحضارات الموستيرية ، الا أن سوابقها ومركزها فى تسلسل الحضارات الافريقية ليست من التحديد بحيث تجعلنا نقطع بوجود أى علاقات حقيقية بينها . ويبدو من المحتمل ، حسب الأدلة التى نملكها حتى الآن ، أن هذه الصناعة قد تطورت فى افريقيا نتيجة للعلاقات التى قامت بين الذين كانوا يستخدمون « بلطة » اليد وبين غزاة للعلاقات التى قامت بين الذين كانوا يستخدمون « بلطة » اليد وبين غزاة

جلبوا معهم صناعة النصال من العصر الپاليوليتي الأعلى .

وتشبه أقدم النصال الافريقية في نواح كثيرة ، تلك التي عثر عليها في أوروبا ، وفى الشرق الأدنى ، الأمر الذى يكاد يؤكد لنا أن افريقيا لم تعرفها الا وهي في أشكالها المتطورة. وعلى أي حال فقد طرأ على هذه الصناعات كثير من التعديلات المحلية ، عن طريق التغير التدريجي الذي يحتمل أن تكون قد ساعدت عليه اتصالات جديدة بآسيا ، حتى أصبحت صناعات من النوع الميسوليتي . وقد وجدت هذه الصناعات في كل جزء من أجزاء القارة ، التي وصلتنا منها معلومات أثرية كافية ، مما يدل دلالة تامة على سعة انتشارها ، كما أن الصناعات ظلت باقية مستمرة فترة طويلة نسبيا في القارة. فقبائل البشمن الذين يقطنون أقصى الجنوب من القارة كانوا لا يزالون ينتجون الأدوات الميسوليتية في الوقت الذي وصل اليها الأوروبيون. ولسنا نعرف على وجه التحديد ما اذا كان الأقزام الذين يعيشون فى الغابات الغربية كانوا أيضًا يصنعون مثل هذه الأدوات أم أنهم لم يصنعوها فان هذا الموضوع ما زال قيد البحث لأن الأدلة الأثرية غير موجودة كما أن صناعاتهم الحديثة لا تساعدنا على البت في هذا الأمر ، اذ يرجع السبب في افتقارهم الكامل للمهارة فى أى نوع من الصناعات التي كانوا يتميزون بها من قبل الى اعتمادهم الطويل على جيرانهم الذين كانوا أكثر وأقوى منهم ، وعلى الأدوات الحديدية التي كانت متوافرة في ذلك الوقت.

وتعتبر الهياكل العظمية التي عثر عليها فى المواقع الأثرية التي يرجع تاريخها الى العصر الپاليوليتى الأعلى والى العصر الميسوليتى ، ذات أهمية خاصة لأنها تلقى ضوءا على تاريخ الأجناس فى افريقيا . فبالرغم من أن البقايا ليست كثيرة الا أنها تدل على شيئين : أولهما أن عددا من الأنواع والفصائل البشرية لم يكن موجودا فى ذلك الوقت فى هذه القارة ، وأن الخواص الجسمانية الزنجية كانت أقل وضوحا وأقل انتشارا عما أصبحت عليه فيما بعد ، أما سكان

شمال أفريقيا الذين يرتبط اسمهم بالصناعات التى كانت منتشرة فى العصر الپاليوليتى الأعلى فان المميزات القوقازية كانت سائدة كثيرا بينهم ، وهى تشبه المميزات السائدة بين السكان الحاليين للمنطقة ولقد دلت البقايا المتناثرة التى عثر عليها فى الهضبة الافريقية من شرقى السودان الى جنوب أفريقيا على أن النوع المعروف باسم البوشس — هوتنتوت كان منتشرا فى وقت ما انتشارا كثيرا نحو الشمال أكثر من انتشاره فى الفترة التاريخية ، فى حين امتدت العناصر القوقازية بعيدا ناحية الجنوب ونظرا لجهلنا الكامل للون الجلد ونوع الشعر وما أشبه ذلك من المميزات فان الكثير من البقايا التى عثر عليها فى شرقى افريقيا كان يمكن جدا اعتباره قوقازيا لو عثر عليه فى مكان آخر .

والأحوال المناخية فى افريقيا الغربية الرطبة غير ملائمة للاحتفاظ ببقايا الهياكل العظمية ، وفى الوقت ذاته ليست لدينا أية معلومات عن هذه المنطقة . بيد أن المرء يجب أن يستنتج — وذلك عن طريق عملية تصفية بسيطة — أن مركز تطور مجموع الصفات الجسمانية التى ننسبها عادة الى الجنس الزنجى يقع هنا فى هذه المنطقة كما يتحتم على المرء أيضا أن يستنتج أن هذه الخواص قد اتشرت باطراد من أفريقيا الغربية ، بل ويستطيع المرء أن يخاطر فيظن أن هذا الانتشار يرجع الى قوة الاحتمال العظيمة ضد الملاريا الغبيثة التى يتميز بها زنوج افريقيا الغربية . وحتى الآن فان معظم أفراد هذه المجموعة هم من حاملى ميكروب الملاريا ، وكلما اتجهوا الى منطقة ، تكون فيها بعوضة الانوفيليس حاملة الملاريا فانهم ينشرون المرض وتكون العاقبة وخيمة بالنسبة للسكان المحليين . أما الفراغ الذي ينتج عن مثل هذه الكارثة بموت عدد كبير من السكان فسرعان ما تسده زيادة عدد الزنوج والمولدين الذين يكونون أقل تعرضا للاصابة .

وفى الحضارات الافريقية فى العصر النيوليتى سلسلة من المشاكل التى لا يمكن حلما الا بالاستزادة من الحفائر والقيام بعمل البحوث المنظمة فى

منطقتين هامتين بصفة خاصة وهما الحبشة والسودان ؛ اذ أنهما من الناحية الأثرية يكادان أن يكونا غير معروفتين حتى الآن . هذا ، وليس هناك ثمة شك فى أن الحضارات الافريقية فى العصر النيوليتى قد نبعت من المركز الأسيوى ، وأعنى به جنوب غربى آسيا ، وهو المركز الذى وصفناه من قبل فى الفصل السادس عشر اذ أن الناحية التكنولوجية فى كل منهما متشابهة كما نرى فى كل مكان شمالى الصحراء الكبرى الافريقية فى العصر الپاليوليتى أن اقتصاده يقوم على وجود نباتات وحيوانات أصلها من جنوب غرب آسيا .

وبالرغم من احتمال وجود بعض الامتزاج بين هذه الأشياء التي أتت اليهم وشبيهاتها من العناصر الوطنية ، الا أنه لا توجد أية شواهد مقنعة تدل على استئناس أي حيوان ذي أهمية اقتصادية فوق أرض القارة الافريقية . وقد ذهب البعض الى القول بأن افريقيا كانت المكان الذي نشأ فيه الحمار ونوع من الأغنام ولكن لم يقم الدليل على ذلك . فقد استأنس المصريون القط ، غير أن هذا الحيوان قد أفاد كثيرا في ارضاء الانسان نفسانيا آكثر من ارضائه له من الناحية المادية .

أما بالنسبة للمحاصيل فليس لدينا أى دليل مباشر يشير الى معرفة ما كان يزرع منها فى مجتمعات العصر النيوليتى جنوبى الصحراء الكبرى ، ولكنا نعرف أن عددا قليلا جدا من أنواع الحبوب التى تزرع فى جنوب غربى آسيا يمكن زراعته فى هذه المنطقة ، فان معظم محصولات غربى افريقيا والسودان التى تزرع اليوم ترجع فى أصلها اما الى أصل أمريكى أو أن تكون فى أصلها من محصولات جنوب شرقى آسيا ، أما بقية المحصولات فانها سبق أن استؤنست (دجنت) فى الحبشة . هذا ولو سلمنا بما ورد فى التقارير النباتية التى نشرها العلماء الروس فان عددا هائلا من فصائل النباتات قد زرع هناك . النباتات التى يحتمل أن تكون قد زرعت جنوبى الصحراء الكبرى فى العصور النيوليتية هى أنواع مختلفة من الدخن (الذرة العويجة) من فصائل العصور النيوليتية هى أنواع مختلفة من الدخن (الذرة العويجة) من فصائل

السورغوم والاليوسين والبنسيتوم (Sorghum, eleusine, pennisetum) . فاذا كانت هذه والفول السودانى (من نوع ڤواندزيا (Voandzeia)) . فاذا كانت هذه النباتات قد استؤنست فعلا فى الحبشة فان مشكلة جديدة ستضاف الى المشاكل المعقدة التى تواجهنا فى محاولتنا تحديد أصول وهجرات النباتات الافريقية فى العصر النيوليتى .

ويبدو أن طريق الهجرة الرئيسي الذي سلكه الوافدون الى افريقيا في العصر النيوليتي كان عن طريق شبه جزيرة سيناء وعبر البحر الأحمر وبالرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الحبشة بجزيرة العرب خلال العصور التاريخية والهجرات العديدة التي كان يقوم بها سكان كل من البلدين منذ ألفي سنة مضت فان بقايا الحضارة النيوليتية لم يعثر عليها بقدر كاف ، ان كانت قد وجدت على الاطلاق في المنطقة المعروفة باسم القرن الافريقي . ان أعمال الحفر والتنقيب لم تحدث على نطاق كاف في هذه المنطقة ويتوقع المرا أن يجد الأدوات النيوليتية بين أيدي الأهالي ، لو كانت هذه الأدوات موجودة في هذه المنطقة . كان سكان الدنيا القديمة ينظرون الى « بلطة » اليد المنتشرة في كل مكان على اعتبار أنها أداة سجرية تتصل بالبرق ، ولهذا كانوا يحرصون على اقتنائها . وحيث انه لم يعثر عليها في هذه المنطقة فمن المؤكد أنها لو كانت موجودة فعلا فلا بد أنها كانت نادرة الى حد بعيد .

ويبدو أن أحسن تفسير لعدم وجود البقايا النيوليتية فى شرقى افريقيا هو أنه فى الوقت الذى حدثت فيه الهجرة النيوليتية من آسيا ، كانت معظم السواحل الافريقية على البحر الأحمر من الجفاف بحيث لا يمكنها القيام بأود الاقتصاد القائم على كل من الزراعة وعلى تربية الحيوان الذى كان متوافرا لدى مزارعى جنوب غربى آسيا القدامى ، وذلك فى الوقت الذى لم توجد فيه حياة الرعاة التى جعلت سكنى هذه المنطقة فيما بعد أمرا ميسورا ، اذ لم يكن هذا النوع من الحياة قد تطور بعد . ومن المعتقد أن بعض الحضارات المصرية

المبكرة فى العصر النيوليتي قد أتت الى صعيد مصر عن طريق ساحل البحر' الأحمر ولو كانهذا الأمر صحيحا فانهم لم يخالفوا أية محلات سكنية معروفة تدلنا على طريق الهجرة الذي سلكوه . كما أن الأحوال المناخية قد تفسر ندرة المناطق الأثرية النيوليتية في أجزاء كثيرة من الصحراء الكبرى اذ أنها قد أخذت في الجفاف المطرد منذ نهاية العصر الجليدى وعندما تطورت الطرق الفنية اللازمة للاقتصاد الرعوى ، أخذت الهجرات طريقها من الجزيرة العربية الى القرن الافريقي. وقد استمر هذا الحال خلال الفترة المتأخرة من عصر ما قبل التاريخ ، وهو يمتد في هذه المنطقة الى ما بعد بداية العصر المسيحي. هذا ، وحتى فى العصور التالية ، فان ظهور الاسلام كان سبباً فى الهجرات الواسعة النطاق التي حملت القبائل العربية الى الأراضي شبه القاحلة في شمال افريقيا (١). وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نلاحظ أن كلا من الحصان والجمل قد وصلا مِتَاخِرِين نسبيا الى افريقيا ؛ اذ أن الحصان قد ظهر لأول مرة في القارة مم غزو الهكسوس لمصر حوالي عام ١٥٠٠ ق . م ، وأخذه المصريون عن الغزاة الذين أتوا اليهم ولم يستخدموه الافى أغراض القتال فحسب (٢) . كانت الخيول تشد الى المركبات الحربية الخفيفة التي تتسع لرجل واحد وكانت

⁽۱) لم تبدأ هجرات القبائل العربيسة الى مصر وشمال أفريقيا بسبب ظهور الاسلام ، بل بدأت قبل ذلك بقرون طويلة وتاريخ القبائل اليمنية حافل بأسسماء وأبنساء القبائل التى هاجرت أو هاجرت فروع منها الى مصر والى شسمال أفريقيا واستقرت فى تلك البلاد قبل ظهور الاسلام .

⁽۲) ان تاریخ دخسول الهکسوس الی مصر هو عام ۱۷۳۰ ق ۰ م ۰ ولیس عام ۱۹۰۰ ، وفضلا عن ذلك فان النظریة التی كان مسلما بها من علماء الآثار فی السنوات العشر الأخیرة هی أن الحصان قد أتی الی مصر أثناء حكم الهکسوس وان كلا من الهكسوس والمصریین قد عرفوه فی وقت واحد ۰ وقد حدث أخیرا (سبتمبر ۱۹۵۹) أن أعلنت نتائج حفائر جمعیة الآثار البریطانیست فی بوهن (أمام وادی حلفا بالسودان) وفیها ما یثبت وجود الحصان فی وادی النیل قبل عصر الهكسوس بزمن غیر قصسیر یرجع الی حوالی عام ۱۸۰۰ ق ۰ م (المترجم)

القوس هى السلاح الرئيسى الذى يستخدمه قائد العربة ، واذا ما اشتد وطيس المعركة كان يحرر يديه وذلك بأن يشد اللجام الى خصره.

وكان لعبقرية المصريين وميلهم الى اتقان الصناعة الفضل الأكبر في جمل المركبات الحربية المصرية أخف وأقوى المركبات الحربية التي ظهرت في العالم القديم ، غير أنه في الوقت ذاته كان حب المصريين للمحافظة على القديم سببا ف أنه عندما توصل المصرى ال<mark>ى حل جميع المشكلات الفنية ب</mark>العجلات الحربية ظل يستخدم نفس العربات عدة قرون أخرى . ولم يعرف المصربون الحرب من فوق ظهر الجواد ، وكانوا يستخدمون المركبات الحربية في أعمال المناوشات وفى مطاردة الأعداء أكثر من استخدامها فى الهجوم على صفوف الأعداء لبث الذعر بينهم. ولسنا نملك الا القليل من المعلومات عن انتشار الخيل من مصر نحو الغرب ، بيد أننا نعلم أنه ابان العصور الرومانية القرطاجنية كانت الخيول تستخدم بصفة عامة في القتال في شمال افريقيا ، كما كان الفرسان النوميديون يمثلون أهم فرقة فى جيش هانيبال ، كما ظلت الخيول مستخدمة بعد ذلك قرونا عديدة في جيوش الرومان. وهناك ما يحمل على الاعتقاد بوجود اقتصاد قائم على حياة الرعى يرتكز ارتكازا أساسيا على الخيل وذلك في العصور الكلاسيكية (اليونانية - الرومانية) ، كاعتماد الحضارات التي نشأت في الصحراء الكبرى فيما بعد على الجمال. هذا وقد تكشف الدراسات الدقيقة للمصادر الاغريقية والرومانية عن الكثير من التفصيلات الخاصة بهذه الحضارة أكثر من تلك التي يمكن جمعها من المصادر الأثرية الضئيلة. ويمكننا القول بأن الخيول قد انتشرت في النهاية في ربوع الصحراء الكبرى كافة ، وبرزت أهميتها في السودان ابان العصور التاريخية أكثر مما يعتقد أكثر الناس. كانت الممالك العظيمة التى ظهرت فى شرق ووسط السودان تخضع لطبقة أرستقراطية من الفرسان، وكان الفرسان الذين يلبسون حلل الزرد المعدنية، هم نواة جيوشهم.

ولم يستخدم الجمل في مصرحتى العصر البطلمي بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون قد عرف فيها قبل ذلك التاريخ بوقت طويل وهناك تمثال واحد على الأقل لا يقبل الشك ينثل جملا ويرجع في تاريخه الى عصر الأسرات المبكر (۱) ومن المحتمل أن الجمل قد أتى عن طريق شبه جزيرة العرب الى القرن الافريقي وأقبلت على استخدامه القبائل الحامية السامية التي كانت تقطن المنطقة ، ومن هناك انتشرت الجمال بسرعة هائلة الى جزء كبير من أرجاء الصحراء الكبرى وقد نتج عن هذا الانتشار أن فتحت مناطق أخرى للسكنى اذ أن في مقدور الجمل أن يعيش على العشب بعد فصل الأمطار القصير دون حاجة الى شرب الماء . كما جعل في الامكان أيضا امتداد طرق القوافل التي تعبر الصحراء ، وهي الدروب التي كان الجفاف المطرد قد جعل استخدامها أمرا مزعزعا لا يمكن الاطمئنان اليه .

وفى ضوء هذه المعلومات الضئيلة ، يبدو أن الصناعات الحجرية ذات الطابع النيوليتى قد استمرت فى شرقى أفريقيا ، وفى جميع أنحاء الهضبة من السودان حتى مدينة الكاب ، الى أن حلت محلها الأدوات المعدنية التى ظهرت فى عصور حديثة نسبيا .

ولم تعرف أفريقيا عصر البرونز. وهي حقيقة غالبا ما يرجعها الباحثون الى استكشاف الحديد استكشافا قائما بذاته وفى وقت مبكر. هذا ، ويبدو الآن أن الأدوات الحجرية قد استمر استخدامها على الأرجح الى أن حلل الحديد محل البرونز فى البلاد المجاورة لافريقيا فى أوراسيا ، فان الطرق الفنية وأشكال الأدوات والأسلحة توحى بأن افريقيا الزنجية قد أخذت أدواتها الحديدية عن النماذج الهندية والأندونيسية أكثر من تأثرها بأوروبا أو الشرق الأدنى.

⁽۱) تمثال صغیر عثر علیه فی جبانة أبو صیر الملق عند مدخل الفیوم ویوجد فی متحف برلین ۰

لقد عثر على بقايا النماذج التي تتميز بها حضارات جنوب غربي آسيا في العصر النيوليتي في مصر وفي المناطق الساحلية التي تطل على البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت هذه النماذج الى ذروتها في جودة الصناعة في مصر وفي شمال أفريقيا في أقصى الغرب وكونت جزءا من المركز النيوليتي المستقل المعروف باسم هسبانو — موريتاني (Hispano-Mauritianian) الذي كان مركزا مزدحما بالسكان وذا ثقافة متقدمة. (انظر الفصل الثامن عشر).

وليس هناك ما يدل على أن الحضارات المصرية فى العصر النيوليتى قد توغلت فى شرقى السودان ، وعلى طول المسافة التى تفصل بين مصر وبلاد المغرب ، فان المناطق الأثرية النيوليتية يقل عددها كلما توغل المرء ناحية الجنوب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما يبدو من المؤكد أن جزءا كبيرا من الصحراء الكبرى لم يكن مسكونا خلال هذه الفترة الحضارية . ومع ذلك فان المناطق النيوليتية تزداد فى العدد عندما نصل الى غربى السودان اذ يوجد الكثير من الأدوات الدقيقة المصنوعة من الحجر وبلطة اليد والفخار المصنوع باليد ، ولكن يستحيل على الانسان أن يعرف نوع العلاقة التى كانت بين المركز الهسيانى — موريتانى فى الشمال وبين الحضارات الزنجية فى غربى افريقيا ، وذلك بسبب الافتقار الكامل الى أعمال الحفر والتنقيب المنتظمة فى هدده المنطقة .

ومهما كانت ضآلة مخلفات الحضارة الافريقية فى العصر الحجرى فان مخلفات العصر الذى تلاه كانت آكثر ضآلة ، ففى الفترة الواقعة بين نهاية العصور النيوليتية وما كتبه الرحالة العرب فى العصور الوسطى لا نعرف شيئا على الاطلاق عن الشاطىء الغربى لافريقيا . فمن المؤكد أنه كانت هناك اتصالات من وقت لآخر مع شاطىء البحر المتوسط عن طريق دروب القوافل فى الصحراء الكبرى ، ولكن الدليل على ذلك ينحصر فى احتمال وجود بعض عناصر ومؤثرات فينيقية فى هذه المنطقة وفى وجود بعض الخرز القديم الذى

يعتز به بعض السكان الحاليين لأنه من المحتمل جدا أن يكون بعض التجار الفينيقيين قد وصلوا الى شاطىء افريقيا الغربي.

أما فى المنطقة الشرقية من القرن الافريقى فقد ظهرت الحضارة الحبشية في بداية العصر المسيحى . تلك الحضارة التى تأثرت فيما يبدو بالحضارة الاغريقية — الرومانية التى نمت وتطورت خلال العصر البطلمى والعصور الرومانية فى بلاد النوبة ، كما استمدت أيضا الشيء الكثير من عناصر الحضارة الهندية . ويذكر كتاب دليل البحر الأحر Start الشيء الكثير من عناصر الحضارة أن بعض التجار الهنود قد استقروا فى بلاد الصومال ابان القرن الأول الميلادى . كما أن الأحباش اعتنقوا المسيحية فى القرن الثالث الميلادى وبهذا وقعوا تحت تأثير بيزنطة — وهو التأثير الذى لا يزال ظاهرا فى فنونهم وفى طقوسهم الكنسية (۱) . وبالرغم من وجود الكثير من الآداب الحبشية فان الشيء القليل منها هو الذى وصل الى أيدى علماء الغرب ، ومن المشكوك فيه أن تكون ذات فائدة كبيرة فى القاء الضوء على تطور الحضارة الحبشية حتى بعد ترجمتها .

لقد زارت أرض الصومال بعثة مصرية واحدة على الأقل ، وهى البعثة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ولكننا لا نعرف على التحديد الزمن الذى استمرت فيه هذه الصلة (٢) . لقد ترك لنا البطالمة الشيء الضئيل من المعلومات عن سواحل افريقيا الشرقية وهى المعلومات التى

 ⁽١) صلة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية وطقوسها أقوى وأهم من صلتها
 بكنيسة بيزنطة ٠

 ⁽۲) لم تبدأ صلة مصر بيلاد پونت (وهى تشمل الصومال واريتريا وجنوبى الجزيرة العربية) فى عام ١٥٠٠ ق٠م بل قبل ذلك بأكثر من ألف سنة فى عهد الأسرة الخامسة المصرية واستمرت وقتا طويلا بعد عهد حتشبسوت ٠

⁽ المترجم)

أشرنا اليها آنها وهى دليل البحر الأحمر. ومع ذلك فان أكثر المواد التى لها قيمة تذكر فى دراسة الحضارة هى تلك القصص التى خلفها لنا الرحالة سواء منهم العرب أو البرتغاليون منذ القرن الثالث عشر ، وهى القصص التى نفهم منها أن الأحوال فى تلك الأيام كانت مثل الأحوال السائدة فى نفس المنطقة حتى عام ١٩٠٠ ميلادية على وجه التقريب.

وأخيرا ، فان مصر تقف وحد<mark>ها بعيدة عن التيار العام الذي سلكته الحضارة الافريقية ، ونظرا لأن الحضارة المصرية من أقدم وأهم حضارات العالم فانها تستحق فصلا خاصا بها.</mark>

الفضل الناسع والعشيرون

ان التاريخ المصرى والحضارة المصرية كانتا موضع البحث العلمى على أيدى العلماء المختصين لأكثر من قرن كامل من الزمان ، ولذا لا نعجب اذا ما وجدنا أن معظم المكتبات قد اقتنت الكثير من الكتب القيمة التى تعالج هذين الموضوعين . ولهذا سنقتصر في هذا الفصل على مناقشة تلك النواحى من الحضارة المصرية ذات الأهمية بالنسبة للتطورات الحضارية في العالم خارج مصر .

فلقد اقترض جيران مصر الأسيويون من حضارتها ، دون تحفظ أو خجل ، الشيء الكثير ، كما اقترض الاغريق من حضارتها ما شاءوا أن يقترضوا ، ولكنهم أخذوا ما استطاعوا رؤيته دون أن يكبدوا أنفسهم مشقة فهمه . وبالرغم من أن الحضارة المصرية قد استمدت جذورها من نفس المصدر الذي استمدت منه حضارات جنوب غربي آسيا في العصر النيوليتي وهي الحضارات التي كانت الأصل الذي تفرعت منه حضارات أوراسيا ، فان الحضارة المصرية اتخذت في تطورها سبيلا خاصا بها يشعر به الدارس الحديث كما شعر به التخذت في تطورها سبيلا خاصا بها يشعر به الدارس الحديث كما شعر به اليومية . وقد ذكر هيرودوت أن المصريين من أغرب المخلوقات البشرية ، وأنهم كانوا كانوا يفعلون عكس ما يفعله الناس ، وأنهم ذهبوا في ذلك الى أنهم كانوا يدخلون المنازل لقضاء الحاجة بدلا من أن يستخدموا الشارع لهذا الغرض كما يفعل المتحضرون ، أي الاغريق .

أما السبب في وجود هذا التباين فهو في حد ذاته مشكلة طريفة ، فان الشعب المصرى ، والحضارة المصرية أثناء تطورها ، قد امتصا دون شك عناصر كثيرة كانت تتميز بها الشعوب التي كانت تقطن المنطقة قبل العصر النيوليتي . غير أن هذا كله لا يفسر الكثير من هذه المفارقات لأن بعضها كان تتيجة للظروف الجغرافية المحلية . فأرض مصر ليست الا وادى نهر النيل ، أى تلك الواحة المستطيلة التي تمتد مسافة ٥٧٥ ميلا من الشلال الأول حتى البحر ، وتمتد من الشرق والغرب حبثما وصل فيضان النبل، وما عدا ذلك فهو صحراء جدباء قالو ا عنها انها مملكة « ست » عدو الاله « أوزيريس » واهب الحياة . وخمسمائة الميل الأولى من وادى النيل ليست الا أخدودا لا يزيد اتساعه عن اثني عشر ميلا ، أما في المائة والخمسة والسبعين من الأميال التالية فان الوادي يصبح شبيها بمروحة منشورة تتخللها المستنقعات ويسير ببطء فيها النهسر بطيئا وفى فروع متعددة . ويختلف نهر النيل عن كل الأنهار الأخرى ذات الأهمية التاريخية ، اذ يجرى من الجنوب الى الشمال كما تقع مصر العليا جنوبي مصر السفلي

وتتبخر مياه الفيضان بسرعة وبالرغم من أن الوثائق المصرية القديمة قد ذكرت سقوط بعض الأمطار من آن لآخر فى مناطق لا تسقط فيها الأمطار فى الوقت الحاضر فان الزراعة لا يمكن مزاولتها دون تنظيم للرى ولقد قامت فى مصر قبل فجر التاريخ الحكومات التى استطاعت تنظيم العمل الجماعى اللازم لحفر القنوات وبناء السدود ، والتى كانت تملك الحق فى تسوية المنازعات التى لا يمكن تفاديها حول حقوق الماء .

ويبدو أن هذه الحكومات قد ظهرت أول ما ظهرت فى منطقة الدلتا حيث كانت أعمال الصرف والرى من الأمور المطلوبة ، ولكن استقلال المقاطعات عن بعضها البعض واشتراكها جميعا فى مياه نهر واحد قد أمدها بدافع قوى للوحدة فى دويلات أكبر.

هذا وتعتبر مصر الأرض <mark>المثالية بالنسب</mark>ة للباحث الأثرى الذي يهتم بالعصور التاريخية . فهناك عدد لا يحصى من النقوش بل ومن المخطوطات (البرديات) التي ساعد جو مصر الجاف على حفظها هي وغيرهـــا من المواد الهشة أن تمس بسوء. كما أن اعتقاد المصريين الراسخ في حياة أخرى بعد الموت ، تشبه حياتهم في هذه الدنيا ، ومحاولتهم تجهيز من يموت منهم بكل ما يلزمه لتلك الحياة ، كان سببا في حفظ الادوات التي كان يستخدمها في حياته اليومية حفظا تاما. بيد أن الموقف بالنسبة للباحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ ليس ، مع الأسف ، باعثا على الرضا ، وذلك لأن الرواسب السنوية من طمى النيل قد أخذت تتراكم في الوادي بالتدريج الى أن دفنت آثار المحلات السكنية من العصر الباليوليتي والعصر النيوليتي تحت رواسب ضخمة من الطمى سمكها لا يقل عن بضعة أمتار . ان معظم معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ قد أتى الينا عن طريق المواقع الأثرية على حافة الوادى ، وعلى الأخص من الجبانات ، حيث كان الميت يدفن بعيدا عن حافة الأرض المزروعة وبعيدا عن متناول الفيضان.

وبالرغم من أن أقدم الأشياء الأثرية قد أخذت تصل الينا بالتدريج ، فهناك نقط كثيرة ما زالت موضع نقاش وجدل بين العلماء ، ولم نصل الى تتيجة نهائية بشأنها . ففى الفصل السابق ناقشنا موضوع ما قبل التاريخ فى افريقيا متحدثين عن القارة كلها بوجه عام . أما فى مصر فقد أعقبت حضارة بلطة اليد حضارة الشطفة أى الحضارة الاتيرية (Aterian) ، وهى تذكرنا بالعصر الباليوليتى الوسيط فى أوربا . وبعد هذه الحضارة أعقبتها حضارة أخرى وهى الحضارة السبيلية (Sebilian) وهى حضارة ميكروليتية تشبه تلك الحضارات التى بقيت فى ربوع الهضبة الأفريقية الى عصور قريبة نسبيا . وحوالى عام ١٠٠٠ ق . م جلب المهاجرون الأسيويون معهم بعض النباتات والحيوانات المستأنسة والتكنولوجيا النيوليتية . أما فى الدلتا فقد

زرع سكان مرمدة القمح والشعير وكانت لديهم الماشية والأغنام والماعز ، وكانوا يستخدمون مناجل خنسية ذات حواف ثبتوا فيها شطفات من حجر السوان (الظران) واستخدموها في حصاد القمح الذي كانوا يعزنونه في صوامع مضفورة من الحصير . كانوا شعبا مستقرا ويعيش في قرى مسورة مكونة من أكواخ بيضاوية الشكل هيكلها من الخشب ، وكانت أوانيهم الفخارية من نوعين : أولهما بسيط غير مزخرف يستخدم لطهى الطعام ، وثانيهما أوان حسنة الصنع ذات لون أحمر أو أسود . وكانوا صناع أحجار مهرة ، وكان من بين مصنوعاتهم ألواح من « الاردواز » كانوا يستخدمونها لصحن ومزج الألوان التي كانت تستخدم في تزيين جسم « الانسان » كما كان من بينها فؤوس حجرية مصقولة وسكاكين متقنة الصنع الى حد كبير ، فضلا عن سنان السهام المصنوعة من حجر الظران ، كما كانوا يصنعون أيضا شصوصا لصيد الأسماك ومخارز من العظم ، ولم يأت عام ١٠٠٠ ق . م

أما فى مصر العليا فقد ظهرت حضارة نيوليتية أخرى ، وهى حضارة « تاسا » التى كانت أقل تقدما من حضارة مرمدة ، وقد ظهرت بعدها بوقت قليل.

كان التاسيون يعيشون حياة نصف بدوية أو على الأقل كان أهلها يعيشون فى معسكرات مكشوفة فى أكواخ بسيطة جدا وواهية فلم تترك وراءها الا القليل من البقايا. واذا ما طرحنا هذا جانبا نجد أن طريقة صناعتهم (تكنولوجيتهم) كانت تشبه طريقة أهل مرمدة . أما أهم أوجه الخلاف فقد كانت تنمثل فى الأوانى الفخارية التى كانت سوداء اللون ومزخرفة برسوم بيضاء تشبه زهرة الخزامى فى شكلها . ومع أنه ما من شك فى أن أسلاف كل من الفريقين قد وفدوا من جنوب غربى آسيا ، فان أسلاف المرمديين قد عبروا برزخ سيناء فى حين وصل أسلاف التاسيين الى مصر العليا عن طريق البحر

الأحمر متخذين الطريق البرى ولم يتخذوا طريق نهر النيل.

واتحدت مصر السفلي تحت امرة حاكم واحد حوالي عام ٤٥٠٠ ق . م . وقهرت مصر العليا بعد ذلك بنحو مائتين وخمسين عاما ، وقد أمكن تحديد هذا التاريخ بدقة كافية على أساس التقسويم المصرى الذى كانت الدورة السوثية التي تتألف من ١٤٦٠ عاما احدى وحداته . بدأت أولى هذه الدورات فى ذلك الوقت على أساس الملاحظات الفلكية فى كل من منف وهليوبوليس على حدود مصر العليا ، ولم يعش الغزو الشمالي وقتا طويلا لأن كلا من القسمين عاد الى استقلاله حوالي عام ٠٠٠٠ ق. م ، ومنذ ذلك التاريخ حتى بداية عصر الأسرات حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م لا تعرف الا القليل عن حضارةا مصر السفلى (١) . ومع ذلك فقد ازدهرت في مصر العليا حضارة غنية وهي حضارة البدارى التي نعرف عنها أكثر مما نعرفه عن أي حضارة أخرى من عصر ما قبل الأسرات لأنها كانت قوية وملأى بالحيوية ، ويبدو أن صلاتها المتكررة بآسيا كانت سببا في الدفع بها نحو التقدم . وكانت حضارة جرزة ، وهي احدى صورها ، معاصرة على ما يظهر لغزو أسيوي أدخل الى البلاد ، التي كان سكانها من ذوى الرؤوس المستطيلة ، عنصرا من ذوى الرؤوس المستديرة . ومما هو جدير بالذكر أن الغزاة قد وفدوا عن طريق البحر الأحمر متخذين الطريق البرى دون النيــل.

كانت فترة سبعمائة العام التى انفصلت فيها الدلتا عن الصعيد صاحبة الفضل فى ارساء قواعد الحضارة المصرية التى عرفناها فيما بعد. وكان السكان لا يزالون يعيشون فى أكواخ بيضاوية الشكل مثل تلك التى كان يعيش فيها

⁽۱) وهنساك رأى آخر بأن مدة انفصال الصعيد عن الدلتا لم تكن الا فترة قليلة ، وربما حدث الاتحاد الثانى فى أعقاب الشسورة التى قام بها الصعيد فحرر نفسه ثم ضم الدلتا اليه وأصبح الملك « منا » الذى كان ملكا على الصعيد ملكا على شطرى الوادى وأسس الأسرة الأولى •

سكان مرمدة اذ لم يكونوا قد اكتشفوا بعد كيفية البناء بمواد تبقى على الزمن ، وان كانوا قد تعلموا كيف ينسجون الكتان وكيف يصهرون ويصبون النحاس وكيف يصنعون « الفيانس » ذا اللون الأزرق الضارب الى الخضرة وعمل المينا الخزفية من البلور الصخرى المسحوق. لقد كانت هذه الصناعات التى سبقت ومهدت السبيل لصناعة الزجاج أحد المخترعات المصرية التى ظهرت فيما بعد . وكانوا يصنعون أيضا أوانى فخارية حمراء ذات حواف سوداء ويرجع وجود هذين اللونين في الاناء الواحد الى اختلاف طريقة الحرق . وكانت صناعة الأدوات المصنوعة من العظم والعاج متقدمة جدا وكثيرا ما احتوت المقابر على تماثيل صغيرة لنساء عاريات مصنوعة من تلك المواد . وأصبحت ألواح الاردواز أكثر فخامة وحسن صناعة وظهرت في زخارفها البداية الحقيقية للتقاليد المصرية التى عرفناها بعد ذلك .

وكان الموتى يحملون الى منطقة بعيدة عن متناول مياه الفيضان ، ويدفنون فى حفر بيضاوية الشكل مجهزة بأثاث جنازى متقن الصنع . كانت الجثة توضع على أحد جانبيها مع ثنى الركبتين وتغطى بالحصير ، وكان لدفء الرمال ، التى كانت سرعان ما تحيط بالجثة ، وجفافها التام ، الفضل فى حفظ تلك الجثث اذ حنطتها تحنيطا ناجحا أكثر من أى طريقة أخرى معقدة ظهرت فيما بعد ، وما من شك فى أن هذه العملية كانت العامل الرئيسى الذى أوحى الى المصريين بأفكارهم الخاصة بحفظ الجسد .

هذا ولم يحل عام ٣٢٠٠ ق. م حتى كان لكل من شطرى مصر ملكه وبلاطه ورموزه الملكية وآلهته الوطنية. كان لمصر العليا التاج الأبيض ، وكانت تحرسه الالهة نخبت التى كانت على صورة الرخمة (النسر المصرى) ، كما كان نبات الد « سوت » (الحلفة) هو الرمز الخاص بها. أما مصر السفلى فقد كان التاج الأحمر خاصا بها وكانت الالهة « واچيت » الهة « بوتو » ، وهى على صورة ثعبان الكوبرا ، حامية لها ، أما شعارها فكان النحلة . وظلت الاختلافات بين

الشمال والجنوب باقية على مدى عصور التاريخ المصرى وأخذت هذه الاختلافات تكثر حتى لم تعد مقصورة على التنظيمات السياسية وحدها. ويشبه ذلك فى بعض الوجوه ما يوجدمن بين الاسكتدلانديين والانجليز. كان سكان مصر العليا كثيرى الاحتمال للمشاق يميلون الى التنازع ولا يقبلون على الترف بنفس راضية وأشداء فى تمسكهم بالحق. وكانوا من وجهة النظر المصرية قوما محبين للحياة المتطهرة. أما سكان الدلتا فقد كانوا مرحين مهرة يميلون الى اللهو وينزعون الى التجديد ، وكانوا أكثر ميلا الى معارك الفكر منهم الى معارك السلاح ، ولهذا كانوا ينظرون الى سكان الصعيد على أنهم همج غير متمدنين ويسخرون من لهجتهم الخشنة وأساليبهم غير المنمقة.

وحتى فى الوقت الذى اتحدت فيه المملكتان تحت امرة « منا » ذلك البطل الفازى الذى نشأ فى الجنوب ، فقد وجد من الحكمة السياسية ألا يحاول توحيد الحكومتين توحيدا تاما ، بل كان يحكم كملك لمصر السفلى ثم كملك لمصر العليا ، تماما كما كانت الحال فى أوروبا عندما كان الشخص نفسه امبراطورا للنمسا وفى الوقت ذاته ملكا للمجر . كان لفرعون قصر وهيئة موظفين فى كل من مصر السفلى ومصر العليا (۱) ، وكان فى بعض الأحيان يحكم كملك على الجنوب وأحيانا أخرى يحكم كملك على الشمال . وكان يدل على صفته فى كل من تلك المناسبتين التاج الذى يضعه على رأسه ، اذ كان يضع التاج الأبيض تارة والتاج الأحمر تارة أخرى .

وتميزت الفترة التى أعقبت توحيد شطرى مصر مباشرة بالتقدم الحضارى السريع ، اذ أن مصر كانت ما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٢٥٦٠ ق . م مركزا لاحدى القفزات الحضارية التى ما زالت معرفة أسبابها من المشاكل الرئيسية التى

 ⁽١) لا يوجد في النصوص ما يؤكد وجود قصرين وهيئتي موظفين ، بل كانت هناك ألقاب للموظفين تدل على أعمالهم الموكولة اليهم •

تواجه الباحثين فى تطور الحضارات. لقد بلغت التكنولوجيا المصرية خلال الخمسمائة عام الأولى من هذا العصر شكلها النهائى فى كل الميادين ما عدا العمارة. كان الصناع المتخصصون الذين كانوا يتمتعون بمساعدة الطبقة العاكمة ينتجون الأوانى الجميلة الشكل المصنوعة من أكثر الأحجار صلابة فضلا عن العدد الكبير من الأوانى النحاسية الجميلة الصنع والحلى المصنوعة من الذهب أو من حجر اللازورد أو حجر الفيروز. وأهم من هذا فقد ظهر المحراث فى أول عصر الأسرات. ونحن لا نعرف ما اذا كان المحراث اختراعا محليا أو انهم استعاروه من آسيا. لقد خفف استخدام المحراث كثيرا من مشاق الزراعة وأطلق القوى البشرية التى كانت تستنفد فى الحقول حتى ذلك الموت من عقالها ، ودفع بها الى ميدان المشروعات الوطنية الأخرى .

وأخذت الكتابة الهيروغليفية صورها النهائية (انظر الفصل التاسع) وأصبحت جزءا متمما للشعائر الدينية والأعمال الحكومية ولم تعترها تغييرات تذكر بعد ذلك الوقت . ويبدو أنه قد حدثت في الوقت نفسه ثورة عارمة في كل ميادين النشاط الفكرى اذ أن أولى الأبحاث ذات الصبغة العلمية التي تتناول تشخيص ومعالجة الأمراض والكسور ترجع في تاريخها الى ذلك الوقت. ونظموا أمور الدين وتبلورت الطقوس الكثيرة الخاصة بالمعابد والقصر وأخيرا تمكنت الطبقة الحاكمة من الوصول الى نظام من أكثر النظم السياسية التي ظهرت في العالم حتى يومنا هذا تركيزا وتنسيقا . وفي ختام هذا العصر تقريبا شيدت أهرام الجيزة العظيمة ، ويمكن للمرء أن يدرك عظمة هذه المباني لو أنه عرف أنه أقدم وأضخم وأعظم ما شيدته يد الانسان ، قِد شيد بعد أقل من مائتي عام من المحاولة الأولى التي بذلها المصريون لاستخدام الحجر في أي نوع من أنواع البناء . لقد استخدمت أبسط الأدوات في بناء الأهرام ، وهي الطرق المنحدرة والدرافيل (الاسطوانات) والعتلات (الروافع) . أما البكرة فلم تكن معروفة في ذلك الوقت ، ولهذا فان الأهرام تعتبر اتتصارا للمثابرة وللقوة البشرية دون غيرها . كما أن عملية تنظيم وتموين هذه القوة الهائلة المستخدمة فى البناء عاما بعد عام كان عملا اداريا من الطراز الأول . لقد قيل ان عامة الشعب من المصريين كانوا متحمسين لهذا النوع من العمل لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يبنون بيت الاله الذي يعتمد عليه مستقبل رخاء الأمة .

ولكن بالرغم من ذلك لم يكن لهم الاحظ ضئيل من الاختيار لأن الفلاحين المصريين في ذلك الوقت كانوا رقيقاً للأرض ، أي تابعين للأرض التي يعملون فيها ومنظمين في وحدات مثل الوحدات العسكرية تحت امرة ملاحظين كانت مراكزهم تشبه مراكز صف الضباط فلهذا كانوا معرضين للذهاب للعمل في الأشغال العامة وأعمال المحاجر والحملات العسكرية ، ويظهر أنهم كانوا ينظرون الى كل واحدة من هذه الحرف الثلاث أنها على قدم المساواة مع أختها . وسيطرت على آخر أسرتين في عصر الدولة القديمة (الأسرتين الخامسة والسادسة) رغبة ملحة لغزو بلاد النوبة فشنتا حملات مستمرة على سكان تلك البلاد. وكان هذا العمل بالاضافة الى العمل غير المثمر الذي يتمثل في تشييد الأهرام والمعابد قد استنفد صبر المزارعين كما استنفد موارد بلادهم وأدى في النهاية الى انهيار الدولة القديمة حوالي عام ٢٢٨٠ ق . م وما تلا ذلك من انهيار سياسي وفوضي . وعندما ظهرت الى الوجود حكومة مركزية قوية فى عام ٢٠٥٢ ق . م كان العامة قد نالوا حريتهم ولم يظلوا عبيدا للأراضى . وبالرغم من أنهم كانوا لا يزالون تحت رحمة جامعي الضرائب الملكية وأنهم فى أغلب الحالات كانوا مستأجرين لأراضى المعبد أو أراضى الملك ، فانهم كانوا يتمتعون بقدر كبير من الحرية التي ظلوا محتفظين بها فيما بعد. وأهم من أي شيء آخر ، كان في استطاعة الأفراد العاديين أن يرتفعوا في هذه الحياة . وكم من موظف كبير افتخر في النقوش التي خلفها من بعده بأنه كان رجلا عصاميا ابن رجل من الطبقة المتوسطة أو من أبناء الفلاحين. وكان على الموظف الطموح ألا يقتصر على أداء واجبه أداء كاملا فحسب ، بل عليه أن يتحبب

وأن يتودد الى رؤسائه ، وذلك لأن كل الثروة والجاه كانت تتسلسل الى أسفل ، منحدرة من أبهة فرعون .

وأهم ما أسهمت به مصر في ميدان التقدم الحضارى في العلم كان في ميدانى التكنولوجيا والدين. وكانت نظمها الحكومية ذات طابع جامد تتخلله الى حد بعيد النظم اللاهوتية ، فجعلت من هذه النظم شيئا غير مقبول خارج وادى النيل. ولم يكن متوقعا من الفلاحين الذين اعتادوا الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الخارجية أن يلتزموا دائما جانب الأدب مع كل فرد من هذا العدد الهائل من الكهنة والموظفين. كما أن الأمن النسبى الذي تتمتع به مصر والذي ساعدها على الصحراوات التي تكتنفها ، كان من الأسباب التي جعلت في الامكان وجود نوع من الحكم المطلق لم يكن في الامكان فرضه في مكان

وكان المصريون بحق أمهر الصناع فى العالم الذى سبق العصور الكلاسبكية ولم يحل عام ١٥٠٠ ق. م حتى كانوا يعرفون طريقة مزج النحاس بالقصدير لينتجوا البرونز. كما كان لاستخدام المنفاخ فى ذلك الوقت أثره العظيم فى تسهيل عملية الصهر ، وكانوا يعرفون أكثر المعادن العادية التى نعرفها الآن. كان الحديد نادرا قبل عام ١٠٠٠ ق. م وحتى فى ذلك الوقت لم يحصل عليه المصريون بصفة رئيسية الا عن طريق التجارة. والكلمة المصرية القديمة للحديد هى « معدن السماء » الأمر الذى يثبت انهم بدأوا باستخدام حديد الشهب. أما الذهب فقد كان متوافرا فى مصر آكثر من أى بلد قديم آخر الشهب. أما الذهب فقد كان متوافرا فى مصر آكثر من أى بلد قديم آخر اذ كان يستخرج من عروق الكوارتز التى تحتوى الذهب ، وهذه العروق تتخلل أحجار الجرافيت المحلية ، فضلا عن أن هذا المعدن كان يزسل كجزية من بلاد النوبة أيضا . وكان المصريون يقدرون كثيرا معدن الالكتروم وهو مزيج طبيعى من الذهب والفضة ، بينما كانت الفضة فى حد ذاتها نادرة جدا ، مزيج طبيعى من الذهب والفضة ، بينما كانت الفضة فى حد ذاتها نادرة جدا ،

من المصريين فى ذلك الوقت لا يمكن أن يصنع خيرا منه أى صائغ فى العصر الحاضر. لقد كانوا على علم تام بفنون صياغة الذهب كلها فيما خلا التذهيب بوساطة استخدام التيار الكهربى. وتفوقوا فى صناعة المينا كما عرفوا طريقة صنع الزجاج الملون ذى الألوان المختلفة ، وأكثر ما استخدموه فيه هو عمل الخرز والتطعيم. هذا ، ويبدو أن طريقة نفخ الزجاج قد تقدمت وتطورت خارج مصر ، ربما فى سورية (١).

وكان الخشب نادرا في وادى النيل منذ أقدم العصور ، وكان يستورد من سورية ولبنان حتى في أيام الدولة القديمة ، وقد أدت ندرة وجود الخشب والحاجة الى استخدام أصغر القطع الى تطور مدهش فى صناعة النجارة الدقيقة وعمل الأثاث . ان جميم التعشيقات المختلفة التي يستخدمها النجارون الآن كانت معروفة لديهم ، وكان المصريون مهرة خبراء في عمليات تطعيم الخشب بالصدف أو العاج أو وضع قشرة من الخشب فوق خشب آخر ، فضلا عن أنهم كانوا أول من أدرك الامكانيات الجمالية لخشب الأبنوس ، واستخدام هذا الخشب الصلب السهل الكسر. كما أنهم تقدموا الى درجة كبيرة في التطعيم بالعاج والصدف ، وكانوا أول من دبغ الجلود واخترعوا الطريقة التي ما زالت مستخدمة في معظم أرجاء العالم حتى الآن. وكانوا أول من عمل رسوما على الجلد ولا تزال مدية السروجي الحديث تصنع على غرار المدى المصرية القديمة أما من ناحية المنسوجات فقد نسجوا الملابس الكتانية بفن ومهارة لا تقل في روعتها عن تلك التي تنتجها المغازل الحديثة . كما عرفوا الصوف وان كانوا لم يستخدموه الا نادرا ، وان حظر دخول الملابس الصوفية الى المعابد يثبت عدم مصرية أصله . أما المنسوجات القطنية والحريرية فلم تكن معروفة لديهم (٢) .

⁽١) عرفت مصر صناعة الزجاج وعمل الأوانى منه بطريقة النفخ منذ الأسرة الثانية عشرة أى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ٠

⁽٢) لم يعرف المصريون القطن مُنَّــذُ بدء حضارتهم ولكن من المُحتمل أنه كان معروفا لديهم منذ القرن السادس قبل الميلاد · (المترجم)

غير أن هناك عنصرا آخر من التكنولوجيا المصرية يستحق الذكر . كان المصريون ينزعون الى استخدام الوسائل الصناعية للتجميل كما يفعل الأمريكيون الآن . وكان الأطباء يعتبرون مد الناس بمثل هذه المساعدات جزءا متمما لنشاطهم . وتحتوى البرديات الطبية على وصفات لازالة التجعيدات وصبغ الشعر الأبيض ، وكان الكحل يستخدم في اطالة الحواجب وفي رسم خطوط على الجوانب الخارجية من العين وكان الكعل المستخدم للعين من نوعين : نوع أخضر وهو مصنوع من الدهنج (الملخيت) ونوع رمادي وهو مصنوع من أوكسيد الرصاص . أما المغرة الحمراء فكانت تستخدم في طلاء الشفاه والخدود ولكن دون مغالاة . أما الأظافر ، وراحتا اليدين وباطن القدم ، فقد كانت تصبغ بالحناء. وكان الرجال والنساء يرتدون الشعر المستعار المصنوع من الشعر البشرى الذي كانوا يصبون فوقه شمع النحل المذاب، وكان أفراد الطبقات العليا يحتفظون بعدد من الجامات (الشعر المستعار) للمناسبات المختلفة . أما النساء فكن يضعن الشعر المستعار فوق شعرهن الطبيعي بعكس الرجال الذين كانوا يحلقون كلا من شعر الرأس والذقن . وكان الجنسان يشتركان في ازالة شعر الجسد ، أما اللاتي كن يرغبن في بلوغ أقصى درجات الأناقة فكن يطلين نهودهن بلون الذهب ويطلين حلمة الثدى باللون الأزرق.

كان المصريون على ما يبدو أول من فكر فى عمل الروائح العطرية الزيتية ، وهى ما زالت مستخدمة فى الشرق الأوسط ، وكان كل من النساء والرجال يحرص على نعومة جلده وذلك بتدليكه بالزيت . أما فى الحفلات فقد كان من عادة المضيف أن يضع فوق رأس كل ضيف من ضيوفه مخروطا من الشحم المعطر الذى كان يذوب بالتدريج بفعل الحرارة المنبعثة من صالة المأدبة ، ويسيل على وجه الضيف وعلى جسده . وكان الرجال والنساء يتحلون بأدوات الزينة وأهمها عقود كبيرة من الخرز ذات ألوان مختلفة فضلا عن الأقراط الضخمة .

وقد بذل الصناع المصريون الكثير من الجهد في صنع أدوات الترف اذ ان الاقبال الشديد عليها ، والمنبعث من عادة دفنها مع الموتى ، كان له تتيجة غريبة . كانت مقابر الفراعنة والنبلاء تزخر بكنوز الذهب والأحجار الكريمة ، • وبالرغم من أن لصوص المقابر قد أعادوا جزءا منها للتداول الا أن العرض لم يكن يفي أبدا بالطلب. ولما كان غش الموتى شيئا سهلا فقد أخذ الصناع في تقليد الأدوات الذهبية ، وذلك اما عن طريق طلاء المعدن بالذهب ، أو عن طريق معالجة سطحه مما جعل أحط أنواع المعادن تبدو كما لو كانت ذهبا وكان للجهود التي بذلت في تقليد المواد ذات القيمة وعمل بديل لها ، فضل كبير فى ظهورهم علم السيمياء وهو الأصل فى علم الكيمياء الحديث. وأقدم النصوص السيميائية يرجع تاريخها الى عهد البطالمة ، ولكنها تشتمل ، على الأرجح ، على نصوص ترجع في تاريخها الى عهود أقدم وهي وصفات لعمل سبائك معدنية أو لجعل سطح بعض المواد يبدو كما لو كان من الذهب. ومما يستحق الذكر أن نفس النصوص الآنفة الذكر قد اشتملت على وصفات لعمل أصباغ تشبه صبغة مدينة صور الأرجوانية الغالية الثمن . وبذلك ظهر علم السيمياء للبحث عن بديلات رخيصة لمواد غالية الثمن ثم دخله الكثير من التعقيدات وتحول الى بحث غامض عن حجر الفلاسفة بعد أن تلقفه فلاسفة الأفلاطونية الجديدة من أيدى الصناع.

أما بالنسبة للرجل الغربي الحديث الذي نما وترعرع في أحضان المنطق الاغريقي التقليدي ، وفي ظل الفلسفة القائلة بالسبب والنتيجة ، فان الديانة المصرية تبدو غير مفهومة . وتبعا لميله الشخصي فانه سيفسر محتوياتها كعبث صبياني أو كلمحات من علم مستتر لا يمكن أن يعرفه الا أولئك الذين سبق أن كشفت لهم غوامضه . والحقيقة أنه ليس لأى من الغرضين نصيب من الصحة لقد لخص مرة أحد الحكماء المشتغلين بالطب من رجال الاسكيمو علاقة قومه بقوى ما فوق الطبيعة قائلا « اننا لا نعتقد ، بل اننا نخشى » وقد يلخص بقوى ما فوق الطبيعة قائلا « اننا لا نعتقد ، بل اننا نخشى » وقد يلخص

المصرى مثل هذه العلاقة بقوله ﴿ اننا لا نعتقد ولكنا نمسكها بأيدينا ﴾ فنحن نعرف أسماء ما يزيد على ألفي اله من آلهة المصريين ، الا أننا لا نعرف واحدا من بينها نظر اليه عباده بعاطفة حقيقية ، أو شعروا أمامه بأنهم لا حول لهم ولا قوة . فكل اله منها يمكن مراوغته والسيطرة عليه اذا تمكن الانسان من معرفة الكلمات التي من شأنها أن تمده بالقوة اللازمة . ولا يمكننا تصنيف الآلهة المصرية واطلاق لفظي صالح أو شرير على أي منها . حتى الآله ست ، قاتل أخيه أوزيريس وسيد الصحراء ، لم يكن بأية حال مشابها للشيطان لدى المسيحيين . كان هذا الاله السيد القديم لبعض الأقاليم في كل من مصر العليا والسفلي ومن ثم كانت عبادة سكان هذه الأقاليم له أمرا مؤكدا ، كما كان هذا الاله نفسه يحتل مركزا مرموقا بين المحاربين الذين يدافعون عن الاله رع اله الشمس ، بل كان هو نفسه يعبد على أساس أنه اله للحرب. كانوا يتضرعون للاله طلبا للمساعدة في أغراض أخلاقية أو غير أخلاقية ، وكانت الطقوس الدينية التي تمارس في المعابد تعاويذ وصلوات كما كانت مظاهر للعبادة . وكان المصرى القديم يميل الى معرفة الطرق والأساليب التي يمكن بوساطتها السيطرة على آلهته ، ويستخدم قوتها لمصلحته الخاصة أو لمصلحة الجماعة . ولم يكن يميل أبدا الى البحث في المشاكل الخاصة بأصل الآلهة أو حقيقة طبيعتها ، ولهذا السبب لم يستطع أبدا أن يصل الى نظام لاهوتي متماسك بل اذ الأساطير المصرية في مجموعها أساطير غير منطقية ومتناقضة . ويبدو أن المصريين يفضلون عدة أساطير تشرح جميعها ظاهرة واحدة أكثر من أسطورة واحدة محددة.

وبينما يمكس هذا النقص فى التوافق المنطقى اتجاههم فى التفكير ، فان العوامل التاريخية ساعدت على ذلك أيضا . كانت مصر مكونة من ٤٢ اقليما كانت فى الأصل مجموعات مستقلة سياسيا وكانت دائما تحتفظ ببعض الاختلافات الحضارية الضئيلة . وكان لكل اقليم فى البداية مجموعة كالهته

الخاصة به . وكان سكان هذا الاقليم ينظرون الى اله منها ، أو أكثر من اله واحد ، على أنه حارس الاقليم الخاص ، وكانوا يرفعون اليه الجانب الأكبر من عبادتهم ، وحتى بعد تدعيم مصر سياسيا احتفظت آلهة الأقاليم بولاه أبناء أقاليمهم . وكانت المجموعات الالهية المختلفة منظمة على نسق واحد تقريبا اذ كان كل منها يحتوى عددا من الآلهة يقومون بأعمال متشابهة ، وهو الأمر الذى سهل ادماج الآلهة ، أى امتزاج عدة آلهة فى شخصية اله واحد . وعلى أى حال فقد كان المصريون غير راغبين فى التنازل عن أى قصة من تلك القصص التى ارتبطت بالآلهة المحلية المختلفة ، وكنتيجة لهذا ، أصبح فى الامكان سرد العشرات من الأقاصيص المختلفة والمتناقضة ، والتى تدور كلها حول كائن واحد ، كما استمرت أيضا الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة المحلية الأمر الذى أدى الى سلسلة لا تنتهى من المتضاربات والمتناقضات .

كانت أهمية الآلهة ترتفع وتنخفض تبعا لارتفاع وانخفاض أهمية مدنهم أو أقاليمهم ومع ذلك ، فقد كانت هناك بعض المراكز التى احتفظت آلهتها بنفوذها فى كل عصور التاريخ المصرى فشلا كان الآله رع ، أو آتوم ، أو رع آتوم ، — اله هليوپوليس — هو أقدم الآلهة الرئيسية . كان رع آتوم الها للشمس وخالقا للعالم ، وكان يمثل دائما فى صورة انسان ، وكان يرأس فى عقيدة هليوپوليس مجموعة تتكون من ثمان آلهة تشتمل على أوزيريس وايزيس أما ابنهم حورس فقد كان على رأس مجموعة تتكون من تسعة آلهة وان كان فى نظر المصريين أنه هو رع — آتوم تحت اسم «حور — اختى » ، وكان يلقب بابن رع ولكن حورس كان فى الواقع يمثل الشمس عند الشروق كما يمثل رع الشمس فى منتصف النهار ، أما أتوم فقد كان يمثل الشمس الفاربة وكان يمثل كرجل متعب متقدم فى السن .

أما فى مدينة هوموپوليس (الأشمونين) فقد كان الآله الرئيسى فيها هو الآله تحوت الذى كان يمثل فى صورة بجسم انسان ورأس طائر الايبس ،

وكان يتحكم فى فصول السنة وفى القمر والنجوم وهو الذى اخترع الكتابة « الهيروغلوفية » ، والحساب ومسك الدفاتر واللغات والسحر والقانون بل وحتى لعبة الضاما ، وكان أيضا رئيسا للوزراء وكاتبا للآلهة ، وكان مثل رع — أتوم خالقا للعالم ، وان كان قد خلقه بطريقة مختلفة ، وكان هو ومن معه من الآلهة مركزا لعقيدة هوموپوليس .

وفى العصور المبكرة وجدت كل من هاتين العقيدتين نفسها وقد دخلت فى منافسة مع عقيدة ثالثة وهي عقيدة « منف » التي كانت تتخذ الاله پتاح اله المدينة الها رئيسيا لها . وتبعا لهذه العقيدة يعتبر الآله يتاح أكثر قدما من الآله أتوم نفسه ، وانه خلق رع — أتوم عن طريق النشاط العقلي المتعمق. وانحدر الآلهة والناس من ذكائه . وكان الاله الصقر ، وهو الآله حورس يمثل قلبه ، أما لسانه فقد كان يمثله اله الحكمة تحوت. وكان پتاح هو الآله الحامى للفنانين والصناع ورجال الأدب، بيد أن العقيدة التى اشتملت على طقوس عبادته كانت من التجريد بحيث لم تحظ بالتأييد العام من المصريين الذين كانوا يمتازون بتفكير مادي واقمى. وأخيرا انتصرت عقيدة هليوپوليس في ذلك النزاع الذي دار بين العقائد الثلاث وذلك لسهولة تطبيقها على العقيدة القائلة بتأليه الملوك، والتي تساوي بين الفراعنة الموتي وبين أوزيريس ، وتساوي بين الأحياء منهم وبين حورس . أما آخر الآلهة الوطنية العظيمة فقد كان أمون — رع اله طيبة . كان الاله أمون رع في الأصل الها غير هام لاقليم الصولجان (اقليم طيبة) ولم يكن الآله الحامي لهذا الاقليم ولكنه وصل الى القوة في عهد فراعنة طيبة. فعندما تم لأولئك الفراعنة السيطرة على كل أرجاء مصر ازداد نفوذه عن طريق فراعنة طيبة بعد ذلك فى كل أنحاء البلاد ، وقويت عقيدته باطراد حتى أضحى كبار كهنته هم الحكام الحقيقيين للدولة ، الأمر الذي حدا باخناتون الملك المارق أن يشن حربا شعواء ضد كهنته هادفا الى الاصلاح الديني ولكنه خسر المعركة. وتختلف عقيدة أوزيريس من نواخ كثيرة عن غيرها من العقائد العظيمة الأخرى . وتنقسم أسطورة أوزيريس الى جزئين لا تجمع بينهما الا المصادفة ، ففي الجزء الأول نجد أنه قد حكم مصر بالاشتراك مع أخته وزوجته ايزيس وكان أخوه ست يهيم بايزيس حبا ، وقد تمكن من قتل أوزيريس بخدعة ووضع جثته في صندوق ورماه في الماء فعام حتى وصل الى شاطيء بيبلوس (جبيل) فى سورية وتبعته ايزيس الى هناك وعادت الى مصر حيث تولى الآله أنوبيس تحنيط الجثة تحت اشرافها . ونزلت روح أوزيريس بعد ذلك الى العالم السفلى حيث أصبح حاكما على الموتى . وأخذت ايزيس الجثة المحنطة الى مكان سرى فى مستنقعات الدلتا حيث حاولت أن تحمل منه (وهي أحدى المتناقضات التي قد يفسرها الاعتقاد في الروح « الكا » بيد أن المصريين أنفسهم ، فيما يبدو ، لم يشغلوا أنفسم بها كثيرا) ثم ولدت في الوقت المناسب الآله حورس. واستطاع ست الذي كان يبحث هو الآخر عن جثة أخيه أن يستكشف مكانها فى غياب ايزيس وأن يأخذها معه ويقطع أوصالها ، ويبعثر أشلاءها فى جميع أنحاء مصر . غير أن ايزيس جدت في البحث عنها حتى استطاعت تجميعها . ولما شب حورس ودخل في طور الرجولة هب للانتقام لأبيه من قاتله ست ونشبت بينهما معركة ولكنها لم تكن حاسمة انتهث بتحكيم اله الأرض « جب » الذي حكم بتنصيب حورس حاكما على الدلتا وست حاكما على الصعيد ، ولكنه عاد فوضع المملكتين تحت سيطرة حورس.

ففى النصف الأول من الأسطورة يظهر لنا أوزيريس كاله للخصب ، له تلك السمات التى تميز آلهة الشرق الأدنى ؛ اذ أن حوادثها تشبه تلك التى كانت تروى عن الآله أدونيس الذى كان الها فى بيبلوس ، وتموز الذى كان الها فى بلاد ما بين النهرين . لقد قتل أوزيريس مثلهما ومزقت جثته ودفنت ثم بعثت للحياة مرة ثانية ، وهى دورة كانت تمثل سنويا فى حصاد القمح ودرسه ثم زراعة المحصول الجديد ونموه .

أما الجزء الثاني من الأسطورة فهو تمثيل للتاريخ المصرى الذي يضفي الألوهية على حكم فرعون. كانت أيزيس مثالًا للملكة الأخت والزوجة الوفية ، فى حين قام حورس بدور الابن الكامل الذي يدافع عن أبيه وينتقم لموته من قاتليه . كما أن التقسيم الأصلي لمصر بين حورس وست ما هو الا ذكرى شعبية للتقسيم الحقيقي لمصر في عصر ما قبل التاريخ ، كما أن التسوية النهائية للتقسيم واعطاء مصر كلها لحورس ما هي الا ذكرى الوحدة المصرية الأولى ، التي تمت في عصور مبكرة تحت لواء الدلتا . وأصبح أوزيريس ، الفرعون الكريم والحاكم على أرض الموتى ، والاله الذي يرضى بأن يشاركه رعاياه فى خلوده ، أصبح هذا الآله أكثر الآلهة المصرية فى شعبيته. وكان آلهة العقائد الأخرى لا يعبدهم غير الطبقات العليا ، أما ثالوث أوزيريس وهو (أوزيريس ایزیس - حورس) فکان معبودا من جمیع طبقات الأمة ابتداء من فرعون حتى الفلاحين. وكانوا يمثلون قصة حياته ومماته وبعثه عند مدفنه بأبيدوس على هيئة تمثيلية عاطفية كانت تستمر عدة أيام. وكان الملك يسند الأدوار الهامة في التمثيلية الى كبار موظفي الدولة ، وكانوا يعتبرون دور حورس ، الابن المثالي ، شرفا خاصا لمن يسند اليه ، وكان السكان المحليون وآلاف الحجاج الذين كانوا يجيئون الى الاحتفال يشتركون في التمثيليات كممثلين خارجيين . وكان الاحتفال ينتهي بملحمة تصور معركة تقوم بين قوات تمثل كلا من جيوش حورس وجيوش ست قاتل أوزيريس لا تنتهي بقتل أحد ، ولكن تنتمي باصابات كثيرة بين المشتركين في تمثيلها ، وقد أصيبت وجوههم بالكدمات ورؤوسهم بالجروح.

وأخيرا تتحدث عن اله آخر من الآلهة المصرية وان لم يكن أقلهم شأنا ، وهو فرعون نفسه فعندما يتوج فرعون يصبح الآله حورس ، وعند موته يتحول الى أوزيريس ، وكان يعزز قواه الروحية التي كانت تعتمد عليها البلاد فى رخائها طهارة الدم الملكى . ولهذا السبب كان فرعون يتزوج فى طفولته من

أكثر شقيقاته أو أخواته ملاءمة له بيد أنه كان يسمح لفرعون عندما يكتمل نموه ، أن يتخذ له من الزوجات والمحظيات ما يشاء وان كان من المستحب بالنسبة لولى العهد أن يكون حائزا لأكبر نسبة من الدم الملكى وهو الأمر الذى حدا ببعض الفراعنة أن يتخذوا فى بعض الأحيان من بناتهم زوجات لهم حتى يضمنوا ذلك .

وكان قصر فرعون يشيد على هيئة معبد (۱) ، وكانوا ينظرون اليه على أنه كذلك لأن فرعون كان فى الوقت نفسه كاهنا أكبر وتجسيدا للاله . وكانت الطقوس الدينية التى يقوم بها فرعون كل يوم تبعث القوة فى الطقوس والشعائر الأخرى التى كان الكهنة يقومون بها فى كل مكان فى مصر . كانت أفعاله وملابسه التى يرتديها ، بصفته الاله حورس تسير طول اليوم حسب قواعد تم وضعها منذ وقت طويل . وكان لفرعون مقران : أحدهما فى الصعيد والآخر فى الدلتا ، وكان عليه أن يقسم وقته بينهما بالتساوى حتى يحظى كل قسم من فى الدلتا ، وكان عليه أن يقسم وقته بينهما بالتساوى حتى يحظى كل قسم من بعد موته كان نفوذ الملك يظل مستمرا اذ يصبح حاميا وطنيا وتصبح مدينة الهرم الخاصة به أو معبده الجنازى غاصا بالكهنة الذين يظلون فى خدمته عدة أجيال يتوارثون وظائفهم .

وكان هناك المئات من الآلهة الأخرى التى لا نعرف عنها سوى أسمائها والأشكال التى كانت ترسم بها ؛ اذ كان المصريون يسيلون الى تمثيل آلهتهم بأن يكون جزء من جسم الاله على هيئة حيوان والجزء الآخر على هيئة

^{. (}١) ربما كان ذلك صحيحا الى حد ما فى العصــور المتأخرة نظرا لبناء پيلون عند مدخله ، ولكن القصور والمنازل بصفة عامة كانت لها عمارة مدنية .تختلف عن العمارة الدينية ٠

⁽ المترجم)
(۲) لم يظهر مقر الدلتا الا منذ الأسرة التاسعة عشرة في مدينة « پر رعمس » في شرق الدلتا •
(المترجم)

انسان ، وقد عبدوا الحيوانات فى العصور المتأخرة اعتقادا منهم بأن الآلهة حلت فيها . وكانت بعض الأقاليم تتخذ حيوانات معينة كرموز لها ، وكانت تحرم على سكانها قتلها أو استخدامها ، الأمر الذى يدعو الى آلاعتقاد بأن النظام كله لا يعدو أن يكون طوطميا . وهناك وجهان غريبان لهذه الآلهة الحيوانية وهذه الرموز ، اذ انه بالرغم من أن الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأمرات كانت أسيوية فى أصولها ، الا أن الحيوانات المتوحشة التى رسموها كانت كلها افريقية ، ولكن فى الوقت نفسه فان اثنين من أبرز الحيوانات الافريقية وهما الفيل والكركدن لم يرد رسم لهما بين رسوم الآلهة .

كانت الشعيرة الهامة المعروفة باسم شعيرة بيت الصباح أهم الطقوس الدينية المتصلة بعبادة الآلهة جميعا . كان فرعون أو كبير الكهنة في أي معيد يستحم أولا بماء يجلبونه من بحيرة مقدسة ، وهي جزء طقسي في كل معبد وفي كل قصر . وبعد أن يتم اغتساله يدهنونه بالطيب ويزوده كاهنان يرتديان قناعى تحوت وحورس بكل الرموز الخاصة بمنصبه . ومن النادر أن نرى اشارة في القصص الشعبية الخاصة بالديانة المصرية الى أهمية الأقنعة بيد أنها كانت تستخدم في طقوس كثيرة وهي حلقة هامة تربط الحضارة المصرية بالحضارات الافريقية الأخرى. وبعد أن تنتهى عملية التنصيب كان الكاهنان يقودانه ممسكين بيديه الى الهيكل حيث يوجد تمثال للاله داخل ناووس مغلق. وكان عليه أن يحطم الختم الطيني الذي كان يغلق ضلفتي باب الناووس ويفتح الباب ثم يلقى بنفسه على الأرض أمام الاله ثم يوقظه بعد ذلك بأن ينشد له نشيد ابتهال الصباح ، ثم يأخذ الكاهن التمثال ويطهره ثم يمثل حركات اطعامه ويلبسه الثياب الملونة ويدهن وجهه باللون الأحمر ، ويحليه بالرموز المناسبة ثم يعيده بعد ذلك الى الناووس ، ويغلق الباب وينسحب ماشيا الى الخلف الى أن يترك الهيكل مزيلا آثار أقدامه بقطعة من جريد النخل. وكان كل طلب يطلب من الآلهة المصرية تصحبه القرابين ، ولكنهم كانوا لا يشجعون ذبح عدد كبير من الماشية. ويتفق هذا مع الاتجاهات المصرية التى تخلط بين السحر والدين فيما يتعلق بعبادة الآلهة فان أداء الطقوس المقدة على الوجه الصحيح كان أهم بكثير من تقديم القرابين.

أما فيما يختص بالآراء المصرية المتعلقة بالعنصر الروحاني في الانسان ومصيره بعد الموت فانها كانت غير منظمة وغير منطقية مثل باقى عقائدهم الدينية بل ان وصف هذه الآراء أصبح أكثر تعقيدا بسبب ما حدث في بعضها من تغييرات خلال عصور التاريخ المصرى الطويل.

كان المصريون في عصر ما قبل الأسرات يعتقدون بكل تأكيد في الخلود الفردي لجميع الطبقات لأنهم زودوا مقابر موتاهم بالأثاث الذي كان يختلف من حيث الكمية والنوع حسب موارد العائلة . ولكن تركيز السلطة في أيام الدولة القديمة حرم عامة الشعب لا من الحرية فقط ، بل وحرمه أيضا من الأمل في الخلود وذلك لأنه خلال ذلك العصر أو على الأقل في فترة محدودة منه لم يكن بين الأفراد من له الحق في التمتع بالحياة بعد الموت سوى فرعون والنبلاء الذين كان فرعون يمنحهم بعض الصيغ السحرية المعينة ، ويسمح بدفنهم بالقرب منه وبذلك يشتركون في جزء من حيويته الالهية . هذا ، ولسنا نعلم ما اذا كان عامة الشعب قد وافقوا على هذا الرأى أم لم يرضوا به ، ولكن الذي نعلمه أنهم لم يفقدوا الأمل في حقهم في الخلود ، ويثبت ذلك ما حدث من تقدم سريع في انتشارعقيدة أوزيريس وايزيس وحورس بعد سقوط الدولة القديمة .

كان المصريون يعتقدون بوجود كائنين روحانيين على الأقل يتصلان بالفرد ولعل أكثر هذه الكائنات وضوحا هي اله «كا» التي تعتبر قرينا للانسان، وهناك من الأسباب ما يدفع الى اعتقاد بأنها كانت، في العصور المبكرة، معادلة للمشيمة أي خلاص الجنين. كانت الكا تولد مع الانسان غير أنها كانت تحيا حياة منفصلة عنه خلال حياته ولكنها كانت تتحد مع جسده ثانية في لحظة

الموت. فاذا أصاب الجسد تحطيم كبير، أو فقد فقد اناكاملا، فان الكاتهاك، ومن هنا نشأت عادة التحنيط وعادة وضع تمثال للميت فى قبره تحل فيه الكافى حالة فقد الجسد. وكانت الكاتميش فى القبر وتتغذى على القرابين، وكانوا يزخر فون جدران القبر ويضعون فيه الأثاث لأجل اسعادها. وكان على كل مصرى أن يضمن لهذه الكا المأوى، فضلا عن استمرار امدادها بالطعام. وكانت عناية الأحفاد الشديدة بأسلافهم الموتى اجبارية عليهم اذ كان فى مقدور الميت التحكم فى مصائر الأحياء. أما عن القرابين التى يفرضها الاعتقاد فى احترام الموتى من الأسلاف فقد فاقت من حيث كثرتها ما كان يقدم للآلهة، وكانت تشتمل على ذبح الحيوانات واراقة دمها فضلا عن الماء واللبن والنبيذ.

كانت العلاقة التي تربط بين الأحفاد والأسلاف علاقة منفعة متبادلة . فقد كان في مقدور السلف أن يضفي على الأحفاد الحظ الحسن أو السبيء ، في حين كان في مقدور الأحفاد أن يجعلوا حياة الأسلاف ملأي بالمنفصات الشديدة اذا توقفوا عن تقديم القرابين. وهناك الكثير من الوثائق التي تصور أحد المتعبدين الذين خاب أملهم يهدد قريبه المتوفى بالامساك عن تقديم القرابين له اذا لم يقض له طلباً معيناً . هذا وان وجود عبادة للاسلاف ، حتى ولو كانت ذات طابع ناقص مبتور في مجتمع لا يوجد فيه نظام العشائر أو يعتمد على سلاسل الأنساب ، أمر فريد في نوعه ويدعو الى الدهشة ، وهو يوحى ، مثله فى ذلك مثل بعض العناصر الحضارية الأخرى ، بأن الأسلوب المصرى المبكر للتنظيم الاجتماعي كان يشتمل على مجموعات ثابتة محلية من الأقارب مثل تلك التي كانت ولا تزال شائعة في افريقيا الزنجية . ان هذا الاهتمام الكبير بتوفير أسباب الراحة لأنفسهم فى العالم الآخر يوحى بأنهم كانوا يخشون احتمال انقراض ذرياتهم أو أن يأتى اليوم الذي لا تهتم فيه تلك الذرية بأسلافها وهي الظواهر التي لا يمكن أن يفكر فيها من كان يعيش في مجتمع منظم على أساس العشيرة المستمرة . وهذا ولم تكن المعتقدات الخاصة بعناصر الشخصية الأخرى أقل من سابقتها فى تحديد معالمها. كان الأفراد يعتقدون أن لهم « با » تترك الجسد فى لحظة الموت. وتمثل هذه الد « با » فى اللغة الهيروغليفية على شكل طائر اللقلق أو أبو حديج وهو طائر يتميز برأس بشرى ملتح وأمامه مصباح يشير ذلك الى اعتقاد قديم يقول بأن البا تتحول الى نجم ، ومع ذلك ففى امكانها أيضا أن تعود الى الأرض فى صورة الرجل الذى مات أو على صورة طائر أو حيوان أو احدى الأسماك. وسواء أكانت « البا » هى التى تلاقى حساب الميت وتجد السعادة فى العالم السفلى تحت حكم الآله أوزيريس أم غيرها من الكائنات الأخرى ، فان هذا أمر من الأمور التى ما زالت غامضة علينا . وكانوا يرمزون الى الروح ، وهى تمرح بين جنبات حقول الفردوس باسم « آخ » أو الروح الفعالة وكانوا يعتقدون أنها صورة شفافة للجسد عندما كان على قيد الحياة . وأخيرا ، كانوا فى بعض الأحايين يرمزون الى الكائن الأساسى (القوة الحيوية) فى الشخص بكلمة « سخم » .

وظل فرعون يذهب الى جنته فى السماء حتى بعد ظهور عقيدة أوزيريس ، ولكن أرواح الأفراد الآخرين كانت تذهب الى العالم السفلى لتعيش فيه ، ذلك العالم الذى كان جزء منه يسير موازيا لوادى النيل والجزء الآخر يسير تحته ، وكان يفصل بين هذا العالم وبين مصر سلسلة من الجبال تتخللها منافذ ضيقة تستطيع الشمس وأرواح الموتى أن تدخل منها . وكانت الروح تمر اولا بمنطقة مظلمة مخيفة تسكنها الشياطين والوحوش ثم تمر بعد ذلك بعدد من البوابات لا تفتح لها الا اذا أعطت كلمة السر الصحيحة . وفى نهاية هذه الرحلة تصل الروح الى مملكة أوزيريس ، غير أنه ما زال عليها أن تمر بامتحان أخير ألا وهو محاكمة الميت . كان يرأس المحاكمة مجموعة تتكون من اثنين وأربعين الها أو معبودا كل منهم يختص بخطيئة معينة ، وكان على الميت اما أن يعلن براءته من كل تهمة على حدة أو أن يردد التعويذة السحرية التى قد تمنع ذلك براءته من كل تهمة على حدة أو أن يردد التعويذة السحرية التى قد تمنع ذلك الكائن من أن يتكلم ضده . وكنوع من التأييد ضد ما عساه أن يحدث كان

القادرون من الناس يزودون بقرطاس من البردى « كتاب الموتى » يحتوى على تعليمات تشرح ما يجب أن يفعله الميت في كل مرحلة من مراحل الرحلة ، وتشرح أيضا الكلمات الفعالة التي يجب أن تستخدم عندما تكون الروح مذنبة . ومن الأمور اللطيفة التي يمكن ذكرها عن المعاملات التجارية وأساليبها في مصر القديمة أنه كثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه القراطيس غير كاملة اذ لم يكتب من القرطاس سوى مسافة بضع أقدام في البداية ، لأن البائم كان يعتقد أن المشترى لن يكبد نفسه عناء نشره الى آخره . وفي نهاية هذا الاعتراف السلبي أو اعلان البراءة كان قلب الرجل الميت يوزن في احدى كفتى ميزان ويوضع في الكفة الأخرى ريشة بينما يقف صاحب الشأن الي جانب قلبه متوسلا اليه ألا يتكلم ضده ، كما يقف الى جانبه ، متأهبا لالتهام روحه اذا ما صدر الحكم ضده ، وحش رأسه رأس تمساح والجزء الأمامي من جسده على شكل أسد ، والجزء الخلفي على هيئة فرس النهر . أما اذا أعلنت المحكمة أنه مستحق للخلود فان الاله تحوت يسجل الحكم على حين يأخذ الآله حورس الروح من يدها ويقودها الى حيث يجلس أوزيريس. ويجب هنا أن نلاحظ أنه على الرغم من أن كثيرا من الباحثين يعتقد أن محاكمة المصريين للموتى هي الأصل في الحساب الأخير في العقيدة المسيحية الا أن أوجه التشابه فى الواقع سطحية اذ أن أوزيريس فى الأسطورة المصرية لم يقم بدور القاضى كما لم يقم أي واحد من أوزيريس أو حورس بدور المخلص أو المنقذ . وزيادة على ذلك فان الخطايا الاثنتين والأربعين كانت متصلة بمحاولات خرق قوانين التحريم أو بالتعدى على الملكية ولم يتعلق الا القليل منها بما نعتبره نحن بالموضوعات الأخلاقية .

كانت مملكة أوزيريس تشبه الى حد بعيد أرض مصر أكثر من مشابهتها للسماء المسيحية ، اذ كانت تتكون من حقلين كبيرين يشبهان كلا من الوجهين البحرى والقبلى فى مصر ، وكانا يقعان فى الجزء الغربى من العالم الأسفل ،

وفيهما كانت الروح تجتمع مرة أخرى مع أقاربها من الموتى ، وتتمتع بكل ملذات الجسد ، كما كانت تخضع لكثير من أوجه الضعف البشرى التى كانت أعمال السخرة أبرزها وأشدها ولهذا كانوا يضعون عددا من التماثيل الصغيرة في المقابر كبديلة للميت وعندما يؤمر الميت بعمل شيء ، كان أحدها يسرع قائلا : « سأفعل ذلك » ويسرع في تنفيذ ما صدر اليه من أمر .

ومن العدل ، قبل أن ننهى حديثنا عن الدين المصرى ، أن نذكر شيئا عن الملك المارق اخناتون الذي كثيرا ما امتدحه الكتاب المعاصرون لخروجه على الدين الرسمي ، وأشاروا اليه على أنه الفرد الأول في التاريخ الذي نادي بالتوحيد ومدحوه كشبيه بيوحنا المعمدان ، ولكن الوثائق المعاصرة تضعه في موضع أقل من ذلك . كان أبوه أمنحوتب الثالث من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، أولئك الملوك الأقوياء الذين جمعوا السلطة فى أيديهم وهي الأسرة التي جعل ملوكها من مصر قوة حربية عالمية للمرة الأولى في التاريخ . وقد أحب أمنحو تب امرأة كان من المحال من وجهة نظر النبلاء المصريين أن يتزوجها لأنها كانت تنتمي الى أسرة من الطبقة الوسطى ووصل به اعتداده بنفسه على الاصرار بأن يجعل منها زوجته الأولى وملكة البلاد ، وكان رد الفعل لدى كهنة آمون لا يختلف كثيرا عن رد الفعل الذي يسرى بين رجال الكنيسة الانجليزية تحت ظروف مشابهة. ويبدو أن الأمر قد وصل الى الحد الذي جعل من بعض رجال القصر المداهنين من لا يظهر لها الاحترام الكافى وكان رد الملك رادعا اذ أجبرهم على حمل جعارين خط عليها اسم ألملكة وألقابها ليذكرهم بمركزها (١) . ولم ير الكهنة في ابن الملك ، وكان يسمى أمنحوتب كأبيه ،

⁽۱) لا يوجد فى النصوص المصرية على الاطلاق ما يشير الى وجـــود من كان يعترض على زواج الملك أمنحوتب الثالث من زوجته الملكة د تيى ، كما أن الجعارين المعلقة فى السلاسل الذهبية كانت لا تعطى الا الى أقرب المقربين تكريما لهم وكانوا يعتزون ويفخرون بحملها .

انه يستحق أن يكون الوريث الشرعى من وجهة نظرهم ، وكان يعتقد أن هناك ما يبرر كراهيته للدين السائد في البلاد . كان أتون أو قرص الشمس الها ساميا معروفا لدى المصريين منذ زمن بعيد وان كان لم يعبده سوى العامة المنعدرين من أصل سامى وهو الأمر الذى أوحى بالاحتمال القائل بأن أم فرعون كانت احدى المؤمنات (۱) به . وغير فرعون اسمه الى اخناتون حتى يكرم الاله أتون بذلك وجعل من عبادة أثون دينا رسميا للدولة . واتبع في هذا الأسلوب المعروف في مصر ، وهو الأسلوب الذي يقضى بأن يجعل كل مؤسس لأسرة جديدة اله مقاطعته الأصلية الاله الرئيسي كمعبود في البلاد . وبالرغم من أن اخناتون كان مصرا على تقديم عبادة آتون على كل شيء آخر فمن الأمور المشكوك فيها انه كان موحدا بمعنى انه كان ينكر وجود أي فمن الأمور المشكوك فيها انه كان موحدا بمعنى انه كان ينكر وجود أي كان على أو ينكر قوتها . وعلى الأقل فقد استمر في ممارسة الطقوس التي كان عليه أن يمارسة من أجل توفير الخير للبلاد .

ولكى يحطم نفوذ كهنة أمون بنى اخناتون عاصمة جديدة وحاول أن يبدأ عهدا جديدا فى الفنون والطقوس الدينية . واتخذ الفن المصرى طابعا اصطلاحيا معبرا ، وأصبحت التماثيل والصور المحفورة بالرغم من قيمتها الفنية العالية تمثل المناصب أكثر مما تمثل الأشخاص أنفسهم . ومع ذلك فقد ظهر بجانب هذا الفن الاصطلاحى المعبر أسلوب جديد فى النقش والتصوير أكثر حيوية مما كان قبله ، وهو أسلوب جديد لا يتصل بالأسلوب القديم الا كما تتصل صورنا الهزلية الحالية بفنوننا الجميلة . كان الفنانون أثناء تزيينهم للمقابر بعدد لا نهاية له من مناظر الطعام والأثاث والخدم الذين كانوا يرسمون ليقوموا بخدمة الروح ، كان هؤلاء الفنانون يسلون أنفسهم برسم

 ⁽١) أتون ومعناه قرص الشمس مصرى خالص وقد ورد في النصوص المصرية منذ عهد الدولة القديمة كما أن عبادة الشمس بوجه عام عبادة أصيلة في مصر منذ فجر تاريخها ولم يكن هناك اله سامي اسمه آتون ٠

⁽ المترجم)

تفصيلات واقعية مسلية يضعونها في الأركان المظلمة . هذا ، ويظهر نفس الأسلوب المتحرر غير التقليدي في الرسم على كثير من قراطيس البردي التي رسموا فيها موضوعات مضحكة أو خارجة عن المألوف . تحول اخناتون الي هذا الأسلوب المتحرر وحاول أن يتطور به تطورا يجعله معارضا للأسلوب الذي يفضله الكهنة . وكان اخناتون نفسه يشكو عيبا جسمانيا فأصر على ابراز هذا العيب في صوره . وأمر بأن يعمل له ولزوجته ورجال قصره أقنعة جسية للوجه حتى يستطيع الفنانون أن يعملوا نقلا من نماذج مضبوطة . ولحسن الحظ كانت أخته وزوجته نفرتيتي امرأة تستحق التقدير ، ورأسها الذي نحته أحد مثالي العصر المتحررين تمثال من أعظم التماثيل الفنية في العالم التي تمثل أصحابها تمام التمثيل .

كان أتون الها للسلام على الأرض والمحبة بين الناس. وآمن اخناتون بهذه العقيدة ايمانا عميقا ، ورغبة منه فى نشر تلك المبادىء أخذ فى ارسال خطابات الى ملوك الدول المجاورة معبرا عن رغبته الملحة فى السلام . ولسوء الحظ ، لم ينتظر حتى تتأكد نواياهم الطيبة نحوه فخفض قواته الحربية ، الأمر الذى ترتب عليه انكماش الامبراطورية المصرية التى امتدت فى عهد أبيه الى ما وراء نهر الفرات من ناحية وفى آسيا الصغرى من ناحية أخرى .

وكان آخر ملوك هذه العائلة المتداعية هو توت عنخ آمون الذى ساعد عدم أهميته بحفظ مقبرته حتى يراها عالمنا الحديث. وقد نسى الناس هـذا الملك بعد وقت قصير لدرجة أن أحد الفراعنة المتأخرين بنى مساكن لاقامة عماله فوق مدخل مدفنه ، وبذلك أخفاه عن أنظار لصوص المقابر. وبالرغم من أن معظم الأثاث الفاخر الذى كان فى مقبرة توت عنخ آمون كان من النوع الذى عثر عليه فى مقابر الفراعنة الآخرين ، الا أنه يمتاز ببعض ظواهر غير مألوفة. ومات توت عنخ آمون متأثرا بذات الرئة وهو لم يزل دون العشرين من عمره ، وبالرغم من قصر حكمه الا أن عهده كان كافيا لكهنة آمون لكى يستعيدوا

سلطتهم ويحاولوا بقوة وعزم اعادة النظام القديم وزادوا على ذلك بأن أجبروه على تغيير اسمه من توت عنخ أتون الى توت عنخ أمون. وربما أدركت العائلة المالكة أن الأسرة تسير الى نهايتها فوضعت فى المقبرة الهدايا التى تلقاها فراعنة هذه الأسرة ابان عظمتها ووضعوا معها أدوات أخرى مما كانت تقتنيه الأسرة أو كانت ذات صلة بعبادة أمون. وكانت هذه الطريق هى أضمن الطرق لمنع مثل هذه الأدوات من الوقوع فى أيدى كهنة أمون اذ كانت مقابر الفراعنة من الأماكن المقدسة التى لا يسمح بالاعتداء عليها.

أما التنظيم الاجتماعي والسياسي في مصر فيؤسفنا أن نقول ان الغموض يكتنف الكثير من تفصيلاته أكثر مما يتوقع الانسان اذ أن الوثائق الشخصية وسجلات القصر التي يمكن أن تصور العلاقات الاجتماعية نادرة نسبيا كما أن المصريبن اتبعوا نظمهم على علاتها دون أن يجشموا أنفسهم عناء شرحها وتدوينها فى نقوشهم . بيد أنه يمكننا القول ان الوحدة الاجتماعية الأساسية كانت ، فيما يبدو ، هي الأسرة البسيطة الصغيرة التي تشبه الأسرة عندنا اليوم ، اذ لم تكن هناك في العصور التاريخية أية سلاسل للأنساب (١) ، كما لم تكن هناك نظم عشائرية كما نعرفها فالمجتمعات الأخرى وليس لدينا ما يشير الى أنه كان يوجد مهر يدفع للعرائس كما كانت الزيجات الأولى فيما يبدو زيجات تقوم على الحب المتبادل ، كما يلوح أيضا انه كانت هناك نساء فضلن عدم الزواج وكان يسمح لهن بادارة أملاكهن وتوزيع مودتهن على من يفضلن . وكانت المرأة تحتل مكانة رفيعة وكانت المتزوجات منهن يتصرفن فى ثرواتهن الخاصة ويشرفن على ادارة أعمال أزواجهن أثناء غيابهم. ومع ذلك فلم يكن تعدد الزوجات من الأمور المعروفة بينهم. كانت هناك زوجة رئيسية ، أما النساء

⁽۱) ظهرت بعض سلاسل الانساب فى نقوش بعض الأفراد فى العصر المتأخر من تاريخ مصر ، حوالى عام ٧٥٠ ق ٠ م ٠ (المترجم)

الأخريات فقد كن اما زوجات ثانويات أو محظيات ، فعلى قدر ما يزداد عدد النساء في بيت الرجل تزداد مكاته الاجتماعية.

لقد أشرنا قبل الآن الى زواج الملوك من أخواتهم ، وقد انتقلت هذه الزيجات بعد سقوط الدولة القديمة الى النبلاء كغيرها من الامتيازات الملكية الأخرى . غير أننا لا نعرف ما اذا كانت هذه العادة قد انتقلت الى الصناع والفلاحين أو لم تنتقل . وعلى أى حال ففى النقوش الجنازية نرى أن الرجال من جميع الطبقات الذين كانت تسمح لهم مواردهم المالية بتشييد مثل هذه المبانى ، كانوا يشيرون الى الزوجة الرئيسية بلفظة « أخت » وان كنا نعلم أن هذه العبارة كانت تستخدم للتعبير عن القرابة الحقيقية ، ولهذا سيبقى موضوع انتشار هذه العادة سؤالا بدون جواب صريح محدد حتى نظهر معلومات أخرى جديدة .

وذكر بعض كتاب اليونان والرومان أن المصريين كانوا ينتسبون الى الأم، بيد أن نقوشهم لم تلق الكثير من الضوء على هذا الموضوع، وان كان من المعتقد أنهم كانوا ينتسبون الى كل من الأم والأب، كما هو الحال عندنا اليوم، كما كانت الثروات والمراكز تورث عنهما. وقد بدأ هذا النظام غريبا فى عيون الرومان والاغريق الذين كانوا يتبعون نظام الانتساب الى الأب فقط. ومما يذكر بهذا الصدد أن الكتاب اليونان والرومان فسروا انتساب المصريين الى الأم بأن النساء المصريات كن يملن الى عدم الاخلاص لأزواجهن ولهذا كانت بنوة أبنائهن دائما موضع شك.

أما الوحدة الاجتماعية المنظمة التي تلى وحدة العائلة فقد كانت وحدة المقاطعة أو الاقليم . كانت المقاطعات فى العصور التاريخية تسير على نظام الوحدات الادارية ولكن قضايا سكان المقاطعة الذين يتحدون فى عبادة اله هذه المقاطعة كانت تنظر آمام حاكم المقاطعة الوراثي الذي كان يشرف على الشئون العامة المحلية والذي كان يشعر بالاعتزاز والفخر بمقاطعته مقترنا

بالاحساس بالعداء نحو الأشخاص الذين ينتمون الى مقاطعات آخرى . ومن المحتمل أنه فى العصور القديمة عندما كانت الاثنان والأربعون مقاطعة مستقلة سياسيا عن بعضها البعض ، كان سكان كل اقليم يتزوجون من الجماعات المتصلة بهم بصلة القربى ، وهو النظام الذى لا يزال معمولا به فى افريقيا الزنجية التى تعتمد فى حياتها الاقتصادية على الزراعة .

أما النظام الذي كان سائدا في المجتمع المصرى ابان العصور التاريخية فقد كان نظاما قائما على أساس وجود الطبقات مع اعطاء الكثير من الفرص للأفراد للوصول الى طبقة النبلاء . وفي الدولة القديمة كانت هناك طبقتان فقط هما طبقة العامة وطبقة البيت المالك وأقاربه ، التي كان أفرادها يشغلون كل المراكز المهمة في ادارة البلاد وفي الكهنوت ، وكان وجود العدد الكبير من النساء في بيوت أفراد الأسرة المالكة كفيلا بايجاد العدد الكافي لهذه الوظائف . ولكن مع تقدم الزمن انقسم المجتمع الى طبقات عدة منها الفلاحون ومنها الطبقة الوسطى التي كانت تتكون من الصناع والجنود المحترفين ثم الطبقة الأرستوقراطية التي كانت تتكون من النبلاء والموظفين والكهنة ، وعلى رأسهم جميعا كان فرعون الذي كانت قدسيته تسمو به فوق مستوى الطبقات أو اعتباره كانسان عادى .

ومما يجدر ذكره أن العبيد لم يرد ذكرهم فى هذه القائمة لأنهم لم يلعبوا أى دور هام فى الاقتصاد المصرى . أما المجرمون وأسرى الحرب فقد كانوا يرسلون اما الى صفوف الجيش أو يساقون الى المحاجر التى كانت كفيلة بالقضاء على أمانيهم . غير أن القليل من العبيد ، وبخاصة من النساء ، كانوا يقومون بالعمل فى المنازل ولكن هؤلاء كانوا يعتبرون من الأتباع ولا ينظر اليهم على اعتبار أنهم سلم مملوكة . فليس من المفيد اقتصاديا أن يعمل العبد فى الأشفال العامة فى حين أن هناك الكثير من الأيدى العاملة الرخيصة التى ترضى بالكفاف من العيش ؛ اذ أنه فى مثل هذه الحالة يكون من الأرخص

تأجير الرجال الذين يحتاج اليهم العمل من آن لآخر فان ذلك أفضل مما يستتبع امتلاك العبيد من التزامات. وقد ذكرنا آنها نظام استرقاق الفلاحين في الدولة القديمة ، كما أشرنا أيضا الى انهيار هذا النظام في نهاية حكم الأسرة السادسة ، غير أن الفلاح المصرى فيما تلا ذلك من عصور لم يعد رقيقا للأرض بل أصبحت مخصصة له اما كملكية حرة أو ليستغلها اذا كانت من أملاك المعابد أو من أملاك الملك . وفي كلتا الحالتين لم يكن حقه في الأرض يذهب الى أشخاص غرباء بعد وفاته بل كان يرثها أولاده من بعده . وكان على المزارع أن يدفع الضرائب المستحقة على محاصيله وأن يدفع الايجار المستحق للمالك. كما كان عليه أن يتبع ما جرت به العادة منذ القدم ، تلك العادة التي كانت تحدد نوع المحاصيل التي يجب أن تزرع في مقاطعات معينة. وبالرغم من أن الفلاح لم يكن مقيدا بالأرض بحكم القانون فانه كان مرتبطا بها لحاجت الاقتصادية ، فان الأراضي الأخرى كان يستغلها أشخاص آخرون منذ زمن كبير ، فلو أنه ترك أرضه فان مصيره الوحيد هو أن يصبح من العمال غير المهرة أو المدريين.

وكان الصناع يتركزون فى المدن حيث كان عمال المهنة الواحدة يعيشون فى حى واحد وكان حانوت الصانع هو مصنعه ومخرنه فى آن واحد، أما الصناع فقد كانوا ينتظمون فى نقابات تشبه مثيلاتها التى كانت منتشرة فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وليس فى امكاننا أن نعرف قيمة دخل هؤلاء الصناع المهرة ، غير أن حظهم كان ، بدون شك ، خيرا من حظ الفلاحين.

ولم يكن هناك غير القليل من الجنود المحترفين فى عهد الدولة القديمة ، غير أنه بمرور الوقت أخذت أهمية المنظمات العسكرية تعظم وتزداد وتصبح لها صفة الاستمرار . كان الجنود من سكان الصعيد محاربين أفضل من اخوانهم من سكان الوجه البحرى ، غير انهم جميعا كانوا لا يميلون كثيرا الى الحرب وهو الأمر الذى يفسر وجود الأجانب فى القوات المصرية منذ عهد

مبكر . كان هؤلاء الجنود الأجانب يأتون في البداية من بلاد النوبة أو من سورية ، أما « الشردن » أو « رجال الجزر » فكانوا يشتهرون بالشجاعة وكانوا يعملون كحرس خاص لفرعون . وبالرغم من أن بعض الأجانب كانوا من المتطوعين فان الكثيرين منهم كانوا من الأرقاء ، ونحن نعرف أنه في أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت الحملات التي تشن على بلاد النوبة تسبقها في الفالب غارات على سورية في سبيل الحصول على الجنود والعكس بالعكس. وغنى عن القول أن مثل هؤلاء الجنود لم يكن من السهل استخدامهم ضد أقوام من قبائلهم ، ولكن كانت للجنود الأرقاء دون شك فوائد مؤكدة في الحروب البعيدة عن مواطنهم. كان أفراد تلك القوات جنودا مدى الحياة غير أنه لم تكن لهم حقوق مدنية تستحق الذكر ، ولهذا كان من الميسور اخضاعهم لأشد النظم تعسفا . ونظرا لأن روابطهم المدنية قد انفصمت عراها عند أسرهم فى الحرب فان حنينهم الى الوطن لم يكن يقودهم أبدا الى التمرد. وكانت الحرب ، في رأى أولئك الرقيق ، بما فيها من أمور مثيرة وفرص للسلب ، أفضل بكثير من العمل في المحاجر أو في الأشغال العامة . وقد ظل نظام الجنود الأرقاء معمولا به في البلاد الاسلامية الى وقت قريب جدا ، ومن الأمشلة المشهورة ما ذكرناه آنفا عن الانكشارية فى تركيا والمماليك فى مصر .

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ المصريون يزيدون من استخدام الاغريق الذين أثبتوا تفوقهم كجنود مرتزقة ومنذ الأسرة التاسعة عشرة وما تلاها من أيام أخذ الجنود يلعبون دورا هاما فى الحياة السياسية لم يكن الفلاحون قوة يعمل حساب لها ، ولم يهتموا أيضا بالحياة السياسية ، ولهذا السبب كان المتنافسون على العرش أو مؤسسو الأسرات الجديدة يعتمدون اعتمادا كليا على الليبيين والنوبيين أو المرتزقة من الاغريق لأجل تأييدهم كما كان ذلك أيضا سببا فى جعل الحاكمين الذين بيدهم السلطان يسعون الى اكتساب ودهم عن طريق غمرهم بالهدايا . وفى أيام هيرودوت (منتصف القرن

الخامس قبل الميلاد) كان هناك ما يقرب من نصف مليون جندى محترف في الدلتا وحدها ، وكان كل منهم اما أن يكون واضعا يده على منحة من الأرض أو يتلقى يوميا نصيبا كبيرا من الحبوب واللحم والنبيذ. ومن أعجب الأحداث التي وقعت في ذلك العصر ذلك التمرد الذي قام به أكثر من ٤٠٠٠ جندي من جنود الغال الذين كانوا في جيش بطليموس فيلادلفوس. وكانت خطتهم ترمى الى الاستيلاء على الحكم ، ونجعوا فعلا في نهب خزانة الدولة . ولكن عندما فشلت حركتهم ارتدوا الى جزيرة فى وسط الفرع السمنودى وهي جزيرة تقع فى أحد فرعى النيل ، حيث ابتحروا جميعا بطريقة طقسية ، وهي طريقة غالية يمكن مقارنتها بطريقة انتحار اليابانيين المعروفة بالهاراكيرى. وربما لاحظ القارىء أننا لم نشر الى طبقة التجار عند حديثنا عن جماعات الطبقة الوسطى. فقد كانت التجارة الداخلية المصرية تمارس محليا في أسواق المدينة وتسير على نظام المقايضة وبالرغم من أن الموازين والمقاييس المحددة كانت معروفة ومستخدمة منذ أقدم العصور ، فان قيمة الأشياء لم تكن محددة حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولكن قبل ذلك التاريخ كانت هناك جداول مفصلة مبين فيها قيمة كل سلعة بالنسبة الى عدد من السلع الأخرى المطلوبة. بيد أنه في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد بدأت النقود في التداول وكانت في صورة حلقات من الذهب أو الفضة أو النحاس ، ولكن العادة قد جرت بوزنها عند الشروع في أي عملية تجارية ، أما العملة فقد بدأ استخدامها فى مصر أثناء الحكم الفارسي . ولما كانت الضرائب والايجارات والعشور تجمع كلها عينا فقد أصبح محتما على كل من المعابد والحكومة أن تشتغل بالتجارة ، فاذا كانت هناك أي تجارة خارجية فلابد أن أكثرها كان في يد الدولة والمعابد. أما بالنسبة لفرعون فقد كانت التجارة في صــورة جزية أو تبادل ملكي للهدايا ، وهو الأمر الذي ترتب عليه عدم سنوح الفرصة لظهور تجار أثرياء أو مديرى بنوك أغنياء يمكن مقارنتهم باخوانهم فى بلاد ما بين النهرين.

أما الكتبة فقد كانوا يحتلون مركزا متوسطا بين الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، ولعل المثل القديم القائل بأن للعلم قوة لم يتحقق في مكان ما مثلما تحقق في مصر. كان على الكاتب أن يمضى سنوات طويلة من الدراسة الشاقة حتى يسيطر على صعاب الكتابة الهيروغليفية ، وان كان هذا لا يمني على الاطلاق أن تعليمه يقف عند هذا الحد فقد كان عليه أن يلم بالأدب القديم ، وأن يعرف قدرا كافيا من الريا<mark>ضيات وعلوم الهندسة حتى يستطيع أن يقوم</mark> بالعمليات الحسابية ، وأن يصمم المباني ويشرف على الأشغال العامة ، بل وقد يصل الأمر الى استدعائه لتنظيم الحفلات الحربية. ومما خلفه لنا بعض الكتاب الناجحين في تاريخ حياتهم الذي سطروه في نقوشهم على مقابرهم أو لوحاتهم الجنازية نرى أنهم كانوا ذوى مواهب متعددة مثل مواهب ليوناردوداڤنشى . ولما كان من المحتم على عائلة الراغب في الالتحاق بسلك الكتبة أن تكون قادرة على اعالته خـــلال سنوات طويلة من الدراسة فقد وقفت مشـــكلة العجز الاقتصادي سدا منيعا في وجه معظم أبناء الفلاحين والصناع . وعلى أي حال فمتى توافرت لأى كاتب الخبرة والمهارة الكافيتان فله الحق في أن يطمع في احتلال أي منصب في الحكومة بما في ذلك منصب الوزير . ويجب أن نضم فى أذهاننا ونحن تتكلم عن هذا الموضوع انه كلما قويت الحكومة المركزية زادت رغبة فرعون في أن تشغل المراكز الادارية عن طريق التعيين بدلا من شغلها عن طريق الوراثة ، وأن يشغلها بأبناء الشعب الذين يطمئن فرعون الى ولائهم له لأنهم يعتمدون في حياتهم على عطفه . ولما كانت التعيينات في الوظائف الادارية تمنح كفضل يسبغه الملك على من يرضى عنه فان التقدم كان يعتمد على ثلاث دعائم ، أولاها الطاعة لارادة الملك ، ثم اظهار النبوغ فى تملقه ، ثم مقدرته ، ولم تكن عطايا الملك هي المصدر الوحيد المفتوح أمام

الكاتب للحصول على الثروة بل كانوا يعتمدون أيضا على هبات الأفراد الذين يرغبون فى قضاء مصالحهم مما جعلهم ذوى ثروة ، وهو الأمر الذى مكنهم من التزوج من بنات النبلاء الوارثين وبذلك يصبح لأولادهم الحق فى اعتبارهم من النبلاء المعترف بحقوقهم.

وكانت الطبقة العليا فى المجتمع المصرى تتألف من موظفى الحكومة والنبلاء الوارثين والكهنة. وكما لاحظنا من قبل كان بعض موظفى الحكومة ينحدرون اما من عائلة من العامة أو من عائلة نبيلة ، أما المراكز العليا فى السلك الكهنوتى فقد كانت بوجه عام وقفا على أبناء النبلاء. ولم يختلف ذلك كثيرا عما كان عليه الحال فى الكنيسة فى أوروبا خلال العصور الوسطى. وكان الموظفون عليه الحال فى الكنيسة فى أوروبا الادارة الذين يشرفون على ادارة أمور ينقسمون الى قسمين وهم رجال الادارة الذين يشرفون على ادارة أمور البلاد وموظفو البلاط الذين كانوا مختصين بالعناية بشخص فرعون وممتلكاته.

وكان الوزير على رأس السلك الادارى ويعيس على كل الواجبات المدنية المعتادة التى كانت من اختصاص منصب الملك ، وهى واجبات ثقيلة ومشعبة فقد كان على الوزير أن يقوم بعمل المحكمة العليا فيفصل فى القضايا التى ترفع اليه من المحاكم الابتدائية ، وكانت الآمال الكبار تعقد على سرعة انجازه لمثل هذه القضايا . وكان الوزير يشرف على الأعمال العامة ويتلقى ثلاثة تقارير سنويا عن الأحوال فى المقاطعات المختلفة . وكانت السلطات المسئولة عن الضرائب تبعث بحساباتها اليه فى مقابل ايصالات يوقعها باسم الخزانة الملكية . أما حرس فرعوني الخاص فقد كان على الوزير أن ينتخبه بنفسه وأن يعد كل الترتيبات اللازمة اذا ما رغب فرعون فى القيام برحلة من الرحلات . وكان الوزير يذهب كل صباح الى قصر فرعون ، ويقابله ويستفسر عن صحته ثم الوزير يذهب كل صباح الى قصر فرعون ، ويقابله ويستفسر عن صحته ثم يعرض عليه شئون الدولة .

ولم يكن الوزير يعمل فى هذا المضمار بمفرده ، بل كان يعاونه موظف كبير آخر يعرف باسم حامل الختم ، وكان يختص بالشئون المالية فى المملكة .

فهو الذي كان يقدر الضرائب ويشرف على جمعها . ولما كانت الضرائب تدفع عينا وليس نقدا ، كان هذا الموظف الكبير مسئولا عن توزيعها وتحويلها الى نقود فيما تلا ذلك من عصور . وكان يختص أيضا بتصريف شئون المؤسسات الجنازية وممتلكات المعابد ، وكانت من أعقد الأمور وأدقها . وأخيرا ، كان عليه أن يحدد مقادير الأجور لمن يعمل في ممتلكات الدولة والمعابد اذ كانت هذه الأجور تصبح مثالًا للأجور في المملكة كلها . وفي معظم أيام التاريخ المصرى لم يكن هناك الا منصب وزير واحد ومنصب حامل ختم واحد ، ولكن فى أيام الدولة الحديثة كثرت أعمال الادارة الحكومية وتعقدت فأضحى من الصعب على الوزير وحامل الختم أن يديرا المملكة بمفردهما فاستلزم ذلك انشاء منصب لكل من الوزير وحامل الختم لكل من الوجهين البحــرى والقبلي على حدة . وظهر في الأسرة الثانية عشرة منصب جديد وهو منصب « نائب الملك » في النوبة ؛ اذ دعت الحاجة الى وجوده من أجل العمل السريم فى حالة حدوث هجوم مفاجىء لبعد الشقة بين مركز الحكم واقليم النوبة. وكان هذا النائب الملكي يمارس كل السلطات الملكية ، وكان له بلاط خاص وجهاز حكومي على غرار ما كان للملك نفسه . وكانت الادارات ملأى بعدد كبير من الكتبة . وفيما عدا هذا المنصب الممتاز فان الادارات في المقاطعات كانت تتمتع بقسط كبير من الاستقلال ، وكان الحاكم في كل مقاطعة مسئولا عن سلوك رعاياه كما كانت واجباته تشبه الى حد ما تلك التي كانت ملقاة على عاتق الوزير.

وكان موظفو القصر كثيرى العدد الى حد بعيد . ولعل أقرب هؤلاء الموظفين الى شخص الملك تلك الفئة من المستشارين الذين كان يطلق عليهم لقب المكرمين . وكان أفراد الأسرة المالكة ينخرطون بطريقة آلية فى سلك تلك الجماعة التى كانت تتكون بصفة رئيسية من رجال أثبتوا جدارتهم خلال السنين العديدة التى قضوها فى السلك الادارى . كان هؤلاء الرجال العظام

يعيشون فى البلاط الملكى على نفقة الملك ، بيد أن أعظم الامتيازات التي كانوا يفخرون بها هي ما كان يقدمه الملك لهم من تكريم ، اذ يعد لهم مقابر وأثاثا جنازيا على نفقته ويسمح بأن يدفنوا على مقربة منه . وكان أفراد هذه الفئة العظيمة يتقلدون المناصب المتصلة بأعمال القصر فضلا عن العناية بشخص فرعون. وكان شاغلو هذه المناصب يمنحون ألقابا فخرية مثل كاتم أسرار القصر الملكي وكان البروتوكول الملكي يتميز بالفخامة المتناهية ، وكان الموظف الذي يعتني بشخص الملك يلقب بلقب مدير الثياب الملكية ، يليه خادم اليدين ثم مدير الزيوت والعطور ثم حارس الشعر المستعار الذي يلبسه الملك وكثير غيرهم . أما الملكة ونساء القصر الملكى فقد كانت تحيط بهن حاشية أخرى أكثر أبهة وفخامة للعناية بهن . كما شمل هذا التنظيم الدقيق كل شيء حتى المطابخ الملكية التي كان هناك نظام خاص لترتيب أهمية وظائف من فيها . فقد كان الموظفون الثلاثة الذين يقومون بتقطيع اللحوم الملكية يسبقون في الأهمية صانع الفطائر وهذا بدوره يسبق صانع المأكولات الخفيفة وأنواع الجبن الذي يتقدم هو الآخر صانع الحلوي.

ولعل أكثر جماعات النبلاء الوارثين فى الأهمية تلك التى كانت تتكون من حكام الأقاليم وعائلاتهم الذين كانوا ينحدرون من صلب الملوك الذين حكموا الأقاليم المختلفة قبل توحيد مصر. وبالرغم من تلك المحاولات التى كان يقوم بها الملوك الأقوياء للحد من قوة حكام المقاطعات والتقليل من أهميتهم فانهم احتفظوا باخلاص رعاياهم لهم. بل وكانوا يصبحون ملوكا صغارا فى كل وقت تضعف فيه الحكومة المركزية. وكان حاكم الأقليم فى حقيقة الأمر نائبا للملك فى اقليمه يجمع بين الواجبات الادارية والطقوس الدينية ككاهن أعظم لأله الاقليم . أما النبلاء الوارثون فقد كانوا يعتمدون فى حياتهم بصفة عامة على الضياع التى كان فرعون قد منحها للعائلة فى الماضى . وبالرغم من أن على الضياع التى كان فرعون قد منحها للعائلة فى الماضى . وبالرغم من أن الكثير من العائلات النبيلة كانت تفاخر بأصلها العريق الا أن مجال الترقية كان

مفتوحا أمام ذوى المقدرة من أبناء العامة الذين شقوا طريقهم فى الحياة فان فرعون كان يغمرهم بفضله ، ويصبحون مؤسسين لأسرات نبيلة .

ومن المهم أن نلاحظ أن طبقة النبلاء المصريين لم تكن فى الأصل طبقة من المحاربين. فبالرغم من أن عددا قليلا من الأسر العظيمة قد أنجب قوادا قادرين على مدى الأجيال ، الا أننا نجد أن كثيرا من الأسر العظيمة أولت اهتمامها للشئون الدينية والادارية أو اقتصروا على وظائف البلاط.

وكان رجال الكهنوت من أهم أركان المجتمع المصرى اذ بالاضافة الى قيامهم بالطقوس اليومية والاحتفالات السنوية للآلهة التي كانت تستمر غالبا بضمة أسابيع كان الكهنة يقومون بعمل التنبؤات ويرفعون الى الاله مطالب الأفراد مقابل أتعاب مناسبة. من المؤسف أن معلوماتنا عن نظم الوظائف في المعابد معلومات محدودة اذ أنها تقتصر على معرفة أسماء الموظفين المختلفين. كان الكهنة ينقسمون بوجه عام الى طبقتين طبقة الكهنة المتنبئين وطبقة الكهنة العاديين . وبصرف النظر عن المهام التي كانت ملقاة على عاتق كل من الطبقتين فى العصور التاريخية قان هذا التقسيم يوحى بأنه مماثل لما كان يحدث في كل العالم تقريبًا من وجود تفريق بين الكهنة الذين ينزل عليهم شيء من الالهام ويذهبون في سبات عميق ، ويجعلون الاله يتحدث عن طريق أفواههم ، وبين الكهنة الذين كانوا يقومون باجراء الطقوس المعتادة ويهتمون كل الاهتمام بأن تؤدى على الوجه الصحيح. وكان في كل معبد رئيس متنبئين ، ثم نائب له ، ثم كاهن ونائب للكاهن ، وهكذا . أما الكهنة من النساء فكان لهن نظام خاص بهن ، وان كن أقل منزلة من حيث الواجبات الدينية من الكهنة الرجال اذ كانت واجباتهن الرئيسية تقتصر على عزف الموسيقي والرقص في المناسبات الدينية ، وكانت المحظيات المقدسات يلتحقن بمعابد معظم الآلهة . أما المعابد الجنازية الخاصة بالملوك فقد كان يشرف عليها مجموعة منفصلة من الكهنة يقومون بالاشراف على العبادة فيها وتقديم القرابين. وأخيرا ، فان معظم المدارس التي كانت تدرس فيها العلوم المتقدمة كانت ملحقة بالمعابد اذ كانت العادة السائدة بين ذوى المهن والأطباء وغيرهم أن يحصلوا على اذن خاص ، وأن تكون لهم صلة اسمية بأحد المعابد ، وهذا يشبه الى حد كبير النظام الذي كان سائدا في أوروبا في العصور الوسطى.

ويدرك كل من يدرس الحضارة المصرية بأن المصريين كانوا شعبا على حظ كبير من المهارة والعبقرية وانه لم يعق تقدمهم سوى ما وصلت اليه نظم الحكومة من مركزية عنيفة لم يكد العالم يشهد لها مثيلا . كان هناك اتحاد كامل بين الدين والدولة ، وقد ترتبت على ذلك السيطرة الكاملة على أجساد الرعايا وعقولهم . وليس أمام مثل هذه النظم من فرصة للبقاء الا باستمرار الحالة كما هى والابقاء على الأوضاع . ان معظم المخترعات التى تمت وأخذت طريقها فى نهاية الأمر الى الحضارة الأوروبية الأسيوية (الأوراسية) ، قد توصل اليها المصريون ابان الخمسمائة عام الأولى من التاريخ المصرى . بل ولعله من المشكوك فيه ان ما ساهمت به مصر خارج ميدان التكنولوجيا لم يكن نتيجة للتفسير الخاطىء الذى قدمه اليونان والرومان للمعتقدات والطقوس المصرية أكثر من الانتشار الحقيقي للعناصر المصرية .

أما فيما يختص بالحضارات الافريقية فان الموقف هنا يختلف تمام الاختلاف فبالرغم من أنه من الصعب أن نجد أمثلة متشابهة تمام التشابه بين الحضارة المصرية والحضارات التي انتشرت في ممالك وسلط وغربي افريقيا ، فان المرء يحس بوجود وجوه شبه رئيسية بين الاثنين وسنوضح هذا في الفصول القادمة .

الفصل الثراثون

شعوب أفريقية فى العصور التاريخية

تهسم الصحراء الكبرى قارة أفريقية ، في جبيع عصور التاريخ عنصريا وحضاريا الى قسمين . فقد كان السكان الأفريقيون شمالي هذه الصحراء الهائلة ، في غالبيتهم من الجنس القوقازي ، كما كانت الحضارات الافريقية في هذه المناطق في جوهرها أوروبية أسيوية (أوراسية) . كان شمال افريقية جزءا ممن تشملهم الحضارة الكلاسيكية المعروفة باسم الحضارة الايكومينية (Ecumene) ثم أصبح ابتداء من القرن الثامن الميلادى حتى وقتنا الحاضر جزءا من العضارة الاسلامية المترامية الأطراف . أما جنوبي الصحراء الكبرى فان الغالبية العظمى من السكان الذين من الجنس المتزنج (negrvid) وبالرغم من تسرب بعض العناصر الحضارية الغربية اليه من آن لآخــر من مصادر خارجية ، فقد ظلت حضارات هذا الجزء ذات طابع خاص بها . وليس من الضروري أن تتحدث بشيء من التفصيل عن حضارات فلاحي شمالي أفريقيا وسكان مدنها فان السكان المحليين على ما يظهر قد تكيفوا بسرعة واتبعوا الأساليب التي أدخلها حكامهم المتعاقبون من الفينيقيين والاغريق والرومان والبيزنطيين والعرب. وفى منطقة جبال الأطلس ، وفى بعض مناطق الصحراء الكبرى التي ساعد سقوط الأمطار القليلة عليها بسكني بعض من يعيشون على حياة المراعى ، عاشت بعض عناصر الحضارة الأكثر قدما خلال تلك التغييرات ولكن المعلومات التي حصلنا عليها عن هذه المناطق سواء من المصادر الأثرية أو المصادر الكلاسيكية معلومات قليلة لا يعتد بها . واختفت معظم

المخلفات التى بقيت من الحضارات الخاصة بشمال افريقيا عند الغزو الاسلامى لأن البيئة فى هذه المناطق تشابه مثيلتها فى المناطق العربية التى نبع منها الاسلام، لدرجة أنه أصبح فى الامكان ادخال النظم الحضارية الاسلامية بجميع تفصيلاتها. زد على ذلك أن قبائل بأكملها من القبائل العربية التى تعيش على حياة المراعى نزحت الى داخل شمال أفريقيا ، تظاهرها هيبة الاسلام وقوته فتمكنت هذه القبائل من بسط نفوذها الحضارى على السكان المحليين.

وفى العصور التاريخية تمكنت جماعة واحدة فقط من الجماعات التي تسكن الصحراء الكبرى من الاحتفاظ بحضارة مختلفة لها ميزاتها الخاصة وترجم أصولها الى عصر ما قبل الاسلام. تلك هي قبيلة الطوارق (Tuareg) وهم شعب من البربر الذي يقطن الجزء الغربي من الصحراء الكبرى . فبالرغم من أن أفرادها مسلمون اسما قائهم يمارسون عادات كثيرة لا تتفق وتعاليم الدين الصحيحة . وتحتل المرأة مكانة عالية جدا وغير عادية بينهم ، كما أن الانتساب يرجع الى الفرع النسائي . والنساء بوجــه عام هن الحارسات الأمينات على وجوه النشاط الفكري والفني في القبيلة . كانت النساء في العادة هن اللاتي يعرفن القراءة 'والكتابة ، وكن عادة متعلمات ، بعكس الرجال الذين كان من النادر أن نجد بينهم من يعرف القــراءة ، وكان من بينهن الشاعرات والموسيقيات اللاتي لهن شهرة بين مواطنيهم . ولم تعش النساء أبدا بمعزل عن الرجال ، فقد كان يسمح للفتيات والشبان بالانغماس في حفلات اللهو التي تشبه الحفلات التي يقيمها طلبة الجامعات الأمريكية ، كما كانت تعتبر الصداقات بين النساء المتزوجات والرجال من الأمور العادية المسلم بها . وكان الرجال يمضون أوقاتهم فى تربية الجمال ، وفى الاغارة على غيرهم اذ كان يتوقع من العريس المأمول ، أثناء الفترة التي تفصل بين الخطبة والزواج ، أن يسرق من الجماعات المعادية الجمال اللازمة لمهر العروس. وحيث انه كلما زاد مهر العروس زاد شرف الفريقين ، كان الزواج في الغالب

يتأخر حتى يصل الرجل الى السن التي يقال عنها منتصف العمر . ولم تكن النساء محجبات ، بعكس الرجال ، فان الرجل يضع فوق وجهه نقابا من القماش الثقيل ، لا يرفعه حتى في أوقات الأكل أو النوم. وكثيرا ما كانت النساء يطرزن نقب خطابهن وأصدقائهن من الرجال بشعارات مناسبة . وقد فسر الطوارق أنفسهم ارتداء النقب بالنسبة للرجال بأنها للوقاية من الذباب والشمس. وبما أن النبلاء كانوا في الغالب من أصل قوقازي خالص وذوى بشرة غير داكنة وعيون رمادية اللون فمن المرجح أن لتفسيرهم شيئا من الصحة . أما التنظيم السياسي فقد كان اتحادات مفككة سادت فيها عشائر ارستقراطية قليلة على شعب مستعبد أكثر عددا من هذه العشائر. فبينما كانت العشائر النبيلة من أصل قوقازى ، فان كثيرا من الدم الزنجي كان يجرى في عروق العشائر المغلوبة على أمرها لأن هذه العشائر كانت من سلالات الأرقاء وبعض جماعات صغيرة وطنية زنجية تشربت حضارة الطوارق، وسمح لها في النهاية بالانضمام الى عضوية القبيلة . ولما كانت العادة قد جرت بأن يتخذ بعض الرجال من العشائر النبيلة صديقات من العشائر المسترقة أثناء الفترة الطويلة التي تسبق الزواج ، فان كثيرا من چينات الوراثة كانت تنتقل من الدم القوقازى الى العشائر المسترقة ، يقابلها انتقال ضئيل من چينات الدم الزنجي الى الطبقات العليا.

كان الطوارق — قبل أى اعتبار آخر — قوما يعيشون على تربية الابل ، ولكنهم كانوا يربون أيضا الأغنام والماعز ، كما كانت العشائر المسترقة تمارس الزراعة حيثما كان ذلك ممكنا . وكان دخلهم المنتظم يأتى من حراسة طرق القوافل وسلب القوافل التى كانت لا تدفع « الاتاوة » أو نقود الحماية . وكانوا محاربين أشداء امتدوا بغزواتهم حتى وصلوا الى تيمبوكتو على نهر النيجر .

وشمال شرقى افريقيا ، أي شرقى وجنوب مصر ، منطقة قائمة بذاتها من

الناحيتين الجنسية والحضارية. فللسكان المحليين صفات جسمانية تضعهم فى مركز متوسط من الزنوج والقوقازيين، فهم يجمعون بين اللون الأسمر الداكن والملامح القوقازية، أما الشعر فهو يختلف تماما عن شعر الزنوج الأصليين لأنه خشن جعد جدا لدرجة أنه اذا ما ترك لينمو الى درجة كبيرة فأنه يقف منتصبا فيصبح كأنه شجيرة، ولا نعرف على وجه التحديد أصل هذا النوع بالرغم من أنه يعتبر عادة تتيجة للاختلاط القديم بين الزنوج والقوقازيين ، ولكن هذا الامتزاج قد أصبح مع الزمن ثابتا تماما، فاذا كان ذلك صحيحا فانه يتمين علينا أن ننظر اليه على أنه فرع من أحد الأجناس، وحيث ان المنطقة تعتبر من أكثر المناطق حرارة وأكثرها تعرضا لقسوة الشمس ، فان اللون القاتم يكون مفيدا ، ويكون ثباته تتيجة لعملية اختيار طبيعية.

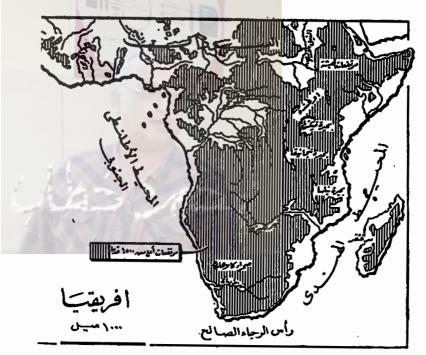
وفى هذه المنطقة ثلاث حضارات مختلفة ، اثنتان منها فى الأراضى المنخفضة ، وواحدة فى الهضبة الاثيوبية . وتقوم كل من حضارتى الأراضى المنخفضة على الاقتصاديات القائمة على تربية الحيوان . واحداها ، وهى الحضارة السائدة فى بلاد الصومال ، تتبع فى كل نواحيها النظام الرعوى المألوف عند الساميين ، ويتركز اهتمامهم الاقتصادى فى الابل والأغنام والماعز، أما المواشى فكان الاهتمام بها ضئيلا وعرضيا .

أما الحضارة الأخرى وهى الخاصة ببلاد الجالا ، وتقوم على الحيوان المستأنس ، فهى حضارة ذات طابع افريقى خالص وتقوم على صناعة الألبان وتعتبر المواشى أعظم الحيوانات أهمية . أما الحضارة الحبشية فهى تقوم على مزيج من الزراعة والاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس ، ولكن الزراعة تستأثر بالأهمية العظمى . ولما كان الأحباش قد اعتنقوا الدين المسيحى فى القرن الثالث الميلادى واحتفظوا خلال الفترة التاريخية بأواصر الصداقة بينهم وبين المسيحيين الآخرين ، والمجتمعات الاسلامية فيما بعد ، فان هذه الحضارة لا تقترب من حضارات الشرق الأدنى

وفى الحضارة الحبشية تأثيرات بيزنطية قوية وتأثيرات عربية كما كانت الأنظمة الحكومية في جوهرها ذات طابع سامي.

وانتشر زنوج افريقيا من الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى وشرقى السودان الى أقصى جنوب أفريقيا حيث يقابل الانسان قبائل « الخويسان » أى « البشمن » و « الهوتنتوت » الذين يختلفون عنهم بعض الشيء من الناحيتين الجسمانية والحضارية . وبالرغم من وجود اختلافات محلية عديدة ، اذ أن بعض مظاهر معينة توجد في كل أنحاء المنطقة مما يجعلها تظهر وكأن هذه الحضارات المختلفة قد انحدرت كلها من أصل واحد فى وقت موغل فى القدم. فالاختلافات بين هذه الحضارات تظهر في صور واضحة في ميادين التكنولوجيا ، وفى التنظيم الاقتصادى ، وهما عنصران حضاريان يتأثران تأثرًا كثيرًا بالاختلافات في البيئة الطبيعية وبالصلات مع الحضارات الأخرى، كما توجد أيضا اختلافات واضحة في مقدار ، ونوع ، وتنظيم الجماعات السياسية.

وكانت هناك نظم اجتماعية معينة موجودة في كل أنحاء افريقيا الزنجية. فتعدد الزوجات أمر شائم وهو مرتبط بزيادة عامة في عدد النساء ، وذلك راجع من ناحية الى أوجه النشاط الخطرة التي يمارسها الرجال كما يرجع من ناحية أخرى الى زيادة عدد الاناث على الذكور فى نسبة الولادة وفى نسبة البقاء. ودفع مهر العروس أمر شائع عام ، وكان يقصد منه في أول الأمر أن يكون تعويضا لعائلة المرأة عن الخسارة التي تلحق بهم لفقدهم لخدماتها ، وخدمات أبنائها الذين في ضمير الغيب. ولكن مثل هذا التفسير لم يجعل من المرأة شيئا من بين الأشياء التي يمتلكها الزوج ، ولم يمنعها من فصم عرى الزواج اذا تعرضت لاستفزازات تكفى لاغضابها . وبالرغم من وجود نظام الانتساب الى كل من الأم والأب فان الزواج فى كل مكان تقريبا كان من بين الأقارب المحليين من أهل الأب. وكان المقر ، أو المنزل المعتاد للمائلة ، يجمع



المائلة كلها ، وكان لكل زوجة وأبنائها مسكن خاص. وكان هناك ميا لتكوين عائلة مترابطة من أبناء الرجل وأحفاده وذلك بأن يستمروا فى تحت سقف واحد ، وأن يمتلكوا العقارات مجتمعين وأن يتعاونوا فيم وفقا لارشادات رئيس من بينهم بحكم الورائة. أما الرجال الذين يست الخروج على ذلك ، ويمكنهم تحمل المسئولية ويقيمون منازل لأنفسهم ، فانهم يصبحون بدورهم مؤسسين لعائلات جديدة ترتبط باللأخرى. وان بضع عائلات من العائلات التى تكونت بهذه الطريقة ما زالت تعترف بوشائج القرابة ، تستطيع أن تكون فرعا للعشيرة كما ترضعة فروع من العشيرة أن تكون عشيرة أخرى.

وفى خارج مناطق الممالك الكبيرة ، ليست العشائر الا وحدات محلية . والعشائر الفرعية ، دون استثناء تقريبا ، تتزوج من الخارج . العشائر أيضا تتزوج عادة من خارجها عندما تكون جزءا من وحدات س

كبيرة ، أما اذا كانت مستقلة من الناحية السياسية ، فان أفرادها يتزوجون فى الخلها ، وعلى رأس كل مجموعة من الناس المرتبطين برابطة القربى يوجد رئيس أو زعيم يستمد قوته من الدور الذى يلعبه فى عبادة الأسلاف . وكان أعضاء العشائر ، والعشائر الفرعية يميزون أتفسهم فى الغالب بلبس نوع خاص من الملابس ، أو عسل تشريط معين فى وجوههم أو غير ذلك . أما الطواطم ، أى الحيوانات أو النباتات أو الأشياء التى كانت ذات صلة خاصة باحدى الجماعات الانسانية فقد كانت شائعة جدا فى العشيرة الواحدة . كان يحرم على أفراد العشيرة أن يذبحوا أو أن يستخدموا طوطمهم ، ولكنهم كانوا لا يعترضون على قيام أفراد العشائر الأخرى بهذا العمل . وكانت هناك فى العادة أسطورة تشرح هذه العلاقة بين العشيرة والطوطم ، ولكنهم لم يعتقدوا فى أغلب الحالات بأنهم من نسل الطوطم .

كانت المجتمعات منتظمة تنظيما طبقيا ، وهو تقسيم ثلاثى يبدأ بالزعماء ثم العامة الأحرار ، وأخيرا العبيد . وكانت العلاقات بين الزعماء والذين من دونهم علاقة استبدادية (أوتوقراطية) الى حد بعيد . كان هذا النظام يبدأ بالمائلة ، وكان المنتظر من الأطفال أن يظهروا احتراما زائدا لآبائهم ، كما كان يتوقع من الشبان أن يظهروا احتراما زائدا للذين يكبرونهم سنا ، وقد انعكست مثل هذه الاتجاهات في سلوك أعضاء العشيرة أو العشيرة الفرعية نحو رؤساء هذه الوحدات ، كما انعكست في سلوك الأفراد الذين لاينتسبون الى عائلات هامة في المجتمع نحو الملوك والموظفين . أما نظم الانتخابات الشعبية أو الحكومة التي تمثل الشعب فلم يكن لها وجود . وكانت كل المناصب السياسية اما وظائف يتوارثها الأبناء عن الآباء أو يحصل عليها شاغلها بالتعيين . أما الديموقراطية فلم توجد الا في القرية فقط ولم تتعدها ، اذ كانت بالاتجاهات ، كما هو الحال في جميع قرى العالم ، تقرر عن طريق المناقشة

غير الرسمية بين الرؤساء الطبي<mark>عيين للجماعة . وكان للزعماء مستشارون</mark> ينتخبونهم بانفسهم ولا يسمحون لهم الا بتقديم المشورة فقط .

وبالرغم من هذه النظم الأوتوقراطية ، فان نظرتهم الى القانون ، التي تشبه تماما النظرة الأوروبية ، موجودة في كل المجتمعات الزراعية وفي معظم مجتمعات الذين يعيشون على صناعة الألبان . كان يسمح للزعيم بممارسة سلطاته الأوتوقراطية ، ولكن في حدود مفهومة واضحة ، ولم تكن مجموعات القوانين بأقل صلاحية لأنها كانت تنقل حرفيا . ومن أهم وظائف الزعماء أن يكونوا قضاة يحكمون بين الناس ، فكانت القضايا ترفع الى الزعيم ، ويقدم المتخاصمان حججهم بعد أن يقسم كل منهما اليمين ، ويعتمد الزعيم في حكمه على السوابق. وكان يتوقع منه أن يظهر حكمه وصلاحيته لمنصبه وذلك عن طريق المهارة التي يظهرها في فهم الحجج المتعارضة وفي توقيع العقاب المتناسب مع الجريمة . وفي حالة وجود حكومة بها موظفون ، فمن الممكن أن تستأنف القضايا من المحاكم الابتدائية الى المحاكم الأعلى منها الى أن تصل الى رئيس الوزراء أو حتى الى الملك نفسه . وكان مسموحا بصفة عامة بالحكم بين متخاصمين بوساطة الحكم الالهي عن طريق التعذيب ، ولكنهم كانوا يلجأون الى ذلك فقط عندما تكون الأدلة غير جازمة ، ويترتب على ذلك عدم الوصول الى قرار نهائى .

وكانت الطقوس الخاصة بالوصول الى سن البلوغ عامة بينهم. كانوا يلقنون مجموعات الصبية والبنات الارشادات فى معسكرات منفصلة تقام فى الغالب على مسافة غير بعيدة من القرية. وفى هذه المعسكرات كانوا يعيشون تحت الرقابة الكاملة من أفراد بالغين ولكن يجب ألا يكونوا آباء أو أمهات لهؤلاء الشبان. كان هؤلاء البالغون تلقى عليهم الغشاوة بمختلف الوسائل ، ثم يلقنونهم فى النهاية المعلومات الجنسية ، وغالبا ما كانوا يلقنونهم أيضا بعض المعلومات الدينية السرية. وكانوا يقومون بعمل عمليات مختلفة من تشويه الجسد فى أغلب الحالات وبطرق شتى وكانوا يختنون الصبية أما بالنسبة للبنات فكانوا يقطعون البظر وفى المناطق التى يزاولون فيها عمل التشريط فى الوجه ، فانهم كانوا يشرطون وجوه كل من الفلمان والفتيات بالعلامات الميزة للقبيلة .

وكانت عبادة الأسلاف هي الدين الأساسي للعلم في افريقيا الزنجية .
وكانوا أصلا يتوجهون بهذه العبادات الى مؤسسي الجناعات المتصلة بصلة القربي والى الأبطال الذين كانت أعمالهم ما زالوا يتذاكرونها فيما بينهم . كانوا يؤمنون ايمانا ثابتا بأن الموتي يهتمون كثيرا بما سيفعله خلفاؤهم ، وأنهم قادرون على مساعدتهم وكانوا قادرين أيضا على الحاق الضرر بهم ، كما كان في الامكان التأثير عليهم بوساطة الابتهال وبالأخص تقديم الأضاحي وعلى هذه الافتراضات الأساسية نشأ الكثير من المعتقدات والعادات المحلية . فبالاضافة الى أرواح الأسلاف ، كانت هناك آلهة غير آدمية ، ولكن عدد هؤلاء الآلهة وأهميتهم كانت تختلف اختلافا كبيرا بين منطقة وأخرى . وباستثناء القليل من الممالك الكبيرة كانت عبادة الآلهة تقل في أهميتها عن عبادة الأسلاف .

وكان هناك اعتقاد راسخ فى السحر بكل فروعه ، كما كان المطببون الذين يمارسون هذه المهنة ، يحتلون مراكز مرموقة بينهم . كان الكهنة المحترفون يقومون بالعناية بهياكل الآلهة المختلفة ويشرفون على عبادتها . أما الاشراف على عبادة الأسلاف فقد كان من واجبات رئيس الجماعة من ذوى القربى . وكان هناك أيضا من يحترفون الانباء بالغيب ولا يمارسون غير هذا النوع من السحر ، أما النشاط الرئيسي للمطببين فقد كان موجها بصفة خاصة الى شفاء المرضى .

كان المطبب ، عادة ، شخصا ذا نزعات هستيرية ، ولما كان هذا المنصب منصبا هاما من الناحية الاجتماعية ، وفى الوقت ذاته يدر الكثير من المال فقد كانوا يراقبون وجود مثل هذه النزعات في الأطفال ، وكانوا يشجعونهم وكانوا يصوغون تعبيراتهم في الصيغ التي تلائم ما ينتظرونه لهم . وعلى النقيض من الاعتقاد السائد فان من النادر ، بل يكاد يكون من المستحيل ، أن نجد رجلا مطببا يشكو من مرض عقلى . فلكي يزاول هذا المطبب عمله بنجاح ، كان يتحتم عليه أن يعرف الكثير في الحقائق وأن يكون ممتازا في ذكائه ، وفي الوقت ذاته يجب أيضا أن نعرف أن الغالبية من المطبين ليسوا من أهـل الشعوذة . كان هذا الشخص يعتقد فيما لديه من قوى ، وكان يملك في الغالب تلك المقدرة التي تسميها الآن الادراك الحسى الزائد ، وكان أيضا في معظم الحالات معالجا تفسانيا عظيما ، ولديه علم بعلاجات حقيقية للأمراض لا صلة لها بالسحر ، يعالج بها المرضى الذين يشكون من الأمراض العادية . وما من شك فى أن دراسة العقاقير الطبية الافريقية وطرق الشفاء من الأمراض يمكن أن تقدم الكثير من المعلومات الى معارفنا الطبية . كان المطبب يعرف السحر بكل فروعه ، وكان فى مقدوره أن يقتل ، كما كان فى مقدوره أن يبرىء . كان على استعداد لأن يقدم التعويذات التي تؤذى وأن يقدم أيضا الارشادات اللازمة لاستخدامها ، تماما كما يفعل الصيدلاني الحديث اذا قدم السموم . ومع ذلك ، فان هذا كله ليس الا ناحية بسيطة من أوجه النشاط . ويجب ألا نخلط بين المطببين والسحرة الذين يؤذون الناس الذين يوجدون فى كل مكان فى افريقيا الزنجية. فالساحر شخص يمارس دائما السحر الشرير ولهذا يعتبرونه في كل مكان عدوا لدودا للجماعة ، لأنه يسمى للشر حبا في الشر. ولم يقتصر أذى السحرة على الأفراد فحسب ولكنه ضد الانسانية عامة . ولذلك كانوا يقتلونهم بدون شفقة حيثما كان يكتشف أمرهم . كانوا يعتقدون أن اشتغال الرجل بالسحر لم يكن فى الغالب من وحى ارادته واختياره بل كان يفعله دون ادراك اذ كانوا يظنون أن ذلك راجع الى وجود « مادة سحرية » فى الجسد وصفوها بأنها مادة هلامية بيضاء تشبه « البلغم » بعض الشيء ، ومن المكن الحصول على مثل هذه المادة بطرق شتى ، كما كان من المحتمل أن تصل الى الشخص بطريق الوراثة ، ومن المكن أن يصبح الشخص ساحرا شريرا دون أن يدرى . وبما أن أعضاء الجماعة يشتركون جميعا فى الايمان بهذه المعتقدات فان الأشخاص الذين يكتشف أمرهم ويتهمهم المطببون بمزاولة أعمال السحر ، كانوا فى العادة يعترفون ويحكم عليهم بالاعدام دون أى اعتراض . وبينما كان المطببون يعملون فرادى ، اللهم الا عندما تضطرهم آداب مهنتهم الى الاجتماع بغيرهم ، فان السحرة يعملون، كما هو المعتقد ، فى جماعات منظمة يجتمعون فى الخفاء وينظمون معا يريدون عمله .

ومن أهم وجوه نشاط المطبين عمل الفتيش. ومن الصعب على القارىء غير الافريقى أن يفهم حق الفهم طبيعة هذه الفتيشات. فانها لم تكن مسكونة بالأرواح كما أنه من المعروف أنها كانت تصنع ، ومع ذلك كانوا ينظرون اليها على أنها كائنات حساسة. كانت القرابين تزيد من قوتها ، كما كان فى مقدورها أن تسمع ، وأن تستجيب للدعوات وأن تجلب الحظ الحسن أو الحظ السيىء ، وترجع قوتها الى كونها مركبة من مواد معينة ومصنوعة بطريقة معينة ، ومعظم المواد التى كانت تصنع منها « الفتيشة » مأخوذة من النباتات والحيوانات ولكن كثيرا منها ذات القوى العظيمة كانت تشتمل على دم آدمى ، وعظام ، وبعض أعضاء من الجسم. والفكرة مع ذلك لا تختلف كثيرا عن فكرتنا نعو وبعض أعضاء من الجسم. والفكرة مع ذلك لا تختلف كثيرا عن فكرتنا نعو وكل منها غير ضار فى حد ذاته ولكن تصير لها قوة مدهشة عندما تتحد بنسب معينة وبطريقة معينة .

وكان فى استطاعة قطعان الماشية التى جلبها المهاجرون النيوليتيون الى افريقيا أن تنتشر فى المناطق التى تنمو بها المحصولات التى جلبوها معهم بعد جهد كبير، هذا اذا نمت على الاطلاق. وكانت النتيجة الناجمة عن ذلك هى

تطور وارتقاء حضارة صناعة الألبان الافريقية التي تشبه في بعض نواحيها الحضارة الأوروبية الأسيوية التي وصفناها آنفا في الفصل التاسع عشر. وفي المصور التاريخية ، على الأقل ، كان أصحاب حضارات صناعة الألبان الافريقية في غالبيتهم من الزنوج ، مع أن كثيرا من هؤلاء الزنوج كان يظهر فيهم آثار اختلاطهم بالجنس القوقازى . وكان مركز التطور بالنسبة لصناعة الألبان ، على ما يظهر ، هو شرقى السودان ، وهو المركز الذي ظهرت فيه فى الأزمنة المتأخرة أكثر الخصائص الميزة لهذه الحضارة. وبالرغم من أنها قد تطورت ، كما هو مفترض ، عن طريق الحيوان المستأنس الذي كان يمثل نصف اقتصاديات العالم النيوليتي الأصلى ، فليس هناك شك في أن جماعات الصيادين وجامعي الطعام ، الذين لم يعرفوا الزراعة على الاطلاق ، قد أقبلوا على هذه الحضارة اقبالا مباشرا ، اذ يصعب علينا أن نفسر ما حدث بين قبائل الهوتنتوت بأى تفسير يقوم على أساس آخر خصوصا واننا نعرف انه حدث فى أجزاء أخرى من العالم ان انتقلت بعض القبائل من حياةً الصيد الى الاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس في سرعة وسهولة تامتين.

وركزت كل حضارات صناعة الألبان الافريقية اقتصادياتها على قطعان الماشية ، وكانوا يربون عادة بعض الحيوانات الأخرى ، وأخصها الأغنام ، ولكن بأعداد قليلة ، وكانت أهميتها الحضارية ضئيلة . وفى العصور التاريخية زاولت معظم المجتمعات التى مارست حضارة صناعة الألبان ، فيما عدا الهوتنتوت ، الزراعة فى حدود ضيقة ، حيثما سمحت الظروف المناخية بذلك . وكانت محصولاتهم الأصلية على ما يرجح هى المحصولات الافريقية التى سبق ذكرها ، ولكن منذ القرن السابع عشر فصاعدا أضيفت الى هذه المحصولات محصولات أخرى ، ثم حلت محلها محاصيل غذائية من أصل أمريكى وعلى محصولات أخرى ، ثم حلت محلها محاصيل غذائية من أصل أمريكى وعلى الأخص الذرة والفول السودانى ونبات المنيوق (maniae) والقرع العسلى . وقد ينجم عن ادخال هذه النباتات ، التى تناسب تمانا بيئة الهضبة الافريقية ،

زيادة في اعتماد الشعوب التي تمارس صناعة الألبان على الزراعة. كانت الماشية هي المحور الذي تدور حوله وتتركز فيه العواطف والحضارة في حياة السكان. واقتصرت كل الأعمال التي تدور حول الماشية على الرجال ، كما أن جميع الحضارات التي تعتمد على هذا النوع من الاقتصاد تسير على نظام الانتساب الى الأب والامتثال لسلطته. وكان مهر العروس يدفع بعدد من الماشية ، وفي بعض القبائل كانت العلاقة الجنسية التي تتم بين أي شخصين ، كانت والدتاهما قد دفع فيهما مهر بماشية من نفس القطيع ، تعتبر فاحشة منكرة محرمة. وفي بعض القبائل الأخرى كانت الزوجة التي تشترى بعاشية حصل عليها الرجل لنفسه بدلا من أخذها من أقاربه تصبح ، في عرفهم ، بأنها حصل عليها الرجل لنفسه بدلا من أخذها من أقاربه تصبح ، في عرفهم ، بأنها حول القبائل الحق في تأسيس فرع جديد من العائلة.

أما الثروة فانها تقدر حسب عدد القطيع الذى يملكه الرجل بصرف النظر عن نوعه ، وقد نجم عن هذا الاتجاه في العصور الحديثة وجود مواش منحطة النوع ، كما أن سوء استخدام المراعي أضر بالمراعي المحجوزة للوطنيين . وكان حب الرجل لماشيته مضرب الأمثال ، وحتى من كان يملك منهم بضع مئات من الرءوس فانه يعرف كل حيوان يملكه . كانت الحيوانات تبيت في حظائرها ليلا وترعى بالنهار تحت اشراف الغلمان ، وكانت تحلب فى الصباح وفى الليل ، كما كانت تفصد أيضا للحصول على شيء من دمها . وكانت عملية الفصد تتم من طريق اطلاق سهم صغير من قوس على أحد عروق الرقبة ويؤخذ كوب أو اثنان من دمائها ثم يترك الجرح بعد ذلك ليلتئم . واذا ما حكمنا اعتمادا على سلوك الحيوان ، فان هذه العملية لا تسبب الا القليل من الآلام. ولما كان المصريون القدماء لم يعرفوا هذه الطريقة على ما يبدو، كما أن جميع الشعوب السامية تقف موقفا سلبيا ازاء استخدام الدم في أي صورة كانت ، فان ذلك يدل دلالة قوية على أن طريقة نربية القطعان الافريقية طريقة زنجية الأصل ، كما أنها توحى أيضا بوجود بعض تقاليد الصيادين بين محدثى هذا التنظيم لأن كل الشعوب التى تعيش على الصيد تنظر الى الدم على أنه عنصر هام من عناصر الوجبة الفذائية ، والسهم كما هو معروف هو السلاح الرئيسى للصياد .

وبالرغم من أن معظم المجتمعات التي تقوم على صناعة الألبان في العصور التاريخية كانت تخرج للصيد فى جماعات كبيرة للقضاء على الأسودوالحيوانات المفترسة الأخرى اذ كان من النادر أن تخرج هذه الجماعات للصيد بفرض الحصول على اللحوم. وحيث ان حيوانات الصيد كانت متوافرة في كل مكان في الهضبة ، فإن هذا الاهمال لمورد طبيعي هام يبدو أمرا غريبا . وفي كثير من الحالات سمحت القبائل التي تعتمد على صناعة الألبان لبعض قبائل الصيادين ذوى المركز الاجتماعي المنحط بأن تشاركها المعيشة في أراضيها ، وكانوا يعصلون منهم على جُلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى لكى يلبسوها . ولم يدخل على حضارات صانعي الألبان الا تقدم طفيف في الناحية التكنولوجية . وكان معدن الحديد شائع الاستعمال بينهم كأدوات وأسلحة ، كما كان يستخدم حتى في أدوات الزينة . كان هذا المعدن فيما يبدو متوافرا جدا. كما أتقنوا استخدامه في الجزء الشمالي من الهضبة. وكان الحدادون یکونون فی کل مکان طبقة مستقلة بنفسها ذات مرکز اجتماعی منحط ، وربما كان تفسير ذلك هو أن طرق الصناعات الفنية الحديدية قد أدخلها صناع أجانب وكانوا ينسجون الحصر ولكن النول الحقيقي لم يكن معروفا لديهم .

أما الملابس فكانت قليلة ، وكثير من أهالى الشمال الذين يمارسون صناعة الألبان كانوا يمشون عرايا تماما ، لا يحملون فوق أجسامهم الا بعض أدوات الزينة . وفى أقصى الجنوب كان النساء والرجال يرتدون مآزر قصيرة حول الوسط . وكانت الأغطية المصنوعة من جلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى عنصرا هاما من عناصر الملابس فى كل أنحاء المنطقة . وكانت الأوانى تصنع من الخشب أو من نبات القرع ، ومع هذا فان أوانى الطهى البسيطة

المصنوعة من الفخار كانت منتشرة بين كثير من القبائل. وكان الفن بدائيا ، واقتصر على بعض الرسوم الهندسية البسيطة التي كانت تعمل بوساطة الحرق فوق سطح الأواني. وعلى النقيض من غربي افريقيا ، لم تكن هناك تماثيل منحوتة أو أقنعة أو أي أدوات خاصة بالطقوس ، ويرجع ذلك بدون شك الى طبيعة الدين البسيطة وغير المنتظمة ، نسبيا في المنطقة .

وكان التنظيم الاقتصادى بسيطا واذا تركنا جانبا الحدادين ، لم يكن هناك صناع متخصصون كما أن الأسواق التى كانت ذات أهمية كبيرة فى كل الاماكن الأخرى فى افريقيا الزنجية لم تكن من الأمور التى تمتاز بها حضارات صانعى الألبان فاذا حدث ووجدت مثل هذه الأسواق ، فمن السهل أن نعرف أن ذلك راجع الى تأثير أجنبى .

وفى قبائل صانعي الألبان ، كانت المعتقدات الدينية وطقوسها بسيطة للغاية . فلم تكن هناك مبادىء أو قوانين تبحث فى طبيعة الروح ، كما أن المعتقدات التي تتعلق بأحوال العالم الآخر كان يكتنفها الغموض وكانت نظرتهم نحو خلود الروح بعد الموت تتسم بالاعتدال حتى بين أعظم الجماعات ميلا الى الحروب ، اذ أن نسبة الأمل فى بقاء الانسان حيا لمدة طويلة كانت نسبة قليلة . ولقد اتفقت بعض قبائل صانعي الألبان الشمالية مع الشاعر جوته فى أن الروح ليست هبة وانما هي شيء يناله صاحبه بمجهوده ولهذا اقتصر الخلود على الزعماء والمطببين والأبطال. واعترفت معظم قبائل صانعي الألبان القبائل كانت تفتقر الى معابد منظمة وأمورها منسقة مثل معابد الآلهة لدى الشعوب التي تشتغل بالزراعة . وعلى وجه العموم لم يهتم الناس بعبادة الآلهة والأسلاف الا في حالات الخطر فقط ، وكانت الطقوس في هذه الحالات بسيطة جدا . كانت القرابين الحيوانية تقدم من آن لآخر ، أما القرابين الآدمية فقد كانت نادرة جدا. وتحتم الحياة بين سكان حضارة صانعي الألبان خلق نظم خاصــة في الأماكن التي يقيمون فيها (انظر الفصل التاسع عشر) . كانت الجماعات الافريقية التي تشارك في هذا النوع من الاقتصاد تعيش عادة في أكواخ صغيرة ومنتشرة في كل مكان ويسمى الواحد منها « كرال » يعيش في كل منها عائلة مرتبطة ببعضها . كانت المنازل التي تحتلها الزوجات والأبناء وزوجاتهم تشيد حول حظيرة للماشية تتوسط المكان ولما كانت الماشــية تغرى دائما بالاغارة عليها لسرقتها ، فان معظم جماعات صانعي الألبان الافريقية كانت من القبائل التي تميل جدا الى الحرب ، الأمر الذي مكن لها من أن يكون لها مركز محترم فى علاقاتها مع جيرانها الزراعيين الذين لا يميلون مثلهم الى الاعتداء ، وقد أدى ذلك في النهاية الى وجود دويلات عديدة على أطراف المنطقة التي كانت تربى فيها الماشية وأن تصبح الطبقة الأرسستقراطية التي تحتفظ بالماشية هي الطبقة الحاكمة للمناطق التي يقطنها سكان أغلبهم من الفلاحين . وهناك ظاهرة عجيبة خاصة بتلك الدويلات ، وهي أن كثيرا من تلك التي نشأت على الحد الجنوبي من السودان لم تنشأ الا منذ عهد قريب نتيجة لهجرات قامت بها قبائل « الفلا » (Fullah) التي أتت من الشرق. ويصعب علينا أن نحدد تماما الجنس الذي تنتسب اليه هـذه القبائل التي نرى فيها مزيجا واضحا من الملامح الزنجية والملامح القوقازية . ويبدو أنها كانت أصلا من بلاد السنعال وبعد اعتناقها للاسلام بدأت تهاجر على نطاق واسع نحــو الشرق ، وحيثما كانوا يذهبون كانوا ينجحون في السيطرة على الزنوج. وحتى فى العصر الحاضر نراهم قد نجحوا فى السيطرة على الشعوب الزنجية التي تعمل في الزراعة في المناطق التي لا تخضع خضوعا رسميا لحكمهم .

وفى خارج المناطق التى كانوا يحكمونها كفاتحين ، كان التنظيم السياسى عند رعاة الماشية من السودائيين وسكان شرقى أفريقيا تنظيما بدائيا . كان النظام المعتاد هو اتحاد يقوم بين العشائر والعشائر الفرعية ويراعى فيه مركز

كل عشيرة ومكانتها أما نظام الرق فلم يكن مهما من الناحية الاقتصادية ، وفى كثير من الحالات لا نرى أثرا لوجوده .

كانت النظم القانونية أقل تطورا هنا منها فى المناطق الزراعية. أما السلطة السياسية التى كانت سائدة بينهم فقد كانت فى العادة مركزة فى يد زعماء العشائر أو المطبين الذين يتوارثون مهنتهم ، وكانت وظيفتهم الرئيسية هى انزال الأمطار. وكانت النظم الثانونية أقل تطورا هنا منها فى المناطق الزراعية. وأكثر المظاهر الاجتماعية التى يمتازون بها هى تلك الأهمية الكبيرة التى

وأكثر المظاهر الاجتماعية التي يمتازون بها هي تلك الأهمية الكبيرة التي يعلقونها على تكوين مجموعات من الشباب الذين في سن متقاربة وكانت كل مجموعة من الشباب الذين يصلون الى سن معينة يختلفون بدخولها طور الرجولة فى وقت واحد ، ويجرون لافرادها عملية الختان بنفس المدية ، وبذلك يقيمون بينهم عهدا من الاخاء ، ويصبحون مرتبطين برابطة الدم . ومثل هذه المجموعة كانت تخدم معا كوحدة فى الجيش ، وكان لأعضائها حقوق عليهم وواجبات متبادلة بينهم وبين بعضهم البعض قد تمتد فى بعض الحالات الى حد اقتراض الزوجات .

ويسكن معظم أرجاء الهضبة فى جنوبى كينيا سكان من القبائل التى تتكلم لغة البانتو وهى قبائل لم تصل الى هذه المناطق الا منذ وقت قريب نسبيا . وبالرغم من أن تربية الماشية كانت تضفى على اقتصاد هذه القبائل عندما اتصل بهم الأوروبيون ، فانهم كانوا يعتمدون أيضا فى الوقت نفسه على الزراعة اعتمادا كبيرا أكثر من القبائل السودانية وقبائل صانعى الألبان فى شرقى افريقيا . وقد يكون هذا الاتجاه ازداد تتيجة لمعرفة هذه القبائل للمحصولات الأمريكية فى الوقت الذى اتصل فيه الأوروبيون بتلك المنطقة لأول مرة . وليس هناك شك فى أنه قبل مجىء هذه القبائل الى الهضبة كانت حضارة هؤلاء الغزاة الذين يتكلمون لغة البانتو تشبه تماما حضارة سكان القرى من مزارعى غربى افريقيا ، ويبدو أنهم قد جلبوا معهم أساليب أكثر

تقدما فى التنظيم السياسى. وفى خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر استطاعوا أن ينشئوا فى المنطقة عددا من الامبراطوريات التى لم تعمر طويلا وكان كل منها يرتكز حول زعيم عظيم ومنظم حربى ، ولكن لم تستطع واحدة من هذه الامبراطوريات تكوين الاداريين المحترفين الذين ساعدوا على الاستمرار فى بقاء الممالك الزراعية ، وأشهر هذه الامبراطوريات هى امبراطورية الزولو التى أنشأها الزعيم « تشاكا ».

وفي أقصى الجنوب من افريقيا استمر الهوتنتوت يحيون حياة هي صورة محرفة جدا من حياة حضارة صانعي الألبان ، وهؤلاء الهوتنتوت قريبو الشبه جدا ، سواء في مظهرهم الجسماني أو في لغتهم ، بقبائل البوشمن . ولا شك أنهم كانوا يتبعون أصلا حضارة لها طابع حضارة البوشمن (انظر الفصل الشاني عشر) ، ولكن طرأت عليها تعديلات بسبب صلتهم بمجموعة من مجموعات حضارة صانعي الألبان. وقبل أن يغزو المتكلمون بلغة الباتتو هذه الهضبة ، كان نفوذ الهوتنتوت يمتد كثيرا نحو الشمال ، ربما الى حدود كينيا . كانت الماشية والأغنام ذات الذيل السمين هي أهم حيواناتهم المستأنسة لأن كلا النوعين يمكن الحصول على اللبن منه . وكانت النساء هن اللاتي يقمن بأعمال الحلب ، كما كانت الماشية تستخدم كدواب للحمل ، وهما الأمران اللذان جعلا الشعوب الافريقية الأخرى من صانعي الألبان تنظر اليهم كأنهم يأتون أعمالا تقرب من الكفر . وبدلا من أن يعيش الهوتنتوت فى أكواخ ثابتــة (كرال) بوجه عام ، فانهــم كانوا يُعيشون في معسكرات مؤقتة ، وكانوا يكثرون من التحرك من مكان لآخر . وهم يعتمدون اعتمادا عظيما على الصيد الذي يقوم به الرجال ، أما أساس التنظيم الاجتماعي بينهم فهو الجماعة التي تعيش معا وتنتسب الى الأب وتتزاوج من الخارج. ولكن هناك دلالات كثيرة على أن الانتساب الى الأم أو على الأقل الانتساب الى كل من الأم والأب كان معروفا لديهم . وأهم الظواهر الاجتماعية التي يمتازون بها هي الاحترام الكبير ، والذى يبلغ حد التجنب ، الذى يبديه الاخوة نحو اخواتهم البنات والروابط القوية التى تربط الرجل بأخواله . ولم يعرفوا من التنظيم السياسى الا القليل الذى لا يستحق الذكر . وبالرغم من أنه كان لكل مجموعة منهم رئيس يرأسهم ، فلم يكن لهؤلاء الرؤساء سلطة حقيقية . أما الدين فلم يكن الا صورة غير منظمة من عبادة الأسلاف ، وكان للقبر شأن كبير فى أساطيرهم، ولكن لم يكن هناك شأن هام الا لثلاث كائنات أخرى ذات قوى فوق القوى الطبيعية كانوا ينظرون اليها على أنها أكثر أهمية من الأشباح العادية للموتى ، بل انهم كانوا يعتقدون أيضا أن هذه القوى الثلاث من أصل آدمى . وكانت الاحتفالات السنوية بمقدم المطر ، والتى كانت تقام فى شهر نوفمبر أو ديسمبر عندما يحين وقت أمطار الصيف ، أهم الاحتفالات الدينية عندهم .

وفى افريقية ، كان الحد الذي يفصل بين الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان يتصل اتصالا تاما بنزول الأمطار . فابتداء من حدود الصحراء الكبرى يزداد سقوط المطر كلما سرنا نحـو الجنوب في مناطق السـودان الغربية والوسطى الى أن يضل الانسان الى الأقاليم الاستوائية الرطبة التى تقع فى الأراضى الساحلية الواطئة ، وفى حوض الكونفو . ولم يكن هـــذا التغيير في المناخ مفاجئا أو سريعاً بل كان يسير تدريجيا الى درجة جعلت كلا من الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان تعيش جنبا الى جنب في مساحات واسعة مترامية الأطراف فى الشرق وفى الغرب. وبالرغم من أن بعض القبائل كانت تمارس تربية القطعان والزراعة فى وقت واحد ، فان الأسلوب السائد بينهم كان يتمثل في العلاقة التكافلية التي تربط بين صانعي الألبان وبين المزارعين ألذين كانوا يعملون جنبا الى جنب ، ويتبادلون المنتجات . ومع كل ، فان السيادة السياسية لصانعي الألبان على المزارعين كانت هي النظام المالوف. وعلى طول الحدود الغربية للهضبة الافريقية الكبرى ، كان الانتقال المناخي من ناحية أخرى مفاجئًا ، كما أن الحدود التي تفصل بين اقتصاديات

صانعى الألبان والمزارعين كانت تسير تماما مع الخط الذى تسقط فيه الأمطار بمعدل أربعين بوصة سنويا . وحيثما يزد انهمار المطر عن هذا المعدل فان وجود ذباب التسى – تسى الذى يحمل مرضا قاتلا للماشية ، كان يجعل من صناعة الألبان عملا غير مربح .

ويصلح الاقتصاد القائم على الزراعة ليكون أساسا لارتقاء ممالك عظيمة مستقرة نسبيا يمكننا أن نقول عنها ، اذا صرفنا النظر عن موضوع معرفة القراءة والكتابة ، انها تستحق أن تسمى مدنيات . وهذه هي المالك التي سنتحدث عنها في الفصل القادم ، وكانت كثيرة العدد ومتقدمة جدا في المناطق التي تقع في جنوبي السودان مباشرة . وبالرغم من أن النظم الامبراطورية قد تسربت هي الأخرى الى الكونغو فان معظم الدويلات التي قامت هناك تفتقر الى التنظيم المحكم الذي كان يسود الدويلات الشمالية ، وكانت أقل منها تقدما . والى الجنوب من ذلك اختفت المجتمعات المنظمة سياسيا تاركة وراءها جماعات مستقلة أو مجموعات صغيرة من القرى على رأسها زعماء محليون. وتشابهت نظم الحياة الريفية فى كل أنحاء المنطقة التى كان اقتصادها الرئيسى يعتمد على الزراعة للارجة أن المرء يجد نفسه مضطرا الى الاستنتاج بأنه كانت توجد هناك طبقة حضارية قديمة وفرعية ، فرضت عليها النظم المركزية السياسية فرضا في مناطق مختلفة دون أن تستطيع أن تغير شيئا كثيرا في الحياة اليومية لعامة الشعب.

وفى المناطق التى كانت ترتفع فيها جدا النسبة فى نزول الأمطار كانت الماعز والدجاج والكلاب هى كل الحيوانات المنزلية ، ويقل أو يندر وجود أثر لتربية الخنازير . وعلى حدود المنطقة المزروعة كانوا يربون بعض الماشية ولكنا نلاحظ أنهم يميلون جدا الى التخصص فى ذلك مثل ميلهم الى التخصص فى وجوه النشاط الاقتصادى الأخرى . واتصلت القبائل التى تحتفظ بالماشية بالقبائل التى تعسل فى الزراعة ، وكانتا تتبادلان منتجاتهما والمحصولات

الرئيسية للمنطقة التي يغزر فيها سقوط المطر ، هي الموز واليام والتارو ، ويشار الى النبات الأخير عادة في المؤلفات باسم يام الثور . والموز والتارو نباتان اصلهما من منطقة جنوب شرقي آسيا وقد دخلا الى افريقيا حتما عن طريق المحيط الهندى . كما نعرف أيضا أن فصيلة من فصائل نبات اليام ، على الأقل ، قد جاءت الى المنطقة من جنوب شرقي آسيا . ومن المرجح جدا أن الذين نقلوا هذه المحصولات هم المهاجرون الملايو — پولينيزيون الذين هاجروا الى جزيرة مدغشقر واستقروا فيها . وحيث ان جميع المحصولات فات الأهمية الاقتصادية التي كانت تزرع في المناطق الاستوائية الرطبة بافريقيا باستثناء اليام لم تكن من أصل افريقي ، فمن المرجح أن هذه المناطق قد تركت بلقبائل البدائية التي كانت تعتمد على الصيد وجمع القوت الى وقت قريب نسبيا .

وفى المناطق التى كانت تسقط عليها الأمطار بكمية أقل كانوا يزرعون الذرة ونبات التپيوكا ومختلف نباتات الدخن (الذرة العويجة) والذرة الصيفية (السورغوم) والفول السودانى . ولكن يجب أن نلاحظ أنه فى هذه المنطقة أيضا لم تكن معظم المحصولات الأساسية فى العصور التاريخية من أصل افريقى . ويبدو من الأسلم أن نفترض أن الزراعة على نطاق واسع ، وهى التى تمهد السبيل لوجود عدد كبير من السكان المستقرين فى مكان واحد ، لم تظهر الا فى عصور متأخرة نسبيا فى افريقيا الزنجية . وحيث ان الحكومات المركزية القوية لا يمكن أن تنشأ بدون وجود مثل هؤلاء السكان فان الحضارات الزنجية يتحتم أن تكون ، هى الأخرى ، من أصل حديث فان الحضارات الزنجية يتحتم أن تكون ، هى الأخرى ، من أصل حديث فان الحضارات الزنجية يتحتم أن تكون ، هى الأخرى ، من أصل حديث فسيا .

ومعظم المنطقة التى تشغلها الآن الحضارات الزراعية كانت فى الأصل منطقة ملأى بالأشجار النامية فيها ، أما المناطق الأخرى مثل الجزء الجنوبى من حوض نهر الكونغو والمناطق الساحلية فى غربى افريقيا فقد كانت تعطيها الغابات الكثيفة ، ولهذا السبب كانت توجد فيها كميات هائلة من الأخشاب الصلبة ومنتجات الغابات الأخرى ، مما جعل فى الامكان حدوث تقدم فنى متقن ومتوازن ، ولو أن ما كانت تنتجه هذه الحضارة من مصنوعات كانت أشياء معرضة كثيرا للتلف و بعبارة أخرى فان عالم الآثار الذى يعمل فى هذه المنطقة يواجه موقفا يشبه الموقف الذى يواجهه فى جنوب شرقى آسيا و بعد ادخال صناعة المعادن أهملوا ، فيما يبدو ، صناعة الأدوات الحجرية بكامل أنواعها ، أما الأدوات الخشبية التى كانت كثيرة دائما على مر العصور ، فقد تعرضت للقضاء عليها بسبب النمل الأبيض والمناخ الاستوائى .

وفى العصور الحديثة عندما زادت قيمة الأشياء الأثرية فى حد ذاتها نرى كثيرا من الأوروبيين ينسبون أعمارا طويلة للأدوات ذات القيمة الفنية التى عثر عليها فى غرب افريقيا . وعلى أى حال فان عمر أى تمشال من التماثيل الخشبية التى لا يصنع مثلها فى الوقت الحالى لا يمكن أن تزيد على مائتين أو ثلاثمائة سنة على أقصى تقدير ، ولكن من الأسلم فى أكثر الحالات أن نقدر مائة عام فقط كمر لأى أداة لم تخرج من افريقيا قبل عام ١٩٠٠ .

أما صناعة السلال وعمل الحصر فقد كانت متقدمة فى كل أنحاء المنطقة الزراعية ، وكان غزل الملابس متقدما جدا فى الجزء الشمالى الغربى من المنطقة ، الأمر الذى يوحى بأن هذه الصناعة قد دخلت الى هذه المنطقة كجزء من الحضارة الفيوليتية ويبدو أنها وصلت الى هذه المنطقة من بلاد البحر الأبيض المتوسط . أما فى الأجزاء الشرقية والجنوبية من المنطقة المزروعة ، فقد استبدلوا الملابس المنسوجة بملابس أخرى مصنوعة من أوراق الأشجار . وهذه الملابس مثل مثيلاتها فى جنوب شرقى آسيا كانت تصنع من أوراق اشجار من عائلة الفيكوسى (Fieus) ، ولكن بعض تفاصيل معينة فى صناعتها تدل على أنها أصيلة وغير منقولة عن غيرها . وكانت الأدوات الفخارية مزخرفة أو تصنع فى كل مكان فى المنطقة ، ولكن ندرة وجود أوان فخارية مزخرفة أو

ملونة تجعلنا نعتقد أن هذه الأدوات الفخارية صنعت لتكون أدوات للطهى قبل أى اعتبار آخر. أما الأدوات التى تستخدم لتناول الأطعمة فهى مصنوعة كلها من الخشب أو من قشرة نبات القرع. وكانت المنازل تشيد من الخشب والقش وهى مواد تلائم المناخ السائد فى المنطقة ، وكانوا يتقنون تشييدها اتقانا يدعو الى الاعجاب ، كما أن منازل المدن كانت فى العادة متسعة وكبيرة الحجم.

وكانت صناعة الحديد بما فيها من عمليات الصهر للخامات المعدنية المحلية منتشرة فى كل أنحاء المنطقة ، زد على ذلك أن صناعة صب الشبة (النحاس الأصفر) والذهب بطريقة الشمع المنصهر كانت من الفنون المتقدمة الى حد كبير.

أما البرونز فلم يكن معروفا بينهم ، كما أن العمال الزنوج الذين يشتغلون بعمل الأشياء المعدنية لم يعرفوا خلط المعادن وعمل السبائك منها. وكان الذهب يصاغ كما يصل اليهم من مناجم الذهب الراسب، أما النحاس الأصفر فقد كانوا يحصلون عليه عن طريق التجارة . ولم يعرفوا استخدام العجلات فى أى صورة من صورها وهو نقص عجيب اذا ما أدخلنا فى اعتبارنا تلك الصلات الطويلة التي كانت تربط سكان الصحراء الكبرى بعضهم ببعض. وعلى النقيض من حضارات صانعي الألبان ، أنتجت معظم الحضارات الزراعية تماثيل محفورة في الخشب ذات قيمة فنية كبيرة ، وكل الأدوات التي يمكن مساهدتها في المعارض الحديثة للفن الأفريقي قد صنعتها بالفعل تلك القبائل التي تمارس مثل هذا النوع من الاقتصاد . وقد وصل الانتاج الفني الى أوج عظمته في الممالك الكبيرة في غربي افريقيا ، وفي الكاميرون وفي الجابون وفي منطقة حوض نهر الكونغو . وفي الممالك العظيمة نرى أن الفائض الاقتصادي المستمد من الشعوب المحكومة قد مكن الطبقة الحاكمة من معاونة الفنانين المحترفين ، بينما مهد الاقبال على أدوات الترف السبيل لوجود أسواق دائمة . والشيء الذي يجب أن نذكره وتؤكده أنه حتى في المناطق التي لا يوجد فيها مثل هذا التركيز للثروة فان الصناع الفنيين ، مع استثناءات بسيطة ، كانوا دائما عمالا محترفين . وكلمة « بدائي » تسمية غير صحيحة اذا ما استعملت لوصف فن النحت الافريقي ، وأي محاولة لمقارنته بما يعمله الأطفال أو المجانين ليست الا محاولة تدعو الى السخرية من صاحبها . ان المظاهر المختلفة التي نراها في الفن التجريدي الافريقي ، وبعض الخصائص التي نشاهدها في هذا الفن ، ليست الا نتيجة مباشرة لتقاليد وضعت أسسها منذ وقت طويل . وبالرغم من أن بعض الأعمال الافريقية قد تظهر لنا أنها أعمال ساذجة بسيطة اذا حكمنا عليها بمقياس القيم الأوروبية فان الفن الافريقي ليس فنا أقل من أي فن آخر زادت صفاته التقليدية زيادة كبيرة ، مثل الفن البيزنطي .

ومن أهم الظواهر فى الفن الافريقى ذلك التقدم الكبير فى صنع الأقنعة ، ولم يقصدوا من هذه الأقنعة اخفاء وجه مرتديها فحسب ، ولكن قصد بها أيضا منحه لفترة مؤقتة صفات الكائن الذى يمثله القناع . وفى كثير من الحالات ، كانت الأقنعة فى حد ذاتها عبارة عن فتيشات ، وبهذه الصفة كانت تقدم لها القرابين بين حين وآخر حتى تستطيع أن تحتفظ بقوتها ، وأن تحتفظ أيضا برغبتها فى المساعدة .

وكان العاج يستخدم بصفة رئيسية فى عمل أدوات الزينة ، وفى عمسل التعويذات ، وقد أتقنوا صناعته كثيرا . وخير ما صنعوه من العاج هو تلك الأقنعة الصغيرة والتماثيل ذات الشكل الغريب التى كان يصنعها أفراد قبيلة الوريجا ، وأنياب الفيلة العظيمة الصجم التى كانوا ينقشونها بالزخارف والتى كانت جزءا من مذبح « بنين » .

وتقدمت أيضا صناعة أدوات الزينة المصنوعة من المعدن تقدما عظيما ف غربى افريقيا ، وبالرغم من أن بعض القبائل قد توصلت الى عمل بعض الأدوات الحديدية المتقنة الصنع فان خير ما صنعوه كان من الشبة (النحاس

الأصفر) وهو معدن مستورد ، وكانوا يصنعون أدواتهم منه بطريقة الصب والشمع المذاب (انظر الفصل التاسع) ، وخير ما وصلنا مما صنع من هذا المعدن هو رؤوس ملوك « ايف » التي يرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر الميلادي والتي يمكن مقارنتها سواء في فكرتها أو كمالها الفني بخير ما أخرجته مصر من هذا النوع . ولا يزال الأشانتيون مشهورين ببراعتهم في عمل التماثيل الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصغر وينظمونها أحيانا من مجموعات متشابكة لتصور الأمثال الشائعة بينهم . كما نبغوا أيضا في صب التماثيل المصنوعة من الذهب ، وقد اعترف العالم كله بالتفوق الفني الذي وصلوا اليه في صناعة الرؤوس ذات الحجم الطبيعي المصنوعة من البرونز ، وكذلك في اللوحات ذات الزخارف المعقدة التي قام بصنعها أهل « بنين » .

وفى تقسيم العمل بين الجنسين اشتغل الرجال ، كما هي العادة ، ف الخشب والمعدن. كما أنهم اشتغلوا أيضا في عمل الملابس من أوراق الشجر، وهو ما يختلفون فيه اختلافا كبيرا عما هو •تبع فىجنوب شرقى آسيا ، واشتغلوا بالفخار والنسيج فى معظم المناطق التى ارتقت فيها هذه الصناعات . وفىالزراعة طهروا الأرض مما فيها من أشجار أو نباتات ، ولكنهم تركوا فى أغلب الحالات أمر الغرس وزراعة المحصولات للنساء . وكان هناك بعض الاستثناءات من هذه القاعدة في حضارات غربي افريقيا ولكن الاشتغال بالزراعة بالنسبة للرجال كان يعتبر عادة عملا منحطا وكانوا يتركونه للعبيد كلما أمكن ذلك. وحيثما يوجد الاقتصاد القائم على المزج بين الزراعة وتربية ألحيوانات المستأنسة ، كان الرجال يعنون بأمر الحيوانات ، أما النساء فانهن يكرسن كل أوقات فراغهن بعد الانتهاء من أعمال الزراعة وشئون البيت ورعاية الأطفال في عمل الأدوات الفخارية الضرورية للاستعمال ، وفي عمل السلال ، ويصرفن هذا الوقت في الأعمال التجارية في بعض الحضارات الأكثر تقدما . وكانت معظم الأعمال التجارية الصغيرة في الأسواق في أيديهن ، و ذانت كل امرأة

تحاول أن تنتج فائضا من الطعام لأن الربح الذي يأتي من بيع هذا الفائض كان يعتبر من نصيبها وحدها

وكان هناك ميل قوى بين كل القبائل الزراعية نحو الاحتراف وبلغ هذا الميل أوج تطوره فى المدنيات التى كان فيها الأبناء يتوارثون حرفهم عن آبائهم ، كما أن التخصص المحلى الناتج عن توافر مواد معينة أو اتقان صناعات معينة ، كان أيضا من الأمور المعتادة وامتد نشاط البعثات التجارية الى مسافات بعيدة فى مناطق كثيرة فان الأسواق كانت متوافرة بصفة مستمرة فى كثير من الجهات ولقد بلغت هذه الأعمال التجارية أوج تقدمها فى المدنيات التى كانت تعتمد على الضرائب التى تفرض على السلع عند البيع كجزء هام من الدخل الملكى .

وساعد على تسهيل الأعمال التجارية استخدام عجلات محلية مختلفة الأنواع كان من بينها كتل من الملح ، وسبائك من قضبان نحاسية ، وأدوات وأسلحة حديدية من أشكال خاصة ، وما شابه ذلك ، كوسيلة للتبادل التجارى وفى معظم المناطق الزراعية فى افريقيا كانت الوحدة المعتبرة أساسا للتعامل هى أصداف الودع التي كانت تأتى فى الأصل من جزر « مالاديف » أمام ساحل الهند وكانت الملايين من هذه الأصداف تستخدم فى جميع الجهات ، حتى فى غربى افريقيا ، عندما وصل الأوروبيون الى تلك البلاد . ولابد أن هذه الأصداف كانت تنقل عبر القارة ، كما أن وجودها يدل على المدى الذى وصلت اليه العلاقات التجارية الافريقية عندما كانت أمورها فى يد أبنائها الأصلين .

وكانت وسائل الزراعة بدائية اذا قورنت بغيرها . فلم تكن المحاريث معروفة بينهم ، كما أن الآلة الزراعية المفضلة لديهم كانت فأسا ذات يد قصيرة تضطر من يستخدمها أن ينحنى جدا حتى ليكاد رأسه يلمس الأرض . وكان من النادر استخدام السماد أو اتباع نظام المحاصيل الدورية وهى المحصولات

التي كانت تمد الناس بمقوما<mark>ت الحياة</mark> وكانت ذات أثر قوى على نظم الاستقرار . فتطهير الأرض مما فيها من نباتات كان عملا من الأعمال الشاقة جدا في مناطق الغابات التي تسقط فيها الأمطار ، ولكن المحصولات التي كانت تزرع فيها وهي اليام والتارو والموز كانت تجفف التربة ببطء ، وجعلت السكني الدائمة في نفس المناطق أمرا ممكنا . وفي المناطق الأكثر جفافا ؟ كان فى الامكان زراعة الأرض سنتين أو ثلاثا بعد تطهيرها من النبات ثم يتركونها بعد ذلك دون زراعة لعشر أو عشرين سنة . ولا ترجم هذه الدورة فيما يبدو الى استنفاد قوة التربة بقدر ما ترجم الى نمو الأعشاب البرية في الأرض المطهرة . ولم يكن في مقدور المزارعين الوطنيين أن يتغلبوا على ذلك ، ووجدوا أن الأسهل لهم أن يهجروا الحقل الى أن تنمو النباتات الكبيرة فتخنقالأعشاب البرية وتقضى عليها . ولهذا السبب كانت القرى تنتقل من أماكنها كل عشرين أو ثلاثين عاما ، فأصبحت ملكية الأرض قليلة الأهمية ، مع الاحتفاظ طبعا بملكية المناطق الكبيرة بوجه عام . وكلما زاد عدد أفراد الجماعة المحلية أصبح لزاما عليها أن تترك مكانها ، كما كان هناك ميل نحو تقسيم القرى الى مجموعات من البيوت المتفرقة عندما تكون هناك سلطة مركزية قوية تجعلهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم .

وحيث ان تطهير أرض جديدة لا يمكن أن يتم على وجه مرض الا بمجهود عدد كبير من الرجال أصبح وجود جماعات تتعاون فيما بينها هي الظاهرة الغالبة في المجتمعات الزراعية . وبالرغم من مساوى عظام الزراعة المتنقلة ، فقد نشأت مدن كبيرة الحجم في كثير من مناطق غربي افريقيا أصبحت مستقرا للملوك كما أصبحت مراكز دينية وتجارية ، وهي تشبه في ذلك مدن الشرق الأدنى في العصور المبكرة . وقد ساعد على وجودها واستمرارها تقدم التجارة ، الأمر الذي كان يضمن لها امدادها بما يلزمها من مؤونة ومن المواد الخام .

وأقر كل من الجنسين تعدد الزوجات اقرارا تاما . فضلته النساء لأنه كان يرفع عن كاهلهن الكثير من مشقة العمل ، ولكن الرجال كانوا يفضلونه لأسباب أخرى . ففي كثير من القبائل كانت العلاقات الجنسية محرمة على الزوجة ابان فترة ارضاعها لطفلها ، ولما كان ارضاع الطفل يستمر عادة لمدة سنتين أو ثلاث فقد كان الزوج الذي يقتصر على زوجة واحدة يشعر بكثير من الحرمان. وأصبحت مكانة المرأة عالية جدا نظرا لأهميتها الاقتصادية ، فقد راعت القواعد المتبعة بينهم حقوق الزوجات اللاتي يعشن في كنف رجل واحد. كانت الزوجة الأولى أو الزوجة التي تنتمي الى طبقة اجتماعية عالية ، ترأس النساء ، أي ترأس نصف العائلة ، وتشرف على أوجه النشاط الذي تقوم به النساء مجتمعات. وكان المفروض على الرجل أن يقسم وقته بالعدل والقسطاس بين زوجاته ؛ وذلك بأن يحدد أياما معينة لكل زوجة بالتعاقب بينهن . وخلال الفترة المخصصة لها كان للزوجة حقوق كثيرة على زوجها . وكان لها الحق دائما في مشاركتها اياه في أي أرباح يحصل عليها أثناء اقامته معها ، وفى واقع الأمر لم يكن هذا النظام يختلف كثيرا عن نظام الاقتصار على زوجة واحدة تتبعها أخرى وهكذا . وعلى العموم فان اختيار زوجة جديدة كان يخضع لموافقة الزوجات السابقات ، وكثيرا ما كانت زوجات الرجل يدفعنه للزواج من أمرأة معينة يرين أن طباعها تتفق مع طباعهن وتصلح لساعدتهن في العمل.

وفى العائلة الحسنة التنظيم ، كانت كل زوجة تكرس فترتها مع زوجها للقيام بجميع الأعمال المنزلية مثل الطهى والعناية بالأطفال بدلا من جميع الزوجات الأخريات ، وبذلك تتفرغ الزوجات الأخريات للعمل فى الحقل وفى أوجه النشاط الأخرى مثل البيع فى الأسواق . وبالرغم من أن مثل هذا النظام يبدو غريبا اذا نظرنا اليه من ناحية القيم الأوروبية الا أن الانسان يجد نفسه مضطرا للاعتراف بأنه يقدم حلا من أعظم الحلول التى عرفت حتى الآن

بالنسبة للمشكلة النسائية التي تتمشل في جمع المرأة بين قيامها بالأعسال المنزلية ، وفي الوقت ذاته اشتغالها بعمل آخر.

وكان الزوج من الناحية النظرية هو المهيمن على العائلة ، ولكن الرجل الذى يملك شجاعة فائقة فقط هو الذى يستطيع أن يتحدى زوجاته عندما يتحدن فى جبهة واحدة ضده . وكانت الروابط التى تربط بين الابن وأمه قوية على مدى الأيام ، وكانت العلاقة بين الابن وأبيه أقل ارتباطا . أما بالنسبة للاخوة فلم يكن بينهم كثير من الود ، وخصوصا الاخوة غير الأشقاء .

ونرى فى الشعوب المشتغلة بالزراعة عادة الانتساب الى فرع الأم والى فرع الأب على السواء. وحتى فى المجتمعات التى تسير على نظام الانتساب الى فرع الأب نرى بعض النظم التى توحى بأن هذه المجتمعات كانت فى الأصل تسير على نظام الانتساب الى عائلة الأم. وقد وجدت بعض المجتمعات التى تسير على نظام الانتساب الى الأم مشكلة عدم التوافق بينها وبين الاقامة بين قبائل تسير على نظام الانتساب الى الأب حلا لذلك ، وهذا الحل هو ارسال الأبناء الى فرع عشيرة أمهم بعد فطامهم بوقت قصير وهناك يعتنى بهم واحد من اخوتها الحقيقيين أو أحد أقاربها ومع مرور الزمن يكبرون ويتملون كأفراد فى تلك العائلة.

وهناك نظام طريف آخر نجده فى بعض الحضارات التى تسير على نظام الانتساب الى كل من سلالة الأم وسلالة الأب فى وقت واحد ، والتى كان لكل منها نظمها الاجتماعية والدينية الخاصة بها ، اذ كان كل فرد ينتمى لحماعتين مثل هاتين الجماعتين يحرم زواجه من كليهما . وعلى أى حال فان دراسة نظم الأنساب فى المجتمعات الزراعية ، اذا نظرنا اليها نظرة عامة ، نرى أن نظام الانتساب الأصلى فى المنطقة كان هو الانتساب الى سلالة الأم . وهناك تفسير آخر يمكننا أيضا أن تقدمه وهو أن يكون النظام المبكر لهذه المجموعات المحلية المتصلة بصلة القربى كانت تتبع نفس النظام الذى كان

سائدا فى منطقة الأوقيانوسية «أوسيانيا » وهو الذى كان يقضى بالزواج من المجموعة نفسها . وفى مثل هذه المجموعات كانت الأنساب تسير عادة على نظام الانتساب الى كل من الفرعين ، ولكن عندما تتجه مثل هذه المجموعة نحو الزواج من الخارج فانها تتطور وتسير اما على نظام الانتساب الى عائلة الأم أو نظام الانتساب الى عائلة الأب .

وكان المجتمع يسير على نظام طبقى ، وكان مقسما الى ثلاث طبقات : طبقة الزعماء ، وكانت في العادة وراثية ، ثم طبقة العامة ، وتليها طبقة العبيد . وبالرغم من أن نظام الرق قد السع وازداد شأنه منذ الصلت أوروبا بهذه البلاد منذ القرن السابع عشر الى أوائل القرن التاسع عشر ، فليس هناك شك فى أنه كان معروفا فيها قبل ذلك . وهناك نوعان من الرقيق : الأعداء الذين وقعوا في الأسر حديثًا ، وهؤلاء كان ينظر اليهم على انهم في مرتبة الحيوانات المنزلية ، والأرقاء المنحدرون من عائلات الرقيق التي أمضت وقتا طويلا تحت نظام الرق أو هؤلاء الأفراد من رجال القبائل نفسها الذين استرقوا سدادا لدين أو تكفيرا عن أخطاء بسيطة . وغالبا ما كان الرقيق يتصل بعائلة سادته الأحرار لعدة أجيال ، وكانوا يعتبرون بيع مثل هذا العبد الموروث وصمة فى جبين كل من العبد وسيده ؛ لأنه يدل على أن كلا منهما قد فشل فى علاقة اجتماعية مشروعة مع صاحبه . وكان في الامكان بيع عبيــــــــــ الدين والمجرمين الذين أدينوا بسبب جرائم تافهة فى داخل القبيلة نفسها ، وكان من المحرم بيمهم خارجها ، وعلى الأقل كانوا لا ينظرون الى مثل هذا العمل نظرة الرضى والقبول. وكانت العلاقة التي تربط بين العبد والسيد تحددها نظم موضوعة منذ أوقات طويلة وتضمن لهم فيما عدا أسرى الحرب درجة معقولة من العدالة وحرية العمل . وكان السادة مسئولين عن عبيدهم ، كما كان العبد الموروث الذي يعمل عند عائلة من العائلات الكبيرة يتمتع بمركز أفضل في كثير من النواحي من المركز الذي كان يتمتع به الرجل الحر الفقير . وفى داخل المجتمع الطبقى كان لزعماء العشيرة الأصلية والعشيرة الفرعية مكانة هامة . كان مركز الزعامة في العادة وراثيا في عائلة ممينة ، وهي أقرب العائلات الى الفرع الأصلى المباشر الذى انحدر منه الجد الأكبر لهذه العائلة على أسس مزاياه ومقدرته أكثر من ترتيب مولده ، وكانوا يعتقدون أن القوة الروحية للجماعة كلها قد تجسدت فيه ، ولهذا السبب كان مثل هذا الزعيم يلعب دورا هاما فى جميع الطقوس الدينية التي من شأنها ضمان رفاهية الجماعة . أما في الشئون الدنيوية فقد كان هو الموجه والمشرف على جميع أعمال المجموعة ، كما كان يقوم بالفصل فيما ينشأ بين أفرادها من منازعات . وكان لكل مجتمع من المجتمعات التي تسير على نظام الاقتصاد القائم على الزراعة مجموعة قوانين على درجة كبيرة من التقدم ، كما كان لها نظم مرعية وأساليب قضائية . كانت القوانين تحفظ بدقة وكان للسابقات القانونية أثر هام عند نظر القضايا ، وكانوا يدعون الشهود ليؤدوا الشهادة بعد أن يحلفوا اليمين ، كما كان لكل من الجانبين الحق في أن يوكل من يتولى شرح موضوعه. وباختصار ، كان النظام كله يشبه النظام الأوروبي تماما . وكانوا يلجأون ، كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، الى المحاكمة عن طريق التحكيم الآلهي ، والتعذيب في القضايا التي تكون الأدلة فيها متضاربة بحيث يصعب على القاضي أن يصل فيها الى قرار ، أو في المحاكمات التي تعقد للفصل في القضايا الخاصة بالسحر حيث يصعب جدا اثبات مثل هذه القضايا بالطرق القانونية المعتادة . وكانت تجربة براءة المتهم أو ادانته بطريقة الحكم بتناول السم من الأمور العادية بينهم ، ولكن الكمية التي كانت تعطى للمتهم لم تكن كافية للقضاء عليه .

وكان للدين فى المجتمعات الزراعية أهمية تزيد كثيرا عن أهميته فى المجتمعات التى تعيش على صناعة الألبان. كان أهل الزراعة يعتقدون أن



بيت مشيد بالطين ــ نيجيريا

أسلافهم موجودين معهم فى كل وقت ، وأنهم لا يساعدون المنحدرين من أصلابهم فحسب ، ولكنهم أيضا يقتصون منهم اذا ما اقترفوا أية أخطاء أخلاقية . وكانوا ينظرون الى السلف من الذكور خاصة بنفوس ملؤها الخوف أكثر من الحب . ومما يجدر ذكره أنه فى كثير من المناطق التى اعتنق فيها بعض أفراد القبائل الدين المسيحى وما استتبع ذلك من القضاء على ذلك السجن الذى كان يضعهم فيه أولئك الحراس غير المنظورين الذين كانوا يسهرون على جعل أبناء القبائل فى وضعهم القديم ، نرى أن النتيجة هى انهيار واضح على جعل أبناء القبائل فى وضعهم القديم ، نرى أن النتيجة هى انهيار واضح للمعتقدات الوطنية . والى جانب الأسلاف كان هناك أيضا عدد من الآلهة ينظمون فى العادة على غرار العائلات البشرية . كان أولئك الآلهة ذوى صلة يقوى الطبيعة ، أما الذين كانوا يتمتعون بمراكز كبيرة من بينهم فقد كان لهم رسل ذوو قوى فوق القوى الطبيعية ، وخدم يعملون كوسطاء بين الآلهة وبين

البشر. وغالبا ما كان الناس يسعون بجد لاكتساب رضا هؤلاء الخدم أكثر مما كانوا يفعلون بالنسبة لسادتهم الآلهة الكبار. وقد بلغت هذه المعتقدات، كما هو المتوقع ، أوج تطورها في الممالك العظيمة أذ انها كانت بالنسبة للقروى العادى لا تزيد عن مجرد أسماء مقدسة وكائنات تدور حولها أساطير شائقة ، ولكن لم تكن لهم بها صلات كبيرة.

وبصرف النظر عن أرواح الأسلاف التي كانت دائما تحيط بهم ، فان الهتمام القرية كان مركزا في الفتيش الخاص بها ، وكان المطبب للقرية هو الذي يقوم بعمله عندما يبنون القرية ، وكان ينتقل مع القرية الى أى مكان تذهب اليه . وكانوا يحتفظون عادة بهذه الفتيشات داخل منزل في داخل القرية أو في خارجها ، حتى تضمن للجماعة دوام الصحة وحسن الحظ . وكان عليهم أن يسترضوها وذلك بتقديم القرابين ومعاملتها بإله من الآلهة . وبجانب الفتيش الرئيسي للقرية كان للجماعة عادة فتيشات أخرى لتساعدهم في بعض وجوه نشاطهم مثل صيد الحيوانات ، وصيد الأسماك ، والزراعة ، وكانوا يزيدون من قوة كل منها باقامة الحفلات وتقديم القرابين في أوقات معينة . وأخيرا ، كان في حوزة كل فرد فتيشات شخصية يلبس بعضها ويترك البعض الآخر كان في حوزة كل فرد فتيشات شخصية يلبس بعضها ويترك البعض الآخر في منزله ، وكان يعتقد أن بعضها يجلب الحظ الحسن بوجه عام ، والبعض في منزله ، وكان يعتقد أن بعضها يجلب الخاصة مثل الصيد والحصول

وأخيرا ، يجدر بنا أن نذكر شيئا عن الجماعات السرية التي كانت منتشرة بين قبائل المزارعين ولكن مما يثير العجب حقا أن جماعات صانعي الألبان لم يقبلوا ، فيما يبدو ، على مثل هذه الجماعات على الاطلاق وأصل هذه الجماعات غامض ، ويرى البعض أنها قد نشأت تقليد! لنظام المرابطين بين سكان شمال افريقيا المسلمين ، كما يحتمل أيضا انها قد تطورت كنتيجة لنظام تنوير المراهقين بتفهيمهم بعض الأسرار وهو النظام المنتشر على نطاق واسع

بين سكان تلك المناطق. وعلى أى حال فان هذه الجمعيات السرية من أبرز الظواهر التى ميزت حضارات افريقيا الزراعية . كانت هذه الجمعيات بمثابة جمعيات دينية فى بعض نواحى نشاطها ، ولكنها كانت فى نفس الوقت منظمات للمساعدة المتبادلة ، وللسيطرة الاجتماعية ، ولابتزاز الأموال فى بعض الأحيان . كان لكل جمعية أقنعتها الخاصة ، وملابسها المميزة التى ترتديها فى الحفلات العامة التى كانت تقيمها بين حين وآخر . وكان المغروض أن النساء والأطفال والرجال الذين ليسوا أعضاء فى الجمعية يجب أن يؤمنوا بأن هؤلاء الراقصين المقنعين انما هم كائنات لها قوى فوق قوة الطبيعة ، وكانوا يقتلون أى شخص يكشف شخصياتهم الحقيقية . وكان لكل جمعية علامات يتعارف بها أفرادها ، كما كانت لهم كلمات سر خاصة ، وكان أعضاؤها يتعاهدون على المساعدة المتبادلة كما هو الحال عند الماسونيين الأحرار .

وأصبحت هذه الجمعيات عاملا من العوامل في توحيد القوى في مناطق تنقصها الوحدات الكبيرة السياسية ، كما مكنت أعضاءها من السفر خارج أراضيهم وهم مطمئنون . وحيثما كانت السلطة السياسية قوية كان رجالً الحكم ينظرون اليهم نظرة كراهية بطبيعة الحال ، وفى داهومى صدر الأمر بمنع مثل هذه الجمعيات والتهديد بقتل كل من ينتمي اليها. واختلف نشاطهم باختلاف المناطق ، ولكن تنفيذ ما فيه خير الجماعة كان دائما من أهم أهدافهم. وكانت الزوجات اللاتي يتكبرن ويخرجن على طاعة أزواجهن ، أو اللاتي ينحرفن عن الطريق السوى ، عرضة للعذاب المبرح بل والقتل أحيانا ، يقوم به رجال مقنعون من أعضاء الجمعية . وان الشبه بين الكلوكلوكس كلان وبين جمعيات غربي افريقيا شبه كبير ، وهو أكثر من أن يكون مجرد مصادفة . وبجانب هذه المنظمات السرية التي يقرها المجتمع ، كانت هناك منظمات يتجه نشاطها لغير صالح المجتمع . فاذا ضربنا الصفح عن جمعيات السحرة التي سبقت الاشارة اليها وشككنا في عدم وجودها ، فقد كانت هناك جمعية الفهد الذي كان أفرادها يقتلون الناس ، ويأكلون لحومهم كجزء مما يقومون به من السحر الأسود.

الفصِيل أبحادى والثلالون الحضارات الافريقية

لا يدرك الا القليل من الناس مدى ما وصلت اليه حضارات كثير من المجتمعات الافريقية من غنى وتقدم فى الوقت الذى اتصل بهم الأوروبيون لأول مرة. ففى المناطق التى جاء منها معظم أسلاف الزنوج الأمريكيين كان هناك عدد غير قليل من الممالك العظيمة التى تستحق أن يطلق عليها بحق اسم مدنيات فى جميع النواحى ، ما عدا معرفة القراءة والكتابة. ولم يقلوا مطلقا عن أوروبيى العصور الوسطى فى الفنون والحرف ، أما من ناحية استكمال تنظيمهم السياسى ، والمهارة التى كانوا يظهرونها فى ادارة منظماتهم الاجتماعية، وتوجيهها لتوطيد نظامهم السياسى ، فانهم كانوا أكثر تقدما من أى بلد فى أوروبا قبل القرن السادس عشر. ولن نكون مبالغين اذا قلنا ان الزنوج الافريقين قد أظهروا عقرية فى بناء الدولة فى موطنهم لا يمكن أن يجاريهم فيها شعب آخر باستثناء شعب الانكا الذى كان يستوطن پيرو فى أمريكا الحنوسة .

ومن المعروف أن كل مدنية تضم الى نفسها عناصر حضارية من مصادر متعددة ، ولا يستثنى من ذلك المدنيات الافريقية الزنجية . فالصلات بينها وبين مدنيات مصر وساحل البحر الأبيض المتوسط قد قامت منذ أقدم العصور . ونعرف أيضا أن مصر اتجرت مع القبائل الزنجية فى أعالى النيل منذ عام ٣٠٠٠ ق.م على الأقل (١) . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠—١٢٠٠ق.م)

⁽۱) رقم ۲۵۰۰ ق ۰ م أقرب الى الصواب ٠

فتح المصريون بلاد النوبة واحتلوها ، وأقاموا لهــم نائبا للملك في ربوعها . ويبدو أن المدنية المصرية قد هالت النوبيين فتقبلوها بحماسة ، بل وأصبحوا عبادا مخلصين للاله أمون رع المصرى فتوثقت بذلك العلاقة بين مدينة طيبة المقدسة وبين نياتا عاصمة النوييين . وعندما استقر شاشانق وأتباعه من الليبيين في بلاد مصر هرب كثير من كهنة طيبة الى نياتا وزادوا من عملية نشر الحضارة هناك. وفي عام ٧٣٠ ق. م غزا النوبيون مصر ذاتها ولكنهم في ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا مصريين أكثر من المصريين أنفسهم. وحاولوا ابان الفترة القصيرة التي مكثوها في الحكم أن يحيوا بعض الطقوس الدينية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى في هذه البلاد التي لم تكن تحب التغيير ، كما رحبوا أيضا باللاجئين المصريين الذين هاجروا اليهم فى السنين الأخيرة من حكم الأشوريين والفرس . واحتفظت بلاد النوبة باستقلالها في أيام البطالمة والرومان واستطاعت أن تخلق لنفسها حضارة مستقلة خــــلال الستة القرون الأولى بعد مولد المسيح اتحدت فيها العناصر المصرية والاغريقية والرومانية ، ولكن مع شيء كثير من الابتكار . وفي القرن السادس الميلادي اعتنق النوبيون الدين المسيحي، واستطاعوا أن يصدوا هجمات المسلمين المتعاقبة حتى منتصف القرن الرابع عشر عندما سقطت مملكة دنقلة المسيحية في يد الفونج ، وهم زنوج مستعربون كانوا في الأصل يسكنون منطقة النيل الأزرق ، ومنذ ذلك الوقت شاركت بلاد النوبة في المدنية الاسلامية .

من ذلك نرى أنه كانت هناك فرص كثيرة سانحة أمام المؤثرات المصرية ومؤثرات بلاد الشرق الأدنى الأخرى ، والمؤثرات اليونانية والرومانية ، لتصل الى افريقيا الزنجية عن طريق شرق السودان ، ولكن يصعب علينا أن نعرف الى أى مدى اشتركت هذه المؤثرات فى تأسيس الحضارات الزنجية الواقعة الى الجنوب والى الغرب ، فذلك أمر يصعب تحديده . ويتوقع الانسان أن يجد أقدم العناصر الحضارية التى استعاروها ، وهى التى من أصل مصرى ،

لا تزال قائمة حول أطراف المنطقة التي انتشرت فيها قديما . وقد وجمدت بالفعل عناصر في بعض الحضارات الزنجية المتقدمة تذكرنا بأشياء في الحضارة المصرية القديمة ، فالفكرة ذات الانتشار الواسع الخاصة بألوهية الملك الذي يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، دليل على ذلك . كما أن وجود عادة زواج الملك من أخته وهي العادة التي كانت منتشرة في كثير من ممالك وسط افريقيا تدل أيضا دلالة قوية على تلك الصلة .

وطبقا لهذا النظام كانت على الملكة واجبات ، ولها امتيازات ، ولها أيضا مركز وثروة تشبه ما كان للملك لأنها تعتبر دائما أختا له . وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن مصر أن الملكة كانت في الوقت ذاته أختا وزوجة وهي نفس العادة التي كانت متبعة في القبيلة الأوغندية « باهيما » ، كما تشبه الديانة في قبيلتي « اليوروبا » و « الأشانتي » بما فيهما من نظام كهنوتي متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة ما كان في ديانة مصر . كما اعتقد الاشانتي أيضًا في وجود قرين روحاني كان يزور القبر بعد الموت ، وكانوا يقدمون له القرابين تماما كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة ال «كا » . ومما يزيدنا ايمانا بوجود هذه الصـــلة القديمة أن الاشانتي يطلقون على هذا القرين للروح اسم « كرا » ولكن هذه الأشياء التي ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التي توحى باثر مصر نراها موزعة توزيعا غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها في كل من مصر وافريقيا الزنجية كان تتيجة لتطور مستقل في كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة . ونحن نعلم أن القبائل الحامية لم تستقر في وادي النيل فحسب ، ولكنها استقرت أيضا في معظم الصحراء الكبرى عندما كان المناخ في هــذه المنطقة خيرا مما هو عليه الآن . وتشير كل الدلائل الي أن الحاميين ، وهم من أصل قوقازي ، أخذوا يتسربون الى الشعوب الزنجية التي

فى الجنوب منذ العصور النيوليتية ، ان لم يكن قبل هذا التاريخ . وقد بقى منهم حتى الآن البربر ، وهم من سلالة سكان الصحراء الكبرى الحاميين فى العصور التاريخية . وقد ساعد اعتناقهم للدين الاسلامى على جعل توغلهم فى الجنوب شيئا شبيها بالحملات الصليبية ، اذ كان هذا التوغل على نطاق واسع ، ولكنه لم يكن شيئا جديدا بالنسبة اليهم بل كان استمرارا لما كان يحدث منذ وقت طويل .

ولم يحل القرن التاسم الميلادي حتى كان البربر بعد أن دخل عليهم القليل من الدم العربي قد أنشأوا عددا من الممالك في كل أنحاء السودان الغربي ، كان أكثرها أهمية « سونجهاى » و « غانا » فى منطقة نهر النيجــر ، وفى القرن الرابع عشر الميلادى أخضعت مملكة ماندنيجو كل أنحاء السودان الغربي . وامتزج الدم البربري بالدم الزنجي امتزاجا كبيرا . وكانت الغالبية العظمى من الأسرات الحاكمة في هذه الممالك السودانية من الزنوج ومع ذلك فانهم كانوا في أعماق نفوسهم يؤمنون بالحضارة الاسلامية ، كما كان تنظيمهم السياسي يسير على النمط الاسلامي . وقد ذهب الكثيرون الى القول بأن المالك الزنجية الوثنية التي قامت في المناطق الأبعد من ذلك في ناحية الجنوب ، قد أخذت حضاراتها من تلك التي كانت في السودان ، ولكن الواقع هو أن كيان الممالك الوثنية يختلف تماما عن النظم الاسلامية لدرجة أنه لا يمكن أن تنصور أن يكون هناك أى تأثير عليهم غير ذلك الحافز نحو التقدم الذي يصاحب وصول مؤثرات من حضارات أخرى . وقد تفوق الوثنيون على الشعوب الاسلامية في تنظيمهم السياسي المتشابك ، وفي المهارة التي أظهروها في الاستفادة من النظم التي كانت سائدة بينهم لتقوية السلطة الملكمة

ولناخذ مملكة أوغندة (حضارة شعوب الباجاندا). ومملكة داهومى كمثلين لهذه الممالك الوثنية. فأولاهما تقع في الطرف الشرقي من حدود الممالك

الوثنية ، ولم يصل اليها الا الشيء الضئيل من النفوذ الاسلامي أما مملكة داهومي فهي تقع في الطرف الغربي من خط الحدود ، وقد نشأت بعد أوغنده بوقت طويل. وكانت في هـــذه المنطقة ممالك كثيرة لهــا علاقات كثيرة مم الممالك الاسلامية الواقعة حول النيجر ، كما كانت للمنطقة الساحلية الافريقية علاقات حضارية هي الأخرى . وبالرغم من أن رحلة « هانو » (Hanno) القرطاجني هي الرحلة الوحيدة التي وصلت الينا أخبارها(١) ، فما من شك من أنه كانت هناك رحلات أخرى غير رسمية حدثت قبل تلك الرحلة وبعدها بقصد استعمار تلك البلاد ، فان الذهب والعاج اللذين كان يكتظ بهما الساحل الغربي واللذين تركا اسميهما في قسمين سياسيين من أقسام المنطقة ، كانا اغراء قويا للقرطاجنيين المغروفين بمهارتهم وشجاعتهم في البحث وراء الكسب. كانت داهومي فى المنطقة التي استقبلت الاتصالات الأولى للتوغل الأوروبي الحديث ، وبالرغم من أنه يصعب علينا أن نحدد مدى تأثير هذه الاتصالات الجديدة على النظم القائمة هناك ، فما من شك في أنها غيرت الاقتصاد الوطني، ونقلت الاهتمام من الانتاج الزراعي العادي الى الاتجار في الرقيق ؛ واشعال الحروب جريا وراء المنفعة .

أما أوغنده فانها تقع فى شمال غربى بحيرة فكتوريا ولها خط ساحلى طويل تحميه جزر بعيدة عن الشاطىء ، مما جعل حركة الاتجار على طول الساحل أمرا سهلا. وبالرغم من أن « الباجندا » لم يصلوا الى معرفة استخدام الشراع أو أى سفن غير القوارب الكبيرة التى كانت تصنع من الألواح الخشبية فان المستوى العالى الذى وصل اليه تطورهم التكنولوجي قد انعكس فى اتقان

⁽ المترجم)

صناعة هذه القوارب التى استخدموها فى الحملات الحربية التى كانوا يشنونها على القبائل المجاورة ، كما أن قائد أسطول القوارب كان يعتبر من الموظفين المهمين واذا ما أردنا أن ندخل فى بعض التفاصيل لرأينا أن الصيد كان المصدر الرئيسي للحصول على الطعام الذي يحتوى على المواد البروتينية ، اذ كانوا يجففون الأسماك ويوزعونها عن طريق التجارة فى كل أنحاء المملكة .

وطبقا لما ذكرته المصادر الوطنية فان تنظيم مملكة باجندا حدث على يدى شعب حامى من صانعى الابان غزا المنطقة منذ حوالى خمسمائة سنة مضت ، وأسس الأسرة التى ما تزال تتربع على كرسى الحكم. وفى الوقت الذى اتصل بهم الأوروبيون كان هؤلاء الغزاة قد انصهروا فى بوتقة الوطنيين من الناحيتين الجسمانية والحضارية ، كما كان للزواج المستمر بين الغزاة وأبناء البلاد أثره فى طبع كل من الأسرة المالكة والعامة بطابع واحد وهو الطابع المتزنج. ومن الناحية الاقتصادية ، كانت الطبقات كلها تعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة، وكان لديهم أيضا بعض الماشية ولكنها كانت تعتبر بصفة عامة نوعا من أنواع الترف. وكانت الماعز هى الحيوان المنزلي الشائع ، أما الرجل العادى المحظوظ الذي يملك بعض الماشية فانه كان يتركها لترعى مع قطيع الزعيم ، وذلك لأن رعى الماشية كانت تتولاه جماعة خاصة تسمى « هيما Hima » يتوارث أفرادها هذا العمل ، ولم تكن الجماعات الأخرى تضعهم فى مركز اجتماعى ذي قيمة .

وكانت هناك أنواع مختلفة من المحصولات ولكن المصادر الرئيسية للطعام هى الموز المعتاد ونوع آخر كان من النادر أن يؤكل فجا ، اذ كانوا يفضلون غليه فى الماء ثم يهرسونه حتى يصبح عجينة . وعجينة الموز هى العنصر الأساسى فى الوجبة الوطنية ، وتشبه فى ذلك وجبة الرز فى بلاد الشرق الأقصى . وبالرغم من أن هناك أنواعا أخرى من الطعام ، الا أنهم كانوا ينظرون اليها على أنها أشياء عرضية وتشتهى فقط من أجل طعمها ، وللتنويع الذى تضفيه على

الوجبة . ومما يجدر ذكره انهم لم يستخدموا ألبان كل من الماشية والماعز الا قليلا . وبالاضافة الى أنواع المحاصيل المختلفة كانوا يزرعون نوعا من أنواع التين تمدهم قشوره بما يلزم لهم من الثياب المصنوعة من قشور الشجر وهى ثيابهم التى يرتدونها كملابس وطنية .

وكان للزراعة بين قبائل الباجندا آثارها الهامة في نظمهم في الانتاج وفي المساكن وفي التنظيم الاجتماعي في فمنذ أن تزرع شجرة الموز تستمر في انتاج شجيرات أخرى منها ويستمر الجميع في انتاج محصولات جديدة قد تستمر لخمسة وعشرين أو ثلاثين عاما ، مما ساعد على استقرار الاقامة في أماكن ثابتة . زد على ذلك ، أن المحصول كان من الوفرة بحيث يستطيع أن يقيم أود عدد كبير من السكان وذلك بالرغم من أن النساء كن هن اللاتي يقمن بأعباء الزراعة كلها ، وقد قيل بأنه كان في مقدور المرأة الواحدة أن تتولى المناية بعدد من أشجار الموز يكفي لاطعام أربعة رجال ولكن في الوقت ذاته كانت نسبة الموت بين الذكور كبيرة بسبب الحروب ، والقرابين البشرية التي كانت نسبة الموت بين الذكور كبيرة بسبب الحروب ، والقرابين البشرية التي تتطلبها المناسبات المختلفة حتى أصبح عدد النساء بالنسبة لعدد الرجال بين السكان ثلاثة الى واحد ، وقد ترتب على ذلك وجود مجتمع فيه متسع وفائض من الوقت والجهود مع الامكانيات اللازمة للتقدم في الصناعات واتقانها ،

وكانت التكنولوجيا فى جوهرها هى نفس التكنولوجيا التى وصفناها انفا فى كلامنا العام عن القبائل الزراعية . ولكن قبائل الباجندا كانت تختلف عن معظم الشعوب الافريقية لاصرارها على تغطية الجسم كله بالملابس . وبالرغم من أن الأولاد قبل بلوغهم سن المراهقة كانوا يسيرون وهم عرايا ، وكانت البنات يرتدين نقبة أو مئزرا تتدلى منه شرائح متناثرة من أوراق الموز، فانهن بعد بلوغ سن المراهقة كن يرتدين ثيابا تلف أجسادهن وتغطيها من الابطين حتى القدمين . أما الرجال فقد كانوا يرتدون ملابس أكثر من النساء

تتكون من مئزر يلفونه حول الوسط ، ثم قميص طويل ، وفوق ذلك ثوب يشبه العباءة . وكانت كل هذه الملابس تصنع فى الأصل من قشور الشجر وكانت صناعتها هي أهم الصناعات التي يقوم بها الرجال .

وكان المزارعون يفضلون العيش في مساكن رحبة فسيحة على أن يعيشوا في القرى . وكان كل مسكن منها تحيط به مزارع الموز ويقيمون حول كل من المسكن وزراعة الموز سياجا يضمهما وكانت المنازل دائرية ومخروطية الشكل ومفطاة بالقش . وكان مدخل البيت يحميه رواق صغير أو مظلة فوق أعمدة وقد اتبعوا ذلك في منازل الزعماء بل وفي مقر الملك نفسه ، ولم تختلف هذه المنازل الكبيرة عن منازل غيرهم الا باتساع رقعتها وكبر حجمها وكثرة عدد المقيمين فيها . فمثلا كان المقر الملكي المشيد فوق أحد التلال بالقرب من بحيرة فكتوريا ميلا ونصف ميل في الطول ، وميلا في العرض ، وبين المسكن بحيرة فكتوريا ميلا ونصف ميل في الطول ، وميلا في العرض ، وبين المسكن المؤلفين والحرس والعبيد ، بينما رصت مقرات الزعماء العظماء على الطريق خارج أسوار المقر الملكي.

ومن بين الظواهر غير العادية التي امتازت بها مملكة باجندا ، والتي ساعدت دون شك على قيام الحكومة المركزية بأداء عملها بنجاح ، تلك الشبكة الفخمة من الطرق الجبيلة . كان اتساع كل منها عادة نحو أربعة أمتار ، وكان سطحها صلبا كما كانوا ينشئون جسورا تخترق المستنقعات . وكان زعيم كل مقاطعة يقوم ، كواجب من واجباته ، بالمحافظة على الطريق الذي يمتد من مقر الملك الى مقره ، في حين كان على كل نبيل في أى مقاطعة أن يحافظ على الطريق الذي يربط بين مقره وبين مقر زعيم تلك المقاطعة . وقد ساعد وجود هذه الشبكة من الطرق على تحركات الجنود ، وفي تبادل البضائع المصنوعة اذ كان لديهم أسواق عديدة كان يجلب اليها الصناع المحترفون ، والفلاحون المحليون ما لديهم من منتجات . وكانت الأسواق في المحترفون ، والفلاحون المحليون ما لديهم من منتجات . وكانت الأسواق في

العادة تعقد فى أيام مختلفة من الأسبوع وفى مناطق يمكن أن يقطع الانسان المسافة بين كل اثنين منها مشيا على الأقدام ، ولهذا كان فى استطاعة الباعة المتجولين أن يحزموا بضائعهم بعد فض أحد الأسواق ويسيروا بها الى سوق آخر . وكان يقوم بالاشراف على كل سوق موظف مسئول يقوم بالمحافظة على النظام ومعاقبة الذين يغشون فى التعامل ، وكانت الحكومة تحصل ضريبة قدرها عشرة فى المائة على المبيعات .

وكان التنظيم الاجتماعى والسياسى عند الباجندا صورة من تقاليدهم فى نشأة الدولة فلم يكن هناك غير ثلاث طبقات يسود فى كل منها النظام الوراثى وهى طبقة العبيد وطبقة العامة ثم أعضاء العائلة المالكة . وحيث ان تعدد الزوجات كان هو القاعدة المتبعة ، فقد كان المتوقع من الملوك أن يكون لديهم عدد من الزوجات أكثر مما لدى أى فرد من رعاياهم ، كمظهر من مظاهر هيبتهم ، ولهذا السبب كان عدد أفراد الجماعة الملكية كبيرا جدا . ومع ذلك فلكى يحولوا دون قيام الحروب الأهلية كان معظم اخوة الملك الحاكم يقتلون عندما يعتلى العرش ، وأن يقتلوا أيضا أى واحدة من بناته اذا تزوجت أو ولدت طفلا ، ولهذا السبب كان يحدث نقص فى الجماعة الملكية فى كل جيل .

ويلى أعضاء الجماعة المالكة التى كان يحرم على أفرادها أن يشغلوا مناصب ادارية ، عدد من الموظفين الذين يعملون فى ادارة البلاد . وبين هذه المجموعة من الموظفين وبين النبلاء الاقطاعيين فى أوروبا بعض وجوه شبه سطحية . وعلى أى حال ، فقد كانوا يعينون جميعا بأمر الملك ويدينون بالولاء له مباشرة . وحيث ان كل تعيين فى الوظيفة كان ينتهى آليا بوفاة الملك ، وأن كل رجل حر كان يعتبر صالحا لتولى مثل هذا المنصب فان هؤلاء الموظفين الاداريين لم يكونوا فى يوم من الأيام طبقة يرث فيها الأبناء وظائف آبائهم .

وكان العبيد فى الغالب من أسرى الحرب أو من سلالة هؤلاء الأسرى ، ولكن كان هناك أيضا رقيق من الباجنديين أنفسهم وهم الأطفال الذين كان

يرهنهم آباؤهم كضمان لسداد دين ، والذين كانوا يعتبرون عملهم فى خدمة الدائن كفائدة للقرض. كان الرقيق يعاملون عموما معاملة حسنة ، وكانوا يتخذون النساء الرقيقات كمحظيات وكانت الواحدة منهن تصبح حرة متى ولدت طفلا من سيدها أما بالنسبة للرجال من الرقيق فان أكبر ضرر كانوا يتعرضون له هو صلاحيتهم لأن يقدموا كقرابين بشرية وهو ما كانت تتطلبه طقوس كثيرة فى ديانة الباجندا .

وكان العامة ينتظمون أصلا في ست وثلاثين عشيرة تنتسب كلها الى فرع الأب وتتزوج من خارج القبيلة . ولكن عندما اتصل بهم الأوروبيون لأولّ مرة كانت ست من هذه العشائر قد فقدت شخصيتها عن طريق الامتزاج مع العشائر الأخرى . وكان لكل عشيرة زعيم يختاره مجلس شيوخ العشيرة ، وعندما يتبوأ مركزه كانوا يطلقون عليه اسم مؤسس العشيرة الأول ، اذ كانوا يعتقدون أن ذلك المؤسس قد تجسد فيه . وكان لكل عشيرة طوطمان ، كانا من الحيوانات في العادة ، وكانوا يطلقون على عشيرتهم اسم الطوطم الأكثر أهمية . وكان محرما على أعضاء العشيرة أن يذبحوا أو أن يستخدموا هذا الطوطم ، ولكنهم لا يعترضون اذا قام أحد أفراد العشائر الأخرى بمثل هذا العمل. وكانت العشيرة تنقسم الى عدد من العشائر الفرعية. وكانت الظاهرة الرئيسية التي تميز منطقة كل عشيرة فرعية هي الجبانة التي يدفن فيها أفرادها. وبعد أن تستخدم هذه الجبانة مدة ثلاثة أجيال متعاقبة تصبح هي والمزارع التي تحيط بها ملكا لأعضاء العشيرة الفرعية لا ينازعها فيها آحد ، ولا يستطيع الملك أن يأخذها منهم ، وكان لكل عشيرة فرعية زعيمها وفى أغلب الحالات معبد يعبد فيه مؤسسها أو أحد آلهتها .

وتنظيم العشائر والعشائر الفرعية المحلية أقدم كثيرا من دولة الباجندا . وقد فرض الغزاة الحاميون عليهم النظام الادارى للدولة ولكنهم حرصوا على ابقاء كل منهما منفصلا عن الآخر . وكان زعماء العشيرة والعشيرة الفرعية

ممنوعين من الاشتراك في الحكومة الوطنية ، وكان من النادر أن يعين الموظفون ليحكموا قوما من عشائرهم . وفي نفس الوقت فان حق العشائر المختلفة في شغل بعض الوظائف التي تضفي الشرف على أصحابها كان داعية لجعل ولاء العشيرة سببا في ربط أفراد الرعية بالحكومة المركزية . ولنضرب بعض أمثلة قليلة . كان منصب حارس المقابر الملكية وراثيا في عشيرة « القرد » وكان حارس الملك يختار من عشيرة الفأر ، أما الرجال الذين كانوا يحملون الملك على أكتافهم أينما ذهب خارج مقره فانهم كانوا يجندون من عشيرة « الجاموسة » . وحراس البوابة الملكية كانوا من عشيرة « عش الغراب » ، وقارعو الطبول الملكية من عشيرة « فرس النهر » وكانت زوجته من عشيرة « كلب البحر » هي التي تعد فراشه . وكان على كل عشيرة أن ترسل زوجات منها للملك ، كما كانت ترسل جماعات من الأولاد والبنات من وقت لآخر من العشائر المختلفة للخدمة في المقرات الملكية وفي منازل كبار الموظفين .

وكان كيان الدولة كله يدور حول الملك الذي كانت أعماله المكلف بالقيام بها دينية وسياسية في الوقت ذاته . ويلى الملك مباشرة موظفان هما ال «كاتيكيرو» أو الوزير الأول ، واله «كيمبوجوى» أو حامل حبل سرة الملك . ويقوم الأول بادارة شئون المملكة ، ويقوم الثاني بالاشراف على الهياكل الوطنية . وبذلك تطابق وظائفهما الناحيتين الرئيسيتين في واجبات المنصب الملكي . وكانت المملكة كلها مقسمة الى عشر مقاطعات ، يرأس كلا منها موظف كبير يسمى « باسازا» أو المحاكم ، وكان عليه أن يطبق العدل ويحافظ على النظام ويشرف على الأشغال العامة ، كما كان عليه أن يقدم فرقة من الجنود وقت الحرب ، وأن يحافظ على سلامة بنايات معينة في المقر الملكي ويقوم بترميمها عند الحاجة ، كما كان عليه أيضا أن يمد المقر الملكي ويقوم بترميمها عند الحاجة ، كما كان عليه أيضا أن يمد المقر الملكي والموتم شهر كل عشرة أشهر ، وكان على كل حاكم من حكام الأقاليم واجبات أخرى خاصة . فقد كان على « باسازا » مقاطعة « كايا داندو » وهي

المقاطعة التي يقع فيها المقر الملكي ، كان عليه أن ينوب عن الملك في المناسبات المختلفة في الأوقات التي يكون فيها الملك في عزلة ، وكانت هذه الاعتزالات كثيرة نظرا لطبيعة الملك المقدسة . وكان باسازا مقاطعة « بوسوجو » تحتل مركزا عظيم الأهمية لأنه كان يتكفل بأبناء الملك الذين كان يتحتم عليهم الاقامة في مقاطعته ، كما كان يلعب دورا رئيسيا في اختيار الملك الجديد . وكان باسازا مقاطعة « بوسيدا » هو أمين المقابر الملكية وكان منصبه هو المنصب الوراثي الوحيد في عائلة معينة . وكانت أوامر تعيين « الباسازات » تنتهى بموت الملك وذلك بالرغم من أنه كان من الممكن أن يعاد تعيينه . وعلى أى حال فكان يتحتم أن يخلفه عضو آخر من نفس العشيرة . وكان لكل باسازًا مقر في العاصمة ومقر آخر في المقاطعة التي يحكمها ، وكان يشرف على كل مقر وكيل عنه يمثل الحاكم في غيابه . ويلى الباسازا ستة موظفين من صغار النبلاء يتدرجون في أهميتهم وكانوا يحكمون المراكز الفرعية في المقاطعات. كان هؤلاء الستة يعينون بوساطة الملك بعد استشارة « الحاكم » ولكنهم كانوا مسئولين أمام الملك وحده ، وكانوا مثل الباسازا يملكون مقرات في العاصمة ، كما كان يتوقع من كل الموظفين أن يمضوا أوقاتا كثيرة هناك. وكان النبلاء جميعاً من كل الطبقات يكونون المجلس الأعظم للمملكة الذي يكاد يكون فى حالة انعقاد دائم .

كان تطبيق العدالة من أهم المسئوليات الملقاة على عاتق جميع الموظفين باستثناء موظفى القصر . هذا ، وكان الانتقام الشخصى محرما تحريما تاما اللهم الا فى الفترات التى كانت تفصل بين موت الملك واعتلاء ملك آخر على العرش ، اذ كانت الفوضى تسود فى مثل هذه الفترة . وكانت هناك مجموعة قوانين ، وكانت تعدل من وقت الى آخر بقرار من الملك . وكان النبلاء فى كل طبقة يعملون قضاة يحكمون بين الناس فى مقاطعاتهم الخاصة ، وكان فى الامكان استئناف الأحكام من المحاكم الابتدائية الى المحاكم العليا حتى تصل

القضية الى الملك نفسه. وفي حالة المنازعات كان يفرض على كل من المدعى والمدعى عليه أن يدفع مبلغا متساويا يضيع على من يخسر القضية ، وهو اجراء مفيد حتى لا يشجعوا المنازعات غير الضرورية . وكانوا يلجأون الى التحكيم الالهى عن طريق التعذيب عندما تكون الأدلة غير قاطعة . وكانوا يستخدمون التعذيب لانتزاع الاعترافات ، وكان من الجائز أن يحتفظوا بالمشتبه فيهم في أماكن للحجز انتظارا للمحاكمة ، ولكن لم تكن هناك أماكن خاصة لتنفيذ الأحكام التي تصدر بالسجن . وكانت العقوبة الشائعة للجرائم الصغيرة هي قطع بعض أجزاء الجسم وهي تتدرج ما بين صلم الأذن وجدع الأنف الى الخصى أو بتر الأعضاء . أما هؤلاء الذين كانوا يدانون في جرائم كيرة فكانوا في الغالب يحتفظون بهم لتقديمهم كقرابين بشرية .

وكانت الضرائب تجبى بغير انتظام ، وتفرض عندما تفرغ الخزانة الملكية ، ولكن طرق جبايتها كانت منظمة . كان يمين في كل مقاطمة من المقاطعات ستة من الموظفين لجبايتها ، واحد يعينه الملك وآخر تعينه الملكة الأخت ، وثالث تعينه الملكة الوالدة ، ورابع يعينه الوزير الأول ، وخامس يعينه أمين الفتيشات· الوطنية ، والسادس يعينه حاكم المقاطعة . وكان جباة الضرائب يزورون كل نبيل ويحددون قيمة الضريبة التي يجب أن تدفعها المنطقة على أساس عدد البيوت التي تحتويها . وكانت الضرائب تدفع عينا ، وكان يسمح بشهرين بين تقرير الضريبة وجمعها حتى يعطوا المزارعين الوقت الكافى لجمع السلع اللازمة . وكان الملك يأخذ نصف المتحصل ويقسم الباقى بين الملكة الوالدة والملكة الأخت والوزيرين العظيمين . أما البازا والنبيل فقد كانا يأخذان جزءا من الضرائب المحصلة من مقاطعتهم . وكان الفلاحون يؤخذون للعمل كجنود أو كعمال في الأعمال العامة . وكان هناك نظام غريب يقضى بأن يدفع كل رجل يؤخذ للعمل مبلغا مجزيا لرئيس العمال قبل أن يبدأ العمل بالرغم من أنه لم يكن يحصل على أجر مقابل عمله.

وكانت الأسرة المالكة تحيا حياة مختلفة ، فى نواح كثيرة ، عن حياة عامة الشعب وعن الموظفين . فقد كانت الشخصيات الرئيسية فى المائلة المالكة هى الملك والملكة الوالدة ثم الملكة الأخت . وكان لكل منهم ، وخصوصا الملك ، شىء من الصفة الالهية يذكرنا بما كان فى مصر القديمة . كان الملك يحيط نفسه بسياج من الطقوس الكثيرة ، وكان على كل انسان يقترب منه أن يخر ساجدا آمامه . وبالرغم من أن الملك لم يكن يخضع لقيود الزواج فانه كان يملك عددا لا يحصى من الزوجات اللاتي كن يقدمن اليه كهدايا أو كرشوة أو اللاتي يجذبن أنظاره . وكانت أرفع النساء شأنا يبنهن هى تلك التي اختارها أبوه لتكون زوجة له . وكانت أرفع النساء شأنا بينهن هى تلك التي اختارها أبوه لتكون زوجة له . وكانت الزوجات جميعا يعشن فى مقر الملك ، وكن خاضعات لرقابة مشددة لضمان شرعية الأبناء الذين يعشن فى مقر الملك ، وكن خاضعات لرقابة مشددة لضمان شرعية الأبناء الذين للدنهم ، والذين كانوا يحتفظون بطواطم أمهاتهم اعترافا منهم بانتسسابهم لعشيرة أمهاتهم ، وبالاضافة الى ذلك الطوطم كان عليهم أيضا أن يحترموا لعشيرة أمهاتهم ، وبالاضافة الى ذلك الطوطم كان عليهم أيضا أن يحترموا

وكان كل أمير من الأمراء عند بلوغه الانتهاء من مرحلة الفطام يسلم لحاكم مقاطعة (باسوجا) كان يعين وصيا عليه ويخصص له ضيعة صغيرة . وكان الابن الأكبر الذي كان محرما عليه أن يرث العرش يشارك الحاكم فى الاشراف على اخوته من الذكور بينما تكون الابنة الكبرى للملك مسئولة هي أيضا عن أخواتها البنات . وقلما كان يبقى حيا أحد من أبناء الملك بعد موته فترة طويلة ، وذلك لأنه بمجرد اختيار الذي سيجلس على العرش كان هو وأمه يجمعان اخوته الذين يحتمل أن يحصلوا على تأييد شعبى ويرسلان بهم الى مكان معين ويوضحون في مكان مغلق تحت خراسة مشددة ثم يتركون ليموتوا جوعا وعطشا . أما بنات الملك فكن يعاملن بكل احترام غير أنه كان يحرم عليهن الزواج أو أن يكون لهن ذرية ، وفي الوقت ذاته لم يكن مطالبات بالمحافظة على عفتهن . وكان بعضهن يصبحن كاهنات ، بينما كانت

الأخريات يعشن كنساء يتمتعن بحريتهن يمتلكن ضيعات صغيرة ، ويعشن حياة تسودها الفوضي والعبث .

وعند وفاة الملك كان يعقد اجتماع عاجل يحضره الوزراء العظام والحكام الأوصياء وأكبر أبناء الملك . وعندما يقررون من الذي سيخلف الملك في حكم البلاد كان يعلن موت الملك باطفاء النار المقدسة التي كانت دائمة الاشتعال عند مدخل مقر الملك ويخنقون حارسها ، ويقرعون طبولا خاصة لا تستخدم الا في هذه المناسبة فقط . وكانت دقات الطبول تحمل الأنباء الى كل أنحاء المملكة فتسود الفوضى في الحال في جميع أنحاء البلاد ، وتقوم الحروب بين الحكام والنبلاء يحارب بعضهم بعضا ، وينهب الأقوياء جيرانهم الضعفاء ، ويستدعى جميع الأمراء الى مقر الحكم ويعلن الحكام الذين يقومون بالوصاية على الأمراء من سيكون الملك القادم. وبعد ذلك يتحدى الوزير الأول أي أمير من المرشحين الذين خاب أملهم ، وكل من ينتصر لهم ، أن يبارزوه بالسلاح وتصبح أم الملك الجديد هي الملكة الوالدة، كما كانت تختار احدى أخواته الشقيقات أو غير الشقيقات لمنصب الملكة الأخت. وكان يعين أيضًا في ذلك الوقت نفسه بعض الموظفين المهمين جدًا ، وكان الملك يحضر احتفالا هاما يعرف باسم « التهام البلاد » يضفى الصفة الشرعية على أحقيته فى العرش ، ولكنهم كانوا يؤجلون حفلة التتويج لمدة ستة أشهر يلبس فيها الملك الجديد ثياب الحداد على أييه.

وكان الحاكم المشرف على المقابر الملكية يأخذ الملك الميت الى مقاطعته حيث تحنط جثته ، وبعد أن يتم ذلك يحملون جسده الى المبنى الذى أعد ليكون قبرا له . وكان الرعايا يأتون بالملابس المصنوعة من قشور الشجر كقرابين للملك الميت ، وكانت هذه الملابس تكدس فى المنزل حتى يمتلىء الى السقف ، وبعد ذلك يعلقون الباب ويختمونه . وكانوا يحضرون أربعة من خدم الملك الخصوصيين وأربعة من زوجاته ومئات من العبيد والأسرى ويقتلونهم الملك الخصوصيين وأربعة من زوجاته ومئات من العبيد والأسرى ويقتلونهم

ضربا بالهراوات ويلقون بأجسادهم حول المبنى. وبعد مضى ستة أشهر كانوا يفتحون المنزل ويأخذون رأس الجثة المحنطة وينظفونه ثم يشرب أحد الرجال الجعة واللبن من هذه الجمجمة فيصبح بعد ذلك الوسيط الذى يتكلم عن طريقه روح الملك الميت الى الناس. وكانوا يعيدون الجمجمة ثانية الى القبر، أما عظم الفك وحبل السرة فكانوا يضعونهما فى معبد من المعابد التى فى مقر الملك الميت. وكانوا يحتفظون دائما بمقرات الملك، وكان وزراء الملك الراحل وموظفو قصره وكثير من زوجاته يستمرون فى خدمة روحه. وعندما يموت أحد هؤلاء الموظفين كان يعين موظف آخر بدلا منه. وكان على الملك الحاكم أن يزور معبد أبيه مرة خلال مدة حكمه. وعندما تشرف زيارته على نهايتها كان يعطى اشارة يقبض بعدها على مئات من المشاهدين الذين كانوا يشاهدون تحركات الملك ويقدمون قرابين لروح أبيه.

وتقام حفلة التتويج عندما تنتهى فترة العداد على الملك ، وكان الملك الجديد وأخته يقسمان اليمين قبل تولى السلطة ، ثم يلبسان الملابس الملكية . وبعد ذلك يحضرون أمام الملك رجلين معصوبي العينين يقنصان من الطريق فكان يرمى أحدهما بسهم يجرحه ، ثم تأخذ جماعة صغيرة هذا التعس وتلقى به على حدود مملكة مجاورة ، كانت فى حالة جرب دائمة مع الباجنديين ، وبعد أن يشوهوه يتركونه هناك ليموت . أما الثاني فكانوا يقودونه الى المكان الذى تقدم فيه القرابين حيث يبدأون فى قتل ثمانية رجال آخرين الواحد بعد الآخر ، ثم يلفون أمعاءهم حول رقبته ، ويمنح بعد ذلك لقبا خاصا ، بعد الآخر ، ثم يلفون أمعاءهم حول رقبته ، ويمنح بعد ذلك لقبا خاصا ، ويصبح مسئولا عن زوجات الملك . وأخيرا ، يبنى حكام المقاطعات مقرات للملك وللملكة الوالدة والملكة الأخت . وكان لكل من هذه السيدات بلاطها الخاص ووزراؤها وموظفو البلاط وكانوا مماثلين لزملائهم الذين فى خدمة الملك سواء فى اللقب أو فى اختصاص العمل .

وكانت عقيدة الباجنديين ، في الأمور الخاصة بما فوق القوى الطبيعية ،

مصبوغة صبغًا قويًا بالسحر ؛ ففي هذه البلاد كما في جميع بلاد افريقية ، كان يوجد مطببون من بين وجوه نشاطهم عمل الفتيشات والأعمال السمحرية والابراء من المرض. وكان هؤلاء المطببون يختلفون تماما عن الكهنة الذين يلحقون بخدمة آلهة معينة ، وأن كان هناك بعض الازدواج في عمل الفريقين مثل الانباء بالغيب الذي كان يعد من أهم أعمال المطببين ، ولكن الكهنة كانوا يمارسونه أيضا . ولكن المطببين كانوا يزاولون عملهم في التنبؤ بالغيب عن طريق القاء أصداف الودع ودراسة أحشاء الطير وبعض الطرق الموضوعية الأخرى ، في حين كان كهنة المعابد يزاولون عملهم في الانباء بالغيب عن طريق الوحى. وكان الدين الباجندي يدور حول عبادة الموتي. كانوا يعتقدون أن الأرواح العادية تعود بعد أعوام قلائل من وفاة الميت فتتجسد فى أطفال من نفس العشيرة فكانوا يسمون الطفل باسم الشخص الذي مات ثم لا يعبدون روحه بعد ذلك . وخلال الفترة التي تفصل بين الموت والتجسد كان عليهم أن يقدموا القرابين للروح ، وبالرغم من أن الأرواح كانت بوجه عام أصدقاء للأقرباء الا أنها كانت سريعة الانتقام اذا ما أهملها أقرباؤها كما كانت تعاقبهم على السلوك غير السوى ، وكثيرا ما يكون غضبها سببا في حدوث الأمراض. وكانت الآلهة العظيمة عند الباجنديين في حقيقة الأمر ، أرواحا لأنهم كانوا يعتقدون أنهم كانوا بشرا يعيشون في يوم ما على الأرض ، وكانت كل عشيرة تعبد روح الجد الأول كالهها الرئيسي . وكان هذا الجد يتجسد في زعيم العشيرة عند تولى منصبه . وكانوا يعبدون روح الجد الأول ، وكانوا يقيمون لها معبدا ويعينون له كهنة ويحيطونه بكل مظاهر الالوهية . ولم تكن هذه المتناقضات المنطقية التي تشتمل عليها مثل هذه المعتقدات المتعددة من الأمور التي تضايق الباجنديين ، فقد كانوا يشبهون المصريين القدماء في هذه الناحية. كانوا ينظرون الى جميع الموتى من الملوك بأنهم آلهة وطنيون ، وكثيرا ما كان الملك الحاكم يستشيرهم اذا وجد نفسه أمام احدى المشاكل. أما الآلهة الذين لم يكونوا من أرواح الأسلاف <mark>فقد ساووا بينهم وبين الظـواهر الطبيعية</mark> المختلفة . وأهم الآلهة الباجندية هو الاله « موكاسا » Mukasa الذي كان مرتبطا ببحيرة فيكتوريا ، وكان هو الذي يأتي بالسمك ويتحكم في العواصف كما كان الها للخصب. وكان لكل اله معبد ، أو عدة معابد ، يقوم على خدمته فى كل منها هيئة كاملة من الكهنة ، كما تلحق بها الضياع الخاصة والأرقاء الذين يقومون بالعمل فيها . وكان للآلهة الأكثر أهمية معبد رئيسي يؤمه الملك وكبار الموظفين وذلك الى جانب معابد أخرى صغيرة متفرقة فى أنحاء البلاد ، يؤمها عامة الشعب. وفي كل معبد وسيط يقوم بالاتصال بين المتعبدين والالهة، وكان ينقل أسئلة المتعبدين ومطالبهم الى الاله ، وعندما تكون الروح مستولية على جسمه ينطق باجابة مفككة يقوم الكاهن بتفسيرها . وكانت تصحب الابتهالات قرابين تختلف حسب أهمية الطلب ، ومركز العابد . وأسوأ ما فى ديانة الباجنديين هو انتشار القرابين البشرية بينهم ، اذ كانوا يقدمونها كجزء من عبادة الآلهة العظيمة . وعندما كانوا يخافون من حلول كارثة عامة ، كانوا يقدمون المئات من الأشخاص كقرابين فى وقت واحد ، اذ كان هناك ثلاثة عشر مكانا في المملكة تقدم فيها مثل هذه القرابين الجماعية . وكان الأسلوب المتبع في تقديم القرابين يختلف من مكان الى آخر . ففي أحد الأماكن كانوا يضربون الضحايا بالهراوات حتى يموتوا ، ثم تترك أجسادهم لتأكلها الضباع والعقبان ، فى حين كانوا يكسرون أذرع وأرجل الضحايا فى مكان آخـــر ويتركونهم على الشاطيء للتماسيح لتلتهمهم وهم أحياء.

وكان حظ أوغندة أسعد كثيرا من حظ معظم الدويلات الزنجية الأخرى. فان صعوبات النقل ، وعدم وجود زيت البترول ، والموارد الطبيعية ذات الأهمية البارزة ، حمتها من الاستغلال الأجنبى ، يضاف الى ذلك أن المناخ لم يشتجع الأوروبيين على الاستقرار هناك . وكان لتأسيس الارسالية البروتستانية الانجليزية عام ١٨٧٧ والارسالية الكاثوليكية الفرنسية عام ١٨٧٧

فضل فى اختفاء المظاهر الدموية من الدين الوطنى وبعد وفاة الملك موتيسا Mutesa عام ١٨٨٤ تمزقت البلاد بفعل الحروب التى اندلعت نيرانها بين المرشحين للعسرش الذين كان يساعدهم البروتستانت أو الكاثوليك أو المسلمون ، وفى عام ١٨٩٤ أصبحت أوغندة محمية بريطانية وقد أظهسر الأغنديون رغبة ملحة فى التعليم ، وليس هناك شك فى أنهم سيلعبون دورا هاما فى تقدم احدى المدنيات الافريقية الحديثة .

وكان لداهومي ، وهي تقع على شاطيء الرقيق في غرب افريقية علاقات طويلة ووثيقة مع الأوروبيين أكثر من أي مملكة زنجية أخرى . فقد زارها أولا البرتغاليون في منتصف القرن الخامس عشر ثم أصبحت مركزا هاما لتجارة الرقيق. وفى منتصف القرن التاسع عشر كانت معروفة لدى الأوروييين الذين كانوا يزورونها دائما أكثر من أي دولة زنجية أخرى بما في ذلك الأشانتي. وكان سكان غربى افريقية قد تعودوا التجارة والانتاج التجارى عندما وصل الأوربيون لأول مرة ، وكانت معظم الحرف يتوارثها الصناع المحترفون الذين سهلت روابط القرابة بينهم أمر تكوين النقابات، كما أن التجار الذين كانوا يتعاملون فى سلع مختلفة كانوا فى أغلب الأحيان ينظمون صفوفهم ليحافظوا على الأسعار ، وليضمنوا المنافسة العادلة بينهم . ولهذا السبب لم يكن النشاط التجاري الذي جاء في أعقاب الاتصال الأوروبي أمرا جديدا عليهم ، اللهم الا من ناحية كثرته . وقد تنج عن ادماج السلع الأجنبية في حضارة هـــده البلاد والحاجة الى توزيم السلع المستوردة فىجميع أنحاء المملكة ، والمكاسب التي كانت تجبي من وراء الرقيق ، نتج عن ذلك كله اتاحة الفرصة للعامة ، بما فيهم النساء ، لكي يجنوا ثروات كبيرة . وحتى الملك نفسه كان تاجرا ، وكان يستمد معظم دخله من التجارة بالاضافة الى الدخل الذي يأتيه عن طريق الضرائب وعن طريق دخل الجمارك.

ومن المحتمل أيضا أن يكون الاتصال الأوروبي قد لعب دورا مماثلا في

التطور التكنولوجي فى داهومى فلقد كانت جميع شعوب هذا الجزء من افريقيا عمال معادن مهرة ، وقد أثبت العثور على عدد من الرؤوس الفخمة الصنع لملوك « ايفى » فى القرن الحادى عشر أن هذه المهارة كانت قد أتمت تقدمها قبل وصول الأوروبيين ، ومع ذلك فقد كانت هناك رواية يرويها سكان مملكة « بنين » المجاورة تشير الى أن الفن قد دخل فى القرن الخامس عشر على يد فنان برتفالى ، وكانت هناك عشيرة تنسب اليه من سابكى النحاس يقولون انهم من نسله . ويمكننا أن تؤكد أن الأوروبيين لم يدخلوا هذه الصناعة الى افريقية ولكنهم ربما أسهموا فى وصولها الى حد الكمال فى مملكة « بنين » . ونلاحظ فى هذه المنطقة بعد القرن الخامس عشر التأثير مملكة « بنين » . ونلاحظ فى هذه المنطقة بعد القرن الخامس عشر التأثير ألا مرسومة بالكثرة التى رسم بها غيرها من الأسلحة الوطنية ، وكثيرا ما نرى رسوما لأفراد من الأوربيين نرى فيها المهارة أكثر مما نرى فيها شيئا من العاطفة نحو أصحابها .

وكان المجتمع الداهومي منظما تنظيما طبقيا دقيقا. ففي أسفل السلم كان يقبع الأرقاء الذين كانوا في هذه الحالة من الأسرى الأجانب أو من المجرمين. فلم يكن في داهومي أرقاء وراثيون بسبب وجود قانون قديم ينص على أن كل من يولد على أرض داهومي فهو حر ولكن ذلك لم يمنع من استعباد بعض الرعايا الداهوميين اذا ما اقترفوا بعض الأخطاء ، وهو اتجاه شجعه وجود تجار الرقيق من الأوروبيين. ولم يستعبد المجرمون فقط ، بل ان بعض أعضاء البيت المالك الذين كان الملك يشك في مطامعهم السياسية كان يقبض عليهم ويصبحون رقيقا ويباعون في الخارج. ولهذا فان أجداد الزنوج الأمريكيين كانوا ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة وما أشبههم في ذلك بالمعتقلين في أي معسكر من معسكرات الاعتقال.

وبين طبقة الأرقاء وطبقة الأحرار توجد طبقة أخرى وهي طبقة رقيق

الأرض أو خدامها وهم أبناء الرقيق المملوكين للملك الذين يعملون فى الضياع الملكية. ولم يكن يسمح ببيع هذه الطبقة ولكن فى الوقت ذاته لا يسمح لها بمغادرة الأرض. أما العامة الذين يكونون غالبية الشعب فكانوا ينتظمون فى أربعين عشيرة لم يفرض عليها أن تعيش فى أماكن معينة فى البلاد. وكان لكل من هذه العشائر زعيم مسئول عن تسوية النزاع الذى ينشب بين أعضاء العشيرة ، كما كان يشرف أيضا على ما يحدث بين أفرادها من زواج ، ولما كانت مهور الزوجات كلها تمر من بين يديه فان المنصب كان مربحا للغاية. وكان من حقه أيضا أن يأخذ الدخل الذى يأتى من استغلال الأملاك المشتركة للعشيرة ، كما كان له الحق فى استدعاء أعضاء العشيرة للعمل. وكان يستمد العشيرة ، وكان يستمد أهميته من الدور الذى يلعبه ككاهن أعظم لعبادة أسلاف العشيرة ، وكان يدين بسلطة لاتصاله الوثيق بأرواح الأسلاف. وكانت المتقدمات فى السن يدين بسلطة لاتصاله الوثيق بأرواح الأسلاف. وكانت المتقدمات فى السن أمواح الأسلاف . وكانت المتقدمات فى السن أمواح الأسلاف .

كان أعضاء العشيرة متفوقين فى أنحاء المملكة ، ولكنهم كانوا يحافظون على التضامن عن طريق عقد اجتماعات سنوية يعبد فيها كل الذين ماتوا من أعضاء العشيرة بجانب الذين وقعوا فريسة للاسترقاق وتركوا وطنهم . وكانت الوحدة الاجتماعية الرئيسية فى داخل العشيرة هى العائلة المترابطة التى كان رئيسها يدير أملاكها ، وكان يعامل هذا الرئيس باحترام عظيم أثناء حياته ويؤله بعد وفاته . وكانت غاية ما يطمح اليه كل رجل أن يؤسس عائلة مترابطة وأن تنمو هذه العائلة حتى تصبح عشيرة فرعية . وتتجت من هذا النظام عادة أخرى وهى أنه طالما كان فى مقدور النساء أن يعملن فى التجارة وأن تكون لهن ثروات مثل الرجال ، فقد تطور النظام الاجتماعي وأصبح للنساء الحق فى تأسيس عائلات مترابطة . كان فى مقدور المرأة التى تجمع لنفسها ثروة كافية أن تشترى أرضا ، وأن تبنى مقرا ، وأن تشترى زوجات تقرضهن لشبان

تختارهم بغرض انجاب الأطفال وكانت « الزوجات » ينادينها بلقب «الزوج» بينما كان الأطفال الذين أصبحوا فرعا جديدا ينادونها على اعتبار أنها « الأب » ، ويظهرون لها شعائر الاحترام الرسمية الواجبة نحو الأب الحقيقى وفي الجيل الذي يعقب هذا كان أبناء مثل هذا الفرع يشترون الزوجات ويحضروهن الى مقر الفرع كالمعتاد ، ولكن البنات كن لا يفادرن المقر ، بل كن يحضرن أزواجهن اليه . وكانت الفروع التي تفتقر الى الأبناء تلجأ الى الزواج من سلالة الأم ، ولكن مثل هذا الأمر كان يحدث عند الضرورة فقط . والفروع التي تؤسسها النساء هي التي كانت تستمر جيلا بعد جيل ، وكانت النبيجة التي ترتبت على ذلك هي أن هذه الفروع أخذت في النمو السريع وكانت متعددة ومزدهرة أكثر من المعتاد .

وكان الملك يغدق الضياع على العامة كمكافأة على خدماتهم . وكانت هذه الضياع تورث للبكر من الأبناء ونجم عن ذلك وجود طبقة نصف نبيلة عرفت بين الأوروبيين باسم ال «كابوسير » Caboceer ، وكان هــؤلاء الكابوسير يدعون للخدمة العسكرية مثل كل أحرار الداهوميين ، وكونوا نواة فرقة الفرسان الوطنيين . وكان لجميع الأفراد منسلالة الملوك الداهوميين الحق في التمتع بمرتبة الامارة ، ولم يحل القرن التاسع عشر حتى كان هؤلاء الأمراء قد أضحوا من الكثرة بحيث أصبحوا عشرة في المائة من مجموع الشعب. ولم يحرم الزواج على نساء هذه المجموعة ، ولكن بما أن أزواجهن كانوا في العادة من العامة فقد كانت لهؤلاء النساء السلطة المطلقة في المنزل، وكن مشهورات بالتهور في سلوكهن من ناحية علاقاتهن الجنسية . وكان يسمح للملك بالزواج من أميرات عندما تكون رابطة الدم الحقيقية بينه وبينهن بعيدة ولكن كان أبناؤه من الأميرات ممنوعين من تولى العرش لأنهم كانوا يعتقدون أن شرعية ذلك موضع شك . وكان المفروض ألا يشتغل الأمراء والأميرات بالتجارة أو بأى نوع آخر من الأعمال اليدوية ، كما كانوا عموما ممنوعين من تولى أى نوع من المناصب الادارية . أما دخلهم فقد كان يأتيهم من الضياع التي يتوارثونها ، ومن الهبات التي يغدقها عليهم الملك .

كانت رابطة القربي في داهومي رابطة قوية الى أبعد الحدود . وكانت واجبات الفرد تجاه الأقارب العديدين تعوق حريته الشخصية فى كل ناحية . ولعل الفكرة الخاصة بالصديق الوفى التي اختصت بها داهومي نشأت كرد فعل لهذه العادة . فقد كان لكل رجل داهومي أو امرأة داهومية صديق من جنسه يشترط ألا يكون من أقاربه أو أقاربها ، ويكون هذا الصديق الوفى موضع الثقة الكاملة ، وقد اعترف بهذه العلاقة كل من القانون والعرف . حتى الملك نفسه كان له صديق وفي يختاره من العامة . وكان هذا الصديق الوفى محل ثقة صديقه التامة أثناء حياته وكان عليه أن يساعده في كل ما يفعله سواء أكان ذلك قانونيا أو ضد القانون . فاذا ارتكب أحد الناس جريمـــة وهرب كانوا يلقون القبض على صديقه الوفى ويعذبونه لأنه متى سمع صديقه بذلك فان ولاءه سيحتم عليه بكل تأكيد أن يسلم نفسه فورا. ومن الجائز أن يتقدم الصديق الوفى لمساعدة صديقه بتزويده بالمال اللازم لشراء زوجـــة وفى مثل هذه الحالة كان من المفهوم أنه عندما تبلغ الابنة الأولى من هـــذا الزواج سن الزواج كان للصديق الوفى الحق فى أن يتخذها زوجة له دون أن يدفع مهرا لها . وقد أيد القانون الداهومي هذه العادة التقليدية تأييدا قويا . فلو هربت الفتاة أو فقدت بكارتها بسبب صلتها برجل آخر فان جميع نساء عشيرة الصديق الوفى المتزوجات من رجال ينتمون الى عشيرة الرجل الذى تسبب في هربها أو فقد بكارتها يصبحن في الحال بصورة آلية مطلقات من أزواجهن . وكانوا يهيئون للسيد الذي أسيء اليه الفرصة لاختيار عروس له من بين كل بنات عشيرة الخطيبة الخاطئة اللائمي بلغن سن الزواج دون أن يدفع مهرا أو ابداء أى اشارة الى أى ارتباط سابق بترتيبات الزواج من أى شخص آخر . وعندما يموت الرجل كان المتوقع من صديقه الوفى أن يشرف علىجنازته وأن ينفذ وصيته ، وكان المعتاد أن يفضل الشخص صديقه الوفى للافضاء اليه بالوصية ويفضله على أى شخص من أقاربه وكانت هذه العلاقة بين الأصدقاء ذات أهمية كبرى لدى الداهوميين جعلتهم يتخذون لأنفسهم صديقا ثانيا وثالثا من الأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يأخذون مكان الصديق الوفى الأول فى حالة وفاته .

وكان في المقر الملكي في أبومي (Abomey) حوالي ثمانية آلاف شخص كلهم من النساء تقريبا . وكان لدى الملك أربعون زوجة من عشيرة الفهد كن يقمن على خدمته وذلك عدا عدة آلاف أخرى من الزوجات لم يتصل أكثرهن بالملك ، ولم تكن لهن علاقة به كزوج . فمثلا كان الألفان والخمسمائة فارسة أمازونية اللاتي كن أفضل فرق الجيش الداهومي من بين زوجات الملك وذلك بالرغم من أن معظمهن كن عذارى ، اذ كانت العلاقات الجنسية محرمة عليهن تحريما كاملا ، ومن خالفت ذلك كان نصيبها القتل . وكانت بعض أولئك الزوجات يعملن كأرشيف حي ويحفظن في ذاكرتهن أمور المملكة المعقدة . فقد كان يخصص لكل موظف ابتداء من الوزير الأول الى القاضي المحلى زوجة من زوجات الملك تعتبر « أما » له . وكان مفروضا أن تكون هذه المرأة حاضرة في كل المناسبات عندما يقوم بعمله كموظف حتى تستطيع معرفة كل ما يحدث وتبقيه في ذاكرتها وتنقله الى الملك .

وكان للملك وزيران عظيمان ينتخبهما من بين العامة . واحد منهما هو « المينجان » (Mingan) الذي كان في الأصل يعمل جلادا لدى الملك ، ثم ازدادت بعد ذلك واجباته الى أن أصبح وزيرا أول يصر في أمسور المملكة . وكان دائما يتزوج ابنة الملك الكبرى ويقف على يمين العرش في المناسبات الرسمية . أما الوزير العظيم الآخر وهو « الميهو » (Mehu) فكان مسئولا عن الاشراف على القصر الملكي ، كما يقوم بالاشراف أيضا على جميع أعضاء مجموعة الأمراء ، وكان يتزوج من ابنة الملك الثانية ويقف على شمال العرش مجموعة الأمراء ، وكان يتزوج من ابنة الملك الثانية ويقف على شمال العرش.

وبالاضافة الى هذين الوزيرين كان يوجد موظفون عديدون يشتغلون فى ادارة المملكة ، وبالرغم من انهم كانوا من العامة الا أنه كان هناك اتجاه قوى لجعل مناصبهم وراثية . وكان يعين لكل موظف يحتل منصبا كبيرا أحد الأمراء كملازم له ، وكان هؤلاء الملازمون يتمتعون ببعض امتيازات المنصب ولكن لم تكن لهم أى سلطة .

وكان الملك يختار فى حياته ولى عهده الذى يكون فى العادة أكبر أبناء الزوجة الأولى التى اختارها له أبوه الملك الراحل ، ولكن الصلاحية للمنصب كانت توضع أيضا موضع الاعتبار . وكان يعطى لولى العهد ضياع كثيرة وزوجات عديدات ، وكان يشترك مع أبيه فى الحكم قبل وفاته .

وكانت المملكة مقسمة لاعتبارات ادارية الى اثنتى عشرة مقاطعة يحكم كل منها حاكم وراثى . وكانت كل مقاطعة تضم قرى عديدة يرأس كل منها زعيم وراثى أيضا . وكان لكل زعيم منهم الأدوات الخاصة بمظهر وظيفته وهى عصا مزخرفة وكرسى كان شكله يختلف باختلاف المنصب ، كما كان ارتفاعه يتناسب مع أهمية المنصب أيضا . كما كان من بين تلك الأدوات غليون للتدخين ومظلة تنشر فوق رأسه فى المناسبات الرسمية وكانت المهمة الأساسية لهؤلاء الزعماء هى اقامة العدل . وكانت مالية الدولة تسير على أساس سليم ومنظم . وكانت الضرائب التى تجبى من المبيعات أكثر مصادر الدخل أهمية ، وكانت الضرائب تفرض أيضا على التركات كما كان الملك يستولى على ضياع وكانت الضرائب تفرض أيضا على التركات كما كان الملك يستولى على ضياع المجرمين بعد مصادرتها ، وكثيرا ما كان يحدث لأحد العامة الذي يتفاخر ويزهى دون وجه حق بثروته ، أن يحكم عليه بعد تلفيق تهمة له . وكان هناك عدد كبير من صغار الموظفين . وكان الموظفون جميعا تحت رقابة جهاز سرى منظم تمام التنظيم متغلغل فى جميع الادارات .

وكان القيام بعمل الاحصاء احدى المميزات الخاصة بنشاط الدولة الداهومية . فقد كان يجرى فى كل عام احصاء دقيق لعدد سكان داهومي

يتضمن تقارير عن المواليد والوفيات وكان لكل شخص يمثُّلونه بعصوة ، وكان بعض الموظفين المختصين يكلفون باحصاء العبيد وأسرى الحرب وقتلى المعارك وكان هذا الاحصاء بطريقة العصى يقسم الى خسس عشرة وحدة . واحدة منها كانت للذكور البالغين ، وأخرى للنساء البالغات ، وثالثة للأطفال من الجنسين الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة من عمرهم . وكانت أكياس الحصى توضع فى منزل خاص فى العاصمة وتعتبر مرجعا دائما لمعرفة ما اذا كان عدد الشعب فى ازدياد أم أنه أخذ فى النقصان ، ورسم السياسة اللازمة تبما لذلك ، ويعتبر وجود جيش دائم ظاهرة أخرى مميزة للدولة الداهومية فقد كان يتوقع من الرجال الأحرار ذوى الأجسام القادرة أن يقدموا أنفسهم للتجنيد السنوى الذي كان يحدث في بداية الفصل الجاف ، أي في الوقت الذي تكون فيه فترة راحة من العمل فى الزراعة . ولكن هذا التجنيد العام لم يكن ذا أهمية عسكرية كبيرة ؛ اذ أن الجنود لم يكونوا مدربين أو مسلحين تسليحا كافيا ، ولكن قوة الدولة كانت تكمن في جيشها المنتظم ، وكان هذا الجيش يتكون من حرس القصر ورجال البلاط وأبناء الزعماء وطبقات معينة من المجرمينوفرقة الأمازونيات. وكانت القوة كلها منتظمة في شكلفرق عسكرية، كان على رأس كل منها ضباطها ولكل منها لباسها الخاص بها . وكان الرجال يكونون جناحي الجيش. أما الأمازونيات فكانت في القلب. وكان عــدد الأمازونيات حوالي ألفين وخمسمائة أمازونية مقسمات الى خمس مجموعات. المجموعة الأولى هي مجموعة حاملات البنادق وكان عددهن كثيرا ويكون القوة الرئيسية ، ثم المجموعة التي تحمل القربينات أو البنادق القصيرة وكن من النساء المحنكات المتقدمات في السن ، ثم صائدات الفيلة ، وهن أعظم النساء جرأة واللاتي كن يصاحبن الملك في رحلات الصيد ، ثم مجموعة حاملات الأمواس ، وهن مجموعة صغيرة مسلحة بأمواس مستقيمة يبلغ طول سلاحها خمسة وأربعين سنتيمترا مصممة خصيصا للاطاحة برقاب الزعماء من الأعداء ،

وأخيرا ، كانت هناك مجموعة من الشابات حاملات الأقواس واللاتى كن يشتركن فى المعارك الا قليلا . وكانت النساء الأمازونيات دائما مسلحات ، ويداومن على التدريب ، وذلك عن طريق المناورات الكثيرة ، وقد أثبتن همتهن وحميتهن ابان حروب الفزو الفرنسية ، وربما كن أفضل الجنود الوطنيين فى افريقية .

وكان ملك داهومي يشن الحرب بانتظام في كل عام ضد جار من جيرانه .
وكانت البواعث على هذه الحروب اقتصادية في معظم الحالات ، اذ كانت الأسلاب وبخاصة الرقيق ، الذين كانوا يحصلون عليهم من هذه الحملات موردا هاما من موارد الدخل الملكي . وكان الكثير من أساليب الحرب في داهومي يشبه الأساليب التي كانت تستخدمها الدول الأوروبية ذات الحزب الواحد . كانوا يرسلون الجواسيس الى المنطقة التي يراد مهاجمتها متنكرين في زي التجار ويرشون الموظفين في ذلك البلد كلما أمكن ذلك . وكانوا يقومون بحملة منظمة لاثارة روح الحرب بين مواطنيهم اذ كان عملاء الحكومة يذهبون الى الأسواق لنشر الاشاعات عن الأعمال المدائية الشنيعة التي ترتكبها الدولة التي ينوون الهجوم عليها ، وكان كل شيء يدبر لكي يظهر أن العدو هو المعتدى ، وأن داهومي قد اضطرت اضطرارا أن تخوض غمار الحسرب رغم ارادتها .

والدين الداهومي منظم حول مجموعتين من الكائنات ذات القوى فوق الطبيعية وهما أرواح الأسلاف والآلهة الوطنية. كانت فكرة الداهوميين عن طبيعة الرجل الروحية أكثر تعقيدا من فكرة الأوروبيين عنها. فكل شخص داهومي كان يضم الى نفسه كائنا ذا قوة فوق قوة الطبيعة وهي روح أحد الأسلاف. وكان هذا الكائن يقدم المادة التي يتشكل منها جسد الفرد، ثم يقوم بعد ذلك على خدمته كحارس ومعين له. وكان لكل فرد قضاؤه وقدره الخاصان به اللذان يكشف له عنهما أحد المنبئين بالغيب. وبالرغم من أن

القضاء والقدر لم يكن لهما شكل معروف فانه يجب أن يسترضوهما بتقديم القرابين ثلاث مرات فى العام على أقل تقدير . والى جانب هذه الكائنات الخارجية ، كان هناك ثلاث كائنات داخلية . كانوا يعتقدون أن الروح الشخصية للفرد هى التى شكلت الجسد من المادة التى قدمتها الروح الحارسة . وكانت هذه الروح الشخصية تسكن فى الرأس وتتحكم فى تفكير الشخص ، وكانت تترك الجسد مؤقتا أثناء النوم ، وليست الأحلام التى يراها الشخص أثناء نومه الا التجارب التى تعرضت لها الروح أثناء ذلك . أما القوة الحيوية الأساسية فى الفرد فانها كانت تتمثل فى « أفعى » ساووا بينها وبين حبل السرة . فاذا أحسن الفرد معاملة هذه الأفعى وكسب ودها فانها تغدق على السرة . فاذا أحسن الفرد معاملة هذه الأفعى وكسب ودها فانها تغدق على صاحبها الثروات التى يأخذها من الرجال الآخرين الذين أهملوا « الأفاعى » الخاصة بهم . وأخيرا ، كان لكل فرد شرارة الهية ، قطعة من الالهة « ماوو » (Mowu) التى تزوده بقوة الالهام .

وعند الوفاة كانت هذه الكائنات تتفرق ؛ فكانت الروح الحارسة تبحث لها عن آخرين لتحميهم الى أن ترجع الى الأرض ست عشرة مرة . أما عن القوى الحيوية فانها لو عبدت كما يجب أن تعبد أثناء حياة الفرد ، فانها تنضم الى قوى المشيرة وتقويها والا فانها تهرب وتذهب بعيدا نحو الجبال وتثير المتاعب ، فأما الشرارة المقدسة فانها تعود الى الالهة « ماوو » ، وأما الروح الشخصية فتصبح شبحا يضرب فى الأرض حتى تقام لها جنازة مناسبة يتحتم أن تقام فى وقت لا يزيد عن ثلاث سنوات . فاذا لم يقيموا هذه الجنازة فانها تصبح شبحا دائما شديد العداء للاقارب الذين أهملوا شأن قريبهم . وبعد الجنازة كانت الروح تذهب الى الالهة « ماوو » وتقدم لها الحساب عن حياتها ، وتصاحبها الشرارة المقدسة لتشهد عما اذا كانت الروح قد قالت الحق . وفى النهاية الشرارة المقدسة لتشهد عما اذا كانت تعيش حياة مماثلة تقريبا لحياتها التى كانت تحياها على الأرض الموتى حيث كانت تعيش حياة مماثلة تقريبا لحياتها التى كانت تحياها على الأرض ، ولكنها كانت تهتم اهتماما كبيرا بما يفعله أقاربها

كما كانت فى العادة تصبح حارسا لواحد منهم كما ذكرنا آنها ، وكانت طقوس عبادة الأسلاف توجه بصفة رئيسية لهذا الجزء من طبيعة الفرد الروحية.

وكانت كل عشيرة تعبد أسلافها فى حفلات عظيمة تقام سنويا كما كان الملك يقدم فروض العبادة للاسلاف الملكية مرة كل سنة نيابة عن الأمة كلها . وكان ينتهى هذا الاحتفال الوطنى الذى كان يعرف باسم « العادات » ، والذى كان يستمر عدة أيام تقام فيها الولائم ويظهر فيها كل شخص مدى ثروته وغناه ، وكان ينتهى باستعراض فخم يقام فى الميدان العام الكبير أمام القصر . كان جلاد الملك ، وممثلون لكل من تولى هذا المنصب قبله يقفون تحت منصة عالية كانت تلقى منها الحيوانات التى يطيحون برؤوسها . وفى ختام هذا الاحتفال كانوا يرمون عشرين أو ثلاثين رجلا اليهم فيطيحون كذلك برؤوسهم، ويعرضون أجسادهم بعد ذلك وهى معلقة على نصبات تقام لهذا الغرض فى الميدان . وفى حفلة « العادات » العظيمة التى تقام بمناسبة موت الملك وجلوس خلفه على العرش كانوا يقتلون الكثير من حراس الملك وزوجاته وموظفى القصر ومئات من الضحايا ليكونوا فى صحبته فى العالم الآخر .

وكانت القرابين البشرية تقدم أيضا حينما يرغبون فى ارسال رسائل مهمة لأرواح السلف ، وكانوا يسلمون الضحية رسالة ليوصلها لهؤلاء الأسلاف ثم يعدم . وبالرغم من هذا كله فان عادة تقديم الضحايا البشرية كانت أقل أهمية وأقل استخداما فى داهومى عن مملكة أوغنده . وان المرء ليشك فى أن قيمة الانسان مهما كان نوعه وما يمكن أن يأتى من مكسب من بيعه لتجار الرقيق كان هو السبب المباشر للاقلال من ذلك فى داهومى .

وجنبا الى جنب مع عبادة الأسلاف ، انتشرت عبادة الآلهة الذين لم يكونوا من آصل انسانى فى يوم ما ، وكان هـؤلاء الآلهـة فى ثلاث مجموعات وهم آلهة السماء وآلهة الأرض وآلهة الرعد . وعلى رأس مجموع آلهـة السماء كانت تتربع الالهة « ماوو » الهة القمر التى كانوا ينظرون اليها على

أنها أم لكل الآلهة ، وبالرغم من أنهم لم ينظروا اليها على أنها كائن أعظم أو حتى على أنها خالق . وكان رقيقها هو « ليسا » Lisa اله الشمس . وكان أفراد مجمع الهة الأرض كلهم من الرجال باستثناء معبود واحد فقط ، وعلى رأسهم كان يتربع توأمان هما أول أبناء ماوو وليسا . أما الآلهة الأخر فى هذا المجمع فقد كانوا أحفادها . أما مجمع آلهة الرعد فقد كان على رأسه الابن الثانى لماوو الذي كان يتحكم فى الرعد والمطر والنار والبحر . وكان لكل من المجموعات الثلاث طقوسه الدينية وعبادته الخاصة ، ويكون عابدوه طائفة دينية خاصة ، وكانت هذه الطوائف الدينية تشبه فى نواح كثيرة الجمعيات السرية التي كانت موجودة فى البلاد الأخرى فى غربى افريقيا ، ولكن وجودها كان ممنوعا منعا باتا فى داهومى .

وكان لكل اله معبد ، أو أكثر ، يتكون من منزل دائرى الشكل مشيد من القش ويحتوى على تمثال له يضعونه فوق منصة مبنية من الطين . وكانت هيئة المعبد تتكون من زعيم الكهنة يعاونه عدد من المساعدين يؤخذون من أعضاء الطائفة القدامى وعدد من الأعضاء المدنيين غير الكهنة الذين قد تمت احاطتهم بأسرار الديانة وعدد من الأعضاء الجدد الذين كانوا فى دور التمرين للاحاطة بهذه الأسرار ، وكانت المجموعة الأخيرة تعيش فى مبنى خاص يقام داخل حرم المعبد . وكان لكل طائفة طقوس تختلف اختلافا بسيطا عن بعضها البعض ولكنها كانت كلها تسير على أسلوب كان من أهم مبادئه حلول الاله فى جسد الكاهن واستحواذه عليه ، وكانت الرقصات الدينية التى يقوم بها العابدون أثناء الطقوس تؤدى هى الأخرى الى حلول الاله فى جسد بعض العابدون أثناء الطقوس تؤدى هى الأخرى الى حلول الاله فى جسد بعض عؤلاء العابدين . وكانت مطالب الناس من الآلهة يصاحبها تقديم القرابين لكى تجاب ، وقد ينضم الأفراد الى مثل هذه الطائفة الدينية اما بالورائة واما وفاء لنذر .

وعندما يموت أحد أعضاء الطائفة يأخذ مكانه عضو آخر من نفس

العشيرة وكان الأطفال ينذرون لاحدى هذه الطوائف ، وكان عليهم أن يمروا بسلسلة طويلة من حفلات الارشاد لتعليمهم الأسرار . وفي خلال هذه المراحل كان من المفروض أن يقتل الآله العضو الجديد ثم يعيد اليه الحياة بعد ذلك ، وكان يمر هذا العضو بتجارب مختلفة وامتحانات قاسية فيها الكثير من التعذيب حتى تحل في جسده روح الآله ، وفي النهاية تفتديه عائلته بدفع مبلغ كبير من المال . وكان أعضاء الطوائف الدينية المختلفة يقصون شعورهم على طريقة خاصة ويلبسون أدوات زينة تميزهم عن غيرهم . ودراسة هذه الطوائف الدينية في داهومي ذات أهمية كبرى للأمريكيين لأنها هي أساس عادات الفودو ماكورة في التي أسيء فهمها . فان هذه الطوائف الدينية ، وكل ما تفرع عن الفودو ، كانت في جوهرها طيبة المقصد والفاية ، ويجب ألا نخلط بينها وبين السحر الشرير الذي كان أعضاء هذه الطوائف الدينية يمارضونه ويحاربونه محاربة شديدة .

واضعطت أهمية داهومى بعد الغاء تجارة الرقيق ، وفى نهاية القسرن التاسع عشر عندما اتجهت أوروبا لتكوين المستعمرات ، وقعت داهومى من نصيب فرنسا التى احتلت مقر الحكم فى أبومى وأرسلت بآخر ملك للبلاد الى المنفى فى عام ١٨٩٢ . ولكن بالرغسم من أن الداهوميين قد خضعوا لقوة الجيوش الفرنسية فانهم لم يفقدوا الأمل أبدا فى نيل استقلالهم والعودة الى نظامهم الملكى . ويقال انه يوجد مرشح معين لكل منصب فى المملكة ، وعندما يأتى اليوم الذى ينسحب فيه الأوروبيون فان النظم القديمة للحكومة يمكن أن تعود بين يوم وليلة .

ومجمل القول أن التنظيم الاجتماعى والسياسى للممالك الزنجية كلها يحتوى على ظواهر عديدة مشتركة بينها . ويبدو أن نظمهم الأساسية جميعها كانت تحتوى تجديدات مختلفة ولكنها مستمدة جميعها من نفس الأسس تقريبا . ففي هذه النظم كلها كانت طبقة المشتغلين بالزراعة منظمة في مجموعات

من الأقارب المترابطين ، وعلى رأس كل منها يتربع زعماء يعملون على تسوية الخلافات بين الأعضاء كما كانوا في الوقت ذاته كهنة لعبادة الأسلاف. وقد ظل هذا التنظيم العائلي منفصلا تماما عن تنظيم الوظائف التي تعتمد عليها الدولة في ادارة دفة الأمور في البلاد . وحتى عندما كانت المناصب وراثية في هذا النظام البيروقطراطي فان زعماء العائلات المترابطة كان يحرم عليهم أن يتولوها ، وكانت الممالك الزنجية جميعا ممالكا أوتقراطية وكان للملك فيها سلطة منح الحياة والحكم بالموت ، كما كان الملك أعلى السلطات التي تستأنف اليها القضايا لأن تحقيق العدال<mark>ة كان</mark> من أعظم مهام منصبه . وبينما كانوا ينظرون الى رحمة الملك بعين الرضى ، فانهم كانوا يعتبرون عدم استخدامه لسلطته بشيء من الاستبداد ضعفا ووهنا . وكان شخص الملك مقدسا دائما ، كما كانوا يعتقدون أن حالة الملك الجسمانية لها أثرها على رفاهية الدولة ، ولضمان ذلك فكثيرا ما كانت توجد نصوص رسمية تنص على قتل الحكام المرضى أو الذين أنهكتهم الشيخوخة .

وفى كل مكان ، كان الأسلاف الملكيون موضع عبادة وطنية عامة ، وكانوا يقومون بالسهر على حراسة المملكة . وكان المقر الملكى دائما فخما وعلى نطاق كبير ، ولهذا كان يبتلع الكثير من الدخل الوطنى . كان يشمل الحراس وعددا كبيرا من موظفى البلاد ومئات من الزوجات . وبالرغم من أنه كان من النادر أن يتم عزل زوجات الملك عزلا تاما ، فقد جرت العادة بحراستهن لمنع الزنا . ولم يكن لدى أى مملكة من الممالك الزنجية هيئات تشريعية أو أى هيئة أخرى لتمثيل الشعب فى ادارة الحكومة . وبالرغم من أنه كان للملك دائما مجلس ، فان أعضاء هذا المجلس كان يختارهم الملك بنفسه وكانت مهمتهم استشارية بحتة . وكما كان الحال مع زعماء العائلات المرتبطة بروابط القربى فان أقارب بعدون عن تولى الوظائف . وكانت نساء المجموعة الملكية يتمتعن الملك كانوا يبعدون عن تولى الوظائف . وكانت نساء المجموعة الملكية يتمتعن

فى كل مكان بدرجة كبيرة من الحرية فى علاقاتهن الجنسية ، وكان محرما عليه عليهن انجاب الأطفال ، واذا ولد لواحدة منهن أى طفل فانه كان محرما عليه الانتساب الى المجموعة الملكية .

ويبدو من غير المحتمل آنه عند بعث الحضارة الافريقية ، وهو الأمر الذي يتوقع حدوثه في خلال القرن القادم ، فان الأفريقيين سيتجاهلون هذه النظم القديمة التي مرت عليها قرون طويلة . ومن الأمور المثنكوك فيها بنوع خاص أنه سيكتب النجاح لأى محاولة لفرض الحقيقة الواقعة وادخال المظاهر الخارجية للحكومة الديموقراطية على الحضارة الافريقية .







الفيضل الثياني والثلاثون الهند في عصر ما قبل التاريخ

تدين أوروبا بمركزها كقارة من القارات للتحديدات الاغريقية ، بعكس الهند التي حرمت من مثل هذا المركز لنفس النظرة المحدودة , وتتساوى شبه جزيرة الهند من حيث الحجم تقريباً بأوروبا اذا ما استثنينا منها الروسيا ، وعدد سكانها خمس مجموع سكان العالم . أما مناخها فيتدرج من القمم الثلجية الى الغابات الاستوائية المتكاثفة ، الى صحارى قاحلة لا تدانيها في قحولتها غير الصحراء الكبرى . وما من منطقة نعرفها على مدى العصور التاريخية تماثل شبه جزيرة الهند في الحجم وفيها هذه المجموعات الكبيرة ، والمختلفة ، من الأجناس واللغات والحضارات ، ولا يزال ذلك كله باقيا حتى الآن ، ففيها قبائل ما زال أفرادها يعيشون على الصيد وجمع الطعام ، وهي لا تبعد أكثر من مائتين أو ثلاثمائة ميل من المدن الكبيرة الحديثة ، كما أن أكبر مصانع الصلب في العالم تقع على مقربة من قرى يعيش فيها صناع يصنعون بأيديهم ما تحتاج اليه القرية ، توارثوا هذه الحرف عن جدودهم وما زالوا يزاولونها بأساليب كانت تعتبر أساليب عتيقة عندما أغار الاسكندر المقدوني على اقليم الپنچاب. ولا يمكننا أبدا أن نصف مثل هذه البلاد وصفا كافيا في مجلد واحد ، فما بالك اذا ما حاولنا ذلك في فصول قليلة . ولهذا فان الضرورة تقتضى أن تقصر مناقشتها الحالية على عناصر الحياة الهندية التي تساعدنا على وضع هذه الحضارة في مكانها اللائق بها بين حضارات العالم ، والدور الذي لعبته في أخذها وعطائها للعناصر الحضارية . وتعتبر الهند من الناحية الجغرافية أكثر عزلة من أى جزء آخر في أوراسيا. فقد عزلتها جبال الهملايا الهائلة من ناحية الشمال عن بقية القارة وأصبحت لها حصنا ضد الغزو شبيها بخط ماجينو ويقع الطرف الغربي من هذا الحصن فی صحاری وجیال بلوخستان (Baluchistan) ، فی حین نری غابات و مستنقعات آسام المنيعة قد دعمت طرفه الشرقي وكأى خط دفاع لا يدخله التجديد لم يستطع هذا الخط أن يصمد فقد تمكن الغزاة من اختراق جبال هملايا أكثر من مرة . وبصرف النظر عن هذه التحصينات التي على الحدود أثبتت الهند ، باتساع رقعتها وعمقها ، انها كانت خط دفاع آخر أكثر مناعة . وقد كتب قائد مغولي أغار على وادى السند يقول « ان هذه بلاد شريرة .. فماؤها ردىء وشمسها تقتل الرجال » . وقد وجدت الموجات المتعاقبة من المغيرين الشماليين نفسها في أرض مزدحمة بسكانها الذين عاشوا فيها وقتا طويلا ، وأدركوا أنه رغم مهارتهم الحربية والسرعة التي تم بها غزوهم في البداية انه ما زالت أمامهم حروب لا تنتهى ضد المناخ وضد الأمراض . وكان السكان القدامي دائما يخرجون أحسن حالا بعد ذلك الصراع البطيء والمستمر من أجل الحياة ، ذلك الصراع الذي كان يعقب كل غزو أو احتلال جديد . ولم يكن أمام الغزاة من فرصة للحياة الا بمزج دمائهم بدماء الشعب المقهور وقبول الكثير من أساليب الحياة الهندية . أما أحفادهم فقد أصبحوا جرءا لا يتجزأ من الهند ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى كل من المجتمع والدين الهنديين اللذين كان لهما كيان محكم ومرن. وبلغ النظام الفسيفسائي الذي ذكرناه آثما عند حديثنا عن الشرق الأدنى أوج عظمته في الهند ، حيث.حلت مشكلة التشابه الكامل في الحضارة بالتوفيق بين عدد لا يحصى من المجتمعات الفرعية ذات الأصول المختلفة لتصبح صورة متماسكة لها فى مجموعها شكل واضح ولكن لكل وحدة منها مكانتها الخاصة تحميها القوانين الدينية ووجوه نشاط خاصة بها. ويفضل هذا الأسلوب استطاعت الحضارة الهندية أن تحتفظ بكيانها

كوحدة حضارية مستقلة لها مميزاتها لمدة ثلاثة آلاف سنة لقد اقترضت هذه المدنية كثيرا جدا من المدنيات الأخرى ، وهى تشبه فى ذلك جميع المدنيات الأخرى ، ولكنها كانت تختار لنفسها ما تقترضه ثم شكلت ما اقترضته ليتلاءم مع أساليبها ونظمها الخاصة .

ويرجع جزء من السبب في الاختلافات الهندية الى العوامل البيئية الطبيعية، فشبه جزيرة الهند مقسمة الى أربع مناطق جغرافية . ففي أقصى طرفها الشمالي حيث توجد منحدرات جبال الهملايا ذات الغابات الكثيفة لا يعيش الا عدد قليل من السكان. وبين جبال الهملايا وجبال فيندهيا Vindhya الواقمة الى الجنوب منها تقع منطقة وديان أنهار خصبة وسهول ، وهي المنطقة التي يقول عنها الهنود أنفسهم انها قلب وطنهم ، وهي المنطقة التي اتخذت فيها الحضارة الهندية شكلها التاريخي. وحتى « أرض الأنهار الخمسة » (الپنچاب) فانها ليست ذات مناخ واحد . ففي الناحية الغربية يقع وادى السند – وهو منطقة كانت تكثر فيها الغابات في الماضي وكانت مهدا لحضارة عظيمة - ولكن ف عصرنا الحاضر تجردت هذه المنطقة من الغابات ، كما أن سقوط الأمطار فيها لا يسير على قاعدة ثابتة يمكن الاعتماد عليها ، مما جعل الزراعة أمرا مستحيلا في أماكن كثيرة ، كما جعلها تعتمد على الرى في المناطق الباقية . وفي الناحية الشرقية يقع وادى الجانج بأمطاره الغزيرة ومناخه الشديد الحرارة ، وبين الاثنين نجد منطقة قليلة الأمطار يسودها مناخ موسمي متقلب بين جو استوائي حار وآخــر معتدل بارد . وجنوب جبال الفيندهيا تشغل المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة هضبة عالية نسبيا هي هضبة الدكن وتحدها من الشرق ومن الغرب جبال عالية هي جبال غات التي تسير موازية للسواحل ، ثم تنحدر في أقصى الطرف الجنوبي ويصبح اسمها هناك تلال نيلجيري Niligiri وساعد ارتفاع الهضبة على جعل المناخ المعتدل يسود المنطقة وهو أمر ما كان ليحدث لولا ارتفاع الهضبة ، اذ لولا ذلك لأصبح المناخ مناخ المناطق الحارة. هذا ، وقد أثر وجود جبال الغات على الرياح الموسمية التي تسود المنطقة

فجعلت نزول الأمطار فيها معتدلا . وكانت المنطقة مغطاة فى الأصل بغابات غير كثيفة من الأشجار التى تتساقط أوراقها فى بعض فصول السنة . وعلى طرف شبه الجزيرة ، بين جبال الغات والبحر سهل ضيق فيه عدة بحيرات داخلية ، وهذه المنطقة من أشد المناطق حرارة وأغزرها مطرا وتشبه من ناحية أثر البيئة على النبات والحيوان شبه جزيرة الملايو وأندونيسيا . فمنحدر جبال الغات المتجه ناحية البحر مفطى بغابة استوائية كثيفة ، وقد نجح بعض السكان الذين يعتبرون من أكثر سكان الهند تأخرا فى حضارتهم ، ان لم يكونوا من أكثر سكان العالم تأخرا ، فى العيش فى هذه المنطقة . وتعيش فى السهول الساحلية وعلى هضبة الدكن مجموعات متحضرة يشت طابعها الجسمانى كما تثبت لغتها أنهم من السكان الأصليين . والرياح الموسمية هى الجسمانى كما تثبت لغتها أنهم من السكان الأصليين . والرياح الموسمية هى أهم ظواهر المناخ الهندى وهى التى تؤثر على القارة بأسرها .

وفى الهند ثلاثة فصول مناخية فقط: فصل بارد جاف يبدأ فى أكتوبر وينتهى فى فبراير، وفصل حار جدا وجاف ويبدأ فى مارس وينتهى فى يونيو، ثم فصل مطير يستمر من يونيو حتى سبتمبر، وهى الشهور الأربعة التى تسقط فيها الأمطار التى تعتمد عليها الزراعة فى كل أفحاء الهند، وتصل الرياح المشبعة بالرطوبة التى تكونت بعيدا فوق المحيط بين الهند وافريقيا الى ساحل المالابار فى جنوب غربى الهند حوالى منتصف مايو، ومن هناك تسير بافحراف عبر شبه الجزيرة الى أن تصل الى خليج البنغال حيث يزداد تشبعها بالرطوبة وتسقط أمطارا غزيرة جدا على بورما وعلى أقاليم البنغال وأسام فى شمال شرقى الهند.

وتتسبب جبال الهملايا فى تغيير اتجاه الرياح الى ناحية الشمال الغربى حيث تمر ببطء عبر شمال الهند ثم تقل الأمطار كلما اتجهنا الى الغرب. وتصل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى هذه المنطقة عادة بعد مضى ثلاثة أسابيع من بدء هبوبها على الجنوب ، ثم تنتهى حوالى أول سبتمبر حيث تبدأ الرياح

الموسمية الشمالية الشرقية فى الهبوب ، وهى الرياح التى تهب من داخسل أوراسيا وتمر فوق الأراضى الجرداء ، ويصاحبها هواء بارد مع قليل من الأمطار أو لا تصاحبها أمطار على الاطلاق ، وهذه الرياح هى التى تسبب الشتاء المعتدل فى شبه جزيرة الهند . أما الطرف الجنوبى من الهند فهو المكان الوحيد الذى لا يسقط عليه الا القليل من الأمطار . وبسبب طول فصل الجفاف ، كان الرى معروفا فى الهند منذ عصور ما قبل التاريخ . ومع ذلك ، فان كلا من المحصولات والسكان يعتمد اعتمادا كبيرا على هبوب الرياح الموسمية ، وقد المهرت التجربة أن سقوط الأمطار فى معظم أجزاء الهند يكون غير كاف بمعدل سنة كل خمس سنوات تقريبا بينما يكاد ينعدم سقوط الأمطار فى عام كل عشرة أعوام ، وهو الأمر الذى يهدد دائما بحدوث مجاعة . وقد كانت هذه المجاعات المتكرة حلا قاسيا وان كان حاسما لمشكلة تضخم السكان فى الهند ، وهى المشكلة التى لا يوجد لها الى الآن حل آخر أرحم من ذلك الحل .

ومن وجهة نظر عالم الأجناس الاجتماعي فان الهند بلد لا يعاني من مشكلة الأجناس لأن الطابع الجسماني قلما يدل بمفرده على المركز الاجتماعي. وبالرغم من أن كلمة قارنا (Varna) التي تعنى اللون هي الكلمة التي تدل في اللغة السنسكريتية على التقسيمات الأربعة الرئيسية في نظام الطبقات ، وان التفسير القديم لوجود الطبقات هو أن ذلك النظام وضع ليحمى المجموعة الآرية الحاكمة من اختلاطها مع غيرها بالزواج بمن هم أقل منها ، فان البراهمة ذوى اللون الداكن في جنوب الهند الآن ليسوا بأقل أرستقراطية بسبب لونهم ، كما أن بعض المنبوذين ذوى الجلد الأبيض والعيون الرمادية في بعض مناطق شمال الهند لا يرفعهم لون بشرتهم الى فوق مستواهم الاجتماعي ، ومع ذلك فاللون الفاتح للجلد هو مقياس الجمال بين الهنود كما هو الحال بين الزنوج

ومن ناحية التطورات الجسمانية في دراسة علم الأجناس نجد أن الهند

تمدنا بعدد غير قليل من المشاكل المدهشة. فان التطورات الحديثة فى دراسة الأجناس، وهى التى تميل الى الأخذ بنظرية التغير السريع بدلاً من النظرية القديمة التى تقول بالبقاء طويلا دون تغيير، قد زادت من التعقيدات بدلاً من أن تنقصها. فقد كان من الصعب تفسير الاختلافات العنصرية الهندية عندما كانت الأجناس تعتبر ذات كيان محدد. أما الآن وفى ضوء النظرية الحديثة التى تقول بأن الأجناس يمكن أن تتغير عن طريق عدد كبير من التأثيرات البيئية التى لا نعرف عنها الا الثىء القليل، وان أنواعا بشرية جديدة يمكن أن تأتى الى الوجود عن طريق تثبيت الخصائص التى تنتج من اختلاطها بالتزاوج يفتح مجالا واسعا للدراسة لا حدود له، فان الأحوال الاجتماعية فى الهند تناسب مجالا واسعا للدراسة لا حدود له، فان الأحوال الاجتماعية فى الهند تناسب تمام المناسبة ايجاد عدد كبير من السلالات الانسانية. ومن بين الأشياء التى لم يتحول عنها نظام الطبقات فى الهند هو ضرورة الزواج من داخل الجماعة. وفى نفس الوقت كانت أى جماعة جديدة تأتى الى الهند تتحول الى نظام الطبقات فى الحال.

أما الغزاة الذين دخلوا الهند وهم على جهل بنظام الطبقات واتخذوا لأنفسهم محظيات من السكان المحليين ، فقد تحولوا خلال أجيال قليلة واتبعوا العادات التى كانت سائدة هناك فى نظام الطبقات ، وساعدوا دون أن يشعروا بذلك على ادخال بعض مميزات سلالتهم الى الهند . كما أن جماعات العصابات المغامرة التى فرضت سيطرتها على بعض المقاطعات فى عصور الفوضى والاضطراب ادعت لنفسها حقوقا طبقية دون أى اعتبار لاختلاف أجناسهم الأصلية . وأخيرا ، كان كل مصلح دينى يظهر فى الهند يبدأ بانكار نظام الطبقات ويرحب بالمؤمنين بتعاليمه من كل المناطق ومن كل طبقات المجتمع ثم لا تلبث طائفته الدينية حتى تتحول الى طبقة أخرى بعد أجيال قليلة . زد على ذلك الناطة مبادئها الخاصة بالمأكل ، ولها ملابسها وتقاليدها الاجتماعية الخاصة بها بما فى ذلك قو اعد الزواج ، فان فرص التبادل والاتحاد فى المؤثرات

الوراثية والبيئة كانت ممكنة الحدوث الى أبعد حد ممكن . ومما يشاهده الانسان فى الوقت الحاضر ، لو أراد دراسة نظام الطبقات الهندى كمجموعات محلية ذات أثر فعال قام على أساسها ذلك النظام ، فانه يجد بين أفراد أى طبقة من هذه الطبقات ، حتى ولو لم تظهر الا من قرون قليلة ، يجد بينهم شيئا من الشبه العائلى .

ولا شك أن الهند يمكن أن تكون أحسن ميدان في العالم لدراسة الطرق الفعالة في التطور الانساني لو عرف المرء بالضبط العناصر الجنسية التي شاركت في تكوين السكان الحاليين . ولكن لسوء الحظ ، فان جميع المحاولات التي بذلت لمعرفة حقيقة تاريخ الأجناس في الهند يقوم أكثرها على الفروض ، ويبدو أن الأمر سيظل على ذلك في المستقبل . فعادة حرق جثت الموتى عادة قديمة بكل تأكيد في معظم أنحاء الهند ، وبالرغم من أن لها مميزات ذوقية وصحية الا أنها لا تساعد على الاطلاق أي مشتغل بدراسة الانتربولوجيا وتاريخ الأجناس في أي منطقة هناك .

ولن يمكننا أن نصور لأتفسنا التاريخ القديم لأجناس الهند الاعلى أساس المعلومات الحضارية وأوجه الشبه فى الناحية الجسمانية بين الهنود فى الوقت الحاضر، وبين غيرهم الذين يعيشون فى مناطق أخرى.

ولو عملت فى الهند بحوث پاليو تتولوچية على نطاق واسع مثل تلك التى قام بها العلماء فى أوروبا ، لأصبح من المحتمل العثور على أقدم الأجناس التى عاشت هناك ، وليس هناك ثمة شك فى أن شبه الجزيرة كانت عامرة باستمرار منذ الوقت الذى لم يكن فيه الناس قد عرفوا عادة احراق المجثث أو أى طقس آخر من طقوس التخلص من جثث الموتى .

فمنذ العصر الميوسيني كانت الهند موطنا لجماعات كثيرة العدد من القردة الشبيهة بالانسان ، من بينها ذلك النوع الكبير الحجم الذي كان يعيش على الأرجح على الأرض ويسمى « دريو — بيثيكوس (Dryopithecus) »

والذي كان يعتبر خير المرشحين حتى ظهرت الاستكشافات الافريقية الحديثة ، لأن يكون ذلك النوع من الرئيسيات الذي كان له الشرف أن يكون الفرع المباشر الذي تنتسب اليه طلائع الانسان أو ما يسمى تحت الانسان ان ان بعض الحوادث الجيولوجية مثل حالة ارتفاع جبال الهملايا قد سببت الاضطراب في الحياة العامة لتلك القردة الشبيهة بالانسان ، كما يحتمل أيضا أن تكون قد أثرت على تطورها ، ولكن ليس هناك ما يشير الى أن تغييرات بيئية حدثت في شبه الجزيرة وكانت من السعة بحيث تقضى على سكانها من الرئيسيات .

وحتى اذا فرضنا أن الهند لم تكن من بين المناطق التى تطور فيها جنسنا الانسانى فانها دون شك كانت من أولى المناطق التى احتلها أسلافنا من الانسان الذى يسير على قدميه ، وحتى فى وقتنا الحاضر ما زالت توجد فى جنوب الهند جماعات لا تختلف فى طابعها الجسمانى الا اختلافا ضئيلا عن ذلك الطابع الذى يتميز به انسان آل « وادجاك » (Wadjak) فى جاوة وهو أقدم نوع أمكن التعرف عليه من جنسنا البشرى . وما زالت أجناس عديدة لها نفس مميزات الانسان الذى يسمى عادة ما قبل الأسسترالى أو الاسترالى الأقدم (Proto-Australoid) ، تعيش فى معظم المناطق الجنوبية فى الهند . هذا ويجدر بنا أن نذكر أن « بداءتهم » الجسمانية لا ترجع بحال الى تأخرهم الحضارى ، اذ أنهم فى حقيقة الأمر ، أنتجوا وخلدوا مدنيات يمكن أن نقارنها بحق مع أى مدنية أخرى حققها القوقازيون الآريون فى شمالى الهند ، الذين اشتهر أمرهم .

وبما أن الهند تفتقر تماما الى وجود بقايا الهياكل العظمية القديمة ، فنحن مضطرون الى الاتجاه نحو التوزيعات الحالية للسكان كأساس لاعادة بناء تاريخ الأجناس فيها . ففي جنوب الهند نرى أن الكثرة العظمى من السكان لهم نفس الطابع المسمى ما قبل الاوسترالى أو الاوسترالى الأقدم الذي

سبقت الاشارة اليه ، أما فى شمال غربى الهند فان الطابع الرئيسى هو الطابع القوقازى الذى يتميز به سكان البحر الأبيض المتوسط وهم لا يختلفون عن الطابع الغربى من هذا الجنس الا فى أنهم أطول منهم قامة بعض الشىء وأكثر منهم سمرة ، ومن المكن أن تعلل هذه الاختلافات على أنها من نتائج الاقامة الطويلة فى بيئة استوائية أو شبه استوائية ذات شمس قوية . وفى نفس المنطقة وفى مناطق أخرى ممتدة على الساحل الغربى للهند ، يوجد عنصر ذو رأس مستدير لا يبدو أنه يرتبط بالمقاييس الجنسية الأخرى ، غير أن وجوده قد يرجع الى غزو من خارج الحدود الشمالية الغربية وهى منطقة لا زالت الرؤوس المستديرة فيها شائمة .

وهناك فى سفح جبال الهملايا يعيش عنصر مغولى قوى يمكن تفسيره بسهولة على أنه تتيجة لقدوم بعض الشعوب عبر الحواجز الجبلية ومن آسام من ناحية الشرق ويجد المرء فى شمال شرقى الهند طابعا جسمانيا خاصا يمتاز بالجمع ما بين استدارة الرأس وسمرة اللون والملامح المغولية ويمكن تفسير ذلك بأنه تتيجة للاختلاط بين الجنس الأوسترالى الأقدم والجنس المفسولى.

وامتزجت هذه الأنواع المختلفة لتنتج أنواعا لا حصر لها من السلالات المحلية . وعلى وجه العموم ، فان الأوسترالي الأقدم هو أقوى العناصر في جنوب الهند ، ثم تتجه بعد ذلك ناحية الشمال على طول الساحل الشرقي . وتعتبر العناصر المعولية أقوى العناصر في وادى السند ، ويلوح انها انتشرت من هناك فيما يبدو ناحية الشرق وناحية الجنوب . وما من شك في أن العنصر الأوسترالي الأقدم هو الذي كون السكان الأصليين في كل أنجاء شبه جزيرة الهند ، أما القوقازيون الذين من جنس البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانوا على الأرجح أول الغزاة الذبن غزوا هذه المنطقة ، لأننا نعرف من دراسة بقايا أقدم الهياكل العظمية التي كشفت هناك أن هذا الطابع قد اتصل بمدنية بقايا أقدم الهياكل العظمية التي كشفت هناك أن هذا الطابع قد اتصل بمدنية

وادى السند التى نرى فيها كثيرا من أوجه الشبه بمدنيات بلاد الرافدين والمناطق الأخرى الواقعة الى الغرب منها .

ويعتبر العنصر المغولى ، على ما يرجح ، آخر من دخل الهند من العناصر الهامة وقد استقر هنا عن طريق الهجرات التدريجية وليس عن طريق الغزو على نطاق واسع . وبالاضافة الى هذه العناصر الرئيسية ، توجد عناصر أخرى ثانوية لا حصر لها من الدم الأجنبى التى وفدت الى تلك المنطقة . فقد دخل الاغريق والساسانيون والمغسول والفسرس الزرادشتيون والفرس المسلمون والعرب والسوريون وأهالى الملايو والصينيون الى الهند ، وأسهموا بجيناتهم فى هذا المزيج الغنى المختلف الأنواع .

ومما يثير العجب حقا ان العنصر الجنسى الذى أدخله الآريون الفرزاة لا يمكن التعرف عليه. فمن المفترض عادة انهم كانوا من الجنس الشمالى (Nordic) ذوى الشعر الأشقر ولكن من العبث أن يبحث المرء عن أى فئة باقية بين السكان تحمل مثل هذا الطابع ، اذ أن الحرارة والشمس فى الهند تجعلان البيئة غير ملائمة لذوى الشعر الأشقر ، فلو فرضنا أن هذه المجموعة الجنسية قد غزت الهند على نطاق واسع ، فقد اختفت دون أن تترك وراءها أى أثر.

أما موضوع اللغات فى الهند فهو بدوره موضوع معقد يشابه فى تعقيده موضوع الأجناس ولكن فى استطاعتنا اختزال المجموعات المحلية التى لا نهاية لها الى أصول رئيسية قليلة كما حدث فى موضوع الأجناس ، فأقل الجماعات ، وفى نواح معينة أكثرها أهمية ، هى جماعة الأوسترية (Austric) . فان لغات هذه الجماعة ما زالت منتشرة فى جنوب شرقى آسيا وفى المحيط الهادى . فالجماعات التى تتكلم بها فى الهند ، هى — دون استثناء — جماعات ذات حضارة بسيطة تعيش فى مناطق نائية مما يوحى بأن هذه الجماعة قديمة جدا فى شبه الجزيرة . فلغات المجموعة الدراڤيدية منتشرة فى كل أنحاء الهند جنوب

نهر جوداڤارى باستثناء الـ « يراهوى (Brahmi) » فى أقصى الشمال الغربى . ووجود بعض الكلمات الدراڤيدية وأصوات المقاطع فى اللفات الهندو — أوروبية المنتشرة فى شمال الهند يوحى بأن اللفات الدراڤيدية كانت منتشرة فى معظم أنحاء شبه الجزيرة ، وأخيرا ، فان اللفات الهندو — أوروبية أى اللفات الآرية يستخدمها السكان فى أنحاء شمال الهند .

ويثير انتشار اللغات الدراڤيدية بصفة خاصة الكثير من المشاكل الهامة ويؤكد مرة آخرى أنه ليس من الضرورى أن يكون للطابع الجسمانى واللغة صلة فيما بينهما . فلو أن اللغات الدراڤيدية كانت فى الأصل متصلة بالجنس الأوسترالى الأقدم ، كما يوحى بذلك التوزيع الحالى ، فانه يبدو من المرجح جدا أن السكان القوقازيين من سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط الذين استوطنوا شمال غربى الهند قد تحولوا الى استخدامها خلال الفترة التى تفصل بين وصولهم الى الهند ووصول الغزاة الآريين حوالى ١٥٠٠ ق . م . ولو أن اللغات الدراڤيدية ، من ناحية أخرى ، قد جلبها الغزاة من جنس منطقة البحر الأبيض المتوسط الى الهند ، فان المرء يجد نفسه وقد واجه مشكلة أكثر صعوبة وهى كيفية تحول كل جنوب الهند الى استخدام هذه اللغة مع العلم بأن ذلك المنصر الجنسى لم يكن ذا أهمية كبيرة فى ثلك المناطق فى أى العلم بأن ذلك المنصر الجنسى لم يكن ذا أهمية كبيرة فى ثلك المناطق فى أى

وما زالت المعلومات التى لدينا عن الهند فى عصر ما قبل التاريخ معلومات قليلة وغير واضحة على الاطلاق ، ومبنية على أساس أشياء أثرية عثر عليها فوق سطح الأرض أكثر من قيامها على أساس نتائج حفائر منظمة . ومع ذلك فهى تشير الى أن الهند منذ أقدم العصور ، كانت الأرض التى يتلاقى فيها نوعان مختلفان من الحضارة تمام الاختلاف . ففى العصر الپاليوليتى القديم كانت شمال غربى الهند مركزا لحضارة من حضارات بلطة اليد التى تنتمى الى التقاليد المشتركة بين افريقيا وغرب أوراسيا . أما شرقى وجنوبى الهند فقد



كانت تنتشر فيهما تقاليد حضارات المهشم والشطفة التي كانت شائعة في جنوب شرقي آسيا . ولا يمكننا في الوقت الحاضر التعرف بدقة على الحد الفاصل بين الحضارتين اذ من المرجح جدا أن هذا الحد كان يتغير مع تغيرات الطقس ابان الحقبة التي تبلغ في مداها عدة آلاف من السنين ، والتي عاشت فيها هاتان الحضارتان معا في شبه الجزيرة . وربما يتوقع الانسان أن يكون توزيع كل منهما مرتبطا بأحوال بيئية معينة كأن تحتل حضارات بلطة اليد المناطق التي تنشابه فيها البيئة الطبيعية مع البيئة التي تسود جنوب غربي آسيا ، وتحتسل

حضارات المهشم والشطفة المناطق التى تشبه بيئتها بيئة جنوب شرقى آسيا أو أندونيسيا . لقد عثر على بقايا من العصر الپاليوليتى الأعملى والعصر الميوليتى في مناطق عديدة في الهند ، ولكن لم يعمل حتى الآن الا القليل من البحوث حتى تيسر معرفة توزيعها أو مدى صلاتها الخارجية .

ونرى بوضوح فى بقايا العصر النيوليتي استمرارا للتأثير المزدوج لكل من حضارتي جنوب - شرق وجنوب غرب آسيا ، فان الأدوات النيوليتية التي عثر عليها في جنوب الهند وشرقها تمتاز بوجود أعداد كبيرة من أشكال مختلفة من القدوم والفاس مع ندرة وجود أدوات حجرية مشطوفة ، ومعظم أشكال المطرقة تشابه نظائرها في جنوب شرقي آسيا وفيها كل خصائصها ، كما نرى في الأدوات النيوليتية التي عثر عليها في شمال غربي الهند ، بما فيها من الأدوات الحجرية وبعض الأشكال الخاصة من الأواني الفخارية ، ارتباطا كبيرا بغربي آسيا . فمنذ وقت غير بعيد عثر في مقاطعة مدراس في جنوب الهند على مصنع أدوات نيوليتية ، واتضح من دراسة تلك الأدوات امتداد تأثير الحضارة النيوليتية الغربية الى الجنوب الشرقى . فبالاضافة الى المطارق والبلط والأزاميل قد احتوت أدوات مدراس على مجموعة كبيرة من الأدوات المشطوفة الصغيرة مثل السكاكين والمقاشط ورؤوس السهام وغيرها والواقم أن هذه الأدوات لا تناسب التقاليد المشتركة في جنوب شرق آسيا مع ما تمتاز به من اعتمادها الكبير على الغاب الهندى في عمل القاذفات التي تقذف في الهواء ، وفي عمل الأدوات القاطعة .

ويعتبر التقدم الكبير فى تشييد المنشآت الميجاليتية الظاهرة البارزة فى تكنولوجية جنوب الهند ابان الفترة التى تبدأ من العصر النيوليتى حتى فجر العصر التاريخى ، فهناك مواقع ميجاليتية عديدة فى هذه المنطقة . ويقال انه يوجد فى منطقة هضبة الدكن وحدها حوالى مليون موقع تحتوى على دوائر وأحجار قائمة منتصبة (menhirs) وأخرى منبسطة تشبه المنضدة ومقابر

محفورة فى الصخر ، ونلاحظ فيها انها مشيدة بأحجار بعضها قد سويت جوانبه والبعض الآخر على طبيعته وتحتوي المقابر على هياكل عظمية ، الأمر الذى يدل على أن عادة حرق الحشث لم تكن قد بدأت بعد هذا ، وكان الطابع الجسماني للسكان القدماء مثل طابع السكان المحليين فى المنطقة حتى الآن وهو الطابع المسمى قبل — الأوسترالي ووضعوا مع الموتى بعض الأواني الفخارية الخشنة الصنع ، ومن الواضح أنها كانت أوعية للطعام المقدم كقرابين كما وضعوا معهم أيضا مجموعة من أدوات الزينة المصنوعة من الحجر ، وبعض الأسلحة . وفى الجزء الأخير من العصر الميجاليتي وضعت فى المقابر بعض الأدوات المدنية بكميات كبيرة ، وكان النحاس والبرونز والحديد والذهب مختلطة بعضها ببعض فى تلك المواقع منذ البداية .

وقد شابهت حضارة جنوب الهند فى العصور الميجاليتية حضارة دنج — صن فى جنوب شرقى آسيا لأن كل حضارة من الحضارتين كانت مرتبطة بالمنشئات الميجاليتية ولسوء الحظ يمكننا تحديد تاريخ معين لأى منهما بشىء من الدقة ومع ذلك ، فمن المرجح أن صناعة الأدوات المعدنية قد وصلت الى جنوب الهند وجنوب شرقى آسيا بعد أن تم تطورها ولكن حتى اذا صح ذلك ، فمن المرجح أن الهنود من أهالى الجنوب قد أدخلوا تحسينات على طرق من علموهم صنع الأدوات الحديدية على الأقل وعلى قدر ما نعلم ، فان جنوب الهند هو المكان الأول فى العالم الذى كان يصنع فيه الصلب على حسب طرق معينة للحصول عليه ، كما أن الطرق البسيطة الفعالة التى استخدمت فى الناتج هذا المزيج من الحديد والكربون لا زالت تستخدم فى تلك المنطقة .

ويوحى عدد المواقع الميجاليتية وحجم الأحجار التى استطاعوا نقلها واقامتها بازدحام جنوبى الهند بالسكان في العصور القديمة . هذا ويبدو أن الزراعة كانت تمارس منذ أقدم العصور ، وقد أمكن التعرف على الأرز بين القرابين التى كانت توضع فى المقابر الميجاليتية ، ويظهر انه كان من المحصولات

الرئيسية ونظرا للاتصالات الحضارية مع جنوب شرقى آسيا فانه يبدو من المرجح أن أولئك الذين أقاموا المنشات الميجاليتية قد زرعوا المحاصيل الجذرية والفاكهة التى كانت تزرع فى مركز حضارة جنوب شرقى آسيا ، والتى يصعب التعرف عليها من الناحية الأثرية ، كما كانوا يعرفون أيضا نظام الرى واستخدامه وليس لدينا من الشواهد ما نستدل منه على أنهم قد عرفوا المحراث أو أنهم قد استأنسوا الجاموس الذى بدونه لا يكون للمحراث الا أهمية محدودة عند العمل فى الحقول المروية .

ويعتبر وجود المدافن الجماعية هو الطريق الوحيد الذى يدلنا على شيء من تنظيمهم الاجتماعي أو السياسي ، اذ أن استخدام الجبانات ذاتها لفترات طويلة ، بالاضافة الى الانشاءات الميجاليتية ، وما كانت تحتاج اليه من يد عاملة منظمة ، يدل على وجود مجموعات كبيرة من المتصلين بصلة القربي ، نرجح انه لم تكن هناك دول مركزية ذات حكومات أوتوقراطية في ذلك العصر. وبينما نرى في جنوب الهند أن ما عثر عليه من الآثار يورثنا الحــيرة والارتباك ، فان البحوث الأثرية في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة يعطينا صورة متماسكة ذات اطار واضح دقيق . ونظرا الى أنه لم يمكن التعرف على وجود حضارات وادى السند الا منذ قرابة ثلاثين سنة فقط ، فانه ما زالت هناك ثغرات كثيرة فيما عثر عليه حتى الآن ولكن أعمال التنقيب القائمة الآن ، أو تلك التي ستنفذ في المستقبل ، كفيلة بأن تسد هذه الثغرات. فحوالي عام ٣٣٠٠ ق . م على أقل تقدير ، ان لم يكن قبل ذلك ، كانت في . وادى السند حضارة عظيمة تطورت في القاعدة النيوليتية في جنوب غربي آسيا ، وليس هناك دليل مباشر كاف على وجود جذور أصيلة لهذه الحضارة في وادي السند نفسه لأن أعمق المستويات في المناطق التي أجريت فيها أعمال الحفر كانت تحت مستوى الماء. ولكن الأشياء الأثرية الكثيرة التي عثر عليها فى جبلى بلوخستان وسيستان اللذين يجاوران وادى السند تدل على وجود

حضارات نيوليتية فى هذه النواحى تشبه تلك التى عثر عليها فى بلاد ما بين النهرين في العصور السابقة لنشأة المدن وحتى لو فرضنا أنه ليس هناك أمل فى كشف الدليل على أصل حضارة وادى السند والاتجاهات التي سارت فيها أثناء تطورها فان هذه الحضارة نفسها تقيم الأدلة الكافية على انتسابها لحضارات جنوب غربي آسيا فانها على نمط هذه الحضارات في مرورها بالمراحل المتعاقبة التي بدأت باستخدام النحاس ثم البرونز ولكنها زالت قبل معرفتها لمعدن الحديد . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين المستخدمين في الطعام ولم يعثر حتى الآن على الرز . وتوحى الرسوم العديدة للماشية ، وبينها بعض رسوم تمثلها وهي تستخدم في أعمال الجر بأن الأساس الاقتصادي لحضارة هذه المنطقة كان مزيجا من الزراعة وصناعة الألبان. ويبدو أن العجلة والمغزل كانا معروفين لديهم منذ أقدم العصور ولكن يستحيل علينا أن نحدد ما اذا كان المحراث قد استخدم أو لم يستخدم لديهم ، اذ لم يعرف حتى الآن أى شيء يماثله أورسوم تثبت وجوده ، وهــذا على نقيض العربات الصغيرة العديدة المصنوعة من الطين أو من البرونز بطريقة الصب والتي كانت على ما يبدو اللعبات المفضلة لدى أطفال وادى السند القدماء. وكانوا يطحنون الحبوب في أجران ، وقد عثر في أحد المواقع الأثرية على دوائر رصفت أرضيتها بالطوب المحروق الذي صقلته أجيال كثيرة من الأقدام الحافية ، وكانت توضع في وسطها الأجران الخشبية.

ومن المحتمل أن يكونوا قد زرعوا القطن اذ عثر على ملابس قطنية . كما شكلوا من حجر الصوان والنحاس ثم البرونز بعد ذلك أشكالا مختلفة ، ومن بين تلك الأدوات المطارق والبلط والمناشير التي تثبت فيها الأسنان ، ومن أهم ما عثر عليه هناك جزء من قطعة من مسطرة مصنوعة من البرونز عليها تقسيمات محددة بدقة مما يثبت أن سكان وادى السند كانوا على علم تام بالمقاييس

المضبوطة ، كما كانت هناك صنجات للموازين مصنوعة من البرونز مرتبة على أساس معقد.

والأوانى الفخارية كشيرة العدد ، وحتى ما عثر عليه منها فى أعمق المستويات فى الحفائر كان مصنوعا على آلة الفضار ، وقد أجادوا احراقه . ومعظم الأوانى الفخارية كانت أوانى للطهى خشئة الصنع ، ولكن الأوانى الجيدة الصنع منها كانت تدهن باللون الأسود فوق أرضية حبراء ثم تصقل بعد ذلك حتى يكاد سطحها يحاكى « اللاكيه » فى صقله . أما الرسومات فان أكثرها يمثل رسم الأزهار ، ولكنه قلما كان يظهر فيها شىء كثير من الابتكار أو الحيوبة .

وكانت هناك تماثيل صغيرة لا حصر لها مصنوعة من الطين وأغلب الظن أنها كانت لعبا للاطفال. وقد عثر على معظم هذه التماثيل في منطقة واحدة ، مما يدعو الى الظن بأن ذلك المكان كان مركزا لصناعتها لأجل تصديرها . وقد عثر على كثير جدا من التماثيل النسائية غير المتقنة ، وهي عارية تماما ولا تلبس الا بعض أدوات الزينة ، وهي على الأرجح تماثيل للالهة الأم التي كانت مرتبطة بعقائد الاخصاب المنزلية. ومن الظواهر الغريبة في هذه الحضارة ندرة وجود الأشياء المنحوتة ، ومما يزيد الدهشة أن الأمثلة القليلة التي عثر عليها تدل بوضوح على مهارتهم الفائقة وبأسلوبهم الناضج المتقدم ، فمن بين ما عثر عليه جزء علوى من تمثال لرجل مصنوع من الحجر الرملي الأحمر وهو أكثر اتقانا ومحاكاة للطبيعة حتى من التماثيل المصرية التي صنعت في ذلك العصر. وكان الرأس منفصلا والرقبة مجوفة مما يوحى بأنه كان لهذا التمثال رؤوس متعددة مما يذكرنا بالآلهة ذات الرؤوس والأذرع العديدة التي ظهرت بعد ذلك فى الهند. ومن المحتمل أن معظم أعمال النحت الكبيرة الحجم كانت تصنع من الخشب ولهذا السبب لم تبق الى الآن .

وأهم الأعمال الفنية التي بقيت من تلك الحضارة هي تلك الأختام المسطحة

ذات الشكل المستطيل التي كانت تصنع من حجر جيري أبيض يسهل نحته » وكانوا ينقشون فيها صورا لحيوانات أو كائنات ذات قوى فوق قوة الطبيعة ، أتقنوا صنعها بمهارة وحيوية فائقة . وجميع الحيوانات المنقوشة عليها هندية ، ولكن في الوقت الحالي لا توجد كلها في وادي السند . هذا ويعد الشكل الذي يمثل فيلا وفوق ظهره غطاء ذا أهمية خاصة ، اذ أنه يعتبر أول دليل على استئناس ذلك الحيوان ، وذلك الى جانب ذكر الفيل الذي يعلوه الغطاء ، الذي ورد ذكره في قصيدة جلجامش البطولية وهناك رسوم عدة تمثل أشجارا وحيوانات تتفيأ بظلها مما يشير الى عبادة الأشجار ، كما يحتمل أن يكون شكل الانسان ذي الوجوه الثلاثة الذي يجلس متأملا على نمط احدى طرق التعبد الهندية هو أصل شكل الاله سيڤا (Siva) لذى ورد ذكره فى العصور التاريخية فيما بعد . وعلى كثير من هذه الأختام نرى كتابات قصيرة مكتوبة بحروف لا تشبه أي حروف أو علامات معروفة مستخدمة في أي مكان آخر. وان الدقة التي رسمت بها هذه العلامات وعددها ، وهي أكثر من أن تكون حروفا أبجدية وأقل من أن تكون علامات مصورة ، تدل على أن حضارة وادى السند قد استخدمت المقاطع في الكتابة . ولم يمكن العثور حتى الآن على أى كتابات أخزى ، ومن الأسلم أن نفترض بأنهم كانوا يدونون كتاباتهم على مواد قابلة للفناء. وان الاناء الذي عثر عليه منذ وقت قريب وعليه نص مكتوب بحروف سومرية قديمة ، يبعث على الأمل في امكان العثور على نقوش مكتوبة بلغتين ، ومالم يتحقق ذلك فلن يكون لدينا أي مفاتيح لمعرفة اللغة التي كانوا يتحدثون بها

والمدن الباقية من حضارة وادى السند ترينا مستوى عاليا من الحضارة آكثر مما توضحه لنا فنونها . فان هذه المدن كانت تخطط على صورة طرق مستقيمة متقاطعة منها طريق أو عدة طرق رئيسية متسعة توصل بينها طرق ضيقة . وليس هناك أى شك فى أنها كانت تخطط أولا ثم تشيد المنازل بعد

ذلك ، وهو الأمر الذي استمر متبعا طيلة أيام التاريخ الهندي ومن أهم ما كشفت عنه أعمال التنقيب تلك الظاهرة الغريبة وهي عدم وجود أي مبنى يمكن أن يقال عنه انه معبد أو قصر . وفى « موهنچو دارو » عثر من قاموا بالحفائر فيها على بقايا منطقة متسعة ومسقفة فوق أعمدة كثيرة ، ولكن لا توجد بها جدران داخلية ، مما يحمل على الظن بأنها كانت سوقا ، كما عثر أيضا على مبنى كبير يضم حجرات عديدة من المحتمل أنه كان مركزا اداريا. وعثر أيضا على حوض للسباحة واسع وجيد البناء تحيط به حجرات صغيرة تشبه حجرات تغيير الملابس. ومن المحتمل أن هذا الحوض كان يستخدم في أحد طقوس الطهارة الدينية وهو يشبه ما يفعله الآن الهندوس الحاليون. ومن الصعب علينا أن تتصور أن مثل هذه الحضارة الفنية كانت تخلو من وجود المعابد، ولعلهم في ذلك المهد البعيد كانوا يفعلون ما فعله الهنود في العصور التالية ، اذ أن الهنود كانوا دائما يحترمون المتعبدين المتوحدين أو الذين يلجأون الى الغابة ليتعبدوا بعيدا عن الناس ، ولهذا ربما كانت تقام طقوس العبادة في هياكل على حافة المناطق الآهلة بالسكان.

لم تكشف حتى الآن الا منطقة واحدة لدفن الموتى وهى تحتوى على أوان بها رماد أجداث الموتى وبعض أجزاء العظام ، مما يدل على أن عدادة الاحراق كانت تمارس فى ذلك الوقت . ومما يثير الدهشة أيضا خلو المدن التى حفرت من القصور ، الأمر الذى يصعب تفسيره ، وخير تفسير لذلك هو أن نفترض أن ما عثر عليه من مدن حتى الآن وأجريت فيها أعمال الحفر والتنقيب هى من مدن الأقاليم ، وأن عاصمة تلك الحضارة ، التى كانت تسمى امبراطورية بحق ، ما زالت لم تكشف بعد .

وكانت المنازل تتألف من طابقين عالمين مبنيين بالطوب المحروق جيدا ، وكانت الجدران تغطى بطبقة من الملاط أو ترش بالجير ، والكها تفتقر تماما

الى الزخرفة ، وربما كانت الجدران الداخلية تغطى بالستائر ، أما الأثاث فقد كان لديهم الكراسي وربما أيضا بعض النضد والأسرة.

وكانت أول مدينة تجرى فيها الحفائر من مدن هذه الحضارة هي مدينة « موهنچودارو » التي خلت تماما من التحصين ، كما أن الكشوف التي عثر عليها خلت أيضا من وجود الأسلحة ، الأمر الذي دفع الكتاب القدامي الي رسم صورة مجتمع مسالم مثالي ولكن الحفائر التي أعقبت ذلك أظهرت بوضوح أن بعض المدن كانت مسورة ، وان مدينة واحدة على الأقل كانت قلعة محصنة ، بل ان مدينة « موهنچودارو » نفسها عثر فيها على ما يثبت أن المدينة كانت قد هوجمت وتعرض سكانها للقتل .

ولم تقتصر حضارة وادى السند على وادى السند وحده ، بل عثر على أماكن أخرى من هذه الحضارة فى بلوخستان وفى سيستان ، بل وامتدت جنوبا حتى كافياواز كما ظهرت بعض الأدوات التى تنتمى أصلا الى حضارة وادى السند فى وادى الجنج ، ولكن لم يعثر هناك حتى الآن على أى مناطق أثرية يمكن أن نقول انها تابعة لحضارة وادى السند ، الأمر الذى يوحى بأنه حتى فى ذلك الوقت البعيد كان التقسيم الثنائى القديم فى التقاليد المشتركة بين جنوب شرقى آسيا وجنوب غربى آسيا ، معروفا فى ذلك العهد .

وفى معظم مدن حضارة وادى السند نجد أن أعمق المستويات أصبح الآن تحت مستوى المياه الجوفية ويتعذر اجراء الحفائر فيها . ومع ذلك فان هذه الحضارة ترجع فى تاريخها الى عام ٣٣٠٠ ق . م دون شك وذلك بمقارنة تاريخها بتاريخ مدنية بلاد ما بين النهرين . لقد أظهرت هذه الحضارة شيئا كثيرا من علامات الاستقرار ، ويلوح أنها وصلت الى أوج تقدمها فى العصر الذى وصلت الينا هذه المعلومات عنها . وأعقب ذلك تدهور تدريجى فى هذه الحضارة وانخفاض فى عدد السكان كما أن السكن فى معظم تلك المدن قد قارب نهايته بل واتنهى حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وهناك من الأسباب ما يدعونا

الى الاعتقاد بأنه قد حدثت تغييرات مهمة فى المناخ فى الفترة التى تفصل بين بدء تطور هذه الحضارة وبين زوالها فان الطوب المحروق الذى كانت تبنى منه جميع المبانى ، حتى المساكن العادية ، يتطلب الكثير من الأخشاب اللازمة للوقود ، على حين نرى فى طريقة تشييد المنازل ، وعمليات تصريف المياه فى الشوارع الكبيرة ، أن عملية تصريف مياه الأمطار الغزيرة كانت مشكلة من مشاكل أولئك الناس . ولهذا فمن المرجح أن الطقس فى العصر القديم كان أكثر أمطارا مما هو الآن ، كما أن الغابات كانت دون شك أكثر اتساعا وقد أسهمت عمليات اقتلاع أشجار الغابات واجهاد الأرض عن كثرة الرى وعدم الصرف ، فان هذه العوامل بالاضافة الى تغير المناخ جعلت هذه المنطقة من العالم منطقة لا يستحب السكن فيها .

وتدل أعمال النهب والقتل التي وقعت في « موهنچودارو » على أن الضربة القاضية التي أصيبت بها جاءت على أيدى غزاة من الهمج المتوحشين . ولكن اذا سلمنا بذلك ، فهناك اختلاف هام فى التاريخ بين ذلك الغزو المفترض وبين عام ١٥٠٠ ق . م . وهو الزمن التقريبي الذي يذكر عادة كوقت الغزو الآرى . ولا يوجد بين الشعوب التي غزت الهند شعب كثرت عنه الأقوال أكثر من الشعب الآرى ، وأصبح الكثير من الناس يعتقدون بشأنهم اعتقادات يؤمنون بها كما لو كانت معتقدات دينية . والرأى المسلم به هو أنهم وفدوا الى الهند حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . وأنهم قتلوا أو استرقوا السكان الوطنيين ، وأقاموا نظام الطبقات حتى يضمنوا نقاء دمهم ، ثم تحولوا بعد ذلك من الحرب الى التصوف الديني وأحدثوا تلك المجموعات من الآلهة ، وتلك النظريات التي قامت عليها جميع نظم الفلسفة الهندية التي ظهرت فيما بعد ، وأصبحوا أسلافا قامت عليها جميع نظم الفلسفة الهندية التي ظهرت فيما بعد ، وأصبحوا أسلافا التشرت لفتهم في معظم أنحاء الهند .

لقد قامت هذه الآراء على أساس الدراسة التي تؤمن بصحة كل ما ورد

فى الآداب السنسكريتية ، وليس على أساس الدراسة النقدية . لقد أعطى الآريون لغتهم لشرق ووسط الهند ولكن فيما عدا ذلك يجب أن توضع تلك الآراء على بساط البحث لمناقشتها ونقدها فالأدب نفسه يحتوى على الكثير من المتناقضات ، وأصبح في مقدورنا الآن أن نعيد النظر في تلك الصورة على أساس ما وصل الينا من معلومات كثيرة عن الهند قبل الغزو الآرى وعن الآريين أنفسهم عندما وفدوا الى الهند . فالغزو الآرى للهند ، هو قبل أى شيء آخر واحد من سلسلة الهجرات التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة الهندو - الأوروبية من شرق أقاليم الاستيس الى مناطق أكثر حضارة من منطقتهم الأصلية. لقد كان لأولئك الغزاة فى كل مكان آداب كثيرة ، وكانوا يتداولونها عن طريق الرواية اللفظية ، وان هذه الآداب المختلفة تتفق على اعطائنا صورة لحياتهم ، فيها ملامح مشتركة مما يجعلنا نكون فكرة عن حضارتهم الأصلية بقدر كبير من الدقة . والصورة التي يمكننا أن نصور بها ذلك المجتمع هي أنه مجتمع يتكون من قبائل تحيا حياة شبه بدوية ، ويغيرون على الآخرين لسرقة ما لديهم من ماشية ، وكثيرا ما كانوا يغيرون على غيرهم وهم يمتطون عربات السباق. وكانوا يدمنون الشراب والميسر ولا يفكرون في الكائنات ذات القوى الخارقة للطبيعة الا وقت الحاجة فقط وحتى في هذه الحالة كانت تتملكهم الشكوك في جدوى عباداتهم وكانوا يلجأون الى التسليم بالقضاء والقدر تسليما يكاديكون آليا ، يتمثل في قول « بيوولف » الذي كانوا يرددونه كثيرا: « ان القدر يذهب الى أى مكان يتحتم ذهابه اليه » ومن السهل أن تتصور أن هؤلاء الناس يمكن أن يستقروا ويصبحوا مزارعين قانمين ، كما تصورهم الآداب الآرية على مثل هذه الحالة فى الهند ، ولكن من العسير أن تتصور أنهم يستطيعون أن يتحولوا الى قوم يميلون الى المناقشات الفلسفية العميقة أو تنشأ بينهم أساليب حياة النسك والتقشف واحترام النساك الذين يلتجئون الى الاعتزال فى الغابة منصرفين الى حياة التامل.

ان الأساس الذي يجب أن يقوم عليه تصورنا للحياة الآرية هو التناقض المباشر بينها وبين ما وصل الينا من حضارة وادى السند ؛ فقد تركت لنا حضارة السند ثروة كبيرة من الآثار التي ما زالت باقية ولكن لم تصل الينا أي وثائق مكتوبة ، ولكن الآريين في الهند لم يتركوا لنا الا الشيء القليل جدا من الآثار ، ومع ذلك فقد خلفوا لنا ثروة كبيرة من الآداب. انها حالة قرينة من القرائن العرضية ضد دليل قاطع فقد عثر على قليل من الأواني الحجرية التي ربما كانت تستخدم في طقوس تقديم القرابين التي جاء ذكرها في الڤيدا ، ولكن لم يعثر حتى الآن على أى منطقة أثرية عاش فيها الآريون أو على أى جبانة دفنوا فيها موتاهم . أما الآداب التي بنينا عليها تصورنا للحياة الآرية فهي مكونة من أربع مجموعات تعرف باسم الڤيدا. فالـ « ريج ڤيـدا » (Rig Veda) التي يجب أن تكون أقدمها جميعا استنادا الى دراسة اللغة التي كتبت بها ، تتكون من أناشيد ، كان بعضها يغني والبعض الآخر يتلي عند تقديم الأضاحي والقرابين . والـ « اثارڤاڤيدا » (Atherva Veda) هي أكثرها جميمًا في البدائية ولكن لها أهميتها في الناحية اللغوية ، وهي كتاب للسحر أكثره تعويذات ورقيّات ووصفات طبية . والـ « ساما ڤيدا » (Sama Veda) مجموعة من الأغاني تستخدم عند تقديم القرابين ، وتشمل كثيرا من الأشعار التي وردت في الربيج ڤيدا ، مضافا اليها اشعار أخرى من عصور أحدث. أما الـ « يا چوج ڤيدا Yajung Veda » فتتكون من مجموعة من الـ «مانترا» (Mantra) أي صلوات وعبارات رمزية.

وسواء أكانت الكتابة التي كانت تستخدم في حضارة وادى السند قد اختفت نهائيا أم أنها كانت الأصل الذي تفرعت منه الأبجديات الهندية التي ظهرت فيما بعد — وهو موضوع ما زال موضع نقاش بين العلماء — ففي

الحالتين يلوح أنه مرت على شمال الهند فترة طويلة لم يكن فيها الناس يعرفون القراءة والكتابة . وفي خلال هذه الفترة كان الناس يتناقلون الآداب الڤيدية عن طريقة التلقين الشفهي وفي العصور التي تلت ذلك كانوا يصرون اصرارا قويا على نقل هذه الآداب نقلا صحيحا ، وكانوا يعتقدون أن أى خطأ في الأداء أو دس على النصوص الصحيحة الأصلية ، يسبب الموت لمن يقترفه اذ يصيبه الموت من أسباب فوق قوى الطبيعة . وعلى أي حال ، فليس هناك ما يثبت أن مثل هذه التعليمات الشديدة كانت متبعة في العصور المبكرة ، فضلا عن أن مرور ألف سنة على الأقل بين وضع الأناشيد القديمة في الـ « ريج ڤيدا » وبين وقت تدوينها مدة كافية يهيىء الفرصة لادخال بمض التغييرات. بل ان الـ « ريج ڤيدا » نفسها يجب أن يكون تم تأليفها في مدى زمن طويل لأننا نجد في ثناياها نوعين مختلفين من الاقتصاد . فجزء من هذه الأناشيد يعكس أمامنا صورة من حضارة تقوم على اقتصاديات الألبان لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وتشبه هذه الحضارة شبها كبيرا حضارة شعب منطقة الاستيس الشرقية ، في حين يعكس البعض الآخر من هذه الأناشيد صورة : حضارة تعم فيها الحضارة الزراعية والحياة المستقرة فى القرى ، ويعيش أهلها فى بيئة غابات لم يكن فيها للماشية الا نصيب ثانوي من الأهمية. وخير تفسير لذلك هو أنه فى خلال الزمن الذى استغرقه وضع أناشيد الـ « ريج ڤيدا » كان الغزاة الآريون يلائمون أتفسهم للحياة الهندية وان الأناشيد المختلفة تعكس لنا حاجاتهم ونظراتهم تجاه المراحل المختلفة فى تلك الملاءمة .

فلا شك أن الغزاة الآريين عندما استقروا هناك دخلت عليهم عناصر كثيرة من الدم والحضارة من سكان البلاد القدماء ، ولكن يلوح أنهم لم يحبسوا الاعتراف بذلك بل ويرفضونه فى صورة غير عادية . فمن أغرب ما فى القيدا أنهم كلما أشاروا الى السكان الأصليين يسمونهم الـ « داسيوس » (Dasyus) يصفونهم بأنهم ذوو لون أسود وأنوف فطساء . فاذا كان مثل هذا الوصف

ينطبق على بعض سكان جنوبى الهند من الجنس البروتو — أوسترالى فلا يمكن أن ينطبق على سكان شمال غربى الهند ، وهم من جنس البحر المتوسط الذين يتحتم أن يكونوا أول من التقوا واصطدموا بهم على ما نظن . ويصفون الداسيوس فى بعض تلك الأناشيد بأنهم كانوا همجا متوحشين ، وفى أناشيد أخرى نراهم يبتهلون الى الآلهة لكى يساعدوهم للاستيلاء على مدنهم وحصونهم ذات الأسوار المشيدة من الحجر .

وما من شك فى أن حضارة السند كان لها فضل كبير على تطور المدنية الهندية فى العصور التالية ، بل يستطيع الانسان أن يرى بوضوح كثيرا من أوجه الشبه بينها وبين المدنية الهندية فيما بعد ، أكثر مما نراه بين هذه المدنية الأخيرة وبين حضارة منطقة الاستيس التي أتى منها أولئك الغزاة. فحضارة الاستيس تعتمد على تربية الماشــية لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وهذا ما يجمل الباحث يميل الى الظن بأنه فى خلال الفترة بين وصول الآريين واتمام وضع الڤيدا حدث امتزاج بين الغزاة وبين منظل باقيا من أهل حضارة السند. ومن الأمور التي يحتمل حدوثها أنه في وقت نمو الفولكلور المختلط يمكن حدوث الخلط بين الصراع الذي كان بين أجداد من ظل حيا من حضارة السند، وبين السكان الأصليين من الجنس البرو — أوسترالي الذي كان في شمالي غربي الهند عند قدومهم ، وأن ذلك الصراع اختلط بالمعارك التي حدثت بين الآريين وبين من بقي من سكان حضارة السند الذين كانوا عند قدوم الآريين على حالة كبيرة من الضعف والتدهور الحضارى . ومن المكن أن ألفاظ « أسود » و « ذي الأنف الأفطس » وغيرها أصبحت أوصافا مجازية تطلق على الأعداء مثل التعبير بلفظ « الهون » (Huns) الذي كان يستخدمه الأوربيون والأمريكيون عند اشارتهم الى الألمان أيام الحرب العالمية الأولى .

وربما كان هذا الافتراض افتراضا بعيدا ولكنا نرى شيئاً شبيها له فى العزر البريطانية حيث صار شعب الـ « پكت » Picts) موضوعا لكثير من

القصص الفولكلورية . فنحن نعرف من المصادر المعاصرة أن الـ « پكت » كانوا في حقيقة الأمر من الـ « جويدل » (Goidels) وكانوا من الـ « كلت » (Celts) الذين كانوا في الأصل فرعا من حضارة الـ « هلستات » الذين وفدوا الى اسكوتلندة من ايرلندة في عصر الفوضي في آخر أيام احتلال الرومان لبريطانيا ، واستمروا بعد ذلك كجماعة مستقلة من الناحيتين السياسية والعضارية حتى القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد . فمن ناحية المظهر الجسماني يلوح انهم كانوا يشبهون الاسكوتلنديين من سكان السهول الواطئة ، اذ انهم كانوا طوال القامة ، ذوى شعر أحمر وفي وجوههم نمش. ولكن بالرغم من ذلك نراهم يوصفون فى الفولكلور بأنهم قصار القامة داكنو الجلد متهورون يعيشون في الخَّفاء ، ويمارسون طقوســـا مليئة بالفحش ، ويصنعون شرابا سريا ولكنه قوى المفعول جدا ، وهو جعة من نبات الخلنج . ولا يكاد يوجد شك بأن هذه التفاصيل ليست الا ذكريات شعبية عن سكان اسكوتلندة الأصليين في العصر النيوليتي الذين تم التغلب عليهم منذ قرون كثيرة ، قبل أن يفد الى تلك البلاد الكلتيون الذين كانوا يستخدمون الأسلحة المصنوعة من المعدن .

لقد سبق أن وصفنا حياة الآريين الأوائل (انظر الفصل التاسع عشر) ، أما حياة الآريين في الهند في ختام العصر القيدى فانها كانت ، على ما يظهر ، شبيهة بالحياة الريفية في قرى الهند الشمالية في العصور التاريخية . لقد تضاءل شمال غربي الهند حتى أصبح لا يعول الا سكانا قليلي العدد متأخرين في حضارتهم . حتى وادى السند نفسه كان ينظر اليه كمنطقة اقليمية فحسب وتحول مركز كثافة السكان ومركز النشاط الحضارى الى أعلى وادى الجنج . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين ، وكانوا يربون الماشية ويحلبون لبنها ، ولكن أهميتها كانت ترجع الى كونها حيوانات تستخدم في الجر . كان المحراث والعجلة يستخدمان هناك منذ عهد بعيد ، وكانوا على علم بأكثر

المعادن المعروفة ويستخدمونها وأصبحت الخيل حيوانات تستخدم فى مظاهر الأبهة ، ولا تستخدم الا فى القتال فقط كانت كل عربة يركبها اثنان ويجرها جوادان ، ولكنهم لم يركبوا الخيل على الأرجح وكانت الحروب بين الجماعات الآرية المختلفة تباشر بخفة ونشاط ولكنها بدأت تصبح حرفة يتخصص فيها صاحبها وتسير على أساليب خاصة للفروسية .

وفي الڤيدا المتأخرة نرى صورة مثالية لما يجب أن تكون عليه القرية ، فمن الواجب أن تشيد القرية في مكان في الغابة أزيلت أشجاره ، ويجب أن يكون تخطيطها مستطيلا ومحاطة بسور من قوائم خشبية ، ولها بوابة محصنة في منتصف كل ضلع من السور ، ويوصل بين كل بوابتين أمام بعضهما طريق واسع مستقيم بحيث يتقاطع الطريقان في وسط القرية . ويقوم في مكان تقاطع الطريقين مكان مرتفع يظلله سقف من القش أو شجرة كبيرة ليكون ظلها مكانا لاجتماع الهيئة الحاكمة للقرية. وكانت هذه الهيئة مكونة من خمسة شيوخ يعرفون باسم « پنشيات » (Panchayat). وفي داخل السطور طريق واسم يدور حول القرية كلها ، وكان يستخدم في المواكب . وكانت منازل القرية تبنى من الأغصان الملطوسة بالطين أو من الغاب الهندى (البامبو) ، وكانت سقوفها من القش المضفور. كانت الحقول المزروعة تنتشر حول المدينة في مساحات طويلة غــير عريضة ، يعطى كل واحــد منها لعائلة من العائلات . أما الأراضي التي كانت ترعى فيها الماشية فكانت مشاعا بين الجميع . وظل تخطيط المدينة على شكل مستطيل أمرا له قداسة دينية بين الهندوس فيما بعد ، وما زلنا نراه حتى الآن في بعض المدن الهندية التي توجد فيها معابد كبيرة .

ان الفارق الرئيسى بين العصور القيدية المتأخرة وبين العصور التاريخية هو فيما يتعلق بتكوين المجتمع والدين. لم يكن نظام الطبقات قد عرف بعد، ولكن كان تقسيم السكان الى محاربين ومزارعين وصناع وكهنة معروفا بينهم وكان هناك تقسيم مشابه لذلك كان سائدا بين أقدم السكان الفرس الذين

كانوا متصلين بصلة القربي بالآريين الهنود القدماء ، ولكن لم يوجد فى كل من النظامين طبقة تشابه طبقة المنبوذين التي ظهرت فيما بعد ، بل ان الكهنة أنفسهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أصبحوا طبقة تختلف عن الطبقات الأخرى اختلافا واضحا . كان رئيس كل عائلة يقوم بدور الكاهن عند تقديم القرابين التي كانوا يكثرون فى تقديمها طبقا لما تطلبته الديانة القيدية . كان براهمة ذلك العصر جماعة قليلة من المتخصصين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين الدينيين للعائلات الأرستقراطية المحاربة الذين كانوا يحتاجون الى خدماتهم فى المناسبات التي تنظلب أداء الطقوس الصعبة أداء صحيحا اذ كان الكهنة حتى ذلك الوقت يعتمدون على الطبقة الأرستقراطية المحاربة وكانوا يعتبرون أنفسهم أتباعا لهم .

وكان النساك يوجدون أيضاً في آخر العصر الڤيدي . كانوا أفرادا يتجنبون الاتصال بالمجتمع العادى ولا يزاولون أى نشاط ، ووجدوا لهم مكانا يحقق لهم وحدتهم فى الغابة ، وهناك كانوا يعطون الارشادات لأولئك الذين كانوا ينشدون الوصول الى معرفة طبيعة الكون وطبيعة الانسان ، فمنذ أيام ذلك المهد البعيد كان الانسان نفسه هو موضوع الدرس والتأمل. فالفكرة الهندية المجردة التي ظهرت فيما بعد ، تلك الفكرة التي تقول بأن الحياة المادية ليست الا سرابا خادعا كانت فكرة معروفة لهم ، على الأقل ، فى صورتها الأولى التي لم يكن قد تم تكوينها بعد . وكان القرويون المحليون يعولون النساك عن طيب خاطر ، اذ كان يسعد أولئك القرويين أن يمدوا أولئك النساك بالطعام ، والشيء القليل الذي عساهم يحتاجون اليه من مستلزمات الراحة في مناخ كمناخ الهند ، وذلك في مقابل الفوائد السحرية التي تحل على تلك الجماعة بسبب وجود ذلك الناسك على مقربة منهم ، بل لقد وصل بهم الأمر الى الاعتقاد بأن مجرد لمس يده عندما يمدها لأخذ هدية منهم كان يغدق جزءا من قوته الروحية على مقدم الهدية. كانت القرية الهندية في ذلك العهد مكونة من عدد من العائلات التي يتصل بعضها ببعض بصلة القربي عن طريق الانتساب الى فروع الذكور . وبالرغم من أن نظام العائلة الممتدة الكبيرة قد بدأ يظهر ، فان مثل هذه الوحدات العائلية كانت قليلة العدد ، ولم تكن تستمر الا وقتا قصيرا . كانت العائلة القيدية النموذجية تقتصر على زوجة واحدة للرجل بالرغم من أن تعدد الزوجات كان مسموحا به ، وكان يزاوله من تسمح به حالته المادية . وكان الزواج في سن الطقولة غير معروف بينهم ، كما كان يسمح للأرملة أن تتزوج مرة أخرى . ولم يكن هناك مهر يدفعه الرجل لعروسه بل كانت الزوجة تحضر معها بائنة ذات قيمة الى العائلة الجديدة ، وكانت العادة أن يتزوج أبناء القرية من خارج قريتهم كما هو الحال في الهند في الوقت العاضر .

كانت العشيرة تتكون من سكان بضع قرى يتحدون فيما بينهم ، وكانت القبيلة تتكون من بضع عشائر. واستنادا الى ما ورد ذكره فى الآداب القيدية كانت هناك فى الأصل خمس قبائل آرية ، ولكن بعد وصولهم الى الهند زاد عددهم زيادة كبيرة كانت العشائر المختلفة التى تتكون منها القبيلة مرتبة حسب أهميتها ، وكان من بينها عشيرة أو عشيرتان يتمتع أفرادها بأرفع مركز فى القبيلة . وكان نظام الحكم فى القبيلة نظاما ديموقراطيا فى جميع مظاهره ، اذ كانت السلطات التشريعية والادارية فى يدى مجلس من رؤساء العائلات . فاذا كان الد « پانشيات » الأصلى ، وهو مجلس الخمسة الذى جاء ذكره فى الد « ربح ڤيدا » قد وجد حقا فقد اختفى لتحل محله جماعة أكثر عددا . ونظرا لأن الاجتماعات كانت علنية ، وليست لها صبغة رسمية ، فقد كان لدى القرويين فرص واسعة ليعبروا عن آرائهم ازاء جميع الموضوعات التى تهمهم ، فقد كانت التقاليد الديمقراطية قوية حتى فى داخل النظام القبلى .

وكان الملك على رأس القبيلة ، وكانت الواجبات الملقاة على عاتقه هي الواجبات الملقاة على عاتق زعيم الحرب والمنفذ للقانون. كان المنصب في العادة

وراثيا في عشيرة معينة ، ولكن الشخص المفروض اختياره كان ينتخب من بين أعضاء رجال القبيلة . كانت الاتجاهات الديمقوقراطية ما زالت قوية ، وفي عدد قليل من القبائل كان الملك ينتخب في فترات معينة ، وظلت اتحادات القبائل وما فيها من مجالس للحكم باقية بينهم حتى القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد. كانوا يسمحون للملك بأن يجمع ضريبة خاصة لنفسه في مقابل الواجبات الملقاة على عاتقه ، ولكن هذه الضريبة لم تنجاوز أبدا سدس المحصول. وعلى أى حال فقد كان الملك يحتفظ بمنصبه طالما كانت القبيلة راضية عنه ، فاذا أساء التصرف كان من حقهم عزله من منصبه . وبالرغم من أن نفوذ الملك زاد زيادة كبيرة فيما تلا ذلك من عصور فان النظم الديموقراطية التقليدية ظلت متبعة في عدد من المناطق ، ومن الأمور الشائقة التي تستحق الذكر أن المملكتين اللتين جاء منهما كل من « الجوتاما بوذا Gautama Buddha وقارذامانا Vardhamana » مؤسس الديانة الجينية كانت كل منهما حتى وقت ظهورهما تسير على النظام الديمقراطي. ولما كانت محتويات كتب الڤيدا تكاد تقتصر على الأمور الدينية فان معلوماتنا عن هذا الموضوع فى الوقت المبكر من الحضارة الآرية وافية الى حد كبير. كان مجمع المعبودات يسير بوجه عام على الأسلوب الهندو — أوروبي. وكان أعظم أولئك المعبودات هو المعبود « اجنى » (Agni) اله النار الذي كان يقوم بدور الرسول بين · الناس والآلهة والمعبود « اندرا » (Indra) اله السموات الوسطى وسحب العواصف ، الذي كان في الوقت ذاته الها للحرب ، وهو الذي كان يقود الآريين أثناء حروبهم مع الداسيوس. كان اندرا ، على ما يظهر ، هو المثل الأعلى للمحارب الآرى في أقدم العصور الڤيدية . كان يقتحم حومة الوغي بقلب منشرح ويتمنطق بزردية من الذهب ، وفي استطاعته أن يأكل لحوم ثلاثمائة ثور ، ويشرب ثلاث بحيرات من شراب الـ « سوما » دفعة واحدة وكانوا يعبدون الشمس في مظاهر مختلفة ، وتحت خمسة أسماء على الأقل. كان « قشنو » (Vishnu) ، الذي أصبح فيما بعد في الديانة الهندوسية أحد الآلهة الرئيسية الهامة ، من آلهة الشمس ولكنه لم يحتل الا مكانة بسيطة في مجمع الآلهة القيدية . وكانوا يعبدون السماء المترامية الأطراف تحت اسم « ديوس — بيتر » (Dayous - Pitar) (قارن ذلك باسم چوبتر): وكان معبودا خيرا رحيما ، أما المعبود « رودرا » (Rudra) اله العواصف فقد كانوا يخشون بأسه أكثر مما كانوا يحبونه ، وفي العصور التالية وحدوا بينه وبين « سيقا » (Siva) أحد آلهة الثالوث الهندى .

وأخيرا ، كان « فارونا » (Varuna) وهو اله آخر للسماء ، ويتمثل فيه كل الفضاء الواسع ، هو أقوى الآلهة القيدية ، وكان يمتاز بانفراده من بينهم في اهتمامه بسلوك الانسان ، وكانت الصلوات ترفع اليه لينفذ ذنوب المبتهلين اليه . كانت الأجرام السماوية عيونه التي بوساطتها يراقب أعمال الناس على الأرض ، ولم يكن يخفي عليه أي عمل من أعمالهم . كان الآلهة يطلبون تقديم القرابين اليهم من الحيوانات التي توضع في النار ومن شراب الـ « سوما » التي بالرغم من ذكرها المستمر في الطقوس القيدية ، وان كلا من الآلهة والناس كانوا يحبونها ويقبلون على شربها فان كل ما نعرفه عنها انها كانت شرابا مسكرا يستخرجونه من عصير نبات لم يعرف نوعه حتى الآن . وكان المتعبدون يعتقدون أن الآلهة يأكلون القرابين وانها تغذيهم غذاء ماديا وكان « أجنى » رسول الآلهة يحمل اليهم وهم في السماء خلاصة تلك القرابين في دخان النار رسول الآلهة يحمل اليهم وهم في السماء خلاصة تلك القرابين في دخان النار

لا يوجد فى كل ما ذكرنا حتى الآن سواء عن العقائد الدينية الثيدية أو عن العقائد الثيدية ما يخالف فى أى صدورة من الصور حضارة أى شعب من الشعوب التى تنكلم اللغات الهندو — أوروبية التى خرجت من منطقة الاستپس الشرقية الى ضوء التاريخ ، ومع ذلك فان عنصرا جديدا يظهر حتى فى الد « ربيج ثيدا » . ففى الكتاب العاشر توجد بعض أناشيد مجردة وفلسفية

ذات طابع يميزها ، نرى فيها فكرة الد « پوروشا (Purusha)، وهو كائن عظيم يحيط بالكون من كل ناحية ويوجد متخللا فى ثناياه . انه هو الكل ، ما كان وما سيكون ، وجميع الأكوان ، كما هى ، ليست الآجزءا من كيانه . وهذه الآراء المتعلقة بألوهية الكون نراها فى أسس جميع الديلنات والفلسفات الهندية التى ظهرت فيما بعد . ومن الصعب أن نعتقد أنها نشأت من عقول أولئك الناس القبلين غير المجربين ، قليلى التصور ، الذين يقولون فى نشيد آخر فى القيدا « ان اندرا يخور كالثور طالبا الد « سوما » الخاصة به » .

ونحن لا ندرى حتى الآن مدى فضل الآريين على الديانة الهندية فيما تلا ذلك من عصور ، ولكن فضلهم عليها أقل بكل تأكيد مما نسبه اليهم الكتاب البراهمانيون. ولم يبق من جميع المعبودات الڤيدية معبود ذو نشاط في الديانة الهندوسية المتطورة الا المعبود « قشنو » ، ومع ذلك فان صفاته تغيرت تغيرا يكاد يجعلنا لا نعرفه . إن عقيدة تناسخ الأرواح — وهي عقيدة أساسية في الديانة الهندوسية - يلوح أنها لم تكن معروفة للاريين الأوائل ، وكذلك أساليب النسك ، ووجود جماعة من الكهنة الذين يتوارثون مهنتهم ، ويكونون جماعة تتحكم في غيرها بعلمها ومهارتها في صلتها بما هو فوق الطبيعة ، كانت كلها أمورا لا تتلاءم أبدا مع القيم الآرية القديمة. كما نعرف تلك القيم في حضارات أخرى خارج الهند. واذا اتجه الانسان مباشرة الى الدليل الأصلى متجاهلا التعليلات العقلية ، والتفسيرات التي قدمها الكتاب المتأخرون ، فانه يرى نفسه مضطرا للقول بأن غزو الآربين للهند سار على نفس الطريق تقريبا الذي سارت عليه معظم الغزوات الأخرى التي جاءت بعد ذلك . فقد كان يحدث عند كل غزو أن السيطرة السياسية والعسكرية تكون في يد الغزاة في مبدأ الأمر ، ثم يتبع ذلك استيعاب أولئك الغزاة ، وتظهر فى الوقت ذاته نهضة جديدة للحضارة القديمة . ومن المحتمل أنه مع مرور الزمن لم يكن الغزو الآرى أكثر من حادث من الحوادث التي حدثت في ذلك العهد الطويل من حياة المدنية الهندية ذات الطابع الخاص.

والثيء الوحيد الذي يمكن تقديمه ضد هذا الرأى هو انتشار اللغات الآرية في معظم بلاد الهند، ولكن هذه المشكلة ليست مشكلة خاصة بالهند وحدها. ففي جميع المناطق التي غزتها الشعوب التي تتكلم اللغات الهندو أوروبية نجح الغزاة في نشر لغاتهم بالرغم من أن حضارتهم ، بل وحتى مظهرهم الجسماني ، اختفى بعد وقت قليل. والمنطقة الوحيدة التي لم يحدث فيها ذلك هي منطقة بلاد ما بين النهرين حيث وجدت اللغات الهندو — أوروبية منافسا لا يقل عنها قوة ، وهذا المنافس هو اللغات السامية التي كانت هي الأخرى غريبة عن البلاد. أما عن السبب الذي يجعل بعض اللغات تستمر في فترات تغير الحضارات بينما لا يستمر بعضها الآخر فان ذلك مشكلة من ألطف مشاكل القوى المحركة للحضارات ، وهي من بين المشاكل التي لم نعرف لها حلاحتي الآن.

الفصل التاليث والمثلاثون الهند في عصرها التاريخي المبكر

يصطدم أى باحث فى التاريخ الهندى بحقيقة واضحة وهى عدم اهتمام الهنود أنفسهم بالتاريخ. ان تلك النظرة العامة الى الكون بأنه ليس الاسرابا خادعا وان الحوادث تحدث فى دورات متتابعة لا يمكن الا أن تحيل صاحبها الى شخص لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة عن الزمان أو المكان.

فالبراهمانيون الذين كانوا يحتكرون التعليم ركزوا اهتمامهم فى الفلسفة والدين أكثر من اهتمامهم بما يحدث أمامهم . زد على ذلك أنهم كانوا يقولون ان ما كانوا يقومون بعمله عادة ليست الا أشياء تمارس منذ القدم فأصبحت لها قداستها تبعا لذلك ، ولهذا لم يهتموا أبدا بالتقدم الحضارى . وتتيجة لذلك يتحتم علينا أن نعيد كتابة تاريخ الحضارة الهندية اعتمادا على المادة العرضية التى نجدها فى الآداب الروماتيكية ، وللدينية ، ومن المبادىء الأثرية ومما كتبه الزوار الأجانب .

بل ان تاريخ الهند السياسى غامض فى كثير من النواحى ، ولا يحقق ما يتطلبه مستوى الدقة التى ينشدها علماء الغرب فى كتابة التاريخ الا بعد الغزو المسلم الأول . ان أسماء الأسرات الهندية ، وأسماء العدد الذى لا يحصى من الملوك الذين حكموا خلال الألفين والخمسمائة السنة ، وظهورهم واختفاءهم ، أمور لا معنى لها فى أكثر الحالات لمن يكون غير متخصص فى هذه الدراسة . ولهذا السبب فان الحوادث السياسية التى اقتصروا على ذكرها هى الحوادث التى كانت ذات دلالة حضارية باقية ومستمرة .

واستنادا الى المصادر التى وصلت الينا من أقدم أيام العصر التاريخى يمكن تقسيم الهند كلها الى ثلاث مناطق. لقد اتصل شمال غربى الهند بالحضارة الغربية فى القرن السادس قبل الميلاد عندما ضم الملك دارا الأول الهنچاب والسند الى الامبراطورية الاخمينية الفارسية. وتلا ذلك غزو آخر لم يكن فى حقيقة الأمر أكثر من هجوم للاستيلاء على الثروة ، وهو الغزو الذى قام به الاسكندر الأكبر ، وما حدث بعد ذلك من تأسيس أسرات متعاقبة من الغزاة الذين أتوا من الجبال الشمالية الغربية ومن منطقة الاستيس ، الذين سرعان ما اقتبسوا عناصر الحضارة الهلينستية. ويبدأ وصف الأوروبيين لتلك البلاد بما كتبه «سكيلاكس» (Skylax) وهو اغريقى أرسله دارا لاستكشاف وادى السند حوالى عام ٥٠٥ قبل الميلاد (لم يصل الينا ذلك الوصف كاملا وانما عرفنا مقتطفات منه فى مؤلفات الكتتاب الذين جاءوا فيما بعد) .

وبقيت هذه الأسرات حتى نهاية الممالك الهلينستية فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ولا شك أن أهم ما وصل الينا من الوثائق عن ذلك العهد هو ما كتبه « ميجاستينس » (Megasthenes) وكان سيفيرا للامبراطورية السلوقية التى كانت فى الشرق الأدنى ، والذى ذهب الى الهند عام ٣٠٢ قبل الميلاد وقضى أعواما طويلة فى بلاط الامبراطور الماورى « تشاندراجوپتا » الميلاد وقضى أعواما طويلة فى بلاط الامبراطور الماورى « تشاندراجوپتا » (Chandragupta) .

أما عن شمال غربى الهند فليس لدينا مصادر أجنبية مبكرة ، ولا تكاد توجد أى كتابات تاريخية محلية ولكن بالرغم من ذلك وصلت الينا اشارات كثيرة الى الحضارة المعاصرة فى الآداب والأساطير البوذية القديمة ويرجع تاريخ هذه الاشارات الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو وقت احتىلال الفرس لشمال غربى الهند وما وافى القرن الثانى بعد الميلاد حتى أصبح الفن البوذى يمثل حياة « المستنير » ، وهو يقوم برسالته ، تحيط به مناظر من المعلومات .

أما في جنوبي الهند فالوثائق الخاصة به تبدأ في عصر أحدث ؛ لأن أقدم الكتابات فيها لا يرجع تاريخها الى أبعد من قبيل بداية العصر المسيحى. وعلى أي حال ، فان هذه المنطقة كانت على صلة مستمرة بغيرها من الحضارات القديمة ، وكثيرا ما وردت اشارات اليها في الآداب الاغريقية ابتداء من القرن الأول الميلادي . وهناك أيضا اشارات كثيرة اليها في الآداب الصينية ، وهي اشارات لا يمكن أن تصبح بسهولة في متناول للعلماء الغربيين. أن جنوب الهند منطقة يحميها البحر ، ولهذا لم تتعرض للغزو حتى جاء المسلمون واحتلوا شمال غربي الهند في القرن التاسم الميلادي . ولكن منذ القرن الثامن ، أو السابع قبل الميلاد على أقل تقدير ، كانت التجارة تصل الى موانيء جنوب الهند من جهة الغرب . وما حل القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد حتى كانت تجارتها مم كل من الشرق والغرب تجارة مزدهرة . كانت سفن جنوبي الهند تمخر عباب البحر الى بلاد العرب، والى الشاطىء الشرقى من افريقيا، والى اندونيسيا وجنوبي الصين ، ووصلت صلة هذه المنطقة بالحضارات الغربية الى أعظم وأزهر درجاتها حوالي بداية العصر المسيحي. فقد كان الرومان يتلهفون لهفة شديدة على الحصول على الجواهر والتوابل الهندية ، وعلى الأخص الفلفل. ولما لم يكن لديهم الا القليل من المحصولات التي يمكن أن يأخذها الهنود في مقابل ما يحصلون عليه منهم ، فانهم كانوا يدفعون ثمن تلك الواردات بالعملة الذهبية ، وكانت هذه العملة الذهبية الرومانية تستخدم في مناطق كثيرة في جنوبي الهند . وكان هناك جنود من اليونان والرومان يخدمون ملوك جنوبي الهند كجند مرتزقة ، كما كان في جنوبي الهند أيضا جاليتان رومانيتان ، وفي واحدة منهما أقيم معبد للامبراطور أوغسطس ، وكان من بين الأجانب الآخرين الذين استقروا في جنوبي الهند يهود ومسيحيون سوريون وصلوا الى هناك فى القرن الأول الميلادى ، ومسيحيون من الفرس أتوا في القرن الرابع الميلادي ، كما جاء اليها أيضا عرب ما زال أحفادهم الى اليوم يكونون عنصرا هاما من عناصر سبكان منطقة الملابار ، كما كانت لهم تجارة واسعة مع الصين ظلت مستمرة ، وكانت مزدهرة فى أيام الرحالة « ماركوپولو » .

وفى فجر العصر التاريخي فى كل منطقة من هذه المناطق الهندية الثلاث نرى كثيرا من العناصر الحضارية المتشابهة فيها كلها ، ولكننا نرى فيها أيضا بعض الاختلافات المجلية الواضحة . كان كل من شمالي وجنوبي الهند يختلفان في اللغة اختلافا صريحا ، فقد ورث سكان الشمال الذين كانوا يستخدمون اللغات الهندو – أوروبية كثيرا من التقاليد الآرية . أما سكان الجنوب الذين كانوا يستخدمون اللغات الدراقيدية فقد احتفظوا فيما بينهم بعادات كثيرة وهي غير آرية بكل تأكيد . وكانت هناك أيضا اختلافات واضحة في شــمال الهند بين شرقها وغربها . كان الغرب معرضا للغارات ، وكان الباب الذي تتسلل منه القبائل الجديدة التي تأتي الى شبه الجزيرة منذ أيام فجر التاريخ . أما شمال شرقي الهند ، وهي منطقة وادي الجنج ، فكانت أقل تعرضا للغزو ، وحتم مناخها ومواردها الطبيعية أن تستمر حضارتها الأصلية وقتا غير قصير. فان الغزاة الذين دخلوا الى بيئتها الاستوائية الرطبة من الشمال أو من الغرب وجدوا أنفسهم مضطرين ، لكي يحيوا ، أن يقتبسوا وسائل الحياة المحلية . كان جنوبي الهند في مركز يسمح له بأن يتقبل وينقل العناصر الحضارية دون أن يقع عليه ضغط خارجي . ويلوح أنه كان يلعب دور المعطى أكثر من دور المستعير ، اذ كان يوفد المبشرين والمغامرين الذين نشروا المدنية الهندية في اندونيسيا والبلاد القريبة منها في أرض القارة ، أما ما استعارته من مصادر خارجية فانها اختارت ما كان يروق لها ، وعدلته ليلائم نوع الحياة التي كانت سائدة فيها

وليس لدينا الا القليل من الأدلة المباشرة عن التأثيرات الحضارية لغزو الأخمينيين لشمالي غربي الهند. فقد أطلق دارا الأول على الينجاب والسند

اسم الستربية العشرين في امبراطوريته ، التي كانت أعظم امبراطوريات العالم في ذلك الوقت . ويذكر هيرودوت وجود جنود من الهنود بين تلك الجيوش المكونة من أجناس مختلفة التي سيرها الفرس ضد الاغريق ، ولكن الأهم من ذلك هو أن ستربية الهند كانت تقدم جزية سنوية مقدارها عشرة أطنان من تبر الذهب أي ما يقرب من ثلث الايراد الكلى للامبراطورية الفارسية . ويمكننا أن تقول ونحن مطمئنون ان الفرس الذين أتقنوا فن تنظيم البلاد ، وأول فاتحين فى العالم أدركوا أن حكم الرعية بالموظفين خير من حكمهم بالجيوش ، قد عنوا بتنظيم الادارة في مثل هذا الجزء النفيس من ممتلكاتهم . ومن المحتمل جدا أنهم قدموا الى الحضارة الهندية نظما جديدة من التنظيم السياسي ، بل ربما أعطوها فكرة الامبراطورية تفسها . فمن الأمور التي تسترعى النظر أنه عند انتهاء الاحتلال الفارسي نجد أن بعض الولايات في وسط الهند تتجه نحو الفتح ، على حين نجد أن شرقي وجنوبي الهند في الوقت عينه مقسم الي ممالك شبه بدوية . ونستطيع من دراسة ما خلفه لنا « مجاستينس » وما كتبه «أرثساسترا» (Arthsastra) ، وهو هندى من «كاوتيليا »(Kautilya) الشيء الكثير عن تكوين الامبراطورية الماورية ، وفيها الكثير مما يشبه النظم الفارسية . وكان هناك أيضا تأثير فارسى على الفن في شمالي الهند ، نراه واضحاً في بعض الآثار مثل الأعسدة التي أقامهــا الملك « أسوكا » (Asoka) ولكن هذا التأثير سرعان ما انتهى تحت وقع أساليب الفن الهلينستى.

لم يكن غزو الاسكندر الأكبر للهند أكثر من غارة قام بها. أما الحاميات الاغريقية التى تركها هناك فقد زالت نهائيا من الوجود بعد خسين عاما من رحيله. كانت الامبراطورية الماورية التى ظهرت بعد الغزو الفارسى مباشرة، وهى أولى الامبراطوريات الهندية، امبراطورية وطنية الى أبعد الحدود. ولا ترجع التأثيرات اليونانية فى الحضارة الهندية الى الاسكندر وحده بل تدين بأكبر قسط للملوك الهمج غير المتحضرين من « الاسكيذيين »(Scythians)

و « الكوشان » (Kushans) بنوع خاص ، فقد كونوا أسرات مالكة عديدة فى شمال غربي الهند حوالي ظهور المسيحية . أحس أولئك الهمج غير المتحضرين بتفوق الحضارة الهلينستية فأقبلوا على محاكاة أساليبها الظاهرية . وبالرغم من أن الصلة بالغرب المتأثر بالحضارة الهلينية قد استمرت لعدة أجيال ، فان الحضارة الهندية لم يدخل اليها الا القليل من العناصر الاغريقية الأصل كان أبناء القارة من اليونانيين ضعافا دائما في ميداني الادارة والتنظيم الاجتماعي ، وكانوا فى العصـور الهلينستية يقتبسون دائمًا نظم الولايات التي كانوا يغزونها . فالأساليب الفنية في الصناعة ، رغم ما أخرجته من أعمال فنية ممتازة ، كانت على الأكثر مساوية ان لم تكن أقل ، مما كان في الهند أما فلسفة الاغريق وعلومهم فقد كانت غريبة عن الروح السائدة فى البوذية والهندية المنتشرة بينهم . ولكن نجد في ناحية واحدة فقط ، وهي ناحية فن نحت التماثيل ، ان تأثير الاغريق يتخذ طابعا مستمرا فعالا . فان اعتناق ملوك الكوشان للديانة البوذية واستخدام الفنانين المحليين من الاغريق في صنع تماثيل لا حصر لها لم تلبث حتى أصبحت عنصرا من عناصر هذه الديانة ، وقد ترك ذلك أثرا خالدا على أسلوب الفن البوذي في جميع بلاد الشرق.

ولم يأت القرن الخامس قبل الميلاد حتى نجد شمالى الهند وقد استكمل كثيرا من المميزات الثقافية التى ما زالت باقية فيه حتى الآن ، فان حياة سكان القرى العاديين يلوح انها لم تتغير الا قليلا بين ذلك العصر البعيد والعصر الحاضر ، وما فيه من ثورة سببها استخدام الراديو وسهولة الانتقال . فلو أن شخصا من العصر الحاضر استطاع أن يطوى صفحات الزمن ويعود الى ذلك الوقت البعيد فسيذهل من اتساع وانتشار الفابات وكثرة استخدام الخثيب في البناء ، فان بعض المدن الكبرى مثل « پاتاليپوترا » (Pataliputra) الخثيب في البناء ، فان بعض المدن الكبرى مثل « پاتاليپوترا » (الخثيب بما التي كانت عاصمة الامبراطورية الماورية كانت مشيدة كلها من الخثيب بما في ذلك قصورها ومعابدها وكان يحميها سور خشبي وخندق يحيطان بها .

وفى معظم بقاع المنطقة ، فى الوقت الحاضر ، لا يكاد أهلهــا يجدون خشبا يصنعون منه عروقا لحمل سقوف منازلهم ، ويستخدمون في انضباج طعامهم حلقات من روث الأبقار . وسيدهش أيضا لقلة الملابس التي كان يلبسها سكان الجزء الشرقي من المنطقة . فقد اقتصرت ملابس الرجال على قطعة قماش واحدة صغيرة من القظن تلف حول الوسط ، أما النسباء فكن يلبسن نقبة قصيرة . وكان الأغنياء يعوضون أنفسهم عن رخص هذه الملابس بعملها من نسيج أحسن ، وبالجواهر التي كانت كثيرة الى درجة أن النساء كن يعتبرنها حملا ثقيلا ولكن من نوع فريد. والفوارق الاجتماعية نفسها التي يدهش لها المسافر في الهند في الوقت الحاضر كانت موجودة على الأرجح فى ذلك العهد . فبالرغم من أن مركز الفلاح الاقتصادى كان خيرا منه الآن فانه كان يدفع سدس محصوله كضريبة مباشرة كما كان مستغلا استغلالا سيئا لاحتكار الدولة للملح ، كما كان يدفع ضريبة أخرى على كل ما يبيعه ، وغير ذلك من المظالم .

وعلى أى حال ، فان الفارق فى الدخل بين الأفراد فى ذلك العهد كان يتضح فى المظاهر أكثر من اتضاحه فى مستوى المعيشة . كانت أعمدة قصر « تشاندراجوپتا » (Chendreguria) معطاة بصفائح الذهب ، ولكنه كان ينام فوق حصير وكان يأكل نفس الطعام الذى يأكله الفقير العادى ولم يختلف عنه الا فى اضافة كمية أكبر من التوابل . ولهذا ، فانه عندما اعتزل الناس وعاش متوحدا فى الغابة بعد أن أدركته الشيخوخة لم يضح الا القليل جدا مما يمكن أن يقال عنه انه من ملذات الحياة .

وكانت المحصولات ذاتها ، وهى القمح والشمير فى الغرب والرز فى الشرق ، تزرع بالطريقة نفسها التى تزرع بها الآن . وكانوا يسوقون الماشية لحلبها عند « ساعة غبار الأبقار » ، ولكنهم لم يكونوا يقدسون تلك الأبقار

كما يقدسها الهندوس فى الوقت الحاضر ، وكانوا يذبحون الحيوانات قربانا . للمعبودات فى احتفالات طويلة تتكلف الكثير من المال .

أما عن التنظيم الاجتماعي فقد كان نظام العائلة المترابطة ، ونظام القرية من النظم التي مضى عليها وقت طويل وكانا الأساس في بناء المجتمع ، ومن المحتمل أن سكان كل قرية كانوا يتزوجون من خارج قريتهم كما يفعلون الآن . وكان السواد الأعظم من سكان كل قرية من فلاحي الأرض ، ومعهم بضع عائلات من المتخصصين ، وهم غالب حداد ونجار وفخار وكاهن يسدون حاجاتهم الضرورية . وكانت توجد بينهم الأقسام الأربعة الرئيسية للطبقات وهم البراهمانيون (Brahmans) والكشاتريا (Kshatriya) والقايسيا (Vaisya) والسودرا (Sudra) في شمالي الهند ولكنا لا نملك أي دليل على وجود والسودرا (Sudra) في شمالي الهند ولكنا لا نملك أي دليل على وجود الأقسام الفرعية التي لا حصر لها التي يمتاز بها نظام الطبقات الحديثة ، أو تلك التعاليم الشعائرية الكثيرة التي تحدد الآن العلاقات بين الأقراد المنتمين الي طبقات مختلفة . ولا يذكر « مجاستينس » تلك الطبقات . ولو كان لها وجود في شمالي غربي الهند في القرن الثالث قبل الميلاد لما خفيت على مثل هذا الشخص الحصيف الذي امتاز بقوة الملاحظة .

وفى الوقت الذي عاش فيه « بوذا » ، أى فى القرن السادس ق . م . كانت توجد جامعات حقيقية يقصدها شبان من العائلات الكبيرة ، يذهبون ليتلقوا دروسا فى المؤلفات المقدسة كجزء من التعليم الذى يناسب مكاتهم . وكانت احدى تلك الجامعات فى « تاكسيلا » (Taxila) فى غربى الهند عاصمة الستربية الفارسية القديمة . كان جميع الرجال المنتمين الى الطبقات العليا الثلاث يتلقون تعليما فى الفنون والشعائر المقدسة ، وكان ذلك يتمشى مع الأساليب الآرية القديمة التى تتطلب من رئيس العائلة أن يقدم القرابين بدلا من عائلته ، وأن يقدم الحاكم القرابين بدلا من رعاياه . وعلى أى حال ، فهناك من عائلته ، وأن يقدم الحاكم القرابين بدلا من رعاياه . وعلى أى حال ، فهناك أدلة عديدة على أن البراهمانيين كانوا يغتصبون لأنفسهم بصفة مستمرة مزيدا

من القوة والسلطان. وكانت هذه الحركة أقل أهمية فى شمالى غربى الهند حيث تسببت الغزوات المستمرة لشعوب غير هندية فى تركيز السلطة فى يد طبقة الكشاتريا ، وهى الطبقة الحاكمة من المحاربين التى كانت لا تمانع فى أن ينتمى اليها الآخرون وتستوعب المحاربين الغزاة. وفى شمالى شرقى الهند لم يكن التنازع على السلطة بين البراهمانيين والكشاتريا قد بدأ يظهر فى ذلك العهد. لم يكن البراهمانيين قد خصصوا أنفسهم لدور الناصحين للملوك ، أو عرفوا قيمة الفوائد الكثيرة للسيطرة دون تحمل المسئولية ، أوأن الكشاتريا تنازلوا عن جميع مطالبهم نحو العلم أو الوصول المباشر لمعرفة ما فوق الطبيعة. ومما يستحق الذكر أن وجوه نشاط الكشاتريا كانت آكثر شسبها بأخلاق وصفات الغزاة الأوائل من الآربين ، بينما لم يتوافر ذلك فى البراهمانين.

وهناك دائما رابطة قوية بين آلهة أى شعب مغلوب وبين البلد الذى كانوا يسهرون عليه . فمن المنتظر منهم أن يكون موقفهم غير ودى نحو الوافدين الجدد ، وكثيرا ما يجد الانسان أن بعض الغزاة يعترفون بالقوى السحرية للمغلوبين ويلجأون الى كهنتهم ورجال الطب فيهم ليتوسطوا من أجلهم الى أرباب البلد القدماء . وقد سبق أن ذكرنا أن الآلهة الهندوسيين المتأخرين لم يكونوا هم أنفسهم آلهة الآربين القيديين ، كما ذكرنا أيضا أنه حتى المعبودات التى بقيت أسماؤها مثل « قيشنو » فان الصلة بين صفاتهم القيدية القديمة وصفاتهم البراهمانية المتأخرة لم تكن الا مهارة فلسفية . وربما كان ازدياد أهمية البراهمة فى ذلك الوقت ليس الا رجوعا الى الحالة التى كانت سائدة فى الهند قبل الآربين .

وما حلت بداية العصر التاريخى حتى أصبح للعقائد الدينية والعادات فى شمالى الهند عدد من المميزات الخاصة بها ، وأهمها الاعتقاد فى تناسخ الأرواح وعقيدة الـ «كرما » (Karma) . وبالرغم من أن الاغريقى « فيثاغورس » كان يدرس تناسخ الأرواح لتلاميذه ، وأن هناك اشارات

اليها فى الميتولوجيا الكلتية ، فمن المرجح أن مثل هذه العقيدة لم توجد فى الثيدا القديمة ، ولم تكن جزءا من الميراث الثقافى للشعوب الهندو — أوروبية بصفة عامة . فنحن نعلم أن نوعا من الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ، مع تحسينات وتعديلات مختلفة ، ظهر ظهورا مستقلا فى كثير من أرجاء العالم ، وربما كانت تلك الصورة الهندية قد تم تطورها على يد الفلاسفة الذين كانوا قبل الآريين عندما كانوا يحاولون ايجاد حل منطقى للمشاكل التى يخلفها تصميم الانسان على انكار أنه من المكن أن يفنى نهائيا .

ومهما كان أصل هذا الاعتقاد فان مصير الروح ، حسب الرواية الهندية ، مقبول عقليا ومناسب منطقيا أكثر من أي مثيل له في أي انتاج حضاري آخر . وبينما نلاحظ أن عقائد الطوائف الهندية المتباينة قد احتلفت بشأن بداية ونهاية رحلة الروح فانها تتفق جميعا فيما بينها فى الجزء الأوسط منها ، وهو الجزء الذي يتناول ماضي ومستقبل الشخص لقد بدأت الروح كشيء كلي ، غير محدد أو معين من القوى الروحانية ، وأمدت الجسد بنوع وضيم من الحياة . وعندما يموت جسد صاحبها تنتقل الى جسد آخر حاملة معها الخبرة التي حصلت عليها في حياتها السابقة . وبتجمع هذه الخبرات الكثيرة التي تحصل عليها من حياة بعد أخرى ، تأخذ الروح شكلها وتقوى مع مرور الزمن. وبالاضافة الى الخبرة ، فان كل روح تحصل لنفسها على رصيد مما يمكن أن نسميه حساب المكسب والخسائر الروحي ، وهو تتيجة الأعمال الحسنة والأعمال السيئة التي اقترفتها أثناء تناسخها المتوالي وهذه كلها مجتمعة هي الـ « كرما » الخاصة بالشخص وهي التي تحدد المكانة التي يجب أن يولد بها ثانية في المجتمع ، والحظ الحسن أو السييء الذي يصادفه .

كان الاعتقاد فى الكرما ذا أهمية كبرى فى سير الأمور فى المجتمع الهندى لأنها ساعدت على جعل نظام الطبقات شيئا معقولا . فالشخص الذى يولد فى طبقة السودرا أو طبقة المنبوذين يكون قد احتل هذه المكانة التى لا يحسد

عليها ؛ لأنه المكان الذي جعلته الكرما صالحا له في المجتمع ، المكان الذي يستطيع فيه أن يحصل على نوع الخبرة اللازمة له ، لتتقدم روحه وتحصل على الثواب أو العقاب الذي جعلته أخلاقه في الماضي مستحقا له . وترتب على ذلك أن كل من يحاول ترك طبقته يغامر بقذف نظام تطوره الروحى في فوضى لا قرار لها ، وبهذا يتسبب في تنزيل درجته خطوات كثيرة في تناسخ روحه . كان كل من يحب الحصول على « كرما » طيبة يستطيع أن يصل الى غرضه عن طريق تقديم القرابين ، والمراعاة الدقيقة لتنفيذ الطقوس على الوجه الصحيح وتقديم الحسنات للبراهمانيين والنساك ، وعمل الخير بوجه عام . وعلى أي حال فان أهم شيء بالنسبة للروح هو ازدياد الوعى والحكمة اللذين وعلى أي حال فان أهم شيء بالنسبة للروح هو ازدياد الوعى والحكمة اللذين ليريدان من تقدمها في ارتفاعها ؛ فالشخص الذي يخصص نفسه تخصيصا كليا ليول الأعمال يضيف الشيء الكثير الى حساب حسناته ، وبذلك يستطيع أن يؤخر تفسه مدى عدة مرات من التناسخ المتع ، ولكن ذلك لا يغير من وضعه حتى يتمتع بالمزايا التي سبق أن اكتسبها بفعله للخير .

وأقصر طريق للتقدم الروحانى هو أن يصبح الانسان ناسكا . وقد لاحظ « ميجاستينس » وجود جماعات من الناسكين أعادت الى ذهنه صورة الندوات العلمية الهلينستية التى كانت توجد اذ ذاك فى بلاده . فقد قال بأن مناقشات أولئك الفلاسفة الهنود كانت كلها عن الموت ، ولابد أن مثل هذا الشاغل القوى قد بدا غريبا فى نظر ذلك الاغريقى المحب للحياة . ومنذ أيام بوذا نفسه كانت عقيدة تناسخ الأرواح أصبحت ثابتة تماما فى الهند ومن المحتمل أن المناقشات التى ذكرها ميجاستينس كانت تنعلق بدور الكرما ووظيفتها والأدوار المتتابعة فى تطور الروح .

ففى أيام « ميجاستينس » كان الناسكون قد أصبحوا منذ قرون كثيرة شيئا عاديا فى الحياة الهندية . وعلى ختم عثر عليه فى « موهنچو — دارو » نرى شخصا فى جلسة كانت توصف بأنها جلسة الناسكين فى العصور التالية

وما من شك فى أن نظام النساك نشأ فى الهند ومن المحتمل جدا أنه كان معروفا فيها قبل مجيء الآربين ، وعلى أي حال ، فهو شيء لا مثيل له بين حضارات الذين يتكلمون اللغات الهندو _ أوروبية خارج الهند . وربما كان النسك الهندى في بدايته شبيها من الناحية السيكولوجية بالبحث عن الرؤيا والالهام لدى هنود شمالي أمريكا . فقد كان طالب الرؤيا يصوم ويوقع على تفسه بعض أنواع التعذيب ليستدر بهذا العمل عطف احدى الكائنات ذات القوى التي فوق الطبيعة . فاذا نجح فان ذلك الكائن يظهر أمامه ويعده بالمساعدة ويذكر له في الوقت ذاته أشياء معينة يحرم عليه فعلها ، وعلى الانسان مراعاة ذلك مراعاة تامة حتى يحتفظ بصلته مع هذا الكائن. يكون الانسان أثناء قيامه بذلك في شبه غيبوبة مغناطيسية ، كما أن الصوم المستمر والآلام التي يوقعها على نفسه تجعل ذلك الشخص يرى ما يشبه الأحلام ويسمع أصواتا ، يستطيع اذا فكر فيما مر به في ماضي حياته من خبرة ، أن يجعل منها تجربة منتظمة من تلك التجارب الخاصة بما فوق الطبيعة والتي تساعد ثقافة الشخص على أن يتوقع حدوثها. وهذا يشبه الى حد كبير ذلك الانسان الذي تجري عليه تجارب التحليل النفسى ألحديث ، فانا نراه يقص بأمانة أحلاما فرويدية اذا كان القائم بالتحليل النفسي ممن يتبعون مدرسة فرويد ، وأحلاما يونجية اذا كان المحلل النفسي من مدرسة يونج.

ولو صرفنا النظر عن موضوع أصل النسك فانه منذ الوقت الذي بدأ فيه النسك الهندى يظهر في التاريخ كان القيام بأشياء قاسية شديدة يحمل في ثناياه التحدى ضد القوى التي فوق الطبيعة . وكان الناسك يصوم ، وكان صومه في الواقع تحديا للمعبودات لأن ذلك يزيد من قواه الروحانية . وفي أسطورة من أقدم الأساطير ، نقرأ عن ناسك استطاع أن يقوم بالكثير من كفارات التوبة حتى أصبح له من القوة ما جعله يجبر المعبودات على طاعته . وعندما تقدمت الآراء الخاصة بوحدة الوجود ، أي وحدة الله والكائنات ، تضاءلت

هذه الفكرة وحلت محلها فكرة أخرى اتجهت فيها أعمال النسك نحو اخضاع الجسد ليتحرر العقل ، ويتحرر ذلك الكيان الأساسى الذى يطلق عليه الأوروبيون اسم الروح ، يتحرر من تلك التضييقات التي يفرضها الجسد ، ولا يمكننا أن نذكر على وجه التحديد الوقت التي حدثت فيه تلك التغييرات ، ولكن خلال الألف عام الأخيرة على الأقل كان الهدف الأساسى لملنسك الهندى هو معاونة الروح في محاولتها الوصول الى الاتحاد مع السرمدية التي لا نهاية لها ، وأن تمر بحالات الاستغراق والنشوة الروحية التي تدرك أثناءها معنى هذا الكون .

كان الناسك يصل الى هدفه بعد عدة مراحل: أولاها قطع الصلة بكل ما يربطه بالدنيا بما في ذلك ما يربطه بعائلته أو ثروته ، والاعتزال في مكان بعيد في الغابة حيث يتفرغ للتأمل ، ولتمرينات رياضية مختلفة تستهدف حصوله على السيطرة التامة على جسمه ، ويعنى فيها عناية كبيرة بالتنفس وأوضاع الجسم . ونظرا لوجود اهتمام شعبى متزايد بهذا الأمر ، فان نساكا كثيرين استطاعوا ، بكل تأكيد ، أن يتحكموا في مراكز الأعصاب تحكما يدعو الى الدهشة . وأدهشت الأعاجيب التي كانت تحدث من جراء ذلك العوام من الناس ، وساعدت النساك دون شك على ملء آنية الطعام التي يحملونها للاستجداء ، ولكن هذا التمرين لم يكن هدفا في حد ذاته فان الغرض منه هو منع الجسد من أن يتطفل على وجوه نشاط العقل والروح .

وبعد أن تتم السيطرة على الجسد تبدأ الخطوة الثانية وهى السيطرة على العقل ويصل الانسان اليها عندما يتمكن من أن يخلى عقله اخلاء تاما من القناعة المتعمدة ، ويسيطر على سسير التفكير ، وبهذا يحرر الروح ويعدها لخوض تجربة أعمق ، وتستطيع الروح المنطلقة (المحررة) أن تمر بلحظات من الاتحاد مع الروح الدنيوية وتعود من تلك اللحظة بحكمة وقوة علويتين (فوق طبيعة البشر) . فاذا كان الشخص خيرا محسنا احسانا كافيا فيمكنه أن يعطى جزءا من قدرته ومعرفته الرفيعة الى أولئك الذين لم يمروا بتلك

التجارب ، وبهذا يعين الـ « كرما » التي لديهم على ارتقائها وتطورها . وحتى اذا لم يعطهم أى ارشاد أو تعليم فان القوة والفائدة الروحانية يمكن أن ينالهما الناس اذا لمسوه ، ولهذا السبب فان الشخص التقى الذى يملأ له اناء طمامه يحصل بذلك على جزائه ومكافأته .

ومهما كان رد الفعل الذي ينتاب المفكر الغربي الذي يساوره التشكك في هذه الآراء ، فانه يجب أن يعترف بقيمة النسك الهندي في النظام الاجتماعي. فالكتب المقدسة التي تم تأليفها حوالي بداية العصر التاريخي تقول بأن حياة النسك كانت مفتوحة أمام أعضاء الطبقات الثلاث التي تحتل أعلى مكانة ، لكنها كانت محرمة على طبقة السودرا وعلى طبقة المنبوذين بطبيعة الحال. كان هذا النظام يهيىء مخرجا للذين لم يحالفهم التوفيق في الحياة ، ويؤدى ما أداه نظام الجماعات الدينية في العصور الوسطى الذي كان يقبل عليه أولئك الذين يؤمنون بالآراء الصوفية الغامضة ، والذين لم يقدروا على مجابهة متاعب الحياة الدنيوية . ولم تقتصر حياة النسك على الباحث في الروحانيات بل شملت الأمير الذي تعب من منصبه ، والزوج الذي لم يعد يطيق معاشرة زوجته ، أو التاجــر الذي يلاحقه دائنــوه ، فان أي واحد من هؤلاء كان باستطاعته أن ينضم الى صفوف الرجال المقدسين. كان يذهب الى الغابة ويعتزل الناس ، ويحيا حياة بسيطة طاهرة ، وفأكثر الأحيان كان يتتلمذ على أحد الرجال المقدسين ذوى الشهرة ، فيعمل خادما له ويتلقى في مقابل ذلك ارشاداته . وفي بعض الأماكن أقامت جماعات من المتوحدين الذين كانوا يقضون الوقت في مناقشات فلسفية وفي دراسات للآداب المقدسة ، وفي التأمل. وخلال العصر التاريخي المبكر كان كثير من هذه الآداب ما زال ينقل عن طريق التلقين الشفهي ، وكان يتحتم معرفته وحفظه بطريق الصم حفظا غيبا .

ومنذ بداية العصر التاريخي كان يوجد تفريق واضح بين البراهمانيين والنساك. فالبراهمانيون يستطيعون أن يصبحوا نساكا ، ولكن أكثرهم لم يفعل

ذلك: كان البراهمانيون مهرة فيما يتعلق بما فوق الطبيعة ، وكانوا كهنة محترفين يعرفون الطقوس المعقدة الطويلة التي تتطلبها الديانة الهندوسية: وفي خارج نطاق واجباتهم الدينية كانوا يحيون حياة عادية اللهم الاتلك الحدود التي تفرضها عليهم تعليمات طبقتهم: كان كثيرون منهم يحبون الحصول على الثروة أو السيطرة الاجتماعية ، ومن الأمور الواضحة أنه خلال المصر التاريخي المبكر كانوا يستهدفون تقوية سلطانهم دائما في شهمالي الهند، ومحاولة اجتذاب أفراد القبائل الأصلية الى اعتناق الديانة الهندوسية .

وكان ازدياد ادعاءات البراهمانيين ، وازدياد الطقوس الطويلة التي تكلف الكثير من المال ، والتي لا يستطيع أن يقوم بها سواهم ، سببا في قيام ثورات دينية ضدهم في القرن السادس قبل الميلاد ، دعا اليها زعيمان عظيمان وهما « الجواتاما بوذا » و « قارذامانا ماهاڤيرا » مؤسس الديانة الجينية . ولد كل من هذين الزعيمين من طبقة الكشاتريا ، وأصبح كل منهما ناسكا مؤمنا بعقيدة التناسخ والكرما دون أن ينكر منها شيئا ، ومع ذلك كانت تعاليم كل منهما موجهة ضد الطقوس البراهمانية . وما زال بعض أتباع الچينية يعيشون حتى الآن في الهند كطائفة قليلة العدد يمتازون باتباعهم طقوسا معقدة ، ويراعون مراعاة تامة دقيقة عدم قتل أى روح فى أى صورة من الصور . يقوم الكاهن الجيني عند أداء عمله بكنس الطريق أمامه بمكنسة ليزيل ما عساه أن يكون فيه من حشرات حتى لا يطأها بقدميه ، ولا يشرب ماء في مكان مظلم حتى لا يبتلع أى شيء حي يمكن أن يكون في ذلك الماء حتى لا يتسبب في قتله . ولكن أهم اعتقاد في مذهبهم هو مراعاتهم التامة لمبدأ « أهميسا » أي عدم الايذاء ، وهو نوع من « عدم المقاومة » في جميع الحالات ، وكان المهاتما غاندى قبل موته - بالرغم من أنه كان من غير الچينيين - متأثرا بالعقيدة الجينية .

وبالرغم من أن المبشرين الچينيين استطاعوا أن يضموا الكثيرين في جنوبي

الهند الى عقيدتهم ، فان هذه الديانة لم يقدر لها الانتشار فى أى وقت من الأوقات خارج شبه الجزيرة الهندية ، أما الديانة البوذية فقد كانت وما زالت قوة فى العالم مدى ألفى سنة ، ولهذا السبب سنفرد لها فصلا خاصا .

سبق أن ذكرنا أن الوثائق المكتوبة التي وصلت الينا من جنوبي الهند لا ترجع الى أبعد من بداية العصر المسيحى ، بل ان المعلومات التى من ذلك العصر لا يمكن أن نقول عنها انها معلومات كافية . فمن المرجح أن الحضارة المادية ونظم الحياة في القرية في فجر التاريخ كانت كمثيلاتها في شمال الهند، شبيهة جدا بالأوضاع الحالية . كان نظامهم السائد نظاما زراعيا ، ولكن مع معرفتهم معرفة لا بأس بها لجميع فروع الصناعات الفنية اللازمة لهم . كانوا يزرعون كل محصولات جنوب شرقى آسيا ، وأهم هذه المحصولات هو الرز المروى . وكانوا يستخدمون المحراث الذي يجره الجاموس في اعداد حقول الرز ، ونظرا لأنهم كانوا يحلبون هذا الحيوان ، وهذا يخالف ما كان يتبعه سكان جنوب شرقى آسيا مع حيواناتهم ، فمن المحتمل أنهم كانوا يتبعون في ذلك التقاليد التي كانت متبعة بين الشعوب التي تسكن بعيدا في الشمال. أما تقدمهم في النواحي الفنية فقد كان مساويا ، ان لم يكن متفوقا ، على شمالي الهند في العصر نفسه . كانت المباني الهامة تشيد من الخشب وكانت متسعة ومتقنة التشييد ، وكانت صناعات المعادن متقدمة الى حــد كبير ؛ اذ كانوا يصنعون أدوات من الصلب ويصدرونها الى غيرهم . وتنمثل رغبتهم وحرصهم على حب الجمال في صنع الأدوات العاجية ، وحفر الخشب ، والنسيج ، وصناعات المعادن واذا حكمنا على أعمالهم الفنية في تلك المنطقة فيما تلا ذلك من عصور عند انتشار البوذية ، فقد كان فنهم فنا طبيعيا يمتاز بقوة وحركة غير عاديتين .

أما فيما يختص بالتنظيم الاجتماعي وبالديانة في جنوبي الهند فهما أكثر صعوبة لو أردنا معرفة ما كانا عليه اذ ذاك. وخير مرجع معاصر يمكننا الاعتماد

عليه هو التولكاپيام (Tolkapplyam) وهو مؤلف باللغة التاميلية (Tamil) يرجم تاريخه الى بداية العصر المسيحي. فبالرغم من أن هذا المؤلف مؤلف خاص بدراسة النحو ففيه فصول عن موضوعات أخرى . ولا تقتصر فائدته على ما ورد فيه من معلومات ، بل ان دراسته من ناحية اللغة التي كتب بها أمر هام جدا لأن اللغة التاميلية كانت على ما يظهر أنقى اللغات الدراڤيدية التي استخدمها سكان جنوبي الهند، وأكثر اللغات انتشارا في ذلك العصر، وما ورد في ذلك المؤلف من معلومات تعبر عن الكثير مما كان في جنوبي الهند. ومن دراسة هذا المؤلف نعرف أن الشعب الذي كان يستخدم اللغة التاميلية كان مقسما في الأصل التي أربعة أقسام: سكان الجبل ، وسكان الغابة ، وسكان السهل ، وسكان شاطىء البحر . كان لكل قسم رئيسه ، وكان لكل قسم وجوه نشاط محددة يتخصص فيها على أساس الموارد التي تنتجها البيئة الطبيعية للمنطقة . كان كل قسم يتكون من جماعات عدة لكل منها عمل يتخصص فيه أفراده ، وكانوا يتبادلون منتجاتهم مع منتجات الجساعات أو الأقسام الأخرى . فمثلا كان سكان الشاطىء ينقسمون الى صيادى أسماك ، وصیادی لؤلؤ ، وبحارة سفن ، وصناع سفن ، وعسال ملح ، وصناع أصدافٍ ، وتجار يتماملون مع البلاد الأخرى. ولا تدلنا المصادر المبكرة عما اذا كانت حرف هذه الجماعات الفرعية وراثية أو لم تكن كذلك ، ولكن اذا حكمنا بما نعرف أنه كان سائدا في معظم الحضارات المماثلة في جنوب شرقى آسيا

وتدعم الدراسات الاتنولوجية الحديثة فى جنوبى الهند هذه النتيجة . فمثل هذا التقسيم للحرف ما زال يوجد بين قبائل تلال نيلجيرى وهى قبائل غير هندوسية . تسكن احدى هضاب تلال نيلجيرى ثلاث قبائل وهى «تودا» (Toda) و « كوتا » (Kota) و « بدجا » (Badaga) فقبيلة التودا تربى وتحلب الجاموس وتعد السمن وهو مادة لا غنى عنها ، ليس فى تغذية القبائل

يمكننا القول أنه من المحتمل جدا انها كانت وراثية .

الأخرى وحسب ، بل وفي القيام بشعائرهم الدينية ، وهم لا يزاولون أي عمل اقتصادى آخر ، أما الكوتا فهم مزارعون يزرعون الحبوب ، أما البدجا فصناع وتجار وموسيقيون أيضا. وتعتمد القبائل الثلاث بعضها على بعض اعتمادا تاما في الناحية الاقتصادية ، ويسكن بعضها مع بعض في المنطقة ذاتها ويسود بينها الوئام والصفاء. ولكن في الوقت ذاته يعيشون في قرى مختلفة ، وكل قبيلة منها يتزاوج أفرادها فيما بينهم ، ولكل قبيلة ملابسها التي يتميز بها أفرادها ، ولهم طريقتهم الخاصة في الحياة المنزلية وتنظيمهم الاجتماعي والديانة . وهنالك أشياء محرمة (طابو) يتحتم عليهم مراعاتها وهي تسيطر على الملاقة بين أفراد القبائل المختلفة ، وعلى الأخص في المسائل المتعلقة بالأشياء التي تخصص فيها وأتقنها أبناء القبيلة . فمثلا يحرم على أى غريب أن يدخل أى دار حلب للجاموس فى قبيلة التودا عند خض اللبن . وبالرغم فى أن القبيلتين الأخريين تعترفان للتودا بأن أفرادهما هم المالكون الأصليون للمنطقة ويكنون لهم شيئا من الاحترام ، لهذا السبب فان النظام السائد بين الجميع ينقصه ذلك الترتيب الطبقى الصريح بين السكان ، الذى يمتاز به نظام الطبقات الهندى . كما أن المراسيم الدينية لكل قبيلة من هذه القبائل يؤديه أعضاء من القبيلة نفسها.

وليس في استطاعتنا معرفة ما كان عليه التنظيم الاجتماعي الداخلي للقبائل العديدة التي عاشت في جنوبي الهند في مستهل العصر التاريخي ولكن رغم ذلك فان الدراسات الحديثة للشعوب الدراڤيدية ، وهم من سلالة السكان الأصليين القدماء ، ترينا أنه من المحتمل أن تنظيمهم الاجتماعي كان شبيها بالتنظيم الميلانيزي بما فيه من عشائر ، وفروع العشائر ، واشتراطات الزواج المعقدة . والحقيقة الواضحة الوحيدة أن معظم — ان لم يكن جميع — الجماعات التي تستخدم اللغة التاميلية كانت في الأصل تنتسب الى الأم ، بل كانوا في بعض الحالات ينتسبون الى الأم التي يجب أن تكون من الجماعة

المحلية نفسها . وكان مركز المرأة ، بل وما زال ، مركزا ممتازا الى حد كبير ، وللنساء المتقدمات في السن السيطرة على الشئون العائلية . وبالرغم من أن اعتناقهم للهندوسية أدخل الى مجتمعهم الكثير من الأمور الخاصة بالحياة الجنسية لدى الهندوس ومنها الاصرار الشديد على بكارة الفتاة عند الزواج ، واستمرار عفة المرأة بعد الزواج ، فان ما لدينا من معلومات عن بعض القبائل الأصلية التي ما زالت باقية حتى الآن ، وبعض العادات التقليدية بينهم ، توحى الى حد كبير أن بعض النظم الخاصة بالتجربة الجنسية قبل الزواج ، وهي عادة منتشرة في جنوب شرقي آسيا ، كانت موجودة بين تلك القبائل في العصور المبكرة . وكان زواج المرأة بأكثر من رجل أمرا مقبولاً على الأرجح بين بعض القبائل مثل التودا ، ولكنا لا نجزم بأنها كانت عادة منتشرة بين الجميع لأن هذا الأمر مرتبط دائما بقلة الموارد الطبيعية ، وقلة عدد السكان نظرا لعادة وأد البنات وهن في سن الطفولة . ومما يدل على اهتمامهم بموضوع الجنس اهتماما كبيرا أنه من بين دواوين الشعر الثمانية وهي التي أبقي عليها الزمن باللغة التاميلية ، نرى أن ثلاثة منها يحتوى كل واحد فيها على أربعمائة قصيدة في الغزل.

ولا تمدنا الآداب القديمة بوصف يحدد واجبات وظيفة زعماء الأقسام، ومدى التنظيم السياسى لتلك الأقسام. كانت الممالك التى تجمع أكثر من قسم واحد موجودة منذ أقدم العصور، وكانت الأعمال الرئيسية فى هذه الممالك هى اعلان الحرب وجمع الضرائب. ويكاد التاريخ المبكر لجنوبى الهند أن يكون سلسلة حروب متصلة الحلقات، ومما يدعو الى الدهشة أن يظل مثل ذلك المستوى الحضارى مستمرا فى مثل هذه الظروف. ولكن تلك الحروب كان يقوم بها، على ما يظهر، جنود محترفون وان عامة الشعب كانوا يستبدلون سيدا بآخر دون أن يؤثر ذلك كثيرا فى حياتهم الخاصة.

ولاحظ « ميجاستينس » أهمية الجمعيات الشعبية في ادارة جنوبي الهند.

ففي أيامه ، وفي الأيام التي تلتها ، كان هناك تقليد ديموقراطي قوى في ادارة البلاد . وبالرغم من أن ذلك يظهر لأول وهلة انه يتعارض مع وجود ذلك العدد الكبير من الأسرات الميالة الى الحرب التي تعاقبت في حكم البلاد فقد كان الملوك أنفسهم يترددون في البت في أي أمر خطير دون استشارة ممشلي الشعب. كانت الوحدات الاجتماعية بين الطبقات الدنيا من الشعب من كل حجم ونوع تحكمها لجان تمثل جمعيات ينتخبها أفراد تلك الجماعات ، ولم يكن هذا التقليد مقصورا على القرى والنواحي ، بل كان ساريا أيضا بين تقابات التجار والجماعات الدينية . ومن الأمور الطريفة ما نعرفه عن طريقة تنظيم القرية حسب الوثائق المكتوبة التي وصلتنا من القرن العاشر الميلادي ، وقد قالوا عنه اذ ذاك انه كان تنظيما قديما . كانت القرية تعتبر الأرض الخاصة بها شركة بينها ، وكان استخدام تلك الأرض ، بل وسير الحياة في القرية ، تديرها جمعية يختار أعضاؤها عن طريق القرعة ، ومدة صلاحيتها عام واحد . كان لجميع الأفراد الذين لهم حقوق الملكية في القرية ، بما فيهم النساء ، الحق فى أن يكونوا أعضاء فى تلك الجمعية اذا كانوا من ذوى الأخـــلاق القوية ولديهم بعض المعرفة بالتعاليم الهندوسية . وكانت الجمعية تختار من بين أعضائها من يشرف على الحدائق أو على استخدام الأرض ، أو الرى ، أو مساحة الأراضي ، أو الاشراف على خدم القرية ، أو اقامة العدل ، أو جمم ودفع الضرائب ، أو الاشراف على المعابد ، أو على الصدقات .

ومن المستحيل أن نعرف على وجه اليقين ما كانت عليه ديانة جنوبى الهند قبل عهد البراهمانيين. فمن الأشياء التى نستطيع أن نقول انها تكاد أن تكون مؤكدة انه كانت توجد معبودات عدة فى كل قبيلة. كان بعضها متماثلا مع بعض الظواهر الطبيعية بينما كان بعضها الآخر ، على ما يظهر ، هم بعض الأجداد المؤلهين أو بعض الأبطال الوطنيين. وكانوا يعرفون دون ريب عبادة الثعبان كما يلوح أنهم كانوا يكرمون بعض الحيوانات الأخرى. ولا يكاد

يوجد شك فى أن الديانة السابقة لعصر البراهمانيين كانت تعنى عناية كبرى بعبادة عضو التناسل وعمل طقوس من أنواع مختلفة لأجل الاخصاب ، وربما كان القيام ببعض الأعمال السحرية أكثر أهمية بين سكان-جنوبي الهند مما كان في شمالها.

ولم تستطع الامبراطوريات الشمالية ، التي كانت في العصر السابق على العصر الاسلامي ، أن تمد سلطانها على الجنوب الذي كان يسكنه الدراڤيديون وكان « اسوكا » الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد هو الملك الوحيد الذي غزا منطقة الدكن ، ولكن من خلفوه على العرش تراجعوا نحو الشمال. وترتب على ذلك أن الدراڤيديين لم يضطروا فى يوم من الأيام لقبول حضارة الهندو ـــ أوروبيين الذين كانوا فى الشمال ، وان ما أخذوه منها اختاروه هم بأنفسهم . وقد ساعد على قبولهم للبوذية ، ثم الهندوسية المتأخرة ، ما احتوته هاتان الديانتان من مبادىء كثيرة غير آرية الأصل ، أخذوها على ما يظهر من حضارات دراڤيدية شمالية . تقول أساطير شمالي الهند ان أقدم البراهمانيين الذين زاروا جنوبي الهند ذهبوا الى هناك حوالي عام ٨٠٠ ق . م وانه ما وافي القرن الثاني والقرن الثالث ق .م حتى كان عدد كبير من المبشرين البراهمانيين والچينيين يؤدون عملهم في المنطقة . ويلوح أن الدراڤيديين رحبوا بالديانات الثلاث لاهتمامهم بالقوى السحرية التي ادعتها لنفسها كل واحدة من تلك الديانات ، فاعتنق الجنوب كله الديانات الشمالية ، اللهم الا بعض القبائل المتأخرة التي تعيش بين الجبال. وربما كانت عملية التغلغل الحضاري الشمالي شبيهة بما حدث في اندونيسيا في عصر الاحق لذلك العصر . فنحن نعلم أن أمراء من الهنود ، وبعض الكهنة البراهمانيين ، وطدوا مراكزهم بين القبائل الوطنية بفضل ما كانوا يملكونه من حضارة متفوقة ، وان أولئك الأمراء والبراهمانيين وثقوا صلاتهم مع العائلات الحاكمة بالمصاهرة ، أو بقيامهم ببعض المناصب المربحة مثل وظيفة رئيس الوزراء ، أو كوسطاء بين المعتنقين الجدد للديانة والآلهة الهندوسية ومما يستحق الذكر أنه ما وافى القرنان الثالث والرابع الميلاديان حتى كان هناك ملوك براهمانيون فى جنوب الهند ويرجح أن اقبالهم على الديانات الشمالية كان اقبالا حماسيا ، وان الملوك كانوا يغدقون على المبشرين كثيرا من الهدايا ، وأن عددا من أهم المبانى الأثرية التى شيدت أثناء العصر البوذى فى الهند توجد فى الجنوب ، حيث نرى حتى الآن كثيرا من الاستوبات التى يرجع تاريخها الى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد .

الفصية لالرابع والبثلاثون

البــوذية

ان أهم ما قدمته الهند لمدنية العالم هي الديانة البوذية التي كادت أن تختفي نهائيا في موطنها الأصلى ، ولكنها أصبحت احدى الديانات الرئيسية فى الدنيا. وتحتوى هذه الديانة على فرق لا يستطيع الانسان حصرها ، ويبلغ عدد أتباعها نصف عدد جميع الطوائف المسيحية مجتمعة. ولا تقتصر أهمية البوذية على أنها دين من الأديان ، ولكن أهميتها الكبرى هي أنها تعبير صادق عن الفلسفة الهندية الأصلية . كان « سيدذارثا » (Siddhartha) الذي يعرف أيضا باسم « الجواتاما » (Guatama) وباسم « ساكياموني » (Sakeyamuni) وباسم بوذا شخصية تاريخية . ولد عام ٥٦٣ ق . م ومات عام ٤٨٣ أو عام ٤٨٦ ق . م . وربما سببت هذه الأسماء الكثيرة شيئا من الارتباك للباحث الأجنبي ، ولكن اسم « سيدذارثا » كان اسمه أيام طفولته ، واسم جواتاما اسمه الخاص بالعثبيرة التي ينتمي اليها ، وساكياموني ليس الا لقبه كناسك ، أما اسم البوذا فهو التسمية الالهية له . وقد ظل بوذا حيا حتى علم كثيرا من تلاميذه ، وأشرف على تنظيم الديانة التي أسسها . ومن المرجح أن يكون ما نسب اليه من أقوال ، وما حدث له فى حياته من حوادث كان صحيحا رغم أنه مر نحو قرن من الزمان ، على أقل تقدير ، والناس يتناقلون هذه الأقوال والقصص عن طريق الرواية الشفهية . وعلى أي حال ، فقد حدث لبوذا ما حدث لغيره من مؤسسى الديانات الكبيرة ، اذ أصبحت الأساطير التي حيكت حوله أهم شأنا من الحقائق.

وهناك عقيدة هندوسية قديمة تقول بأن روح الاله تعل في أحد الأشخاص عندما يظهر شركبير يتهدد العالم فيأتئ هذا الشخص لينقذه وذلك لأن الاله « قشنو » ، وهو الكلف بالمحافظة على العالم ، كان له « اڤاتارات » (Avatar) متعددة . لم يكن « ساكياموني » - حسب البوذية الأصلية - الا واحدا من سلسلة من الـ « بوذا » الذين ظهروا في أزمنة مختلفة في الماضي والذين سيظهرون في المستقبل. لقد مرت به تجارب لا حصر لها بسبب تناسخ الروح وهي مدونة في الـ « جاتكا » وهي مجموعة قصص شعبية تأخذ بلب قارئها . وبعد أن وصل الى أعلى درجات التطور الروحاني ، وهي درجة الـ «بوذيساتڤا» (Bodhisattva) استراح مع الآلهة في أعلى السموات ، ولكن عطفه على الجنس الانساني جعله يأخذ على عاتقه عبء آخر تناسخ روحي ، فدعا جميع الآلهة وعلمهم قانون البوذية ، وقدم اليهم خليفته « البوذيساتها مايتريا » الذي يعتقد البوذيون في العالم أن وقت ظهوره قد اقترب. وبحث « الجواتاما » عن أم تلائمه لكي يولد مرة أخرى واختار « مايا » (Maya) زوجة أحد حكام اله « ساكياس » في نيبال على الحدود الشمالية الشرقية للهند. وعندما أعلن قراره أظهرت الدنيا ابتهاجها فحطت غمامة من الطيور المغردة فوق القصر ، وأزهرت الأشجار في غير أوقاتها ، واعتكفت « مايا » في حجرات القصر الخاصة بالنساء حيث ظهر لها البوذيساتفا في صورة فيل أبيض لونه كاللؤلؤ له ستة أنياب حمراء ، وهو بكل تأكيد زائر أبهى مظهرا من الملاك الذي أتى للبشارة في الديانة المسيحية . فلما جاء وقت الولادة ذهبت مايا الى حديقة « لمبيني » (Lumbini) خارج بوابة المدينة وولد بوذا من جنبها الأيمن وهي واقفة على قدميها ، وتلقف الالهان « اندرا » (Indra) و « براهما » الطفل الوليد على ذراعيهما وأرسل ملكا الناجا (Naga) ، وهما الهان من آلهــة الهند الأصلية على صورة الثعبان ، فأرسلا جدولين من الماء الحار والماء البارد

لأجل غسل الطفل. وفى لحظة ولادته خطا السيذارثا سبع خطوات نحو كل جهة من الجهات الأربع ، وبذلك استولى على الدنيا كلها.

ووصلت الأم والطفل الى القصر فى عربة يجرها الملائكة ، وماتت الأم من شدة فرحها بعد ولادة الطفل بأيام سبعة ، ثم ولدت فى الحال مرة أخرى فى السماء بين الآلهة . وقامت خالة « السيذاوثا » بتربيته ، وكانت تسمى «مهاپراچاپاتى» (Mahaprajapati) . وتروى الأسطورة أن الطفل ولد وفيه علامات تدل على التوفيق وحسن الطالع ، فكانت أصابعه متصلة بغشاء جلدى بينها ، وفى أعلى رأسه نتوء ، وله أذنان كبيرتان تمتدان الى أسفل ، وعلى أخمص قدميه علامة ساقية « القانون » . وعندما رآه أحد كبار الحكماء تنبأ له بأنه اما أن يصبح ملك الدنيا أو مخلص الجنس البشرى . وعندما ذهب الطفل لأول مرة الى المعبد خرت تماثيل الآلهة ساجدة أمامه ، وكان يناقش الحكماء ومن كانوا يقومون بتعليمه فيدهشون لحكمته . وعندما كان فى الثالث عشرة أو الرابعة عشرة من عمره ، وجلس لأول مرة يتأمل تحت ظل احدى الأشجار ، بقى ظل الشمس ثابتا فى مكانه ليحميه حتى لا تنقطع تأملاته .

ولما بلغ الحلم اختار له والده الملك فتاة لتصبح زوجة له ، ولكن والدها شك فى أن ذلك الشاب الحالم الجميل الصورة يستطيع أن يصبح زوجا قديرا وحاكما لشعبه . ولهذا السبب التجأ الى حيلة ، طالما وردت فى جميع أساطير العالم ، وهى التنافس بين الخطاب ، فقال الوالد بأنه سيزوج ابنته للشاب الذى يستطيع أن يشد أقوى الأقواس ويرسل سهمه الى أبعد مسافة . وتفوق «السيذارانا» بطبيعة الحال وأرسل سهمه الى مسافة أبعد من جميع منافسيه وتزوج بعد ذلك « يوسوذارا » (Yosodhara) وعددا من الزوجات الثانويات واللاتى أتين معها . وعلى أى حال ، فان ملذات الحريم لم تنجح فى ارضائه ، واخذ يتأمل فيما يحتويه هذا الكون من أحزان وشرور . وحدث فى يوم من الأيام أنه قابل شيخا طاعنا فى السن ، ورجلا مريضا ، وجثة ميت ، فأكد له

سائق عربته أن هذه الأشياء الثلاثة هي مصير كل انسان ، فكان ذلك الحادث سببا فى وضع حد لما كان يحس به من عدم الاطمئنان. ذهب الى أبيه ورجاه أن يسمح له بأن يصبح ناسكا ، فرفض أبوه رجاءه وسعى التحويل أفكاره الى مباهج ومسرات جديدة . وولد له ابن ، واحتفوا بذلك باقامة احتفالات كبيرة ، ولكن السيذارثا قال عندما أبلغوه مولد الطفل « هذه رابطة أخرى يجب فصمها » . وفي ليلة الاحتفال فر من القصر ومعه سائق عربته «تشانذاكا» (Chaudhaka) وحمل الآلهة حوافر جياده في أيديها حتى لا يسمع الحراس صوتها عندما تمر بهم . وعند حافة الغابة ودع السيذارثا جياده وسائق عربته ، ثم قص شعره الطويل وتبادل ثيابه مع أول فلاح قابله ، وقد كان بطبيعة الحال أحد الآلهة في ثياب التخفى. وزار جماعات متعددة من القديسين الناسكين وفى نهاية المطاف أصبح تلميذا لـ « أرادا كلما (Arada Kalma) » ، وبعد أن قام بما تفرضه التعاليم المعتادة في التأمل والتمرينات على النسك أصبح قديسا. وأخيرا استقر في « بيهار » (Bihar) الجنوبية التي اختارها لجمال مناظرها الطبيعية ، وجمع حوله جماعة مكونة من خمسة من تلاميذه ، وقام بأعمال من التقشف الشديدة وانتشر صيته في كل مكان.

وزاد تقشف السيذاراً زيادة كبيرة حتى خشى الآلهة على حياته ، وأرسلوا أمه من السماء لترجوه أن يكف عنه . وأخيرا استقر رأيه على أنه لن يصل الى ما ينشده عن طريق التقشف فأخذ يأكل ويستحم ، وأعلن عن قراره فى العدول عن الصوم والقيام بأعمال اليوجا ، فتركه تلاميذه الخمسة فى الحال . وأخذ يتجول فترة من الزمن من مكان الى مكان ، وأخيرا جلس فى مكان يسمى « بوذ — جايا » (Bodh-Gaya) ، تحت شجرة من أشجار التين الهندى (Pipal) ودخل فى دور تأمل رفيع كشف له طريق الخلاص . وأدرك « مارا » (Mara) ملك الشياطين ما تتعرض له مملكته على الأرض من خطر ، وحاول أن يصرفه عن غرضه فأرسل عليه الوحوش لاخافته ولكنه كان

قد أصبح الـ « بوذا » فتجاهل وجودها . وعاد « مارا » فأرسل اليه بناته الجميلات ليقدمن له كل ملذات الجسد ، ولكن بوذا تجاهلهن أيضا . وتكشفت له الحقيقة وهي أن جذور كل الآلام تكمن في الرغبة التي تنبع من الأفكار الخاطئة في النفس ، فاذ محيت الرغبة زال الحزن والألم .

وظل بوذا فى مكانه تحت شجرة التين الهندى أربعة أسابيع كاملة بعد أن تكشفت له الحقيقة ، وفى الأسبوع الخامس هبت عاصفة شديدة ، ولكن ملك الناجا أتى على صورة ثعبان كوبرا عظيم الحجم ، ونشر درقته فوق «المستنير» ليحميه من المطر . ولم يبق بعد ذلك الا الواجب الأخير وهو نشر مذهبه فى العالم ، وعندما طلب منه « اندرا » و « براهما » أن يفعل ذلك شرع فى تأدية رسالته .

ومنذ هذه اللحظة أصبحت حياة بوذا ، كما ذكرتها الأساطير ، سلسلة من المعجزات. فاذا تركنا المعجزات جانبا وبحثنا عن الحقيقة الصريحة نجد أنه عاش أربعين سنة بعد استنارته ، وأنه جابه المشاكل الكثيرة التي صادفته أثناء تأسيس دينه الجديد بحكمة وواقعية . وبالرغم من أنه قوبل في بدء دعوته ببعض الشك ، بل وبالعداوة الصريحة من أفراد قلائل ، فانه لم يتعرض أبدا للاضطهاد ، بل خاض بنجاح تلك التجربة المريرة في حياة أي نبي عند رجوعه الى بلده ، وتحويل أفراد عائلته هو الى دينه الجديد. كان يشترط على أتباعه الفقر والطهارة وعمل الخير ، ويطلب منهم أن يلبسوا لباسا يميزهم ، وهو الثوب الأصفر وحلق قمة الرأس. ونظمهم فى جماعات من رهبان الأديرة الذين يسيرون فى تنظيم جماعتهم على نظام مماثل لنظام الجمهوريات الصغيرة الذي كان سائدا آنذاك في شمالي الهند. وفي خلال الفصول غير المطرة كان الرهبان والراهبات ، اللاتي قبل البوذا انضمامهن الى تنظيمه الديني بعد شيء من التمنع ، يخرجون للتبشير بالدين الجديد . أما في الفصول الممطرة فكانوا يعودون الى أديرتهم ، ويقضون الوقت فى التأمل والدراسة .



بوذا الجالس ، من سرثاث

وكانت البوذية فى صورتها الأولى ، مثل الديانة المسيحية ، بسيطة وصريحة وما زال البوذيون يتذكرون الكثير مما قاله بوذا :

« يوجد أمران شاذان يجب تجنبهما . هناك حياة الملذات ، وهي وضيعة دنيئة وتتعارض مع الذكاء ولا تليق بالانسان وهي عبث باطل . وهناك حياة

التقشف وهي حياة تعسة ولا تليق بالانسان وهي عبث باطل أيضا. وظل الانسان الكامل بعيدا عن كل من هذين الأمرين المتطرفين ، ووجد سبيلا وسطا يقود الى الراحة والمعرفة والاستنارة والى النرقانا (Nirvana) وهي الملجأ الأخير. انظروا أيها الرهبان ، ها هي ذي الحقيقة المقدسة بشأن الألم . ان الولادة والشيخوخة والمرض والموت وفراق الانسان لمن يحبهم ، انها كلها الالام . انها التعطش الى اللذة ، والتعطش الى البقاء والتعطش الى ما هو فان . وها هي ذي الحقيقة عن محو الآلام . انها القضاء على تلك الشهوة بالقضاء على الرغبة » .

وقال أيضا: « ان الحسنات والمعرفة والفضيلة هي المقتنيات التي لا تزول. لأن يعمل الانسان عملا حسنا مهما قل ، أعظم من أن يقوم بأشق الأشغال. ان الانسان الكامل يصبح كمن لا وجود له اذا لم يفن تفسمه في تقم الكائنات الحية ».

« ان مذهبی هو مذهب الحنان ، وهذا ما يجعل السعداء فی الأرض يجدونه صعبا. ان طريق الخلاص مفتوح أمام الجميع. اقضوا علی شهواتكم ، ولكن اعلموا أن من يعتقد أنه يمكنه أن يهرب من شهواته باقامته فی حمی دير انما يغش نفسه . ان الحقيقة الكاملة هی العلاج الأوحد الذی يشفی من الشر » .

وخلال الأربعين السنة التي عاشها بعد استنارته كان بوذا يلقي دروسه على أتباعه ، وأوضح لهم مذهبه شيئا فشيئا . أنكر بوذا فائدة التفريق بين الطبقات ، ولم يكن ذلك في أيامه أمرا صعبا كما أصبح فيما بعد . كما أنكر مفعول الطقوس والقرابين ، وكان ذلك ضربة شديدة مسددة ضد ما كان للبراهمانيين من مركز ممتاز . ولم ينكر وجود الآلهة ولكنه قال بأنهم لا يستطيعون معونة الناس في الوصول الى هدفهم النهائي لأنهم أيضا مربوطون الى عجلة الحياة . وأهم من ذلك ، أنكر بوذا فكرة تقمص الأرواح

بالرغم من أنها كانت عقيدة متأصلة جدا في التفكير الهندى ، وبذلك أصبحت أحد الاتجاهات الفكرية الأساسية في الديانة الجديدة . بل وذهب الى أبعد من ذلك عندما أخذ يتشكك في وجود الروح ككائن مستقل قائلا انها ليست الا التراكم الكارمي للاعمال الحسنة والسيئة التي تربط الرغبة بعضها ببعض وعندما سأله أحد تلاميذه عن بدء الدنيا أجابه بأن ذلك السؤال لا ترجي فائدة من ورائه ، وبهذا أنقذ البوذية انقاذا أبديا من الصراع بين الآراء البدائية عن نظام الكون ، وبين التقدم العلمي في دراسة طبيعة هذا العالم ، وهو الأمر الذي سبب وما زال يسبب الكثير من القلق والمتاعب في الديانة المسيحية .

كان القصد من هذا الانكار هو استبعاد الخرافات ، وترك الانسان حرا لاتباع الطريق الثماني ، وأولها : الأفكار الصحيحة ، التي يظهر أنها كانت تعنى قبل كل شيء الاصرار على الصدق لأنه يمكن الوصول اليه عن طريق المنطق. أما الثاني: فهو التمنيات الصحيحة التي كان مفروضا أن تحل محل تلك الشهوات الشخصية الوضيعة التي حرمها . ومن هذه التمنيات الصحيحة العب المجرد لخدمة الآخرين ، وحب العدل ، وما ماثل ذلك . والثالث : هو الكلام الصحيح ، والرابع : الخلق الصحيح ، والخامس : الحياة الصحيحة ، والسادس: الجهد الصحيح، ويعنى بذلك التفكير المتسم بالذكاء والعمل للوصول الى الأغراض المنصوص عليها فى المذهب ، والسابع : هو الاهتمام الصحيح ، ويعنى على ما يظهر التخلص من افتخار الشخص بما عمله ، وذلك بادراكه بأن لكل شخص نقصا ، أما الثامن : وهو أقلها وضوحا فهو الطرب الصحيح ، الذي يلوح أنه يعنى السرور والفرح الذي يحصل عليه الانسان من التأمل والتفكير ، بدلا من ذلك الطرب الناشيء عن الانفماس في الملذات. ولا شك في أن هذه المبادىء كانت بسيطة ، وكانت تدعو الى الكثير من بحث كل فرد عما في داخل نفسه ، ولهذا فشلت في أن تروق للشخص العادي . ومع مضى الزمن أضيف الى البوذية كثير من الطقوس ، كما أن المنازعات المذهبية أدت الى تأسيس عدة طوائف وفرق أما التحول الى البوذية « المهيانا » (Mahayana) (العربة الكبرى) فقد بشر بها نجارجونا (Nagarjuna) في القرن الأول أو القرن الثاني بعد الميلاد . افترض مذهب « الميانا » وجود كائنات يسمى كل منها « بوذيساتها » (Bodhisatva) الذى رفض النيرقانا عن قصد ليبقى على الأرض ويساعد في الخلاص النهائي للحياة كلها. وهذا المذهب يعارض عقيدة « الهنايانا » (Hinayana) (العربة الصغرى) في الخلاص كمكافأة لما يبذله كل شخص من جهود. وقد أدى افتراض وجود عدد كبير من الآلهة الى تغييرات في موقف البوذيين تجاه بوذا نفسه . فبدلا من أن يكون شخصا مستنيرا أصبح الها ، كما يفهم الغربيون هذا التعبير . وتسبب المذهب الجديد ، بما فيه من امكانيات غير محدودة لاضافات دينية وسحرية ، في نشر البوذية في أرجاء الهند والتبت ، ومن التبت وصلت الى الصين واليابان. أما مذاهب « الهنايانا » ، وكانت مذاهب مبسطة نسبيا ، وتسير على تعاليم البوذية الأصلية الى حد كبير ، فقد بقيت فى جزيرة سيلان ، وفى بعض مناطق جنوبى - شرق آسيا ، وحتى هذه المذاهب أيضا أصبحت ملأى بالطقوس الدينية المتشعبة

وتدين البوذية فى وصولها الى مرتبة الديانة العالمية بالشىء الكثير لما أظهره بعض الملوك نحوها من عطف. ففى القرن الثالث قبل الميلاد اعتنق «أسوكا» هذه الديانة ، وكان امبراطورا للأسرة الماورية ، وأول امبراطور يمد سلطانه على جزء كبير من جنوبى وشمالى الهند. ارتاع «أسوكا» لما جلبته الحروب من آلام ، فأوقف غزواته مختارا ، وخصص سنواته الأخيرة للاعمال النافعة والدعوة الى الدين ، وأمر بكتابة مبادىء الدين الجديد على أعمدة تقام فوق صخور الجبال فى جميع أرجاء مملكته كمراسيم ملكية صادرة منه. وبعد ذلك بثلاثة قرون اعتنق هذه الديانة ملوك الكوشان الذين حكموا فى شمالى غربى الهند ، ويظهر أن مؤسسى هذه الأسرة كانوا من قبائل الترك الرحل الذين غزوا

الهند آتين من مناطق الاستپس فى طرق الغزو المتبعة منذ آلاف السنين ، ولكنهم كانوا يحبون الظهور بمظهر المتمدينين فدعا «كانيشكا» (Kanishka) أعظم ملوكهم مجمعا دينيا لتوضيح المذهب البوذى ، كمحاولة لازالة ما ظهر من خلافات.

ويرجع الفضل فى دخول البوذية الى التبت الى ملكة تقية من أصل هندى ، أما فى اليابان فقد وصل اليها المبشرون الأول بدعوة ملكية . ومع كل ، فان أقوى الأسلحة البوذية عند غزوها لآسيا كانت المذاهب الدينية والآراء الفلسفية للبوذيين ، وما لديهم من نظام المبشرين المتسولين . ولم تكن جامعة « نالاندا » الكبيرة (Nalanda) فى بيهار الجنوبية التى كان يقيم فيها ما يقرب من عشرة آلاف راهب مدرسة يتعلم فيها الرهبان وحسب ، ولكنها كانت المكان الذى يتوق الى الوصول اليه الزوار الأتقياء من البلاد الأخرى ، كانت المكان الذى يتوق الى الوصول اليه الزوار الأتقياء من البلاد الأخرى ، وقد درس فيها كل من الحاجين الصينيين الشهيرين شوان تسانج (Hsian Tsang) و « اى تشنج » (Ching) فى القرن السابع ، وكتب كل منهما أوصافا شائقة لذلك المركز العلمى الذى ما زالت أطلاله المترامية الأطراف باقية حتى اليوم.

أما الاعتقادات المفككة القائلة بأن لكل شيء في الطبيعة روحا ، وهي الاعتقادات التي كانت منتشرة بين بعض سكان آسيا ، فانها لم تستطع أن تقف على الاطلاق ضد الآراء المنطقية ، والتي تتمشى مع العقل ، التي جاء بها المبشرون الهنود ، وكان للزخارف الدينية بما فيها من التماثيل والصور ، والطقوس الجميلة الوقورة التي صاحبتها ، أثر شامل بين تلك الشعوب . وحتى في الصين نفسها ، حيث ووجهت البوذية بعدد من الأفكار الفلسفية المحددة تحديدا واضحا ، فان المبادىء الميتافيزيقية ورضا الناس عن البوذية اكتسب الى هذه الديانة جزءا كبيرا من السكان خلال الفترة المضطربة التي مرت على الصين بين القرن الثاني والقرن السادس بعد الميلاد . وحدث فيما بعد ، عندما الصين بين القرن الثاني والقرن السادس بعد الميلاد . وحدث فيما بعد ، عندما

أخذت البوذية تدخل فى دور الاحتضار فى الهند ؛ أن ظهرت طوائف جديدة فى الصين بفضل الكتب السنسكريتية التى رجع بها من الهند بعض الحجاج المتحسين. وانتشر المذهب الجديد بعد ذلك من الصين الى اليابان حيث ظلت البوذية حتى اليوم فلسفة حية بين اليابانين.

كانت الهند أولى المناطق التي ظهر فيها نشاط المبشرين ، ويلوح أنهم بدأوا عملهم كنتيجة مباشرة للفلسفات الهندوسية والبوذية الناشئة. ولم يحاول المؤمن بأن لكل شيء في الطبيعة روحاً ، أو من جاء بعده من عبدة الآلهـــة المحلية أو القبلية ، لم يحاول أن يفرض على الآخرين أن يعتنقوا دينه . فقد كان يعتقد أن آلهته كانوا ذوى قوى محدودة ، وكان مدى اهتمامهم ونشاطهم محدودا أيضا ، ولهذا شعر بأنكل عابد جديد لأحد الآلهة ينقص من القوة التي فيه ويقلل من اهتمام الاله بهذا الشخص نفسه . ولم ينقض هذه الفكرة الاظهور الفكرة القائلة بأن للآلهة قوة غير محدودة وأنهم قادرون على مساعدة جميع الناس فى جميع الأماكن وبهذا اختفت الفكرة القديمة وحلت محلها الفكرة القائلة بأن الانسان يمكنه الحصول على الرضا الالهي اذا جلب الى ذلك مؤمنين جددا . وكانت البوذية في أوائل أيامها تنكر مجرد وجود الآلهة وكانت تصر اصرارا كبيرا على الاحسان وعمل الخير كأحسن الطرق لخلاص الانسان ، ولهذا أصبح للنظم التبشيرية قوة جديدة . وفي أيام بوذا نفسه ، أرسل هو مئات من التلاميذ ليحملوا البشرى الجديدة الى جميع أنحاء الهند فاستحق التقدير

واستقرت أساليب النسك والانسحاب من هذا العالم فى عهد بوذا نفسه ، وأضافت عنصرا هاما لنظام التبشير . فالكاهن المتسول يستطيع أن يواصل ميره بين شعوب معادية وممالك يسودها الاضطراب والفوضى ، وهو متمتع بالحصانة ، لأنه أفقر من أن تمتد اليه يد بالسرقة ، كما كان يحمل معه أينما سار غموضا يحيط به لأنه نذر نفسه لخدمة قوى خارقة للطبيعة ، اذ لا يسهل

على انسان ايذاء شخص لا يحصل من وراء قتله أو سرقته على شيء ، فضلا عن آنه فى الوقت ذاته يعرض نفسه لفضب القوى العليا بمثل هذا العمل ولم يفقد الرهبان حصانتهم الا بعد أن مر على موت بوذا أكثر من ألف سنة عندما زاد انتشار الاسلام فى الهند ولكن قبل ذلك الوقت كان فى استطاعة الراهب البوذى أن يتجول شرقا وغربا فوق دروب القوافل ، وعلى سفن البحر ، يحمل معه أينما ذهب أنباء الشريعة ، وكان يقابل بالترحيب من سكان القرى ، ومن الملوك على السواء .

وفى بداية العصر المسيحى وصل بعض أولئك المبشرين الى الاسكندرية ، وبالرغم من أن تعاليم البوذية لم تترك الا أثرا ضئيلا لأن فلسفتهم لم تستطع أن تتفوق على ما كان يوجد فيها من النظم والأساليب المتقنة للفلسفة اليونانية فربما كانوا السبب فى ظهور كثير من أنواع النسك ، وتنظيم رهبان الأديرة ، الذى امتازت به القرون المبكرة فى تاريخ المسيحية فى مصر .

الفيضل الخامِسُ الثالاتون الحند في العصر السابق للاستعار

يرجع الفضل فى تطور الحضارة الهندية الحديثة الى التآليف بين عناصر مختلفة من مصادر متعددة . فمنذ آلاف من السنين كانت الحضارة الآرية تواصل امتزاجها بما كان فى الهند منحضارات أصلية ، ولهذا السبب انتشرت العناصر الآرية شرقا وغربا .

واذا بدأنا بالحديث عن الغزو الفارسى ، أو الغــزو اليونانى ، نجد أن شمالى غرب الهند شهد كثيرا من الغزوات التى زال أثرها ، ودارت الحوادث فيها كلها دورات تكاد تكون متشابهة . كان يتلو الانتصارات السريعة للغزاة امتصاص تدريجى لهم ، وأخيرا ينتهى الحكم الأجنبى على يد احدى الدول الوطنية المجاورة ، ولكن الغزاة المسلمين أدخلوا شيئا جديدا .

ففى عام ٧١٧ غزا العرب اقليم السند فى الوادى الأسفل لنهر السند، ومنذ القرن الثامن حتى القرن الحادى عشر كان غربى الهند على صلة وثيقة بالعالم العربى عن طريق التجارة والعلاقات الثقافية والمبشرين الذين نشروا الديانة الاسلامية فى الهند التى اشتهرت بالتسامح.

فحوالى عام ١٠٠٠ م . جاء محمود الغزنى ، وهو تركى من الأفغانستان ، وغزا شمالى الهند ونهبها ، وضم اقليم البنجاب ، ومنذ هذا الوقت ، أصبح الاسلام مرادفا للقوة السياسية . وبعد موت محمود توقفت حملات الغزو حتى نهاية القرن الثانى عشر عندما غزا دلهى أفغانى آخر ، وفى هذه المرة أسس ملطنة استمرت ١٥٠ عاما نشرت سلطانها نحو الجنوب فى أعقاب الذين هاجروا الى هناك هربا مما تعرضوا له من ظلم .

وفى هذه المرة ، أخذ الغزاة ، وهم من أحد الشعوب الهندو — آرية القريبى الصلة بالهنود ، يتهندون بعض الشىء عن طريق المزج الحضارى . وقبيل نهاية القرن الرابع عشر تعرضت دلهى لهجوم عنيف لا رحمة فيه على يدى تيمور ، أضعف كل الهند الشمالية . وفى عام ١٥٢٦ استولى بابار ، وهو أحد أحفاد تيمور وكان شخصا مثقفا من أصل تركى مغولى ، على مدينة دلهى وأسس الامبراطورية المغولية فى الهند .

لم يكن المغول غزاة من الهمج المتوحشين ، وانما كانوا ممثلين لاحدى المدنيات القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، استمدوا الكثير من قوتهم مما أدخلته الحمية الاسلامية . لم تبهرهم الحضارة الهندية فى الشمال اذ كانت فى حالة تدهور وانحطاط فى ذلك الوقت ، وافتقدوا ما كان فى موطنهم فى أواسط آسيا من ترف ، (بابار مثلا هو الذى وضع الرسم التخطيطى لمدينة أجرا ، وابن ابنه شاه جيهان هو الذى شيد تاج محل) ، وفى الوقت عينه لم يعرفوا قدر الفلسفة المجردة التى ظهر فيها تفوق الهنود . وكانت الصلات المستمرة قدر الفلسفة المجردة التى ظهر فيها تفوق الهنود . وكانت الصلات المستمرة بالغرب ، وسفر الحجاج الى مكة ، سببا لجعمل أولئك الغزاة على صلة مستمرة ، لا بذلك المركز الاسلامى فحسب ، وانما بدولة الصفويين فى ايران التى كانت تجتاز فترة من فترات نهضاتها ، واحياء المجد القديم لتلك البلاد .

وتختلف نظرة الهندوسية الى العالم عن نظرة الاسلام اختلافا كبيرا ، بل وتفصل بينهما هوة لا جسر فوقها ، ومن الصعب جدا أن نجد مدنيتين أكثر تباينا واختلافا .

كان المسلمون الغزاة يعبدون الها واحدا لا شريك له ، ولا يمكن أن يقبلوا نقاشا أو جدلا فى ذلك . أما الهندوس فكانوا مشركين وعلى استعداد للاعتراف بوجود أى عدد من الآلهة لأنهم كانوا يرون فيهم أنهم ليسوا الا مظاهر من دنيا مبهمة للأرواح (العقيدة البراهمانية) . ويكره المسلم جميع أنواع عبادة التماثيل كرها شديدا ، ولكن الهندوس كانوا معتادين منة

آلاف السنين على أن يتعبدوا لآلهتهم بوساطة أشياء مادية تمثلهم ، ويمكن رؤيتها . ويؤمن المسلمون بأن جميع المؤمنين اخوة ، وسمحوا في حياتهم الشخصية بالكثير من التقدم الاجتماعي للفرد ووصوله الى أعلى المراتب مهما كان مولده . ونقرأ في كتاب ألف ليلة وليه عن ذلك النوع من التقدم الاجتماعي في قصة المتسول الذي أصبح بين يوم وليلة صاحب ثروة كبيرة ، ويشغل وظيفة ذات نفوذ سياسي كبير . وعلى عكس ذلك ، فإن النظام الاجتماعي الهندوسي بأكمله يقوم على عدم المساواة الاجتماعي ، وأن يبقى كل شخص بقاء أبديا في الطبقة الاجتماعية التي ولد فيها وورثها . وأهم من هذا وذاك ، نجد أن القيم الاسلامية قيم ديناميكية متحركة ، فكلمة الاسلام تحمل معنى التسليم لارادة الله ، ولكن في واقع الأمر ليس ذلك التسليم الا القبول المقرون بالاعتزاز بأمر لابد من وقوعه ، ولا يمكن ايجاد مخرج آخر ، ولكن الهندوس كانوا يعظمون من شأن الاستسلام السلبي ، والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى .

وكان فقد الهندوس للسلطان السياسى بعد الغزو الاسلامى سببا لازدياد اتجاههم نحو السلبية وانكار حقيقة العالم الظاهر ، واحتموا فى رداء من الاقتصار والانزواء ، لعل ذلك يحميهم . فتبلور نظام الطبقات ، وعمت وانتشرت انتشارا سريعا عادة عزل النساء وحجبهن عن الأنظار (Purdah) كما حدث نفس الأمر مع المنبوذين . ولكن الانزواء والسلبية والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى كانت كلها معروفة وسائدة قبل وصول المسلمين . ونظرا لأنها ، كما قلنا ، غريبة عن الديانة الثيدية القديمة فربما كانت من أصل دراثيدى زاد أثرها عمقا بين الهنود خلال العصر الطويل الذى كان فيه نجم البوذية آخذا فى الصعود .

ومن المستطاع الوصول الى شيء من التفاهم وبعض التوفيق بين هاتين الناحيتين المتنافرتين كما حدث في الموسيقي واللغة (الأوردو) ، ولكن لم

يحدث أى امتزاج حقيقى بينهما . وبعد الغزو الاسلامى حاول بعض الزعماء الروحيين ومن بينهم « الامبراطور أكبر » نفسه ، أن يحققوا التوحيد الدينى، ولكن أتباعهم — اللهم الا فى حالة واحدة وهى حالة السيخ — وجدوا أنفسهم فى النهاية فى أحد المسكرين .

وبالرغم من أن الغزاة اقتبسوا كثيرا من عناصر التكنولوجية الهندية ، بل واقتبسوا مع مرور الزمن عناصر معينة فى نظام الطبقات ، فقد ظلوا فى معظم الجهات جماعة مستقلة كانت صاحبة النفوذ السياسى فى البلاد.

ولما كان المسلمون يعتزون بمكانتهم كفاتحين فقد كان يزعجهم دائما قواعد تجنب الآخرين التي تلتزمها طبقة الهندوس ، وقد ساعد على هذا الشعور أن الكثيرين من الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية من الهنود كانوا من الطبقات الدنيا . ولم يكن جميع الهندوس ممن يحبون السلم بالرغم مما تأمرهم به عقيدتهم فقد حافظ ال « راچپوت » الذين يقطنون فى اقليم « راچپوتانا » على استقلالهم قرونا عديدة ، ويرجع ذلك الى مقدرتهم الحربية من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى أساليبهم التي جعلت غزو بلادهم أمرا غير مجد. فعندما يصبح سقوط احدى المدن على وشك الحدوث كان المدافعون يوقدون فيها النار ، وبذلك يقضون على كل ما يطمع المهاجمون في أخذه . وكانت النساء والأطفال ينتحرون ، أما الرجـال فكانوا يرتدون ثياب الزفاف ويخرجون للحرب. وفى عصر الامبراطورية المغولية أصبحوا حلفاء أكثر من كونهم رعايا ، فقد كان الأباطرة المغول يتخذون من بنات البيوت النبيلة زوجات لهم ، وكان يرجع جانب كبير من قوتهم الحربية الى الفرق الحربية الراچپوتية التى كانت تنضم الى جيشهم.

وحتى فى الحالات التى كان فيها الغزو الاسلامى سريعا وكاملا ، ووصلت الأمور فى البلاد الى نوع من الاستقرار ، فان الفتن ظلت مستمرة بين أتباع الديانتين ، بل وكانت هناك دائما مغريات تقليدية على الفتنة . فالهندوس الذين

يريدون البدء بعمل اضطرابات ك<mark>انوا يعزفون الموسيقي أمام أحد المساجد أثناء</mark> تأدية فريضة الصلاة ، أما المسلمون الذين كانوا يرغبون في مثل ذلك فكانوا يلجأون الى ذبح بقرة في الطريق ، وما يستتبع ذلك من التعليقات المناسبة . وربسا كان وجـود حكام المسلمين ذا أثر مباشر فى تطور الحضـارة الهندوسية وتقويتها حتى وصلت الى صورتها الحالية . فقد لاحظ عدد من الكتاب الذين كتبوا عن الهند ملاحظات مقرونة بالدهشة لأنه بالرغم من وجود الآثار البوذية والحينية الكثيرة ، التي يرجع تاريخ بعضها الى القرن الثالث قبل الميلاد ، لا توجد الا آثار هندوسية قليلة يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الخامس الميلادي أي من عصر ال « جويتا »(Jupta) المتأخر ، وهو العصر الذي يعرف عادة بأنه العصر الكلاسيكي للمدنية الهندية. فلدينا من هذا العصر كتابان كتبهما « كاليداسا » (Kalidasa) الشاعر القصصي ومؤلف ال « شاكنتالا » (Shakuntala) ولدينا صور وتماثيل المعابد المنحوتة في الصخر ف « أچنتا » (Ajanta) في شهالي الدكن . كما أن هيكل « ديوجهاره » (Deogarh) وهو من أقدم الهياكل الهندية الباقية وأجملها ، يرجع تاريخــه الى هذا العصر أيضا ولدينا أدلة على أن هياكل « ڤيسناڤا » (Vaisnava) و « سايڤا » (Saiva) كانت موجودة قبل ظهور المسيحية ، بل ان عددا قليلا من العملة وبعض التماثيل المصنوعة من الحجر التي وصلت الى أيدينا يرجم تاريخها الى القرنين الشاني والأول قبل الميالاد . كما أن الاعلاء من شأن « سيقًا » حتى على عملة الغزاة الأجانب (الكوشان) يدل على انتشار عبادة سيقًا في ذلك العهد. ومع كل هذا ، فلا يوجد شيء يمكن أن نقارنه سواء من ناحية الفخامة أو العدد بتلك المباني المشيدة من حجر واحد التي خلفها ال « موريا » (Muaryas) أو ما صنعوه بعد ذلك من الآثار المنحــوتة في الأحجار من أعمال البوذيين أو الجينيين .

وقد فسر بعض الباحثين ذلك على أنه من المصادفات التي تقضى على بعض

المنشآت وتحافظ على البعض الآخر ، ولكن هناك تفسيرات أخرى محتملة الوقوع . فالبراهسانيون ، الذين لا يمكن أن نفصل بين نشاطهم وبين الهندوسية ، كانوا على الأرجح شديدى المحافظة ، وكانوا يصرون على اقامة معابدهم وتماثيلهم من الخشب بعد أن رأوا أن الحجر قد أصبح المادة التي يستخدمها البوذيون والچينيون المارقون . ومن المحتمل أيضا ، أنه بعد أن أصبحت البوذية والچينية مسيطرتين على الحياة الدينية في الهند استمر البراهمانيون ، الذين أخذ نجمهم في الأفول في بلاط الملوك ، على عكوفهم على الدراسة وتمحيصهم للآداب المقدسة في الأماكن التي التجأوا اليها داخل الغابات ، يقيمون طقوسهم الدينية للجماعات القروية المحافظة . ونجد شبيها لذلك في استمرار بعض العادات الوثنية بين سكان القرى في أوروبا الغربية مدى قرون عديدة بعد أن أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية لتلك البلاد. ومن أهم المبادىء التي تحويها الديانة البوذية مبدأ احترام الآثار المقدسة . لقد اعتنق الامبراطور الماوري « أسوكا » هذه الديانة عند ندمه على تخريب اقليم كالينجا (أوريسا) الذي ضمه الى ملكه . وكان « أسوكا » حريصا على جعل شعبه يعتنق هذه الديانة ، ولهذا كان يهتم اهتماما شخصيا بتشييد مبان خالدة لهذه العقيدة الجديدة . ومن المرجح أنه استعان بالصناع المهرة المدربين على نحت الحجر على الطراز اليوناني الفارسي ، لأننا نجد التأثير الأخميني واضحا جدا في تلك الأعمدة المقطوعة من حجر واحد التي أقيمت في عهده ، وقد كانت هذه الرعاية الملكية هي الباعث على بدء عصر ذهبي للفن الديني ، استمر رغم ما طرأ من تغييرات على حظ كل من البوذية والبراهمانية منذ عصر « الجيتا » ، واستمر حتى تأسيس سلطنة دلهي وادخال عنصر اسلامي جديد يختلف اختلافا تاما في جماله ، سواء في العمارة أو في الزخارف. لقد غيرت القباب الكبيرة والصغيرة ومآذن المساجد والمقابر الاسلامية المنظر الخلوى في الهند ، ومع ذلك فان الطراز الاسلامي حدثت فيه كثير من التعديلات ترجع فى معظم الحالات الى المعرفة التكنولوجية والمسارة التى أحرزها النحات الهندى خلال القرون الطويلة التى كان يقوم فيها بتشييد المعابد. وأصبحت تلك المهارة فى الفن ، التى قامت بعمل التماثيل والصور فى المعابد الهندوسية ، تستخدم الآن فى نحت الزخارف العربية والكتابات العربية، وفى استخدام الأحجار المنحوتة بدلا من الطوب للغطى بطبقة من الملاط الذى كان شائعا فى الشرق الأدنى.

وفى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسلامى فى القرن الثامن كانت البوذية قد أخذت فى الأفول ، اللهم الا فى اقليمى بيهار والسند ، وقد قضى عليها نهائيا تخريب الأديار والمكتبات وقتل الرهبان الذى صاحب غزو محمود الغورى ، ففر كثير ممن بقى من الرهبان الى نيبال والى التبت . وفى تلك الأيام هدم كثير من المعابد الهندوسية ، وكثيرا ما حطم المسلمون بعض المعابد والتماثيل واستخدموا أحجارها فى تشييد أقدم مساجدهم وذلك لحرصهم على سرعة تشييد دور العبادة الخاصة بهم . ولكن حدث فيما بعد ، حتى فى الأزمنة التى كان الحكام المسلمون ذوى شعور دينى قوى ، أن تلك الحماسة لمحو الديانة الهندوسية كان يخففه علمهم بأن الشريعة الاسلامية كانت تعفى المسلمين من ضرائب متعددة تفرض على غير المسلمين ، ولهذا السبب نعلم أنه خلال الغزوات الاسلامية المبكرة فى الغرب كانوا يحذرون الولاة المسلمين حتى لا يؤثر ذلك على دخل الخلافة .

ومن المستحيل أن نتتبع الخطوات المتعاقبة التى بوساطتها وصلت الديانة الهندية والمجتمع الهندى الى ما كانا عليه فى الوقت الذى اتصلت فيه الهند بأوروبا . فقد كان الهنود ، كما سبق أن أوضحنا ، ينفردون بنوع غريب من عدم الاهتمام بالتاريخ والعلوم التطبيقية ، وكان البراهمانيون يقولون عن كل شىء يفضلونه بأنه قديم منذ عهد بعيد ، وانه ثيدى الأصل . وعند بداية

عصر استعمار الهند كان كل من المجتمع الهندى والديانة الهندية قد وصلا بوجه عام الى حالة من الجمود ، الذى لا يمكن أن يذوب أو يتحلل ، وأصبحت الحياة اليومية والصلات الاجتماعية خاضعة الى حد كبير لطقوس خاصة أكثر مما يوجد فى أى مدنية أخرى من مدنيات العالم ، وكان كل أمر تفصيلى منها مدعما بعقوبات تأتى من القوى التى فوق قوى الطبيعة . حتى نظام الطبقات نفسه قد برروه بنظريات معقدة من التطور الروحانى ، وقد وصلت كل من الديانة الهندية والفلسفة الهندية بفضل ما بذله كثير من الحكماء ، خلال القرون الكثيرة ، الى درجة جعلتها مقبولة فى مجموعها .

ويلوح أن الدراڤيديين كان لهم آلهة محليون لا يحصي عددهم ، على عكس الآلهة الكونيين الذين كان يؤمن بهم الآريون الڤيديون. وبفضل عقيدة وحدة الوجود التي كان يؤمن بها البراهمانيون وبفضل مذهبهم الخاص بالتجسد وحلول الروح في جسد آخر مرة بعد مرة ، أصبح ميسورا لهم أن يساووا بين الآلهة المحليين والأبطال ، وبين كائنات من آلهتهم المركزيين ، أي انهم لم يكتفوا بادخال الناس الى دينهم بل كانوا يدخلون معهم آلهتهم أيضاً . وكان من السهل تفسير الاختلافات في صفات أولئك الآلهة الجدد ، وما في أساطيرهم من متناقضات ، بالفكرة القائلة بأن الآلهة مثل الأشخاص كانوا يولدون من جديد مرة بعد أخرى ، وأن القصص التي تختلف عن بعضها انما تشير الى « أثاتار » مختلفين (اعادة التجسد مرة بعد مرة) . وأصبح لكثير من الآلهة ذوى النفوذ الشعبي المحلى في الجنوب بين الدراڤيديين شعبية كبيرة بين الناس ؛ وانتشرت ديانتهم في معظم بلاد الهند الهندوسية. وكانوا ينظرون الى كل من البوذية والجينية بأنها هرطقة مِن البراهمانية الصحيحة . وكانت البوذية ، وخصوصا في مراحلها الأولى كما رأينا ، ديانة فلسفية في أساسها وتقوم على الرهبنة ولهذا ربما كانت فى صراع مستمر مع الايمان الشعبى بالآلهة المحلية ، بالرغم من أن كثيرا من أولئك الآلهة قد أصبحوا من الآلهة البوذية . فلما بدأت البوذية فى التدهور لعدم حماية الملوك لها ، عاد أولئك الآلهة الأصليون الى الظهور فى الديانة الهندوسية التى بعثت مرة أخرى ، وأخذت منذ حوالى القرن السادس الميلادى تضعف من سيطرة البوذية على الهند .

وكان المعبودان الرئيسيان في هذه الديانة الهندوسية المتأخرة هما «سيقا» (Siva) وقيشنو (Vishnu) أمنا الالهنان الرئيسيان في العصور القديمة وهما « اندرا » (Indra) و « براهما » (Brahma) فقد آل أمرهما الى النسيان كان « فيشنو » في الأصل أحد أشكال « سوريا » (Surya) (الشمس) ولكنه أصبح الآن الاله المسئول عن العنالم ، ويثبت ما له من « أقاتار » عديدين كيف يتجمع آلهة مختلفون في شخص اله واحد . حتى « بوذا » قالوا عنه بأنه « أقاتار » لفيشنو أما « سيقا » فيلوح انه كان من الآلهة الذين كانوا يعبدون قبل العصر الفيدي وكان موطنه في جبل « كيلاسا » (Kailasa) في الهملايا ، وتعكس أشكال معظم المعابد الهندوسية هيئة مسكنه الجبلي .

وبالرغم من أن الديانة الهندوسية فى تطبيقها المام ديانة تبيح تعدد الآلهة فانه يمكن القول بأنها ديانة توحيدية ؛ لأن جميع الآلهة كان ينظر اليهم كمظاهر لقوة كونية واحدة .

وتحدد الفلسفة الهندوسية ثلاثة كائنات عظيمة أو مظاهر للقوة الأساسية فى العالم وهى: براهما الخالق وقيشنو الحافظ وسيقا الملك، ويتفق ذلك مع الأسلوب الهندو — أوروبى الذى نجد فيه أن الرقم ٣ هو أعظم الأرقام قداسة وأن عنصر المذكر له الأفضلية والأسبقية دائما على عنصر المؤنث. ولكن حسب ما ورد فى ال « سايقا » فان الكائنات الثلاثة انما تتجلى فى « سيقا » نفسه ، كما يقول الكثيرون بأن « سيقا » « وقيشنو » ليسا الا مظهرين من « الآله الواحد ». وقد أدى هذا الموقف الفلسفى الى التسامح التام بين الطوائف المختلفة ، بل ان بعض الأعمال التى تختلف اختلافا تاما عن



الاله سيفا ذو الاذرع الاربعة ٠ انقرن العاشر، تانچور

بعضها البعض ، وبعض طرق التفكير المتباينة ، كانت تجد قبولا فى الدين الواحد. كان لعبادة القوى الحيوية المقام الأول فى ال «سايقية » (Saivism) بينما كانت هناك طوائف أخرى تخص بولائها وعباداتها ال «ساكتى » بينما كانت هناك طوائف أخرى تخص بولائها وعباداتها ال «ساكتى » (Sakti) (عنصر المؤنث). وفى خلال القرنين السابع والثامن أصبح مذهب الله شخصى) هو المخدم الأكثر الله « قاكتى » (Bhakti) (وهو الولاء لاله شخصى) هو المخدم الأكثر

شيوعا . وبعد ذلك بقليل أسس الفيلسوف المبشر « شانكار » (Shankar) أول نظم الرهبنة البراهمانية ، ودعا أثناء أسفاره التى تدعو الى الاعجاب فى جميع نواحى الهند ، الى توحيد العقائد . وتبين لنا آلاف المعابد الهندوسية التى شيدت أثناء حياة « شانكار » وبعد موته ، تلك الحماسة القوية لتلك النهضة الهندوسية .

والمصدر الأكبر للكثير مما نعرفه عن العقيدة الهندوسية هي ال « ڤاجاڤاد جيتا (جيتا) » (Bhagavadgite (Gita) » وهي قصيدة تمثيلية خلابة يتحدث فيها شخصان ، أخلاقية في تعاليمها . انها تذم الكسل والجمود وتحدد ثلاث طرق للنخلاص (مكشا Moksha) : العمل « كرما »(Karma) والمعرفة « چنانا » (Jnana) والولاء « ڤاكتي (Bhakti) لقد كتبت الجيتا في وقت ما في القرنين السابقين على ظهور المسيحية وهي قسم من « المهاباراتا » (Mahabarata) وهو عمل يمكن وصفه بأنه مستودع جامع للميتولوچيا الهندية والتاريخ الأسطوري والتأملات الفلسفية القديمة . أما القصيدة البطولية الأخرى وهي « الرامايانا » (Ramayana) فقد كانت مصدرا للالهام الكبير للهندوس ، وعلى الأخص في صورتها الدارجة التي كتبت في العصور الوسطى . وفي خلال قرون عدة كانت قصصها عن الآلهة والآلهات والأبطال والبطلات ذات أثر كبير على حياة الناس ، ومنها اختارت طوائف متعددة آلهتها سواء الآلهة الرئيسية أو الآلهة الصغرى .

وهناك كثير من طوائف ال « قايشناقا » (Vaishnava) و ال « سايقا » (Saiva) وفروع الطوائف ، اتجهت كل منها نحو عبادة « اقاتار » خاص . زد على ذلك ، انه توجد عبادات متنوعة لآلهة صغار مثل ال « ناجا » (Naga) (الحية) وال « ياكشا » (Yaksha) (اله الشحر) التي لا تعتبر عادة « اقاتار » للآلهة العظيمة فحسب ، ولكنها مرتبطة بها ميتولوچيا في شكل من الأشكال . وكان لكل « اقاتار » معابده الخاصة به ، يمثل فيها بتماثيل

أو رموز ، وفى هذه المعابد كا<mark>نوا يقومون بطقوس دينية ترجع الى عصور</mark> موغلة فى القدم. وحتى فى أيامنا الحالية نجد أن المعبود يعامل فى معبده كما لو كان يسكن فيه ملك أو ملكة وتقدم الطقوس كتمثيل لما يحدث في القصر الملكي خلال اليوم بأكمله . ويجب على كل هندوسي ولد مرتبن ، أي أعضاء الطبقات العليا الثلاث ، أن يقوم بأداء طقوس يومية . وهذا هو الوصف الذي كتبه س. فتاشاريا (S. Bhattacharya) « وبالرغم من أن المعابد قد أقيمت لعبادة آلهة كثيرة مختلفة فان ما يحدث يوميا في المعابد يسير على أسلوب عام . انهم يبدأون باحتفال المصباح الذي يجلب الحظ الحسن في الثمن الأخير من الليل ، عندما يوقظون الاله . وبعد ذلك يغسلون الاله ويتعبدون اليه ، وعند الظهيرة يقدمون اليه الطعام المطبوخ ، ويتبعون ذلك باحتفال المصباح. ثم يستريح الاله بعد ذلك حتى قبيل المساء اذ يقومون فى ذلك الوقت بأحتفالُ تعطيره وتزيينه . وفي المساء يقومون أيضا بعمل احتفال المصباح على نطاق كبير وبعد ذلك يقدمون الطعام مرة ثانية الى الآله ، ثم يلى ذلك الاحتفال الأخير الذي يذهب بعده الاله لينام أثناء الليل. والى جانب هذه الاحتفالات اليومية توجد طقوس أخرى مطولة تستمر دائمة بضعة أيام وذلك أثناء الأعياد الهامة. ويجب أن نضع في أذهاننا أنه في الوقت الذي تعتبر فيه هذه الاحتفالات اليومية الخمسة فرضا واجبا على الهندوسي ، فليس هناك ما يضطره الى الاشتراك في الاحتفالات التي تقام في المعبد ، وقلما يذهب بعض الهندوسيين المتمسكين جدا بالولاء لدينهم الى المعبد بل ان كثيرين منهم لا يذهبون اليه على الاطلاق »^(۲).

^{(1) &}quot;Religious Practices of the Hindus" in Religion of the Hindus. Edited by K.W. Mawgan, New York: The Ronald Press co; 1953 pp 156-157.

(7) يشبه هـذا كل المشابهة ما كان يحدث في المعابد المصرية القديمة في المعابد المصرية القديمة في المعابد المعربة الملك ويقوم الدولة الحديثة وما بعدها • فقد كان الاله يعيش في معبده كما يعيش الملك ويقوم الكهنة بخدمته ، وكانوا يقومون عند الفجر على ضوء المصابيع بايقاظه وغسله وتفيير ملابسه ثم تقديم وجبة الافطار له ، ويكررون ذلك عند الظهر وعند حلول المساء • (المترجم)

وترك الفلاح الهندى التأملات الفلسفية للبراهمانيين ، وقام بأداء الطقوس المقررة لكي يجنى الفوائد العملية. فالي جانب الاله الخاص بطائفته كان الفلاح يعبد الأرواح المحلية ، والأبطال الأسطوريين الذين كانوا يرتبطون بطبقت أو بمنطقته ، وفي بعض الأحوال كان يتعبد لأرواح أسلافه . وكان يحاول ، على الأقل مرة في حياته ، أن يحج الى أحد المعابد الكبيرة المقامة لالهه الذي يحرسه ويحميه . وكانت أعياد الآلهة المختلفة تقام فى أزمنة وأماكن مختلفة ، وكانت هذه الاجتماعات تساعد على اتصال أعداد كبيرة من المتعبدين بعضهم ببعض ، وكانت في الوقت ذاته فرصة ممتعة ، فيها ترويح للنفس من حياة القرية التي تسير على وتيرة واحدة . وكان يصاحب مثل هـــــذه السوق الدورية احتفالات دينية . وبين فترات الحج يستطيع الفلاح أن يعبد الهه الذي يفضله فى هيكل محلى ، ولكنه لا يهمل هيكل القرية المقام لعبادة أحد الآلهة المحلية . وكان أحد الكهنة المقيمين فيه يقوم بالسهر على مثل هذا الهيكل ، وكانوا يلجأون اليه لأداء بعض الطقوس الكبيرة اذا احتاجوا اليها ، ولم يكن ضروريا أن يكون هذا الكاهن من البراهمانيين. زد على ذلك ، أن الهندوسي يمكنه أن يلجأ الى أي اله يمكنه أن يساعده اذا كان في حاجة الى معونته . فالتاجر يتعبد الى « جانش »(Ganesh) وهو الاله الذي له رأس فيل ليساعده في أعمال تجارته ، وفي وقت انتشار وباء الجدري تقدم القرابين الى « د رجا » (Durga) الهة الجدري ، وهي احدى زوجات سيڤا غير المحبوبات. ولم يشك الهندوسي العادى ، سواء أكان من الفلاحين أم من البراهمانيين في وجود عدد لايحصى من الآلهة ، وكان يتسامح ازاء الطوائف الأخرى كتسامح أتباع أحد القديسين المسيحيين ازاء أتباع القديسين الآخرين.

وكان المعبد الهسوسى مركزا للثقافة الهندوسية . ففيه يتعبد النساس ويتعلمون ويحصلون على المعونة الطبية وعلى الصدقات ، وفيه يشجعون الفنون الجميلة مثل الموسيقى والشعر والنحت والرقص . أما الأموال اللازمة

لما يقوم به المعبد من نشاط فكان مصدرها من الهبات العامة والهبات الخاصة . وفي أثناء الحكم الاسلامي ، الذي قل فيه العطف على الحياة الهندوسية ، زادت الأعباء وقلت الموارد التي كانت تتلقاها تلك المعابد من القرى ، وكانت النتيجة أن الحياة الثقافية العامة للجماعات الهندوسية أصابتها نكسة أثرت عليها .

ويمكننا أن نقول بوجه عام ان الأسلوب الديموقراطي للقرية الهندية الذي كان يسود فيها منذ أيام الآريين لم يتغير الا قليــــلا . ففي أيام الحكم الاسلامي أبقوا على نظام الفصل بين الدولة والشئون السياسية ، وظل مجلس القرية يحكم في الشئون المدنية ، وظل للبراهمانيين سلطانهم على جميع الأمور الدينية والاجتماعية . وظل الأساس الاقتصادى للحياة في القرية في العصر السابق للاستعمار هو اقامة توازن دقيق بين الزراعة والصناعة . كانت المدن قبل كل شيء مراكز ادارية ودينية ، وكانت في العادة صغيرة ، اللهم الا المدن الواقعة على الشواطيء ، أو على ضفاف الأنهار اذ حل النقل على صفحة الماء مشاكل مدها بما يلزمها من مؤونة . ومن الظواهر التي تلفت النظر تشييد مدن محصنة ، وتقدم فن تخطيط المدن سواء بين الهندوس أو بين المسلمين. كان الحاكم الذي يريد أن يهرب من مسئوليات حكم من كان قبله يختار موقعا جدیدا ، ویبنی مدینة ذات تخطیط خاص ، ثم ینقل الیها السکان ســواء باستخدام القوة أو بالاغراء ، وكان يتوقف استمرار مثل هذه المدن الى حد كبير على حسن اختيار موقعها . بيد أنه في معظم الحالات لم يطل عمر مثل هذه المدن الجديدة وقتا طويلا ، وفى كثير من المناطق نرى عددا من المدن القديمة والجديدة وقد تجمعت الى بعضها في منطقة محدودة .

وسكن السواد الأعظم من الهنود فى قرى ريفية يبلغ متوسط عدد سكانها أربعمائة شخص وكثيرا ما كانت تتحد مجموعات من تلك القرى وتكون لها مجلس مقاطعة له السلطة القضائية الأخيرة فى الأمور المدنية ، كما كان الكثير

من تلك المجموعات يعيش مستقلا لا تكاد تربطه صلة بغيره . وكان نظام تلك الأراضي يسير على الأسلوب السائد منذ أقدم العصور في بلاد الشرق الأدني، وهو وجود الحقول المزروعة أمام القرية والمراعى خلفهــا . وكانت الملكية المشتركة والتوريث المشترك ، اللذان يسيران أيضًا على أساليب الشرق الأدنى مانعين لتجزىء الملكيات الى أجزاء صغيرة اذ كانت العائلة المستركة تقوم بسد حاجيات كل من يعمل ، أو لا يعمل ، من أعضائها ، كما استمر النظام الذي يحتم تخصيص جزء من محاصيل الحبوب في كل قرية (چاچماني jajmani) ليكون مصدرا لتقديم كمية محددة من المحصول الى نجار القرية ، والى الحداد ، والى الفخار والكاهن والحلاق ، الى آخر ما هنالك مقابل خدماتهم التي يقومون بها طنيلة العام . وظلت الأساليب الاقتصادية مستقرة على أوضاعها ، ولم يدخل على التقدم الميكانيكي في الصناعة الا الشيء القليل. كانت طرق العمل في الحرف تنتقل بالوراثة في جماعات خاصة من طبقة معينة يحتفظون بأسرار مهنتهم ، وربما كان التأخر المادى راجعا الى هذه الاحتكارات المهنية التي حدت من التنافس ، ولم تشجع على الاختراع .

وتمتاز الحضارة الهندية بأنها وصلت الى آخر حدود التمسك بالأوضاع القائمة مما جعلها أكثر الحضارات المعروفة سكونا وتوازنا ، وأشدها اكتفاء . ويقوم أساس المجتمع فيها على أركان ثلاثة : وهى حكم القرية لنفسها ، ونظام الطبقات ، والعائلة المشتركة . وكان يعزز نظام الطبقات سلسلة من العقوبات من كائنات لها قوى فوق القوى الطبيعية ومبررات مستمدة من نظام دينى وفلسفى وصل الى أكبر درجات التعقيد والتمسك بالشكليات . والطبقة ليست الا جماعة منظمة تنظيما دقيقا لها تقليد عام ، واعتزاز بنفسها . ولكل طبقة رئيس ومجلس يجتمع أعضاؤه عند المناسبات فى جمعية لها سلطة تكاد تكون مطلقة ، ويجتمع أعضاء المجلس عند احتفالهم ببعض الأعياد ، ولهم حق الحكم على أفراد الطبقة ، ولهم سلطة توقيع العقوبات ، وأشدها الطرد من الطبقة .

وبالاضافة الى قوانين الزو<mark>اج التى ينص</mark> عليها نظام الطبقة فان القرية الهندية ، اللهم الا في حالات استثنائية قليلة ، تعتبر وحدة يتزوج رجالها من خارجها . وكانت مجموعات القرى تتزاوج من بعضها ، وبهذا كانوا يرتبطون معا برابطة الدم. وازداد زواج الأطفال ، وهو غير عام بين الجميع ، ازديادا كبيرا في هذا المصر وأصبح أمرا عاما ، ويرجم السبب فيه الى مجموعة من العوامل . كان محتماً على الأب أن يحصل على زوج لابنته قبل أن تصل الى سن البلوغ ، وكانت السلطة التامة في أي منزل هي سلطة الأب ولهذا كان من السهل على أي طفلة تنتقل لتعيش في عائلة مشتركة في مكان آخر أن تنسجم فى الحياة بينها ، أكثر مما لو كانت وصلت الى مرحلة البلوغ . وكان زواج الأطفال يعفى الأب من حمل مسئولية سلوك ابنته ، ويلقيه على عاتق عائلة زوجها . وفى معظم الطبقات التي انتشر فيها زواج الأطفال كان الزواج يتم وهما في دور الطفولة ، ولا يباشران حقوق الزوجية الا بعد أن يكبرا ، أي بعد أن تكون الزوجة قضت بضع سنوات في بيت عائلة زوجها ، وأصبحت على استعداد لتأخذ مكانها كأحد أفراد هذه العائلة .

والطبقة ، فى العادة ، احتكار وراثى لنشاط خاص أو لوظيفة أو حرفة . وفى أى منطقة من مناطق الهند ، نجد أن النشاط الخاص بالطبقات منظم بطريقة تجعل الطبقات المختلفة لا تدخل فى تنافس اقتصادى ، يضاف الى ذلك عامل الاكتفاء الذاتى الذى يتعارض تماما مع الاقتصاد القائم على الاعتماد على الغير . ويهيىء نظام الطبقات بوجه عام نوعا من الاحساس بالطبأنينة لأنه يحد من دائرة التنافس الاجتماعى والاقتصادى . وكان التمييز بين الطبقات قبل القرن الثانى عشر أقل صلابة مما هو عليه الآن ، ولم يصل الى ما وصل اليه بعد ذلك الا بعد أن بدأ الهندوس يحمون أنفسهم من اتصالهم بالمسلمين باتخاذ طرق مختلفة ليبقوا فى عزلة . ومنذ ذلك الوقت أصبح الزواج بين أفراد

من الطبقات المختلفة أمرا نادر الحدوث ، بالرغم من أن ذلك الأمر كان قبل ذلك العمد أمرا عاديا .

والشىء المحرم الآخر (الطابو) وهو المشاركة فى الطعام بين أفراد الطبقات المختلفة يحتمل أن يكون قد أصبح محرما تحريما تاما فى ذلك العهد أيضا . فقد سن البراهمانيون ، لكى يحتفظوا بطهارتهم الطقسية ، القوانين التى تتعلق بجميع أنواع الطعام سواء أكان مطهيا أم غير مطهى ، الذى يمكن لبعض الطبقات من البراهمانيين أن يقبلوه ، وقد أدى هذا الترتيب المنظم القاسى للطبقات ، وفروع الطبقات ، ووضع طبقة فوق طبقة الى وجود شعائر وطقوس عامة للصلات الاجتماعية .

ومهما كانت الاختلافات بين الأصول الحقيقية فان جبيع الطبقات من الناحية النظرية مرتبة فى درجات متعاقبة من ناحية أهميتها الاجتماعية ، وهو ترتيب قائم على أساس افتراض تفرعها من جسد براهما . وتنقسم كل من الطبقات الأربع الرئيسية الى مئات من الطبقات الفرعية ، وكل منها فوقها طبقة فى الترتيب الاجتماعى . ولما كان سكان الهند أقواما لا يحبون التغيير ، اذا قيسوا بغيرهم ، فقد استطاع هذا النظام البقاء بينهم . وفى الوقت الذى يستحيل فيه على أى فرد أن يرتقى الى طبقة أعلى من طبقته فمن الجائز أن ترتفع طبقة بأكملها الى درجة أعلى ، ويمكن تحقيق ذلك باتباع التعاليم الدقيقة الخاصة بالصلوات والنظافة الطقسية وغيرها ، اتباعا شديدا حازما . ولا يستطيع شخص من « السودرا » أن يصبح من « الكشاتريا » ولا يمكن لأى فرد من أى طبقة من الطبقات أن يصبح براهمانيا ، ولكن من الممكن أن ترتقى طبقة فرعية درجة أو درجتين بهذه الوسيلة .

ويصلح نظام الطبقات صلاحية تامة لأى حضارة متقدمة ، ولكنها لاتريد أن تتغير أو يحدث فيها تعديل ، وذلك فى مساعدة هذه الحضارة على تأدية وظيفتها بنجاح. وأصبح نظام الطبقات نظاما أساسيا فى الحياة الهندية ، وفسر

الهنود أى عنصر اجتماعى جديد وحوروه ليصلح للعمل به فى داخل نظامهم . ولم يقتصر ذلك على الهندوس بل نرى أن الهنود المسيحيين والهنود المسلمين بالرغم من عدم قبولهم لسلطان الهندوس فانهم منقسمون الى طبقات فرعية . ومن ناحية أخرى ، فان كثيرا من المنبوذين قد اعتنقوا الاسلام كما اعتنقوا المسيحية بعد ذلك ليهربوا من حالتهم التعسة .

أما فى ناحية التنظيم الاجتماعي فان الفوارق بين الشمال والجنوب مازالت واضحة . فقد كان البراهمانيون وحدهم هم الذين استطاعوا أن ينفذوا الى الجنوب ، وجتى في الوقت الحاضر لانجد هناك الا طبقتين اثنتين فقط على شيء من الأهمية وهما البراهمانيون والسودرا ، وكان المنتظر أن بعض الجماعات مثل النيار (Nayars)الذين تؤهلهم وجوه نشاطهم كحكام ومحاربين محترفين أن يكونوا طبقة مساوية للكشاتريا ، ولكنهم معتبرون من السودرا. وفى الوقت ذاته ، نجد أن الجماعات التي لا حصر لها من المتخصصين المحليين ، الذين يكونون الأساس الفعال الحقيقي في نظام الطبقات ، يتضاعف عددهم الى حد كبير في الجنوب وفي الشرق أكثر من الشمال الغربي ، وان الطابوات التي تتحكم في العلاقات التي بين بعضهم البعض أكثر عددا وأشد مضايقة . ونرى فى الجنوب بنوع خاص انهم قد أوجدوا طبقة أقل من طبقة السودرا ، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم المذلولين أو الطبقات المرقومة ؛ لأن هذا الصنف مقسم أيضا بدوره ، ومنظم على غرار نظام الطبقات ، وقد سماهم غاندى « هاراچان » (Harajan) أى أطفال الله .

ان القوانين التى تسير على مقتضاها الصلات بين أعضاء الطبقات المختلفة فى الجنوب وفى الشرق أكثر احكاما منها فى الشمال الغربى ، والنظام كله أشد قسوة وصلابة . وفى جنوب الهند نجد أن أعضاء الطبقات الدنيا يمكن أن ينجسوا براهمانيا أو مكانا مقدسا اذا اقتربوا منه الى مسافة يختلف مقدارها باختلاف مكانتهم ودرجتهم فى ذلك النظام . فبعض الطبقات فى الجماعات

المرقومة تنجس الأرض بمجرد سيرهم فوقها ، ولهذا يتحتم عليهم أن يستخدموا طرقا خاصة وأن يتجنبوا السير في الطرق الرئيسية التي يحتمل أن يسير فيها أفراد من الطبقات الأعلى ، بل وصل الأمر ببعض هؤلاء التعساء الذين في أسفل القائمة ، أن مجرد وقوع نظر أي انسان عليهم كاف لتنجيسه .

ان القيود المفروضة على الطبقات الهندوسية تختلف في الدرجة أكثر من اختلافها في النوع ، ولكنها كثيرة ومتعددة في جميع درجات تلك الطبقات. ويمكن القول بوجــه عام أنه كلما ارتفعت الطبقة زادت القيود على ســـــلوك أفرادها , وهناك استثناءات مختلفة لذلك ، مثل جميع التقسيمات الخاصة بالطبقات ، ولكنا نجد البراهمانيين في جميع الحالات تقريبا يخضعون لقيود وقوانين كثيرة تحد من حرية تصرفاتهم أكثر من الطبقات والجماعات التي دونهم ، ولا يمكن أن يتصور الانسان أن مثل هذا النظام يمكن فرضه بالقوة أو أن تأمر به سلطة عليا . ومما يجدر ذكره أننا نلاحظ أن أقرب مثال للنظام الهندوسي الذي يفرض تجنب الآخرين نجده في ﴿ يُولِّينِيزِيا ﴾ فيما يتعلق بالطابوات (الأشياء المحرمة) المستمرة تمييزا لها من الطابوات التي تفرض من آن لآخر . فالقوانين اليولينيزية تهدف ، قبل كل شيء ، الى ما فيه خير الجماعة وسلامة الأفراد المنتمين الى طبقات دنيا ، وقد نشأت هذه القوانين من العقيدة اليولينيزية الخاصة بالمانا (Mana) . كان الزعيم ، بصفته رمزا للقبيلة يملك أعظم « مانا » بينما يملك أعضاء القبيلة الآخرون نفس المادة (المانا) ، ولكن بدرجات أقل . وكان الاتصال بين فرد يمتلك مانا كبيرة وبين فرد آخر يملك مانا قليلة ينتج عنه حدوث خسارة للأعلى ، وفي الوقت ذاته كان ضارا بالشخص الأدني الذي يتعرض بسبب ذلك لاصابته باضرار مهلكة. وقد رأينا أن القبائل الدراڤيدية التي ما زالت باقية حتى الآن ، والتي لاتنتمي الى أصل هندوسي ما زالت تمارس بعض عادات التجنب ، ولديها طابوات مختلفة باقية من بعض قوانين نظام الطبقات كما قلنا أيضا انه من المحتمل أن

جنوبى وشرقى الهند يشتركان فى التقاليد المشتركة لجنوب شرقى آسيا التى تعتبر الحضارة الپولينيزية فرعا منها . ومن الجائز جدا أن قوانين الطبقات وضعت فى الأصل لتكون حاميا للاقتدار والفعالية الروحية التى للأفراد والجماعات ، ولمنع الضرر عمن لا يملكون الا فعالية أقل ، وذلك لجمل الجماعات الدنيا تدرك نقائصها الاجتماعية .

كان نظام الفئات الأربع ، كما رأينا ، مظهرا من مظاهر المجتمع الفارسى القديم وربعا يكون قد وصل الى الهند مع الغيزاة الآريين الذين يتصلون اتصالا كبيرا بقدماء الفرس . كان نظام جماعات الحرف الوراثية الذي يميل الى اتباع نظام الزواج من داخل الجماعة مظهرا من المظاهر الدائمة العدود في مجتمعات العالم القديم ، ويلوح أنها كانت أكثر حدوثا بين الجماعات المتقدمة حضاريا أكثر من حدوثها بين الجماعات المتأخرة وذلك لأن الموامل الاقتصادية المتصلة باحتكار الحرف كانت ذات تأثير في هذه الناحية ، ومن حقنا أن نعتقد أن أمثال هذه الجماعات كانت موجودة في الحضارات الدراثيدية المتقدمة في الهند .

كانت القوانين الكثيرة الخاصة بالسلوك ، والتي تقوم على أساس الغوف اما من فقد المقدرة أو من الاعتقاد فى الخطر الذى ينجم عن الاتصال بقوة أعظم مما يمتلكها الشخص نفسه ، ظاهرة عامة فى التقاليد المشتركة فى جنوب شرقى آسيا . وان الجمع بين هذه المناصر الثلاثة كاف لايجاد نظام الطبقات الهندوسي اذ كانت الفئات أو الطبقات الآرية الاجتماعية تضع نفسها فى مركز أسمى من مركز الجماعات الدراڤيدية المحتلة ، وقد انتظم الجميع فى نظام واحد وضعت فيه كل طبقة فى مركز خاص ، يحدد أسبقيتها أو تأخرها عن الطبقات الأخرى . وأخيرا ، كان التزامهم للزواج من داخل الجماعة ، ووضع قواعد يلتزمون بها فى السلوك ازاء معاملة الأفراد الذين ينتمون الى طبقات أخرى ، كافيا للابقاء على هذا النظام .

وجاء الحكم البريطانى للهند وكان من بين نتائجه تسديد ضربة شديدة الى استقلال القرية واكتفائها الذاتى ، وزاد على ذلك فأحدث صدعا فى نظام الطبقات ، واليوم ، وقد حصلت الهند على استقلالها نجد أن كثيرا من الأوضاع الخاصة بالصلات الاجتماعية قد أخذت تدخل فى دور اصلاح فعال، اذ نجد كثيرا من التغييرات أخذت تدخل على نظام العلاقات بين الطبقات بعد تطبيق القوانين الجديدة ، وبدأت التغييرات أيضا فى نظام ملكية الأرض ، وفى نظام العائلة المشتركة وما زلنا فى انتظار نتائج هذه الاصلاحات ، ولهذا لن ناقشها فى هذا الكتاب .

الفصل السيادس الثلاثون

الصين في عصر ما قبل التاريخ

عاش في بلاد الصين شعب ذو ثقافة موحدة فترة متصلة طويلة أكثر من أى مدنية أخرى من مدنيات العالم ، بالرغم من أن المدنية الصينية ليست أقدم المدنيات بأى حال من الأحوال للهذه وصلت المدنية الصينية الى صورتها المعروفة ، وتبلورت وتحددت معالمها ، بعد المدنيات الأخرى مثل مدنية وادى السند ومدنية مصر وبعض مدنيات الشرق الأدنى ، ولكن حضارة الصين تكاملت في عصر مبكر ، وعلى عكس الحضارات القديمة العظيمة الأخرى لم يصبها الانهيار في يوم من الأيام ، ولكنها استمرت في تقدمها تتناوب عليها فترات تختلف في مدى نجاحها منذ وقت ظهورها . وكثيرا ما اتصلت الصين بالحضارات الأخرى ، فقد تعرض الصينيون لغزو بلادهم وحكمها بدول أجنبية ، ولكنهم نجحوا دائما فى فرض حضارتهم الصينية على قاهريهم الهمج غير المتحضرين ، وينتهى الأمر باستيعابهم لهم ثم يؤسسون بيتا حاكما جديدا من أنفسهم . كانت المدنية الصينية أول مدنية استطاعت الوصول الى تأسيس نظام حكومي متين وممكن التطبيق ، ويستطيع أن يواجه مشكلات عدد كبير من السكان يتكونون من سكان مدن وسكان مناطق ريفية ، ولم يصبه الانهيار أو الفشل التام في أي يوم من الأيام.

والتاريخ الصينى ، حسبما قاله المؤرخ الصينى « منكيوس » (Mencius) يتحرك فى دورات تتكرر كل خمسمائة سنة ، والأسلوب الذى يسير عليه هذا التاريخ كما يأتى : غاز أجنبى يغزو البلاد ويحكمها ، ثم استيعاب هذا الغازى، وتلى ذلك فترة اضطراب وفوضى ، وأخيرا ، يعيد الصينيون تنظيم أمورهم

تحت حكم أسرة صينية ، ويلى ذلك عصر من عصور سياسة الاعتداء الدولى وغزو البلاد الأخرى. فاذا صح أن التاريخ يميد نفسه فان الصينيين سيتمكنون من التخلص من النفوذ الروسى ويصبحون قوة عالمية بحق بعد مائتى عام. والرأى الذى يقول ان الصينيين شعب بسيط مسالم ولا يحب الحرب ، رأى بعيد عن الصواب. كانت الصين قوة عالمية بضع مرات أثناء تاريخها الطويل ، ومدت فتوحاتها الى مسافات بعيدة تدعو الى الدهشة.

وأقدم تاريخ صيني يمكننا ذكره كتاريخ محتمل الصحة هو عام ٢٢٥٠ ق.م. ويستند هذا التاريخ الى اشارة فلكية وردت في الكتاب الصيني القديم المعروف باسم « كتاب التاريخ » . وعلى أى حال ، فان التقدم كان سريعا وما جاءت بداية عصر أسرة «شانج» (Shang Dynasty)حوالي عام ١٧٥٠ ق . م. حتى كانت المدنية الصينية على قدم المساواة مع المدنيات التي ظهرت في بلاد غربي آسيا . ومنذ هذا الوقت احتفظت بمستوى حضاري تحسد عليه ، كما احتفظت أيضا باستمرار التقاليد استمرارا لا نظير له فى أى حضارة أخرى . وهناك عوامل متعددة ساعدت على تحقيق ذلك . فالحاصلات الصينية وطرق الزراعة كانت على الأرجح أحسن شيء من نوعها في العالم قبل ادخال الطرق العلمية الزراعية الحديثة . وبهذا تمكن الصينيون من انتاج ما يكفى لسد حاجات شعب تبلغ كثافة سكانه ما كان في مصر ، وفي بلاد ما بين النهرين ولكن مساحة أراضيه مساحة كبيرة جدا أكثر من مساحة هذين البلدين . واهتم الصينيون اهتماما خاصا منذ أقدم العصور بنظريات الحكم والتطبيقات العلمية الخاصة ، وقبل ظهور المسيحية بوقت طويل توصلوا الى طرقوأساليب معينة لتجنيد العقول الممتازة لخدمة الحكومة . وكثيرا ما حكم الصين رجال أشرار ، ونساء شريرات ، ولكن لم يحكمها الا عدد قليل من الأغبياء ، ولم يمكثوا فى الحكم الا فترة قصيرة . وبفضل أساليبهم فى التدريب والاختيار استطاع النظام الادارى الصينى خلال ألفى سنة من أن يجمع مزايا الخدمة

الحكومية الريطانية مع التوسع في الانتفاع بالمواهب الانسانية كما حققه النظام الديموقراطي الأمريكي. وأخيرا ، فان اختراعهم منذ عصر موغل في القدم لطريقة للكتابة ، مستقلة عن اللغة التي تنطق بها ، مكنهم من أن يضموا في دولة واحدة ، وفي تقليد حضاري متجانس ، جماعات تتكلم لهجات كثيرة مختلفة ، كما ساعدت الكتابة ، أيضا ، القائمين بادارة البلاد على الانتفاع بخبرة من سبقهم من الحكام بطريقة يستحيل حدوثها في الغرب بسبب التغيير المستمر الذي حدث في اللغات أثناء تاريخ كل دولة من الدول الأوروبية .

وترجم الصفات المميزة للحضارة الصينية ، ولو جزئيا على الأقل ، الى الظروف والعوامل الجغرافية . فالصين تطل على الشرق ويحدها في الجنوب وفى الغرب جال لا يكاد يمكن اجتيازها ، حتى المواصلات العادية في تلك النواحي كانت دائما على قدر كبير من الصعوبة . وفي الشمال الغربي ينفرج ذلك الحاجز الجبلي ولكن يحل محله سهول قاحلة ، في حين نجد في الشمال أن الغابة القطبية الكبيرة تمتد في منشوريا . ولم يوجد في المناطق الواقعة على حدودها أى منطقة يمكنها أن تعول عددا كبيرا من السكان المستقرين أو منطقة على مستوى حضارى متقدم. والحد الوحيد الذي كان مصدر تهديد لهم هو الشمال الغربي الذي كان يمتد الى منطقة الاستپس الآسيوية التي تقطنها شعوب من البدو المحبين للحروب. وفي حقيقة الأمر ، فان جميع الغزاة استثناء واحد فقط وهم « المنشو » . وقد سيطرت الدبلوماسية الصينية والحضارة الصينية على الاستيس الشرقية منذ العصور القديمة ، والغزاة من قبائل الهون (Huns) والترك ، والمغــول ، كانوا على ادراك لعظمة التقاليد الصينية قبل غزوهم لها . ووجدت الأسرات المختلفة من الغزاة البدو الذين حكموا في الصين عهودا طويله أو قصيرة انهم ، ان عاجلا أو آجلا ، يتحتم عليهم أن يستعينوا بخدمات الموظفين الصينيين الذين كانوا فى الوظائف قبل

مجيئهم ، لأن أتباعهم لم يستطيعوا أن ينافسوا الصينيين عند حلول السلم . وبالرغم من محاولتهم الاحتفاظ بطريقة حياتهم غير المتحضرة فان مرور أجيال قليلة كان كافيا لتحضيرهم تحضيرا كاملا .

وساعدت البيئة الطبيعية على الاكتفاء الذاتي في الحضارة الصينية . يختلف المناخ في الأرجاء المختلفة في الصين مثل اختلافه في الولايات المتحدة الأمريكية. فدرجة الحرارة فى شمالى الصين تكاد تماثل درجة الحرارة فى السهول الشمالية في أمريكا ، حين نجد أن الصين الجنوبية شبه استوائية في مناخها ، ولا يوجد الا عدد قليل من الحاصلات التي لا يمكن زراعتها في منطقة من مناطق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف. وفى بلاد الصين مناطق جبلية كثيرة ، ولكن السهل الساحلي وثلاثة وديان أنهار عظيمة وهي « الهوانج هو » (Hwang Ho) في الشمال و « اليانجسي كيانج » (Yangtze Kiang) في وسط الصين ونهر اله « شوكيانج » (Chu Kiang) في الجنوب تمد البلاد بمساحات شامــعة من الأراضي المزروعة. ويوصــل بين نهــري « الهــوانج هو » « واليانجتسي » القناة الكبرى التي يبلغ طولها ٨٥٠ ميلا ، والتي تمتد من مدينة « هانجشو » (Hangchow) الى مدينة « تينتسين » (Tientsin) وقد بدأ هذا المشروع « فوتشاى » (Fu Ch'ai) ملك دولة « يه »(Yüeh) في القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكن أقدم الأجزاء التي توصل بين الهوانج هو واليانجتسي تم عملها في حكم الامبراطور « يانج »(Yang) الذي حكم من عام ٢٠٥ الى ٦١٧ ميلادية ، أما الباقى بما فيه امتداد هذه القناة الى پيكين ، وهو مردوم الآن ، فقد تم عمله فى أيام أسرة « ييان »(Yüan)التي حكمت بين أعوام ١٢٧٩ ، ١٣٦٨ ميلادية .

وهكذا كان من الميسور فى بداية القرن السابع الميلادى الوصول الى معظم أجزاء الامبراطورية بوساطة السفن وتبادل حاصلات المناطق البعيدة منفقات قليلة . وكانت كميات خامات المحادن كافية لسد حاجات حضارة كانت

ما زالت على مستوى الصناعة اليدوية والموارد الصينية من الفحم والحديد قليلة اذا قسناها بالمقاييس الحديثة ومن الأمور المشكوك فيها اذا كانت ستصبح هذه الموارد في يوم من الأيام كافية لمد الصين بما تحتاج اليه الصناعة الثقيلة من النوع المعروف في أوروبا ومهما يكن من أمر ، فان الصينيين استثمروا هذه الموارد المعدنية بنجاح زهاء ألفي عام ، وعرفوا استخدام الفحم قبل أن يعرفه الأوروبيون.

ويلوح أن معظم جهات الصين كانت مغطاة بغابات عظيمة في العصــور القديمة ، وكانت تلك الغابات كثيفة جنوبي « اليانجتسي » اذ أن هذه المنطقة على درجة كافية من الحرارة تجعلها صالحة تماما لنمو الفاب الهندي ، وهو من أنفع وأفيد الحاصلات الطبيعية . وجميع مناطق الصين بأكملها أراض صالحة كل الصلاحية ليستقر فيها الانسان ، ويعيش فيها ، وهي من البلاد القليلة التي تستطيع أن تسد حاجة سكان كثيفي العدد ، وعلى درجة كبيرة من التقدم الحضارى دون الاعتماد على تجارة خارجية ، فقد كان في استطاعة الصينيين انتاج جميم السلم الضرورية في مناطق داخل حدود بلادهم . أما تجارتهم مع الغرب سواء أكان ذلك بطريق البحر أم عن طريق دروب القوافل التي يرجع تاريخها الى أقدم العصور مجتازة أواسط آسيا ، فكانت تجارة في السلع الكمالية . كانوا يبعثون بالحرير غربا ويحصلون في مقابله على سلم كمالية أخرى مثل الخرز والأواني السورية المصنوعة من الزجاج ، وبعض الأشياء الجميلة الصنع من المعادن النفيسة ، وفي العصور المتأخرة كانوا يستوردون أيضا الفتيات الراقصات والخيل سريعة العدو

وعلى عكس الهنود ، نجد أنه كانت للصينيين عقلية تاريخية ، وما خلفا الصينيون من كتابات تتعلق باحداث الماضى شيء كثير ، ولكن مما يدعو الى الأسف أن رغبتهم فى استخدام الحوادث الماضية لاستخراج العبرة وتعلقهم بالتنظيم المنسق كان سببا فى اعادة كتابة المؤلفات القديمة مرات كثيرة . ولهذا

السبب، نجد أن كتب الغاب الهندى (البامبو Books) التى تذكر حوادث قديمة فى نفس العصر الذى وصلت الينا منه بعض الكتب الكلاسيكية الصينية الهامة التى تصور لنا مجتمعا أقل مثالية مما نجده فى تلك الكتب الأخرى. ولكن بالرغم من ذلك ، فان كثيرا من المعلومات الحضارية التى جاء ذكرها عرضا فى جميع تلك الكتب تقوم دون أى شك على أساس سليم صحيح، وهذا من حسن حظ المشتغل بأصول الحضارة الصينية لأنه لا توجد منطقة فى العالم لها اتساع الصين وأهميتها الحضارية ، ولا نكاد نعرف الا القليل عن نتائج الدراسات الأثرية فيها كما هو حادث فى الصين. ولهذا السبب فان المناطق القليلة والعصور التى أمكن دراستها لقيت من عناية الباحثين ما يحتمل أن يثبت فى المستقبل انه بولغ فيه ، وما زال فى حاجة الى التمحيص.

وعلى مقربة من مدينة پيكين حفر العلماء موقعا واحدا وعثروا فيه على أشياء هي من أقدم الآثار المادية والحضارية للانسان ' ويرجع تاريخها الى آخر الفترات بين العصور الجليدية . وبعد ذلك تمر فترة لا نعرف عنها شيئا لا يقل طولها عن ٢٠٠٠ر سنة ، ولكن ابتداء من عام ٣٠٠٠ أو ٣٥٠٠ ق . م . على آكثر تقدير ، كان يعيش في الصين عدد من الحضارات النيوليتية المختلفة التي عثر على مواقعها في جهات عدة في شمالي وشمال غربي الصين ، وكانت تلك الحضارات مقدمة لذلك الازدهار الحضاري الفجائي في « أسرة شانج » تلك الحضارات مقدمة لذلك الازدهار الحضاري الفجائي في « أسرة شانج » عليها في الحال بأنها مدنية صينية . ومنذ هذا الوقت يمكننا أن تتبع التطور الحضاري في شمالي الصين عن طريق النقوش والوثائق المكتوبة الأخرى التي كانت تزداد كثرة بتقدم الزمن .

ومن ناحية أخرى فانا لانعرف جنوبى الصين الا عند ظهوره فى ضوء التاريخ تتيجة لوصول حضارة الصين الشمالية اليه ، وغزو الأسرات الصينية الشمالية له مرة بعد أخرى . ولم تقم حتى الآن أي بحوث أثرية هامة في جنوبي الصين ولسنا نعرف عنه شيئًا ، ولكن يتضح لنا مما يعثر عليه من آن لآخر فوق سطح الأرض أن هذه المنطقة كانت تشارك منطقة جنوب - شرقي آسيا في تقاليدها المستركة. فبعض الأدوات الحجرية تشبه الى حد كبير أدوات جنوب شرقى آسيا ، كما أنها تشبه تلك المنطقة أيضا في عدم وجود الأدوات المشذبة ذات الأطراف المدبية ، أو السكاكين ، وربما كانت الملحوظة الأخيرة أمرا ظاهريا أكثر منه حقيقة واقعة ، لأن الأدوات الحجرية التي من هذا النوع قلما يمكن التعرف عليها والاحتفاظ بها ، مثل الأدوات الحجرية الأكبر حجما . وهناك أيضا تلك النتيجة المثيرة الهامة التي توصل اليها ڤاڤليوف (Vaviloff) ، وهي أن جبال الصين الجنوبية كانت مركزا هاما لتــدجين النبات ، وأن عــددا كبيرا من الحاصلات الجذرية والحاصلات الورقية بدأ تدجينها هناك. ولا يشك أحد فى أنه كانت توجد فوارق حضارية بين شمالي الصين وجنوبها منذ العصر النيوليتي على الأقل ، بل ان مثل هذه الفوارق ما زالت موجودة حتى الآن . ولنعد مرة ثانية الى البحوث الأثرية . فمن الأمور الواضحة أن بدء حياة الانسان في الصين يرجع الى أزمنة موغلة جدا في القدم. فقد كان انسان الصين « سين — انثروپوس » (Sinanthropus) يعيش في شمالي الصين خلال آخر الفترات التي تخللت العصور الجليدية ، وكان هذا النوع من الانسان المبكر يشبه في أكثر النواحي انسان جاوة المسمى « بيثك — أنثروپوس » (Pithecanthropus) ، ولكنه كان أقرب الى الانسان الحديث من ناحيــة تطوره . واذا حكمنا عليه من ناحية مظهره الجثماني فان أي كائن حي يشبهه يجوز أن يكون من نصيب احدى حدائق الحيوان.

ومهما يكن من أمر ، فان سلوك السين — انثروپوس كان أكثر شبها بالسلوك الانسانى منه بسلوك أشباه الانسان . فقد استخدم النار وصنع السلوك الدوات من الحجر تدل على الكثير من المهارة مثل صنع الشطفات التي نجد

أن بعضها كان حسن الصنع ، مما يرجح أنهم صنعوها عن قصد لتكون أدوات تؤدى أغراضا خاصة ، مثل السكاكين والمقاشط والقذائف المدببة . كما أن أولئك القوم مارسوا العادة الانسانية ألا وهي عادة أكل لحوم البشر ، التي ثبت وجودها في ذلك الموقع الفريد الذي تم حفره من ذلك العهد . فانهم كانوا على الأرجح يأكلون من يموت منهم ، وذلك لأنه لم يعثر على مدأفن أو على أي دليل يثبت أنه كانت لديهم أي طقوس لدفن الموتى . وعادة أكل لحم الموتى كانت عادة شائعة بين كثير من الشعوب في العصر التاريخي ، ولم يكن الباعث عليها هو الجوع ولكن الرغبة ، التي يمكن ادراكها وفهمها ، للاحتفاظ بعزايا الموتى في العائلة .

واذا حَكَمنا بما وصل الى أيدينا من الآثار التي عثر عليها بطريق الصدفة فان هذه الحضارة تلتها حضارة أخرى استخدمت من أدوات حجرية ذات شطفات أكبر حجما ، ومدقات تشبه فى نواح كثيرة ما أنتجه العصر الپاليوليتى في جنوب شرقى آسيا . وفي عصر أحدث من العصر الذي عاش فيه انسان الصين القديم (سين — انثروپوس) ، وفى منطقة تقع الى الشمال الغربي من موطنه على مقربة من پيكين ، كانت هناك حضارة أخــرى من العصر الپاليوليتي القديم استخدمت شطفات أكبر حجما وأدوات حجرية مدببة تذكرنا بمثيلاتها في أوروبا ، وبفؤوس اليد الأفريقية . وعلى أي حال ، فهناك فجوة من الزمن لا تقل عن ١٠٠٠٠٠ سنة تفصل بين هذه الأدوات القليلة من العصر الپاليوليتي وبين أقدم القرى النيوليتية في شمالي الصين. وبالرغم من العثور على بعض الأدوات التي يرجح أنها من العصر الپاليوليتي الأعلى في الكهف العلوي في الموقع الذي عاش فيه السين — انثرويوس فان هذه الفجوة ما زالت شاغرة . ويمكننا أن ندرك ما كانت عليه الناحية الحضارية فى شـــمال الصين خلال أواخــر العصر الپاليوليتي الأعلى ، أو في العصر الميسوليتي ، مما عثر عليه في منغوليا . فقد عثر على سطح الأرض في منغوليا

على عدد كبير من الزلط الذى شظفت منه بعض النصال الرفيقة كما عثر على بعض النصال نفسها ، ولا يكاد يوجد شك فى أنها كانت مثبتة فى أدوات من العظم أو الخشب لتكون حدها القاطع . ويمكننا أيضا أن نذكر ونحن واثقون أنهم استخدموا العظام وقرون الوعل بكثرة ، وبالرغم من أنه لم يعثر حتى الآن الا على أداة أو أداتين من هذه المواد ، فانه يجب ألا ننسى أن أمثالها يصعب بقاؤها وهى معرضة للعناصر الجوية ، ملقاة فوق سطح الأرض . ويمكن القول بوجه عام ان اقتصاد القوم الذين عاشوا فى ذلك المهد ، وكانوا أصحاب تلك الحضارة ، كان قائما على أساس تجمعهم ، دون أن تكون لهم معلات سكنية دائمة ، وان حالة البيئة كانت أكثر ملاءمة لهم مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وعثر أيضا على قطع من الفخار وعلى قطع حجرية ذات شكل السطواني يرجح استخدامها كمدقات أو أحجار لطحن الحبوب ، وقد عثر عليها فى بعض المواقع الميسوليتية ولكن من المرجح انها من عصور أحدث .

وأقدم ما ظهر من العصر النيوليتى فى شمالى الصين ليس الا جزءا من حضارة المنطقة المحيطة بالقطب الشمالى. ففى المواقع النيوليتية نجد حفرا مستديرة يشار اليها عادة بأنها حفرات للسكنى ، ولكنها صغيرة وربما كانت صوامع غلال توضع تحت الأرض ، أو أنها مخازن ، واذا عاش فيها أحد على الاطلاق فربما كانت تستخدم فقط للنوم خلال الفصل الشديد البرودة . واستخدموا أدوات مصنوعة من الحجر من الأنواع المعتادة ، كما عرفوا أيضا السكاكين المصنوعة من الحجر ، وقاذفات مدببة من العجر ، وقاذفات مدببة من العظم ، والمخارز . ولكثير من تلك الأدوات المصنوعة من الحجر والعظم أشكال خاصة ، وهى بلا شك أصل بعض الأدوات الصينية التي صنعت من المعدن فيما بعد .

وعثر على كثير من الفخار وهو شبيه بفخار المنطقة التى حول القطب الشمالي وينتمى الى الحضارة نفسها ، وهو على شكل الأقداح ومصنوع من

الطين المخلوط بالرمل. وكثيرا ما كان يزخرف سطحه بلف حبل حوله قبل أن يجف ، وهو على أى حال خشن الصناعة. ومن بين الأوانى الفخارية عدد غير قليل من أوان للطبخ مثلثة الجسم صنعت على هيئة ثلاثة أقداح ضمت الى بعضها ولها فم واحد ، وهى تدل على أنها أصل الأوانى ذات القواعد الثلاث التى كانت كثيرة الانتشار فى العصور الصينية التالية.

ويرجح أن أقدم الحاصلات التي كانت لديهم نوع من الدخن (الذرة العويجة) الكبير الحجم، وهو ذو ساق قوية وهو «الكوليائج» (Kaoiang) الذي ما زال يزرع في المنطقة وقد أراد بعض الباحثين أن يفسر بعض ما على سطح بعض الأواني الفخارية من زخرفة بأنها عملت بوساطة نبات الرز، ولكن اذا صح ذلك فان وجود هذا النوع من الحبوب في شمالي الصين حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير يخلق مشكلة تثير الحيرة والي جانب معرفتهم للدخن والرز (?) في حضارتهم ، كان أولئك الناس يربون بالكلاب والخنازير لأجل أكل لحومها . وقبل انتهاء تلك المرحلة النيوليتية ظهرت أيضا الماشية والأغنام ولكن ندرة وجود عظام الخيل في المواقع التي بحثت حتى الآن يدل على أنهم كانوا يصطادون هذا الحيوان ولم يكونوا قد استأنسوه بعد .

وحوالى نهاية ذلك العصر ظهر نوع جديد من الفخار فى اقليم «كانسو» (Kansu) فى شمال غربى الصين وهو فخار أحمر وأسود وأبيض مزخرف بزخارف حلزونية ، وزخارف ذات خطوط متقوسة . والآنية التى تتميز بها هذه المنطقة هى جرار كبيرة الحجم مزخرفة بخط عريض حول كتف الجرة ، ولكن توجد أيضا صحاف وأوان أصغر حجما . أما أوانى الطبخ فظلت كالنوع القديم ، وهو القدحى الشكل المصنوع من الطين المخلوط بالرمل .

ويشبه هذا الفخار الملون الفخار النيوليتي الذي عثر عليه في ايران ، بل وفي وادى الدانوب شبها كبيرا . ولا يكاد يوجد شك في أنه قد أتى الى

«كانسو » من الغرب ، ولكن عدم العثور على أى عناصر حضارية جديدة أخرى تكون قد ظهرت معه فى الوقت نفسه يحتم علينا أن نرجح أنه وصل الى «كانسو » عن طريق الانتشار وليس عن طريق هجرات لقبائل وصلت من ناحية الغرب . ويطلق على هذه الحضارة كلها بما فيها الأوانى الملونة اسم حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) وهى تؤرخ تاريخا تقريبيا بأنها كانت بين أعوام ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

وفى شمال -- شرقى الصين فى اقليم « شائتونج » (Shantung) توجد حضارة أخرى نيوليتية أهم من حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) ، وقد التقت الحضارتان فى المنطقة التى حول منحنى النهر الأصفر (الهوانج هو) . وفى المواقع القليلة التى بحثت فى منطقة التقاء هاتين الحضارتين نجد مخلفات حضارة « لنج شان » (Lung Shan) فوق مخلفات حضارة اليانج شاو ، مما يدل على أنها أتت بعدها وربما تكون قد بدأت بين أعوام ٢٣٠٠ و ٢٠٠٠ قبل الميلاد . ولسنا نعرف شيئا واضحا عن أصل حضارة اللنج شان ولكنها تحتوى على عدد من العناصر الجديدة وتمثل أعلى مستوى وصلت اليه أى حضارة أوراسية (أوروبية -- آسيوية) قبل معرفة المعادن .

بنى شعب « اللنج شان » مدنا كبيرة محصنة لها أسوار من الطين المدهوك ، وهى مادة ما زالت مستخدمة للبناء فى المنطقة نفسها . وظلت حفرات السكنى التى يرجع تاريخها الى العصر النيوليتى معروفة الاستخدام بينهم ، ولكنهم بنوا أيضا منازل واسعة مستطيلة عملوا أساساتها من الطين المدهوك فوق مرتفع من الأرض . ومن دراسة ترتيب جوانب المداخل نستطيع أن نقول ان تلك المنازل القديمة تشبه المنازل التى ما زالت تبنى حتى اليوم فى شمالى الصين . وتشبه الأدوات المصنوعة من العظم ، ومن الحجر ، مثيلاتها فى حضارة اليانج شاو ولكنهم استخدموا أيضا الأصداف على نطاق واسع فى صنع الأدوات والحلى على حد سواء . أما الفخار الذى تمتاز به حضارتهم

فقد كان رقيقا جدا ، وكان محروقا جيدا ، وذا لون أسود ومصنوعا على عجلة الفخار ، واذا صح أنهم عرفوا هذه الآلة فلا يكاد يوجد شك فى أن شعب اللنج شان عرفوا أيضا العربة والمركبة (١) . وكانوا يزرعون الدخن وربما الرز أيضا ، كما يرجح انهم زرعوا فول الصويا بالرغم من أنه لم يوجد له أثر فى أى موقع من المواقع التى حفرت حتى الآن ، أما الحيوانات المستأنسة فكانت الخنازير والكلاب والماشية والأغنام والخيل .

ويلوح أن حضارة اللنج شان وضعت الأسس التي قامت عليها أسرة شانج ». فبالرغم من استخدام أسرة شانج للبرونز ، وبالرغم من المهارة الشديدة التي أظهروها في صناعته ، فان الفلاحين من سكان البلاد ظلوا يعيشون كما عاش أجدادهم في العصر النيوليتي لمدة بضعة قرون . ومما يستحق الذكر أننا نجد في القسم المسمى « جزية ال يي » (Tribute of Yü) من « كتاب التاريخ » ، الذي يرجع تاريخه على الأرجح الى نهاية أسرة شانج من « كتاب التاريخ » ، الذي يرجع تاريخه على الأرجح الى نهاية أسرة شانج (١٠٢٧ ق . م .) نجد فيه ذكرا للسهام المصنوعة من الحجر بين الأشياء التي كانت تأتى كجزية من اقليمين من أقاليم الامبراطورية ، ولكن الاشارة غامضة والعلامة التي استخدمت في كتابتها ربعا تعنى الظران أو أي حجر آخر يسهل عمل شطفات منه ، وكان يندر وجوده في المنطقة المحيطة بعاصمة أسرة شانج (٢٠). ولا توجد كتابات من أي عصر قبل عصر شانج وان كتاب التغييرات

⁽۱) لا يكفى معرفة شعب من الشعوب لعجهة الفخار واستخدامها فى عمل الأوانى لتأكيد أو ترجيح معرفتهم للعربات، فقد عرفت مصرعجلة الفخارمنذ عصور موغلة فى القدم ، ولكنها لم تكد تعرف العربات حتى اتت اليها من آسيا بعد عصر يقرب من الف وستمائة سنة أو يزيد .

⁽۲) ان كلمة « يى » فى الصينية تعنى أيضا حجر اليشم او الجمار (Jade) ، والمتفق عليه بين علماء الدراسات الصينية أن رؤوس السهام المشار اليها كانت من اليشم وقد عثر على كثير منها فى المواقع النيوليتية ·

⁽ المترجم)

(Pcckof Changes) الذي يتحدث عن أصل الأشياء الصينية يذكر أنه قبل اختراع علامات الكتابة كانت الوثائق تدون ، والرسائل ترسل ، بوساطة حبال تعمل فيها عقد ، وان استخدام سكان پيرو القدماء لهذه الوسيلة (كويبوس Quipus) يثبت أنها تؤدى الغرض تماما . ولكن كتاب التغييرات نفسه روجع وأعيد نشره مرات عدة ، ولهذا فان ما جاء فيه من معلومات يجب عدم قبوله الا باحتراس شديد . ومما يزيد في تعقيد هذا الموضوع أن العلماء الفلاسفة الذين مر هذا الكتاب بأيديهم لم يفكروا الا في كون منظم على الساس المنطق ، وأن نظام هذا الكون وضعه حكام العصور القديمة الذين اعتبروهم شبه آلهة ، وأن هؤلاء الحكام بدأوا أولا بوضع الأمور الضرورية التقوية وحفظ نظام الكون ، وبعد أن أتموا ذلك استخدموا مواهبهم في اختراع الأجهزة النافعة للناس .

ومن أوائل الأشياء التي اخترعها أحد أنصاف الآلهة الأزليين تلك العلامات السداسية وعددها أربعة وستون ، وهي أشكال تتكون من خطوط متوازية بعضها متصل ، والبعض متقطع ، ومرتبة في انجاهات مختلفة . ولكل شكل من هذه الأشكال الأربعة والستين معنى مختلف عن الآخر ، ولكل واحد منها معنى سحرى . واستخدموا هذه الأشكال — وما زالوا يستخدمونها حتى الآن — في الانباء بالغيب وذلك لمعرفة ما اذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأى نشاط أم أنها غير ملائمة .

ويذكر «كتاب التغييرات» أن الأباطرة الأوائل توصلوا الى اختراع الأشياء المفيدة عن طريق التأمل فى هذه الأشكال، وأن الحكام الشلائة «هوانج تى» (Huang Ti) و «ياو» (Yao) و «شتن» (Shun) « استأنسوا الثيران (لجر العربات) واسرجوا الخيل (فى المركبات) وبهذا أمدوا العربات بما يساعدها فى جر الأشياء الثقيلة ولأجل الرحلات البعيدة، وبهذا أفادوا كل من يعيش تحت السماء»، وان فكرة ذلك أتتهم على الأرجح

من صورة الشكل « سوى » (Sui) ومعناه المتابعة أو السرور بالحركة .

وبالرغم مما دخل عليه من تعديلات واهتمامه الأصلى بالشعائر الدينية والقوى التى فوق الطبيعة فان كتاب التغييرات يمدنا بمعلومات ثمينة عن العصر السابق على حضارة شانج فى شهالى الصين فالاله « شن ننج » (Shen Nung) هو فى نفس الوقت مخترع الزراعة ورب النار ، وهذا يدل على أن الزراعة كانت تمارس فى البداية بطريقة القطع والحرق . ويحتوى الكتاب على اشارات متعددة للحروب التى كانت بين « الشيا » (Hsia) كما كان الصينيون يسمون أسلافهم ، وبين « المياو » (Miao) ، وهم جماعة من الصينيون يسمون أسلافهم ، وبين « المياو » (Miao) ، وهم جماعة من وفى الكتابات القديمة نجدهم يربطون بين المياو وبين البحر ، وكانت حيواناتهم الطوطمية من الحيوانات البحرية والوحوش البحرية ، والمخلوقات المجنحة ، المطوطم الشيا فكانت النمور والفهود ونوعين من الدببة .

ولم تساعد البحوث الأثرية فى شمالى الصين كثيرا على تفسير هذه الأساطير. وأهم نتائجها هو اثبات وجود حضارات مستقلة ومعاصرة جزئيا لبعضها البعض فى العصر النيوليتى ، وانها كانت فى المناطق الشرقية والغربية من شمالى الصين. ومن المحتمل جدا أن نفس الشعوب التى تفرعت من الحضارة المشتركة فى جنوب شرقى آسيا ، والتى حملتهم أسفارهم الى اليابان وكوريا نزلوا أيضا على شاطىء الصين ، بل وساروا الى داخل البلاد منحدرين مع النهر الأصفر ، ولكن ما زال ينقصنا الدليل على صحة هذا الرأى .

وكان مجتمع ال « شيا » مقسما الى « قبائل الحاكم التسع » و « المائة عشيرة » و « جم غفير من شعب ذوى الرؤوس السوداء » . والتسمية الأخيرة تدعو الى الدهشة لجماعة تعيش فى منطقة لا يعرف فيها أى لون آخر للشعر ، ولكن الشعر الأحمر والعيون الرمادية أو الخضراء ليست غريبة أبدا بين السكان القدماء فى المنطقة المتجمدة . كان « جنجيس خان » (Ghengis Khan)

ينتمى الى عشيرة مغولية تسمى « عشيرة ذوى العيسون الرمادية » وكان « سوباتاى » (Subatai) أعظم قواده شهيرا بشعره الشديد الحمرة . وف العصور المتأخرة لم ينظر الصينيون الى تلك الميزات الجثمانية بحماسة ، أو رغبوا فيها ، بل نسبوها فى واقع الأمر الى شياطينهم . وعلى كل حال فمن المحتمل أنه كان بين شعب الشيا عدد من الأشخاص الذين تنطبق عليهم تلك الصفات . أما المياو فقد كانوا يوصفون دائما بأن لون جلدهم أدكن من لون جلد الشيا ، وكانوا على ما يظهر ذوى شعر أسود . وما زال يعيش حتى الآن فى المناطق البعيدة فى جنوبى الصين جماعات مختلفة من السكان الأصليين ، وما زالوا يسمون « مياو » ، ويقول العلماء الصينيون انهم من سلالة القبائل الشمالية الذين فروا هربا من الشيا . ولكن الأرجح هو ان اسم « مياو » كان يطلق على قبائل متعددة لم تكن من الشيا ، وكانت تعيش فى شمالى الصينى فى العصور التاريخية .

ومن دراسة ما احتواه كتاب التغييرات يلوح أن المياو كانوا شعبا فيه للأم السلطة الكاملة على المنزل ، بينما كان الشيا على عكس ذلك ، ولكن سلطة الأب بينهم لم تكن فى القوة التى أصبحت عليها بين الصينيين فيما بعد وقد احتار كثير من العلماء الأوروبيين فى تفسيرهم لما ورد فى كتاب التغييرات خاصا بذلك الموضوع لأنهم كانوا يؤمنون بنظرية خاطئة فى التطور الحضارى وهى أن سلطة الأم تسبق دائما سلطة الأب فى كل مجتمع من المجتمعات ، ولكن الحقيقة هى أن عادة الانتساب الى الأب ، ووجود المجتمعات التى يقوم تؤمن بسلطة الأب المطلقة ، من مميزات جميع الشعوب الأوراسية التى يقوم اقتصادها على الصيد أو تربية الحيوان . وان وجود المرأة فى رسم المسلامة السينية التى ترمز الى « العشيرة » ووجودها أيضا فى أسماء جميع العشائر التى ورد ذكرها ، لا يمكننا أن نفسره على أنه ذكرى لمرحلة ثورية بل يدل ،

على الأرجح ، على الأهمية التي كانت لعنصر المياو في المجتمع الصيني قبل عصر شانج.

ومن الصعب محاولة معرفة التنظيم الاجتماعي والسياسي لمجتمع الشيا وذلك لقلة المصادر وتغييرها الكثير في أيام أسرة « شو » . كان هناك فلاحون وأرستوقراطية حربية تحارب أعداءها وهي فوق العربات ، كما كان هناك زعيم لجميع شعب الشيا من الأرجح انه كان كاهنا أكثر منه ملكا . والعلاقة بين هذه التقسيمات وبين « قبائل الحاكم التسع » و « العشائر المائة » و « شعب ذوى الشعر الأسود » غير واضحة ، والتفسير المرجح هو أنه كانت هناك قرى يسكنها « شعب ذوى الشعر الأسود » وأن تلك الجماعة كانت تستغلها عائلات من الجماعات الأخرى بصورة غير منظمة أو محدودة من نظم الاقطاع . ومما يلفت النظر أن الجماعة الحاكمة لم تتبع نظام العائلة الكبيرة الممتدة التي كانت تمتاز بها الأرستوقراطية الصينية في العصور المتأخرة .

وأهم واجبات الكاهن — الملك هى التوسط بين الأمة وبين الكائنات السماوية. وهو يذكر من آن لآخر فى الآداب الصينية ، وهو يقود شعبه فى حرب ضد المياو أو ضد ثوار ، كانت جريمتهم الكبرى هى محاولتهم استخدام تقويم يتعارض مع التقويم الذى يؤمن به . ومع كل ، فمن الأشياء الواضحة أنه لم يكن له الا القليل من السلطة السياسية ، ويلوح أيضا أنه لم توجد عاصمة ثابتة للبلاد فى ذلك الوقت ، بل كان الملك يذهب حيث يكونون فى حاجة الى خدماته .

وكان هناك عدد لا حصر له من الكائنات ذات القوى التى فوق قوى الطبيعة ، تسكن فى أماكن كثيرة ولها وجوه نشاط متعددة ، ولكن يلوح أن عبادة الأسلاف كانت أقل شأنا مما أصبحت عليه فيما بعد . وتنقسم الكائنات ذات الأهمية الخاصة التى جعلتهم يطلقون عليها اسم الآلهة الى قسمين : الآلهة السماوية ، وآلهة العالم السفلى . والقسم الأول كان فى العادة آلهة

خيرة تسهر على فصول السنة ، وعلى النشاط الزراعى ، وعلى الجو. وقد اتخذ أحدها عرشا له فى النجم القطبى ، وكان أعظمها جميعا وله من الأهمية ما يجعله الكائن الأعلى . وكانت عبادة أولئك الآلهة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدراسات الفلكية ، وكان الكاهن — الملك يقوم بأداء الطقوس التى تقام تكريما لهم فى كل عام فى أيام خاصة ويقصد منها تأكيد عودة الفصول فى مواعيدها ، ونمو الحاصلات . وكانت تلك الطقوس تقام فى الهواء الطلق ، وكانت ذات طابع رسمى دقيق منذ أقدم العصور ، وكانت القرابين التى تقدم والأوانى التى تستخدم فى كل طقس من الطقوس يتحتم أن تكون من نوع خاص لا يسمح بتغييره أو عمل بديل له .

أما آلهة العالم السفلى فلم تظهر أسماؤها الا قليلا في الوثائق ، لأنهسم ربما كانوا يخافون منها . كان أولئك الآلهة يعيشون تحت الأرض ويقرنون بالظلام والموت والشر ، ولا نعرف الا شيئا قليلا عن عبادتها ولكنا نعلم أن طقوسهم كانت تعقد في الليل أو في الأماكن المظلمة . وفي عصر متأخر عن هذا العصر كانت الحيوانات التي تقدم قربانا لهم تحرق حية في حفرات ، ولا يكاد يوجد شك بأنهم كانوا يتقبلون القرابين الآدمية أيضا . كان تقديم الضحايا ظاهرة هامة في جميع الشعائر القديمة ، وهناك ما يسوغ الاعتقاد بأن أهم تلك الضحايا ، والتي كانت لاتقدم الا عند حلول المصائب الكبرى ، هي الكاهن — الملك نفسه . وكانت العادة حتى عصر شو (١٠٢٧ - ٢٢١ ق.م) (١٠ النه في وقت حدوث الجفاف كان الامبراطور يدعو السماء أن تنزل خطايا الشعب على رأسه ثم يقطع الجزء الأمامي من شعر رأسه ويربطه على جبهة الشعب على رأسه ثم يقطع الجزء الأمامي من شعر رأسه ويربطه على جبهة ثور آسود يضحي به بدلا عنه .

 ⁽۱) تتفق أحدث المؤلفات عن تاريخ الصين على أن أسرة شو تمتد من ١٠٥٠ الى
 ٢٤٧ ق ٠ م ٠

⁽ المترجم)

وهذه الثنائية الصينية في العصور القديمة تذكرنا كثيرا بالشمانية التي كانت سائدة بين الشعوب السييرية ، بما فيها من آلهة للصيف وآلهة للشتاء ترتبط بالنور والظلام ويقوم على خدمتها جماعات مختلفة من الشمان (Shaman), ومن حين لآخر توجد اشارات الى بعض أعمال الوساطة الروحانية وهي تشبه في ذلك سيبيريا الأصلية وأقصى شمال أمريكا ، كما أن الرقم السحرى الصيني في ذلك العهد كان رقم أربعة كما هو الحال بين هنود أمريكا الشمالية .

ويبتدىء العصر التاريخي بأسرة شائج (١٧٦٦ – ١١٢٢ ق . م .) (١) ، وبالرغم من ذكر هذه الأسرة كثيرا فى المؤلفات الصينية القديمة الرئيسية فقد كان الباحثون في التاريخ الصيني ينظرون اليها كقصة أسطورية الى ما قبل سنوات قليلة عندما عثر علىعظام عليها مخربشات بعلامات قديمة عند الانحناءة الكبيرة لنهر الهوانج هو . وعثر بعد ذلك على المقابر الملكية لهذه الأسرة وحفرت حفرا علميا ، وعثر في النقوش المعاصرة على أسماء معظم أباطرة « شانج » الذين وردت أسماؤهم فى « كتاب التاريخ » . واذا ضممنا الأشياء المكتشفة الى النقوش المعاصرة ، والى الأخبار التي وردت في المؤلفات القديمة، يمكننا أن نحصل على صورة أفضل لما كانت عليه الأحوال فى أيام تلك الأسرة أكثر من معرفتنا لبعض العصور التي بعدها . لقد تركت لنا أسرة شو التي خلفت أسرة شانج ثروة من الوثائق المكتوبة ، ولكن لم يحفر موقع هـام واحد من عهد أسرة شو جفرا علميا منظما حتى الآن . وساعد تهافت الراغبين فى الحصول على القطع الأثرية الصينية على شدة الطلب على الأواني البرونزية الصينية ، وعلى الأحجار المنقوشة ، كما أن سرقة المقابر كانت شيئا عاديا ، ولو أنها حرفة ممقوتة منذ بداية العصر المسيحي على الأقل. لقد عثر على كثير

المتفق عليه هو أن أسرة شانج حكمت من ١٤٥٠ الى ١٠٥٠ ق . م .
 المترجم)

من التحف الفنية ، ولكن مجرد الحصول على قطعة أثرية عن طريق الشراء لا يكفى لمدنا بما زيده من معلومات متعددة ، وحفر المقابر الملكية في « أن ب يانج » (An-Yang) ما زأل حادثا فريدا في تاريخ البحث العلمي في آثار الصين ، ولم يعثر بعد تلك الحفائر على أي شيء ، له أهمية عظام التنبؤ من عهد أسرة شانج . في القاء الضوء على الحياة اليومية للطبقات العليا من السكان .

ويتضح من دراسة كل اللقايا الأثرية والقسم المسمى « الفكرة العظمى » فى « كتاب التاريخ » ان حكام عصر شانج كانوا يهتمون اهتساما كثيرا بالتنجيم ، وانهم مارسوه بطرق متعددة . ومن بين تلك الطرق أنهم كانوا يعرضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة ، ويجيبون على سؤال السائل من دراسة التشققات التي تظهر فيها . وفي طريقة أخرى كانوا يحفرون عددا من الحفرات البيضاوية الصغيرة في أحد جوانب قطعة من العظم ، وكانت في العادة من عظم كنف شاه ، ثم يحمون قضيبا معدنيا في النار حتى يحمر ويضعونه في تلك الحفرة ، ثم يجيبون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التي تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام . والتنجيم بوساطة عظام الكتف (Scapulimancy) كان ذائع الانتشار في المناطق الشمالية من أوراسيا، وفي أمريكا ، أما التنجيم بوساطة غطاء السلحفاة فيلوح أنه من أصل جنوبي ، وكان حكام شانج يستوردون ويربون السلحفاوات التي يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطاءاتها من النوع المطلوب. وفي طريقة التنجيم بوساطة عظام الكتف كان المنجمون فى عهد شانج يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الاجابة عليها قبل تعريضها للنار وربما كان السبب في ذلك هو الاعتقاد الذي كان سائدا ومعروفا في الصين في العصور المتأخرة بأن الآلهة صماء ، وانها لا تفهم المطالب التي ترفع اليها الا اذا كانت مدونة كتابة ، وهو اعتقاد لم يجد الكتاب انه من مصلحتهم تشكيك الناس فيه . وكانت الأسئلة تتعلق قبل أى أمر آخر بشئون القصر الملكى ، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر ، والنتائج المحتملة للحروب التى يقومون بها ، وعما ينتظر المحاصيل . وكانت بعض عظام الكتف مسطحة تماما ، وكان بعضها مرقما مما يدل على أنها كانت تحفظ للرجوع اليها . وعلى احدى العظام نقرأ شيئا يدعو الى التسلية ويدلنا على تصرف المنجمين . فقد كان السؤال كما يأتى :

اذا خرج الملك للصيد في التلال الشرقية (في يوم كذا) فهل ستسقط الأمطار والى جانب التشققات التي دلت على الجواب بأنها ستمطر نجدهم أضافوا كتابة الجملة الآتية «وقد أمطرت حقا».

كانت العلامات المستخدمة فى الكتابة فى عهد شانج رسوما لأشياء معروفة، وكان بعض تلك العلامات يرسم رسما قريبا جدا من الشكل الحقيقى ثم أصبح له بعد ذلك معنى تصويرى ، وهى الأصول المباشرة للكتابة الصينية الحديثة التى ترسم فى علامات ذات شكل مستطيل . وتختلف تلك العلامات عن مثيلاتها فى عهد أسرة شو ، وفى العصر المبكر من أسرة هان . وقد تطور شكل العلامات الحالية بسبب كتابتها بالفرشاة فوق الورق أما الكتابة فى عصر أسرة شانج فقد كانت ذات أسلوب اصطلاحى متقدم ، ولابد أنه مرت عليه أجيال كثيرة قبل أن تصل تلك العلامات الى الأشكال التى ظهرت فيها لأول مرة . وعلى أى حال فهى لا تشبه أى كتابة أخرى عرفت خارج الصين ، ومن المرجح جدا أنها نشأت فى هذه البلاد فى العصر النيوليتى .

كان الناس فى أيام أسرة شانج يعيشون فى قرى ، وكانت توجد على الأقل مدينة واحدة وهى العاصمة التى كانت المكان المعترف به كمقر للاسرة الحاكمة . وفى الآداب القديمة ، وعلى الأخص مؤلف شعرى وهو ال « شيه تشنج » (Shih Ching) اشارات كثيرة الى حياة عامة الشعب ، وكانوا على ما يظهر يشبهون من سبقهم فى حضارة « لنج — شان » فى العصر النيوليتى .

كان الرجال والنساء يغطون أجسامهم كلها بالملابس اذ كانوا يلبسون سروالا وفوقه معطف طويل ذو أكمام. وكانت المنازل مكونة من غرفة واحدة مشيدة بالطين ، ولها باب فى الناحية الشرقية ، ونافذة فى الحائط الغربى . وكان موقد النار فى وسط الحجرة وفوقه فتحة السقف لتصريف الدخان وتجديد الهواء . وكانت العائلة تنام فى الركن الجنوبى الغربى من الحجرة ، وهو الركن المقدس فيها ، وكانوا يضعون فيه الحبوب التى يختزنونها ، وفيه كانت تقدم القرابين لكل من الآله «أو » (Ao) اله المنزل والآله « تساو » (Tsao) حارس الموقد . وكان على النساء تصريف شئون المنزل والقيام بكل الأعمال داخله وعلى الرجال القيام بالزراعة والعناية بالحيوانات المستأنسة . وكانوا يقضون الشتاء فى الغزل والنسج اذ كانوا يستخدمون منذ أقدم العصور ألياف القنب ، والجوت ولكنهم استوردوا دود الحرير من الجنوب فى بداية عصر شانج ، وكانت العناية بها أحد الواجبات الملقاة على عاتق النساء .

وكانتجيع العائلات في القرية متصلة بعضها ببعض بصلة القربي عن طريق الأب، وكانت ادارة القرية قائمة على القرابة ، والواجبات المفروضة على جيل أمام جيل آخر ، ويحكم الناس الشيوخ من الرجال الذين كانوا رؤساء للعائلات ومن الأشياء الجديرة بالذكر أنه كان لكل قرية بيت عام يجتمع فيه مجلسها ، ويقيمون فيه بعض الاحتفالات العامة . وكان هذا البيت يستخدم من آن لآخر كناد يجتمع فيه الرجال ، ليشربوا الخمر معا أو للاستمتاع بالمسرات الأخرى . وفي خارج القرية كانت هناك غابة مقدسة وعلى مقربة منها ترعة جارية . وكانوا يحرصون كلما استطاعوا أن تكون كل من الفابة والترعة الى الجنوب من القرية حتى تكونا حائلا ضد التأثيرات الشريرة التى تأتى من تلك الناحية . وكانت تقام في الفابة طقوس الربيع والخريف ، ويقصد من طقوس الربيع ازدياد الخصب ، وكان يحتفل بها الشبان والشابات ، وكان لها طقوس الربيع ازدياد الخصب ، وكان يحتفل بها الشبان والشابات ، وكان لها طابع التهتك ، أما احتفالات الخريف فكانت لتوديع فصل الشتاء ، وتقديم طابع التهتك ، أما احتفالات الخريف فكانت لتوديع فصل الشتاء ، وتقديم

الشكر على ما أتى اليهم من محصول ، وكانت تشمل رقصا يؤديه رجال يلبسون أقنعة تمثل رؤوس الحيوانات ويصحبها الاسراف فى الأكل وشرب الجعة ، ويشرف عليها رجال متقدمون فى السن ، وكان للموسيقى الوترية التى ينسبون اليها قوى سحرية دور كبير فى كل تلك الاحتفالات . أما الكائنات التى كانوا يستهدفون رضاها بالاحتفالات التى تقام فى القرية فكانت الأرواح الطبيعية المختصة بالمكان ، والحيوانات التى كان أهم ما فيها الحية والدب والثعلب الماهر الذى يستطيع تغيير شكله . وكان هناك أيضا نوع من عبادة الأسلاف من النوع الذى يتناسب مع حياة الفلاحين . والأرجح ، أن الطقوس كانت تقام لأجل أسلاف القرية كلها ، أما الطقوس التى كانت موجهة الى الكائنات العظيمة فكان يقوم بها الملوك والنبلاء .

وعاش الأرستوقراطيون في عهد شانج حياة ترف ورفاهية ، كما نستدل على ذلك من القبور الملكية لتلك الأسرة ، لأنهم كانوا ينظرون الى تلك القبور كمنازل للموتى ، وكانت تؤثث بالأثاث اللائق بالقصور . كانت حجرة الدفن تبنى بناء متينا من الكتل الغشبية ، وتوضع فى أسفل بئر عمودية عمقها أربعون قدما أو أكثر ، وكان يوصل الى القبر ممر غير مسقوف . وبعد أن ينتهوا من عمل الجزء السفلى يملأون ذلك الممر والبئر بالتراب . ومن الأسف أن طريقة عمل القبور ساعدت على معرفة مكان المقابر ، وكانت المبالغ الكبيرة التى تدفع ثمنا للاثار التى يرجع تاريخها الى عهد شانج باعثا على نهبها وسرقتها على نطاق كبير . وكان الخدم الشخصيون والنساء المحببات الى الحاكم يقتلون ويدفنون معه ، وعندما يردمون المر يرمون بالرؤوس المقطوعة حديثا في التراب فتدفن وتترك شكلها مطبوعا فيه . وأكثر الرؤوس التى عثر عليها في التراب فتدفن وتترك شكلها مطبوعا فيه . وأكثر الرؤوس التى عثر عليها كانت تلبس خوذات برونزية مما يدل على أنها كانت لبعض حراس الحاكم ، ولم تكن رؤوسا للأرقاء أو الأسرى . "

وكانت الجدران الداخلية للقبر مزخرفة برسوم تقليدية . وكان أثاث

القبر يحتوى على أوان برونزية لأجل استخدامها فى الطقوس ، كما يحتوى أيضًا على أسلحة وأحجار منقوشة ، وكثير من الأدوات المصنوعة من حجر اليشم .

وقد عثر أيضا في هذه القبور على تماثيل كبيرة من الرخام لها قيمة فنية عظيمة بالرغم من أن أسلوب صناعتها أسلوب مجمل ، ولهذه التماثيل أهمية خاصة لأنها لم يرد لها ذكر في المؤلفات القديمة ، وبالرغم من أن الكراسي والطاولات لم تستخدم في ذلك المهد فقد كانوا دون شك يستخدمون أشياء أخرى مصنوعة من الخشب والمواد الأخرى التي تفنى بسهولة ، كقرابين الطعام والملابس ولفات الحرير . ومهروا في نحت الأحجار ، ويلوح أنهم كانوا يصنعون الأشياء من اليشم ومن الرخام بطريقة النشر لا بطريقة التكسير والتسوية والصقل التي كانت الطريقة المألوفة في العصور النيوليتية . وكانت طريقة عمل التماثيل بوساطة النشر مستخدمة أيضا في بعض الحضارات القديمة في جنوب شرقي آسيا ، وفي اليابان ، وبين الاسكيمو في ألاسكا ، والهنود في كولومبيا البريطانية ، عند صنعهم للادوات من حجر اليشم ، وهذا يصرف أذهاننا مرة أخرى الى تأثير ذلك الشعب الذي يخفي علينا أمره ، وهو شعب البحر الذي سبقت الاشارة اليه .

وكانت الأسلحة مصنوعة من البرونز ، وكان السلاح المفضل عند الالتحام هو السلاح المعروف باسم « كو » (Ko)) وهو نوع من «التوماهوك» (Tomahawk)، فأس الحرب لدى الهنود الأمريكيين ، الذى استمد شكله من أحد أنواع المناجل البدائية التى كانت تستخدم فى الصين الشمالية فى العصور النيوليتية لحصاد الحبوب . ونعلم من المصادر الأدبية أن نبلاء شانج كانوا يركبون عربات يجرها جوادان ، وأن جيش « شانج » كان مكونا من راكبى العربات ، ومشاة لا يحملون الا أسلحة قليلة ، وأن سلاحهم المفضل هو القوس ، وكان على الأرجح من النوع المركب . وكانوا يلسون خوذات من القوس ، وكان على الأرجح من النوع المركب . وكانوا يلسون خوذات من

البرونز ، وربما دروعا مصفحة فوق الجسم ، يصنعونها بطريقة خياطة قطع صغيرة من المعدن أو العظم فوق قماش أو أى مادة أخرى ذات مرونة .

وأهم ما عثر عليه في المقابر هي الأواني البرونزية التي كانت تستخدم للطقوس الدينية اذ نرى فيها قوة وبراعة في التصميم ومهارة في صب المعدن لم تستطع أى حضارة من الحضارات فى أى زمن ، وفى أى مكان فى العالم ، أن تتفوق عليها . كان الاناء كله على شكل طير أو حيوان ، وكانوا في أغلب الحالات يزينون سطح الاناء برسوم صغيرة لبعض أنواع الحيوان التي استفدنا كثيرا من دراسة موضوع اختيارهم لها . فبالرغم من أن المنطقة التي عاش فيها الشانج كانت فى شمالى الصين ، وبالرغم من الاعتقاد السائد بأن مؤسسى أسرة شانج أتوا من الغرب عن طريق الاستيس فاننا لا نرى الا عددا قليلا من حيوانات الشمال. كما أن الدور الكبير الهام الذي يلعبه الدب في الطقوس الدينية في جميع بلاد شمالي أوراسيا ، وأن طوطم أسرة شيا كان لنوعين من أنواع الدببة ، فان غياب هذا الحيوان بالذات من بين الحيوانات التي وردت في زخارف الأواني أمر يثير الدهشة اذ كانت الحيوانات المحببة اليهم في الزخرفة هي النمر والجاموس والكباش والثيران . وكانوا يرسمون أجزاء منها فى زخارف تقليدية تعرف باسم « تاو – تيه » (Tào-t'ieh) ولهذا فان ذلك الاختيار يحملنا على الاعتقاد بأن فن شانج لم يتطور من فن رسم الحيوان في الاستپس ، وانما جاء أصلا من الجنوب ، ولم يأت من الغرب. وفى الوقت ذاته فان أشكال الأواني البرونزية ، اللهم الا القليل منها ، يرجح انها مستمدة من أصول صنعت من الخشب والفخار وقرون الحيوانات. فالأوانى التي على صورة الحيوانات ذات سطوح مزخرفة بزخارف غائرة جدا يجعلنا نرجح أن الأصول التي لقلت عنها كانت من الخشب المنحوت. ومن المستحيل أن نجزم اذا كانت الزخارف التقليدية التي تغطى سلطوح تلك الأوانى زخارف للزينة فقط أو أنها ذات معان رمزية ، وذلك بالرغم من أن

الاهتمام الشديد الذي أظهرته شانج نحو الشعائر والطقوس يجعلنا نرجح الغرض الثاني، ولا يوجد في أي حضارة أخرى خارج الصين أي شبيه لهذه الرسوم الزخرفية ، ولكني أحس شخصيا بأن لها بعض الصلة بزخارف حضارة « دنج سون (Dcng Son) ولها علاقة أيضا بالفن في خلال العصور التاريخية في بعض المناطق التي اتصفت بشدة التمسك والمحافظة على حضارتها في اندونيسيا وميلانيزيا ، ولها علاقة أيضا بفنون جزر الماركساس بيولينيزيا والماورى . وبالرغم من أن هذا الافتراض لا يمكن اثباته فلن يدهشني اذا كانت البحوث الأثرية في المستقبل ستثبت وجود أسلوب فني في منطقة جنوب شرقي آسيا في العصور القديمة ، تفرعت منه جميع تلك الرسوم الزخرفية بما في ذلك زخارف شانج نفسها .

والكمال الفنى للاوانى الطقسية البرونزية يدعو الى الدهشة والاعجاب وان الانسان ليجد نفسه عاجزا عن تصديق ما يراه ، لأن أعظم وأمهر المشتغلين بصب المعادن معرضون لأن يصادفهم سوء الحظ فى عملهم بين حين وآخر . ولكن يجب أن نضع في أذهاننا أن الأواني التي في متناول أيدينا للدراسة انما هي أوان اختيرت بمناية وتدقيق ، لأن أحسن الأواني البرونزية التي وصلت الى السوق التجارية عن طريق لصوص المقابر نسبها الدارسون الى عصر شانج ، ومن الجائز جدا أنه عندما تصل الى أيدينا البيانات الكاملة عن جميع ما عرف من تلك الأواني البرونزية فسيظهر من بينها بعض الأواني غير المتقنة الصنع ، لأن كمال الصناعة الفنية لا يمكن أن نعزوه فقط الى مهارة الصانع ولكن يجب أن نعزوه أيضا الى الغرض الذي من أجله صنعت تلك الأوانى ، وذلك لأن الأواني القربانية غير الكاملة ربما كانت تسبب غضب الآلهة تماما كالاهمال في أداء الشعائر . وفي أيام أسرة شانج كان البرونز نادرا جداً ، ولابد أنه كان يحتل المكانة التي يحتلها الذهب في حضارتنا الحالية ، وان أي قطعة تظهر فيها تشققات أو عيوب في صناعتها كانوا يعيدون صهرها

ويصبونها مرة بعد مرة حتى ي<mark>حصلوا على اناء كامل الصنع . وعرفوا صب</mark> المعدن بطريقة الشمع المفقود ، وبطريقة قوالب من الفخار ، وقد عثر على قطع منها في موقع العاصمة القديمة لشانج ولسنا نعرف حتى الآن مصدر البرونز الذي استخدموه. ففي منطقتين من المناطق التي ذكرت في كتاب « جزية اليي » (انظر الفصل ٣٦) يشيرون الى أنها كانت تنتج ثلاثة أنواع من المعادن مما يرجح أن النحاس والقصدير من أصل صيني . وعلى أي حال ، فان الأهالي كانوا يستغلون مناجم القصدير الغنية فى شبه جزيرة الملايو فى وقت كان فيه أهل الملايو أنفسهم ما زالوا يستخدمون الأدوات النيوليتية ، وهذا يدل على التجارة في المعادن في ذلك العهد . وعلى أي حال ، فان التحليل الكيموي لبرونز شانج سيظهر دون ريب اذا كانوا جلبوا أى قصدير من ذلك المصدر. ويلوح أن تكون امبراطورية شانج كانت وسطا بين دولة تسعى لاخضاع ما جاورها ، وبين نظام الدولة الاتحادية . فالمقاطعات المختلفة التي تكونت فيها الامبراطورية كان لها استقلالها السياسي الداخلي ولم يكن هناك ما يشبه المجلس الامبراطوري أو جمعية عمومية للنبلاء. فكل مقاطعة من المقاطعات كانت تحكمها عائلتها النبيلة الوراثية التي كانت تخضع للامبراطور ، وتشترك في الاستفادة من الطقوس الدينية التي يقوم بها . وكانت قوة السلطة المركزية تعتمد أكبر الاعتماد على شخصية الامبراطور ، فاذا كان الامبراطور ضعيفا حارب النبلاء بعضهم البعض. وفي جميع الأزمان كانت الامبراطورية تحارب جارا من جيرانها غير الصينيين. وفي عظام التنبؤات تتكرر الاشارة الى قبيلة وصفوا أهلها بأنهم « رعاة » كانوا يعيشون الى الغرب من بلاد شانج ، وكانوا يغيرون عليهم دائما لأجل الحصول على الرقيق ، وخصوصا لتقديمهم كضحايا آدمية ، وفى الاثبات التي ورد فيها ذكر القرابين والأضاحي يجد الانسان « الرعاة » على قدم المساواة مع الحيوانات المستأنسة الأخرى التي كانوا يقدمونها

ولسنا نملك الا معلومات قليلة عن التنظيم الداخلي للمقاطعات ، ولكن من الأمور الواضحة انه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء والعامة . ولا نعرف شيئا عن التنظيمات المالية ، ولكن من المحتمل أنها كانت في أيام شانج مماثلة لما كان في أيام تشو فيما بعد ، اذ كان الفلاحون يعملون لسادتهم ، بزرع حقول معينة تخصص لهم ، وكان القرويون يمدون سسيدهم بمشاة قليلي التسلح كلما ذهب الى الحرب . ويجب ألا ننسى أن النبلاء أنفسهم في أيام شانج كانوا قليلي التسلح اذا قيسوا بالمقاييس الأوروبية في عصر الاقطاع ، وكان الفلاحون مدربين على استخدام القوس المركبة التي كان في استطاعتها أن ترمى بالسهم فيخترق أي درع كانوا يستخدمونها في ذلك العهد . وقد استمرت هذه الحالة فترة طويلة من الزمن بعد زوال أسرة شانج ، وقد قيل استمرت هذه الحالة فترة طويلة من الزمن بعد زوال أسرة شانج ، وقد قيل على سبيل التهكم ان ذلك الاهتمام الشديد برفاهية الفلاحين التي كان راجعا ينادي بها فلاسفة الصين ، وكانوا هم أنفسهم من الطبقة العليا ، ربما كان راجعا ينادي بها فلاسفة الصين ، وكانوا هم أنفسهم من الطبقة العليا ، ربما كان راجعا الى هذه الحقيقة .

وكان لحضارة شانج اتجاه قوى غير عادى نحو الدين والسحر ، ولكنه كان فى الوقت ذاته خاليا من الغموض والتصوف . كانت كل قرية تقوم بعمل احتفالاتها الخاصة المتصلة بنشاطها على مدار السنة ، وكانت تعبد أسلافها ، أما نبلاء المقاطعة فكانوا يؤدون طقوسا أخرى لصالح المقاطعة . ويلوح أنه كان لكل مقاطعة عدد من الآلهة الثانوية ، كما كان لها أيضا أرواح للجبال والقنوات المحلية . وأخيرا ، كان الامبراطور نفسه يؤدى طقوسا معينة لتكريم أعظم مجموعة من الآلهة ، وعلى الأخص الكائنات السماوية ، وبذلك تستفيد الدولة كلها من عمله هذا . وكانت الطقوس التي يؤديها الملك والنبلاء طقوسا ذات طابع رسمى شديد التمسك باشتراطات معينة اذ كانت هناك قوانين مارمة يجب اتباعها فيما يختص بنوع أواني القرابين التي تستخدم فى كل مناسبة ، والقرابين التي تلائم هذه المناسبة ، كما لا يوجد شك فى أن كيفية مناسبة ، والقرابين التي تلائم هذه المناسبة ، كما لا يوجد شك فى أن كيفية

أداء تلك الطقوس كان يسير أي<mark>ضا على تقاليد دقيقة لا تقل فى ضرورة اتباعها</mark> عن اختيار الأوانى والقرابين.

وكانوا يقدمون الحيوانات دائما كقرابين في احتفالاتهم ، كما كان تقديم الضحايا الآدمية في عهد شانج أكثر منه في أي وقت آخر في التاريخ الصيني . ولم تقتصر عبادة الأسلاف على أرواح الأسلاف كمجموعة ، ولكن كانت هذه الظاهرة ظاهرة عامة في الطقوس التي يقوم بها النبلاء أو الملك . وتدل الصرامة في الطقوس على أنها طقوس سحرية في أهدافها ، كما كانت طقوسا دينية . وقد سلفت الاشارة الى أهمية التنجيم ، على حين كان المنجمون فئة خاصة على ما يظهر ، فقد كان يتحتم على الحكام أن يقوموا بتلك الطقوس بأنفسهم وأن يجمعوا في شخصهم جميع الوظائف التي كانت مقسمة في المجتمعات الأخرى بين الحكام المدنيين والكهنة .

ولكى يقوم النبلاء بأداء ما عليهم من واجبات كان يتحتم عليهم أن يتلقوا التعليم الكافى ، وكان أكثرهم يعرفون القراءة والكتابة ، وهم يختلفون فى هذه الناحية اختلافا كبيرا عن النبلاء الاقطاعيين فى البلاد الغربية. كانت هناك مراسلات رسيمية كثيرة ، وكانوا يفخرون بالمهارة فى تحرير الخطابات والمذكرات. وكان الاحساس بالخوف من نقد الآخرين وضرورة عمل كل شىء على الوجه الأكمل من الظواهر الهامة فى الحضارة الصينية فى عهد أسرة شانج وظل مستمرا فيما بعد مصحوبا برغبة قوية فى أن تبقى تلك الأعمال الأدبية ليراها من يأتى بعدهم. وبالرغم من أن النبلاء كانوا يقولون انهم هم الذين كتبون مراسلاتهم الرسمية ، فمن المحتمل جدا أنه كانت توجد فى ذلك المهد يكتبون مراسلاتهم الرسمية ، فمن المحتمل جدا أنه كانت توجد فى ذلك المهد وكانوا يلعبون دورا هاما فى ادارة الحكومة .

وما زالت أصول نشأة الشانج من الأمور الغامضة . فقد أتى أسلافهم الى الصين ، على ما يظهر ، من الشمال الغربي من الطريق الذي أتى منه الغزاة

فى جميع عصور التاريخ الصينى. زد على ذلك ، ان بداية الأسرة ، وهى حوالى عام ١٥٠٠ ق. م. تتفق الى حد كبير مع غزو الآريين للهند وغزو بلاد الشرق الأدنى بجماعات مختلفة من شعوب الاستپس الذين كانوا يربون الخيل ويستخدمون العربات ، والنظرية المقبولة من جميع الباحثين بوجه عام هو أن الشانج هم الذين أدخلوا الى الصين عددا من العناصر الحضارية التى ترجع الى أصل غربى أى من غربى آسيا ، وبخاصة زراعة القمح والشعير يظهران لأول الخيل وحرب العربات وصب البرونز والكتابة فالقمح والشعير يظهران لأول مرة فى هذا المهد ، وهما بدون شك يرجعان فى أصلهما الى الغرب ، ولكن الخيل والماشية والأغنام كانت معروفة فى حضارة شعوب اللنج شان . وليس هناك أى دليل على أن تأسيس أسرة شانج كان سببا فى زيادة تربية الحيوانات ود على ذلك ، أنهم لم يستخدموا اللبن ، وهى ظاهرة لا يمكن تفسيرها اذا كانت حضارة شانج مستمدة من احدى الحضارتين اللتين كانتا معروفتين فى منطقة الاستيس .

ووجود الفخار المصنوع بوساطة عجلة الفخار فى حضارة اللنج شان دليل على معرفة العجلة قبل عهد شانج ، كما أن « كتاب التغييرات » يذكر أن المركبة وعربة الحرب كانتا معروفتين فى أيام الشيا . وصناعة أمثال هده الأشياء بأدوات مصنوعة من الحجر عمل مضن صعب ولكنه ليس مستحيلا كما نعرف من دراستنا لحضارات شعوب أخرى مثل الشعب الپولينيزى وشعب المايا . أما صب البرونز والطرق التى استخدموها فى صب المعدن فهى دون شك من أصل غربى ، ولكن أشكال معظم أسلحة شانج وأوانيهم لاتشبه شيئا عثر عليه فى حضارات غربى آسيا حتى الآن . وكذلك شأن الزخارف التى عليها فهى فريدة فى نوعها ، أما فيما يختص بكتابة شانج فلا يوجد ما يشسبهها فى أى مكان خارج الصين ، كما تجدر الاشارة الى أن غزاة ما الستيس الذين كانوا يثيرون الفزع بين المدنيات التى تقع فى المناطق الواقعة الاستيس الذين كانوا يثيرون الفزع بين المدنيات التى تقع فى المناطق الواقعة

الى الغرب من الصين كانوا يجهلون تماما القراءة والكتابة ثم ان ذلك الاهتمام الشديد بالطقوس الدينية والتنجيم ، وذلك الاحساس القوى بالاعتماد على قوى عليا ، وهى الظواهر التى تمتاز بها حضارة شانج ، تختلف اختلافا تاما عن الحضارتين اللتين كانتا سائدتين في منطقة الاستيس .

وربما كان آكثر التفاسير احتمالا هو أن مؤسسى أسرة شانج كانوا جماعة قليلة العدد نسبيا وكانوا يمارسون الزراعة وتربية الحيوان كما كانت تفعل شعوب الاستپس قبل أن تصبح من البدو والرحل. وعرف هؤلاء المؤسسون الأوائل البرونز من صلتهم بالغرب ، اذ كان هذا المعدن معروفا وشائع الاستعمال فى تلك البلاد حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ، كما تعلموا الاعتماد الكبير على عربات الحرب التى ساعدهم على صنعها معرفتهم لهذا المعدن الجديد . وساعدهم المامهم بهذه الأشياء ، وجعلهم يتفوقون على غيرهم ، وكان هذا التفوق مع الاحتمال الكبير لوجود تنظيمات عسكرية لديهم باعثا على نجاحهم فى قهر السكان النيوليتيين فى شمالى الصين . وعلى أى حال ، فانهم ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه كل من غزا الصين . فقد أضافوا الى الحضارة المحلية بعض عناصر غربية قليلة فساعد ذلك على ايجاد تطورات جديدة فى التقاليد الصينية ولكنهم لم يكونوا سببا فى خلق أى ثورة حضارية .

وبصرف النظر عن أصل شانج فان منطقة شمالى الصين عند ظهور هذه الأسرة كانت منطقة تسكنها قبائل مستقلة ذات حضارات نيوليتية مختلفة ، وعند انتهاء أيامها كانت هذه المنطقة بالذات يسكنها شعب له حضارة واحدة ، لها طابعها الصينى الذى يميزها . وكان عصر شانج ، فى نواح متعددة ، صورة لمجرى التاريخ الصينى فيما تلا من عصور . لقد بدأ بغزو أجنبى تلاه تحضير الغزاة . وشهد عصر شانج رفع شأن الكتابة الى المكانة التى ظلت تتمتع بها فى الحضارة الصينية فيما بعد ، كما شهد نشأة احترام العلم ، وشهد أيضا وضع الأشكال والصيغات النهائية للطقوس الدينية ، وانتصار الأسلوب الفنى على

الانفعال العاطفى فى الصلة بين الانسان وبين القوى التى فوق الطبيعة. وتبلورت طرق تحديد معظم الواجبات المدنية والدينية لكل فرد. وقد سبب وجود ارستوقراطية متعلمة من الكهنة والمحاربين والحكام امتزاجا كاملا لا ينفصم بين السلطة الدينية والدولة.

وفضلا عن ذلك ، فان النتيجة لم تكن خلق حكومة لرجال الدين بأى صورة من الصور . فسلوك الصينيين كان دائما سلوكا عمليا جدا ، فجعلوا الدين أداة مكملة للحكم . وقد ظلت هذه الأساليب متبعة فى جميع عصور التاريخ الصينى وأنقذت البلاد من الصراع بين الكهنة والحكام ، ذلك الصراع الذي مزق كثيرا من المدنيات الأخرى . حتى سقوط أسرة « شانج » ذاته نراه يضع أسلوبا للدعاية التي اتبعها فيما بعد كل من جاء بعدهم . فقد صور الغزاة من أسرة « شو » الذين قضوا على آخر أباطرة « شانج » ، صوروا هذا الامبراطور بأنه مثال للرذيلة والقسوة ، وأنهم لم يأتوا الا كمحررين أرسلهم كائن علوى رحيم ليعاقب أسرة « شانج » على جرائمها ، وليعيد الأمن الى الناس .

الفضِيل ليسابع والثلاثون الصين في عصرها التاريخي المبكر

تدخل الصين عصرها التاريخي الصحيح بابتداء أسرة شو ، وتستكمل الحضارة الصينية معظم طابعها الذي تمتاز به . وكان جزء كبير من هذا الطابع موجودا بالفعل في أيام شانج ، ولكن أثناء عهد أسرة شو تكامل ذلك الطابع . وفي الحقيقة يمكننا القول بأن شو كانت عهدا من العهود أكثر منها أسرة حاكمة، وبالرغم من أن اثبات أسماء ملوك الأسرات تقول بأن أيام شو استمرت من حوالي ١٠٠٠ ق . م . حتى عام ٢٢١ ق . م . فان الحكم الحقيقي لأباطرة هذه الأسرة انتهى حوالي عام ٧٧٠ ق . م عندما انتقلت العاصمة نحو الشرق الى مدينة « لو - يانج » (Lo-Yang) . ولكن حتى قبل ذلك الحادث بدأت القوى المخربة التي لا يمكن تجنبها في أي نظام اقطاعي في اضعاف السلطة المركزية . وأهم عمل قامت به أسرة شو هو وضع نظم اجتماعية متكاملة ونظم سياسية ودينية استطاعوا فى داخل حدودها أن يتمموا وينظموا الأساليب التى كانت موجودة فعلا في الصين ، وما استعارت من الحضارات غير المتمدنة التي كانت الى الغرب منها . ومن الصعب أن نذكر الى أى مدى كان مؤسسو الأسرة مسئولين شخصيا عن ذلك ، ولكنهم كانوا أو كان مستشاروهم مسئولين دون شك عن تحويل الأساليب الحضارية التي كانت موجودة قبلهم الى نظام متكامل . وكان الملوك الأول من أسرة شو في مركز ملائم يسمسح لهم بعمل ذلك ، لأنهم كانت لديهم الخبرة في مزج عناصر من حضارة شيا مع عناصر من حضارة شعوب الاستيس غير المتحضرة.

ومع أن العلماء الصينيين في العصور المتأخرة اصطنعوا نسبا من ملوك شيا القدماء يربطهم بأسرة شو ، فمن الجائز أن يكون مؤسس هذا البيت كان نبيلا من سلالة شيا ، وكان يسمى « ليو » (Liu) الذي كان يعيش على الحد الشمالي الغربي لمنطقة شيا في القرن الشامن عشر ق . م . ، وربما كان القدوم غير المتحضرين الذين صادفهم هناك وأخضعهم لسلطانه ، كانوا على الأرجح من الشعب الذي كان يسميه الصينيون « الرعاة » الذين كانوا معرضين دائما لهجمات الشانج واستغلالهم لهم وربما كان أولئك المقهورون على أمرهم ينظرون الى حكامهم من أسرة شيا نظرتهم الى الحامى لهم لأن شعار البيت المالك في شو كان : « الاحسان هو أفضل سياسة » . وفي القرن الرابع عشر ق . م . كان ضغط القبائل الزاحفة من الغرب سببا فى اضطرار الشو ومن كانوا يوالونهم الى الاتجاه نحو الصين فاحتـــلوا المنطقة التي تعـــرف الآن باسم « فنج سيانج » (Feng Siang) ، وأصبحوا من موالي أباطرة شانج . وكانت حضارتهم عند وصولهم الى تلك المنطقة حضارة فيها أثر كبير من حضارة الاستپس. كانت السلطة المطلقة في العائلة للاب كما كانوا ينتسبون أيضا اليه . وكان للخيل على ما يظهر أهمية كبرى في اقتصادهم ، وكانوا في البداية يركبونها قبل أن يستخدموها فى جر العربات ، وان ميل الشو الى استخدام العربات الحربية بمجرد حصولهم على المعلومات الضرورية يدل على أنهم لم يكونوا قد أتموا بعد معرفتهم لأساليب استخدام الخيـل في الحرب أو ِللأدوات اللازمة ا لك.

وتاريخ حكام شو ، كما هو مسطر فى كتب الغاب الهندى (البامبو) ، يدل على أنهم جمعوا بين عزيمة لا تكل للحصول على القوة ، وبين الحب الشديد للنظام ، وبين الاحترام العميق لعمل ما يعملونه حسب الأصول الواجب اتباعها . والى آخر وقت من أوقات تبعيتهم لأباطرة شانج كانوا يعاملون أولئك الأباطرة بجميع مظاهر الاحترام فى الوقت الذى كانوا يضمون اليهم بعض

الولايات الصغيرة واحدة بعد الأخرى حتى أصبحت الامبراطورية كلها تحت سيادتهم . وعندما تمكن الملك « ون » (Wen) من خلع آخر أباطرة شانج وأسس أسرة شو ، فعل ذلك مع جميع مظاهر الأسف المتسم بالأدب ، وبدأ في الحال في تنظيم المجتمع والدولة على أساس ما كان مسطرا في الورق ، أو على الأصح مسطرا على البامبو كنظام دقيق. وكما ذكر المؤرخون الصينيون الذين كانوا دائما من المخلصين لنظرية « الرجل العظيم » ، كان من أثر تغيير العائلة الحاكمة تغيير في نظام العائلة . كما يرجح أنها غيرت أيضا في قواعد النسب بين النبلاء . وعلى أي حال فان تغيير كيان العائلة في أي مجتمع عمل من اعظم الأعمال ، ومن المحتمل أن الذي حدث بالفعل أن العائلات النبيلة التي أعظم الأعمال ، ومن المحتمل أن الذي حدث بالفعل أن العائلات النبيلة التي العائلي متلائما مع النظام الذي كان متبعا بين نبلاء شو . أما عن الفلاحين فمن المرجح جدا أن الأسرة لم تحاول تعديل عاداتهم التي كانوا يمارسونها لأن أهم وظيفة لهم هي دفع الضرائب .

كان نبلاء شو منتظمين فى عائلات متحدة تشبه الى حد كبير الأرستوقراطية الصينية فى جميع العصور التالية . وكانت النواة لتلك العائلات جماعة من الذكور الذين ينتسبون الى سلف يجمعهم ، يعيشون معا فى منزل واحد يخصهم جميعا ، ويعملون متعاونين تحت سلطة أكبرهم سنا . وكانت هذه العائلات المتحدة والجماعات الأكبر منها التى تضم جميع الذين يحملون اسما واحدا ، والتى كانت العائلات تنتمى اليها ، تسير كلها على نظام الزواج من خارج العائلة . وكانت السلطة المطلقة للأب ، وكانت النساء اللاتى يولدن فى العائلة المتحدة لا يعدوهن تابعات لها . انهم لا يقدموهن لأرواح الأسلاف ، ولكن المتحدة لا يعدوهن تابعات لها . انهم لا يقدموهن لأرواح الأسلاف ، ولكن عند زواجهن كن يقدمن الى أرواح أسلاف أزواجهن ، ويصبحن بذلك أفرادا فى جماعة عائلته . وكان الزواج من الناحية النظرية مقصورا على زوجة واحدة ولكن عندما كانت تذهب ع وس من الناحية النظرية مقصورا على زوجة واحدة ولكن عندما كانت تذهب ع وس من الناحية النظرية مقصورا على زوجة كانت تصحيها

أخت أصغر منها ، وبعض الخادمات ويصبحن كلهن بصورة آلية محظيات للزوج. كانت المرأة تتبوأ مركزا عاليا وبالرغم من أن النساء النبيلات كن يعشن في عزلة عن الرجال فانهن لم يحيين حياة الحريم المعروفة ، وكانت النساء في ذلك الوقت البعيد يتعلمن القراءة والكتابة ، وهناك أدلة كثيرة على أن الأزواج كثيرا ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى في شئون الدولة .

وفى تنظيم امبراطورية شو ، ساروا على نسق العلاقات الوطيدة التي توجد بين الأفراد الذكور في العائلة ، وكان أهم تلك العلاقات هي العلاقة بين الأب والابن . وكان المفروض أن هذه العلاقة يجب أن تكون الأصل للعلاقة بين الامبراطور والكائن الأعلى من ناحية وبين الامبراطور وشعبه من ناحية أخرى. وفي هذا العصر نشأ اللقب الامبراطوري « ابن السماء » فقد كان الامبراطور فى مركز الابن للكائن الأعلى ، ولكنه فى الوقت ذائه كان فى مركز الأب بالنسبة الى شعبه ، وكان المفروض أنه يقوم ازاءهم بواجب الأبوة المزدوج وهو تربيتهم واعالتهم فى رحمة ورفق ، واجبارهم على التحلي بالخلق الحسن . وكانوا يصرون أيضا على وجود علاقة عائلية ثابتة اصرارا قويا ، وهي العلاقة التي تخلقها فوارق السن بين الأجيال المختلفة وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر ، فعلى الصغار أن يحترموا ويطيعوا من هم أكبر منهم ، ونرى انعكاس ذلك في سلوك وواجبات المراتب المختلفة من النبلاء تجاه بعضهم البعض . وأخيرا ، كانت هناك صلة أخرى وهي صلة لا شأن لها بالعائلة وهي صلة المعونة المتبادلة والثقة التي تفرضها الصداقة التي يمكن اتخاذها كأساس للولاء بين الحاكم الاقطاعي وأتباعه من النبلاء .

وزاد عدد المدن فى عهد أسرة شانج وكانت تنشأ واحدة بعد أخرى وقد استمر ذلك الاتجاه فى عهد أسرة شو . كان نبلاء شو يسكنون المدن ، وكانت المدن محصنة ، ومركزا للادارة ومكانا لتخزين الضرائب العينية التى يدفعها الفلاحون . وأصبحت المدن أيضا مراكز للتجارة ولصناعة الأدوات التى تحتاج

اليها حياة البلاط. وكان البلاط الاقطاعي مكونا من عائلة السيد ومن أتباعه الأرستوقراطيين ، ومن مستشاريه وموظفيه ، ولم يكونوا كلهم من أصل نبيل. وأصبحت تلك المدن مراكز للعلم والترف ، وكانت عونا وباعثا جديدا على تقدم المدنية.

ولم تتغير نظم حياة الفلاحين حتى تحت حكم أسرة شو على الأرجح الا قليلا عما كانت عليه في أيام شانج . ولكن التنظيم النظرى لدولة شو شمل أيضا قرى الفلاحين ، ووضع لها تنظيمات وتحديدات معينة . وليس في استطاعتنا أن نقول آكان نظام العائلات الثماني الذي ورد وصفه في المؤلفات قد نفذ بالفعل أو لم ينفذ ، ولكنه كان بكل تأكيد مثلا أعلى لهم . ويقضى هذا النظام بأن ثماني عائلات من الأقارب تشيد مساكنها حــول بئر يتوسطها ٬ وكانوا يقسمون الأراضي الزراعية التي حول القرية الى ثمان حصص متساوية في مساحتها وقيمتها ، تعطى كل حصة منها الى عائلة ، وكانوا يتناوبون امتلاك هذه الحصص بين حين وآخر لتكون هناك مساواة تامة في الفرص. والي جانب هذه الحقول الثمانية كان هناك حقل تاسع أصغر مساحة من الحقول الأخرى يزرعه أهل القرية مجتمعين ويعطى محصوله للسيد الاقطاعي. ومن الواجبات الملقاة على عاتق الفلاحين العمل في اصلاح الطرق دون أجر ، وكذلك العمل في التحصينات وفي الأشغال العامة الأخرى ، ومن بينها تشييد القصور للسادة الاقطاعيين. وفي وادى النهر الأصفر ، الذي كان وما زال قلب الامبراطورية ، شملت الأشغال العمومية المشروعات العظيمة الخاصة بالرى وحماية البلاد من خطر الفيضان ، وكانت الحاجة الى التنظيم والتعاون في هذه المشروعات من الأمور التي قوت سلطة الحكام.

وقضى الشو على آخر ما بقى بين الصينيين من نظم سلطة الأم ، وأسسوا نظاما يقضى بأن يرث الابن الأكبر أباه . ففى خلال عهد شانج كان الميراث يؤول الى الأخ من أخيه قبل أن يتحول الى الابن ، وطالما كانت نتيجة ذلك هى

الاغراء بقتل الاخوة ، والمنازعات العائلية . وكان مجتمع شو مقسما الى طبقات ، وكان النبلاء مقسمين الى خمس مراتب حسب أهمية المناطق التى يحكمونها ، وكان النبلاء من جميع المراتب الخمس يحصلون على اقطاعياتهم من الملك مباشرة لا من النبلاء الآخرين الذين كانوا أسمى منهم كما كان الحال فى النظام الاقطاعى الأوروبي . وفى التنظيم الأول للامبراطورية حرص أباطرة شو على تسهيل الانتقال من النظام القديم ، وذلك بتثبيتهم معظم العائلات الحاكمة فى حكم اقطاعياتهم الوراثية ، ولكنهم كانوا يعزلون أى شخص منهم يثبت عدم كفايته أو أن يكون غير أهل للثقة ، ويعطون اقطاعيته الى شخص آخر كان فى أغلب الحالات من أقارب الامبراطور .

ويلى النبلاء جماعة من موظفى البلاط والاداريين الذين كانوا يعتمدون اعتمادا مباشرا على الملك لأنهم كانوا يحصلون على دخلهم كمرتبات ، أو من الضياع التى كان يمنحها لهم . ويلى أولئك الموظفين بورجوازية قليلة العدد من التجار والصناع المحترفين المهرة ، فى حين يأتى فى آخر الصف الفلاحون بجموعهم الكبيرة .

وكان هناك فاصل واضح المعالم بين النبلاء والعامة. فكان النبلاء وحدهم الذين يلتحقون بالمدارس العليا ويتلقون تعليما كاملا فى الفنون العقلية الستة التى كانت ذات قيمة خاصة فى ذلك العهد، وهى: الشعائر الدينية ، الموسيقى ، الرماية ، قيادة العربات ، الرياضيات ، والكتابة. وبالرغم من أن أباطرة شو افتخروا بفتحهم المدارس للعامة فان التعليم فى تلك المدارس كان مقصورا على التعليم الضرورى لحياتهم اليومية. ولكن مع هذا التحديد فى اتاحة الفرصة ، فهناك براهين كثيرة على أن كثيرا من الموظفين والقائمين على ادارة البلاد كانوا من العامة ، وقد زاد هذا الاتجاه كلما اتضحت عيوب انتقال الوظيفة عن طريق الورائة. وأهم ميزة تمتع بها النبلاء كانت الحصانة من قانون العقوبات. ويقول أحد الأمثال التى ترجع الى ذلك العهد: « ان الشعائر

الدينية لا تنزل الى مستوى الشعب كما أن قانون العقوبات لا يرتفع الى مستوى النبلاء » . فالنبيل لا يمكن أن يقتل اذا اقترف أى جريمة ، ولكن اذا ثبتت ادانته فى جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده . أما عامة الشعب فكانوا معرضين لأن يوقع عليهم قانون عقوبات صارم ، ويوقع العقاب عليهم سواء فى أشخاصهم أو فى ممتلكاتهم .

وفى مقابل ما كان يقدمه عامة الشعب من أعمال السخرة ودفع الضرائب كان النبلاء يتعهدون بالدفاع عن رعاياهم وفى القيام بأداء ما يلزم من العلاقات الودية المنظمة مع تلك القوى التي هي فوق قوى الطبيعة التي يعتمد عليها رخاء ورفاهية الولاية . وكما كان الحال في عهد أسرة شانج كان النبيل من أى فئة من الفئات يقدم القرابين للكائنات التي في منطقته ولبعض أسلافه هو ، وكان عددهم يتوقف على مركزه . كان الامبراطور يقدم القرابين لسبعة من أسلافه والنبيل الذي ينتمي الىأرفع الفئات يقدم اليخمسة فقط وهكذا . أما القرابين التي تقدم الى السماء ، وهي أعظم أنواع القرابين جميعا ، والتي كانت تتوقف عليها رفاهية الامبراطورية كلها ، فكان الامبراطور وحده هو الذي يمكنه القيام بتقديمها ويتحتم عليه أن يستخدم أدوات طقسية خاصة ، وهي الأواني بتقديمها ويتحتم عليه أن يستخدم أدوات طقسية خاصة ، وهي الأواني

وفى القرون الأخيرة من عهد شو عندما تضاءلت السلطة الزمنية للامبراطور حتى كادت تتلاشى ، فان امتلاكه لهذه الأوانى كان يعطيه الحق فى استخدام اللقب الامبراطورى وأن يقوم بأداء وظيفة تقديم القرابين الامبراطورية .

واتضح بعد ذلك أنه لا يمكن السير على النظام السياسي المركز الذي وضعه مؤسسو أسرة شو ، ويرجع السبب في انهياره الى عوامل متعددة . فقد وضع النظام الأصلى مسئوليات أكثر من اللازم على عاتق الامبراطور ، بينما كانت القواعد الصارمة التي تحدد من يخلفه في الملك قد جعلت أمر شخصية

الامبراطور الجديد شيئا في يد القدر ، وكثيرا ما كان هذا النظام سببا في أن يتولى العرش أباطرة ضعفاء أو شريرون .

وكانت الامبراطورية معرضة لهجمات تشنها القبائل غير المتمدنة التي كانت في الشمال الغربي وفي الجنوب. ومع مضى الزمن أصبح نبلاء شو نبلاء عسكريين ينحصر اهتمامهم في الحرب دون شيء آخر. وكانوا شديدي الرغبة دائما في توسيم رقعة ممتلكاتهم على حساب جيرانهم الأضعف منهم ، كما كانوا شديدي الرغبة في حماية الامبراطورية من أي اعتبداء أجنبي وحتى عام ٧٠٠ ق. م. كانت جيوش شو ما زالت تسير على التنظيم القديم وهو أن يسير النبلاء الى الحرب وهم يقودون عرباتهم ويحيط بهم المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة . ولكن جماعات الفلاحين الاقطاعيين التي كانت تساق الى القتال حلت محلها مع مرور الزمن جيوش ثابتة من الجنود المحترفين. وزاد ذلك من الأعباء التي على عاتق الفلاحين الذين أصبحوا في هذه الحالة مكلفين بدفع نفقات المنظمات العسكرية لسادتهم الاقطاعيين ، كما كانوا مكلفين أيضا بدفع نفقات بلاطهم ، وكان هناك عدد كبير من البلاطات فى المدن المختلفة وكان كل منها يتنافس مع الآخر في الفخامة ومظاهر الفخفخة . واستخدم السادة الذين كانت اقطاعياتهم قريبة من الحدود كثيرا من الجنود المرتزقة ، فأضاف ما كان يقوم به أولئك الهمج غير المتحضرين ، والذين لا يخضعون تماما للنظام ويميلون دائما الى القيام بأعمال النهب ، شيئا كثيرا الى متاعب عامة الشعب وتكررت ثورات الفلاحين ، وكان من أسبابها التي ورد ذكرها كثيرا ، ما تحدثه حفلات صيد النبلاء من تخريب للحاصلات وغيرها من الممتلكات ، وفي هذا دلالة على أن نبلاء شو كانوا يمتلكون مناطق شاسعة لأجل الصيد ومطاردة الحيوانات ، مثل أمثالها التي كانت للمغول فيما بعد.

وتحت ضغط الحروب المستمرة مال النبــــلاء الى ترك التعليم وتركوا الادارة المدنية فى أيدى جماعة ناشئة من « العلماء — الموظفين » المحترفين .

وهكذا أصبح التعليم الذي كان احتكارا لطبقة النبلاء من الأمور المباحة للعامة. وافتتحوا في مدن كثيرة مدارس تعلم جميع العلوم الرفيعة ما عدا الرماية وفن قيادة العربات. وكانت وظيفة المستشار السياسي للحكام الاقطاعيين من الوظائف المربحة ، وكان العامة الذين درسوا التاريخ وتعلموا المهارة السياسية يبحثون عن رعاية أحد الحكام لهم ، وكان مما يتفق تمام الاتفاق مع فكرتهم عن الشرف أن يتركوا ولاياتهم التي ولدوا ونشأوا فيها ، ويقبلوا خدمة أي نبيل يدفع لهم بسخاء. كان فلاسفة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد مثل «كونفوشيوس» وغيرهما من تلك الجماعة ، جماعة العلماء — الموظفين ، ويمكننا أن نفهم بسهولة ما كان يشغل أذهانهم في نظمهم الفلسفية ازاء المشاكل ويمكننا أن نفهم بسهولة ما كان يشغل أذهانهم في نظمهم الفلسفية ازاء المشاكل الاجتماعية والسياسية اذا وضعنا في أذهاننا نشأتهم وحياتهم الأولى .

ويلوح أن حالة الحرب المستمرة وعدم الاطمئنان وقبول الكثيرين من غير المتمدنين فى المجتمع الصينى أضعفت العقيدة فى مفعول الطقوس القربانية القديمة. ولما كان أداء تلك الطقوس ، من الناحية النظرية على الأقل ، هو العمل الأساسى للامبراطور فقد كان ذلك أيضا من أسباب ضعف السلطة المركزية.

وما وافى عام ٧٠٠ ق.م. حتى انقسمت الامبراطورية الى أربع عشرة ولاية تتنازع فيما بينها ، وأصبح مركز امبراطور شو شبيها بمركز الامبراطور الرومانى المقدس فى أوروبا فى العصور الوسطى . كان له صيت ذائع كبير ولكن ليس لديه الا سلطة فعلية ضئيلة ودخل ضئيل ، وانحصرت السلطة السياسية للامبراطور فى ولاية واحدة ، وكانت ولاية صغيرة نسبيا ، وهى التى كان حاكما لها بحكم التقاليد ، وانحصر دخله فيما يدفعه فلاحو تلك الولاية من ضرائب .

وليس هناك ما يدعونا الى شغل أنفسنا بأسماء تلك الولايات الأربع عشرة، أو تلك التغييرات السريعة في مصائر بيوتها الحاكمة . وفي عام ٤٦٨ ق . م .

وهو بداية العصر الذي يعرف عادة باسم عصر « الولايات المتحاربة » (۱) ، لم يبق من الاقطاعيات الأصلية لامبراطورية شو الا ثلاث فقط ، أهمها ولاية « تشى » (Ch'i) في شهمال ووسط الصين . استمتعت هذه الولاية بعهد من القوة والرخاء تحت حكم ولاة عقلاء أنشأوا نوعا من رأسمالية الدولة وذلك بامتلاك الحكومة لمناجم الفحم والحديد وفرض الرقابة على التجارة . وفي الشمال الغربي كانت توجد ولاية « تشين » (Ch'in) وكانت ولاية جديدة أكثر سكانها من الهمج من غير المتحضرين وهي أقوى الولايات ، أما في الجنوب فقد كانت هناك الولاية التي نشأت حديثا وهي ولاية «تشو» (Ch'u) التي كانت تشغل الجزء الأوسط من النهر الأصفر والتي كانت تمد سلطانها شمالا وتعاول أن تجعل الصين كلها تحت حكمها . وكان في ولاية « تشو » شمالا وتعاول أن تجعل الصين كلها تحت حكمها . وكان في ولاية « تشو » — شأنها شأن ولاية « تشين » — عناصر أجنبية قوية أتت اليها من القبائل الجبلية الجنوبية .

وفى القرن الرابع ق . م . على وجه التقريب بدأت ظاهرة جديدة . كانت قوة جيوش الصين قبل ذلك الوقت راجعة الى العسربات المسلحة ، ولكن الولايات الشمالية الغربية بدأت فى استخدام الخيل ، ومن المحتمل أن هذا العصر شهد فى منطقة الاستپس على الأرجح ، تطور الأساليب الفعالة فى استخدام الخيل فى الحرب . فان الجمع بين السرج الخشبى ، والركاب ، والقوس المركبة ، والفرسان المدربين الذين كان فى قدرتهم الهجوم فى صف واحد وفى الوقت ذاته يحسنون المناورة ، كان الجمع بين كل هذه الأشياء تجديدا فى فن الحرب ، وكان له أثر ثورى مثل اختراع السيارة المصفحة أو الطائرة فى العصور الحديثة ، فغير توازن القوى على طول حدود الصين التى تواجه مناطق الاستپس .

 ⁽۱) التاريخ الأصح لبداية عصر الولايات المتحاربة هـــو عام ٤٨١ ق ٠ م ٠
 واستمر حتى عام ٢٥٦ ق ٠ م ٠

كانت العربة الحربية أداة باهظة التكاليف ، وكانت صعبة في صناعتها كما كان الاحتفاظ بزوج من الجياد اللازمين للعربة مشكلة كبيرة في المناطق التي يقوم اقتصادها على الزراعة فقط . كان للولايات الصينية المنظمة جيدا فائض اقتصادى يساعدها على انشاء قوات كبيرة من سلاح العربات والانفاق عليها ، أما البدو فكانت تنقصهم المهارة والموارد المادية لانشاء مثل هذا السلاح .

كانت العربات المسلحة سلاحا لا يمكن أن يقاومه أو يقف أمامه جنود المشاة أو خيالة غير مدربين ، ولم ينجبح الهمج غير المتحضرين فى غزواتهم الا فى أوقات الاضطرابات السياسية . ويمكن للبدو الذين يعيشون على رعى الحيوان أن يقوموا بقليل من المال بصنع الأدوات اللازمة لركوب الجياد ، كما أن حياة الرعاة تتبح لهم فترات راحة طويلة ، ولا تحتاج صناعة الأقواس المركبة والسروج الخشبية الى أى معدات لا يمكن نقلها عند انتقال المعسكر كله من مكان الى مكان . وبعد ظهور معدات ركوب الخيل أخذت شعوب الاستيس تغزو جيرانها المستقرين وقتما شاءوا ، وكانت الصين أول من تلقى الصدمة الناشئة من تلك الهجمات ولكن لم تمض الا قرون قليلة حتى ركعت أوروبا ، حتى فرنسا فى الغرب ، على ركبتيها أمام فرسان الهون .

وعندما أخذ الجنود المرتزقة من الشعوب غير المتحضرة يجدون طريقهم الى الجيوش الصينية ، اتخذت الحروب الصينية طابعا جديدا خطيرا وزاد سفك الدماء. كان السكان الذين يقيمون فى المدن المحصنة ، وهم الذين كانوا مركز القوة فى الدفاع الاقطاعى ، يخشون من المقاومة الشديدة خوفا من المذبحة المنظمة التى كانوا يعاقبون بها المدن التى تشتد فى المقاومة ، وذلك بعد استيلائهم عليها . وكذلك كان الشأن مع الجنود المأسورين . كان الأسرى فى العصور السابقة يتركون أحرارا فى العادة عند نهاية المعركة ولا يصيبهم شىء أكثر من علامة تحقير مثل صلم احدى الأذنين ، ولكنهم الآن كانوا يقتلون جميعا لاضعاف قوة الرجال المدربين الذين كانوا تحت تصرف العدو . وقد

احتفظت الوثائق الصينية ببيانات دقيقة عن عدد الرؤوس التي قطعت ، ويقال انه بعد الاستيلاء على مدينة « تشا نجينج » (Ch'angping) قطعت رؤوس انه بعد الاستيلاء على مدينة « تشا نجينج » (Ch'angping) قطعت رؤوس و بعض و بينا كان في هذه الأرقام شيء من المبالغة ، ولكن لاشك في أن الاستمرار في ازهاق الأرواح يحتم القضاء على الكثير من السكان ويفتح الباب أمام تدفق المهاجرين من الجيران غير المتحضرين ولما كان الاقتصاد الصيني يعتمد اعتمادا كبيرا على وجود عدد كبير من الفلاحين الذين يدفعون الفرائب فمن الجائز جدا أن الحكام الاقطاعيين كانوا يشجعون هذه الهجرات ، وسرعان ما كان يتحضر أولئك المهاجرون الجدد ولهذا لم يكن لذلك أي تأثير ذي قيمة على المدنية الصينية .

وبالرغم من جميع المصائب التي حلت بالبلاد ، أو زبما بسببها ، فان الوقت السابق مباشرة لعصر الولايات المتحاربة كان وقت ازدهار ثقافى منقطم النظير. فزادوا من انشاء المدارس الخاصة التي كانت تعمل جنبا الي جنب مع المدارس التيكانت ترعاها الدولة ، وفيأحيان كثيرة أخذت كل اختصاصاتها، وسمحوا للعامة بالالتحاق بتلك المدارس فأثمرت مجموعة من المتعلمين المثقفين التي تعتبر بحق أعظم ما ظهر من نوعها في أي مكان في العالم القديم . كان جميع أولئك الجهابذة معنيين بالمشكلة العملية ؛ وهي ايجاد وسيلة للتخلص من الآلام التي جلبها سوء الادارة الحكومية ، تلك الآلام التي جعلت الحياة غير محتملة . ووجد كثير من الفلاسفة كثيرا من الحلول ، وأهمها النظم التي وضعها « كونج فوتسو » (K'ung Fu Tzu) و « لاوتسو » (L'au Tz) و « موتسو » (Mo Tzu) . واستطاع الأولان منهما أن يتركا أثرا عميقا في الحضارة الصينية وخصوصا مدرسة كونفوشيوس التي كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن تغيير كثير من النظم الحكومية بفضل تعضيد الصينية أن يرى صورة واضحة لهذه الفلسفات ، فان اختصار الجمل اختصارا

شديدا يكاد يجعله شبيها بالمراسلات التلفرافية التى تبدو غير واضحة المعنى فى بعض الأحيان ، وكثيرا ما يجد الانسان تفسيرات مختلفة فيما كتبه العلساء الصينيون أنفسهم لتلك النصوص القديمة.

نشأ «كو تفوشيوس » في شمالي الصين ، وكان مقر مدرسته التي أنشأها فى ولاية « لو » (Lu) التي كان يحكمها فى ذلك الوقت حكام من أسرة شو . كان « كونفوشيوس » أعظم علماء عصره ، وكان يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أحداث التاريخ ويعتقد اعتقادا جازما بأن الدولة المنظمة تنظيما صارما التي أسسها أول أباطرة شو كانت العصر الذهبي للبلاد ، فأعاد النظر في وثائق ذلك العهد وجعلها وثائق مثالية ، وكتبها في الصورة التي ما زالت حتى الآن بين أيدينا . كانت تعالينه تستهدف ناحية خلقية ، ولكنها خلت خلوا تاما من تأثرها بالقوى التي فوق قوى الطبيعة . ومن الصعب ترجمة آرائه ترجمة دقيقة الى لغات أخرى ، ولكنا نعرف تماما أنه كان يؤمن بأنه توجد جاذبية طبيعية بين الأشخاص ، نجدها واضحة جدا بين أفراد العائلة ، ومن الممكن أنها تمتد حتى تشمل الجنس الانساني بأكمله . ولكي نضع هذه الجاذبية موضع التنفيذ كان من الضرورى وضع تعريف دقيق صحيح لما سماه « الأسماء » اذ أن هذا التعريف يعنى فى الفلسفة الكونفوشية ما يذكرنا بالأشياء الكاملة فى الفلسفة الأفلاطونية . كانوا ينظرون الى « الأسماء » بأنها حقائق موجودة فى عالم الآراء

وتقابل هذه « الأسماء » من وجهة نظر عالم الاجتماع الحديث الجمع بين المركز الثابت ودوره المقترن به ، أى ان « الاسم » يتكون من فهم المركز الصحيح لأى جماعة معينة من الأشخاص فى الكيان الاجتماعى ، ومن معرفة ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات تسير جنبا الى جنب مع ذلك المركز . وفسروا الجزء الثانى بأنه قواعد السلوك وبذلك سهلوا تعلمها تعلما موضوعيا وبطريقة آلية . فاذا أحسن شخص من الأشخاص فى أداء دوره فان ذلك يقوى

من مركزه الثابت. فرئيس الوزراء الذي يؤدى واجبات وظيفته كما يجب ، هو وحده الذي يمكن أن يسمى رئيس وزراء. وكذلك الامبراطور ، فهو كفرد من الأفراد كان له الحق فى أن يعتبر ابنا للشمس ، ولكن طالما كان قائما نتأدية دوره الامبراطوري على الوجه الصحيح ، فاذا قصر فى ذلك أصبح ، لا من حق الرعية فحسب ، بل من واجبها أن تنحيه من عمله ، وأن تبحث عن شخص آخر ليجلس على العرش الامبراطوري . ولما كانت رفاهية الامبراطورية تعتمد على رضا السماء فان فشل الامبراطور فى أداء واجباته تتسبب عنه سلسلة من المصائب التي تلحق بالناس ، وعلى العكس من ذلك فان حق خلفه فى تولى الوظيفة يظهر فى نجاحه فى اعادة النظام والرخاء . والكونفوشية فلسفة فريدة بين الفلسفات التي ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، وهو ذلك العصر فريدة بين الفلسفات التي ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، وهو ذلك العصر المستنير الذى حفظ للرعية حقها فى الثورة .

وكان «كونفوشيوس» ، من الناحية العملية شخصا محبا للتدقيق وصرف معظم جهوده فى ايضاح الأدوار الاجتماعية المختلفة . وكان محبا للتجوال ، كغيره من العلماء المستغلين بالادارة فى ذلك العهد ، ويذهب من بلاط الى آخر بحثا عن حاكم يرغب فى وضع نظرياته موضع التنفيذ . وأخيرا عين «كونفوشيوس» فى وظيفة حكومية صغيرة فى ولاية « لو » ، ويقال عنه انه فى أواخر أيامه فى بلاط « لو » صحب حاكمه فى احدى الأسفار وأبدى ملاحظة بأن سير الركب يمشل حالة الشئون الدنيوية : فالمباهاة والرذيلة ملاحظة بأن سير الركب يمشل حالة الشئون الدنيوية : فالمباهاة والرذيلة (ويقصد بذلك الحاكم ومحظيته المفضلة) فى المقدمة ، والحكمة والفضيلة (أى كونفوشيوس) تسير بعيدا فى الخلف .

ودخلت بعض التعديلات فى تعاليم مدرسة « كونفوشيوس » على يدى اثنين من تلاميذه وهما « منكيوس » (Mencius) — و « شين تسو » (Hsūn Tzu) اللذان اتفقا على الرأى الأصلى فيما يختص به « الأسماء » ولكنهما اختلفا اختلافا تاما فى موضوع الأخلاق ، أهى مطابقة للطبيعة أم لا .

ومن هنا اختلفا على فعالية « الجاذبية » بأنها القوة الدافعة في السلوك الطيب. كان « منكيوس » يؤمن بالخير الغريزى في الطبيعة الانسانية ، وكان الفرد ، حسب رأيه ، اذا تركوه وشأنه يتجه نحو الخير بطريقة آلية كما تسيل المياه منحدرة على جوانب التل . ولهذا عارض أتباعه بشدة جميع أنواع الاجبار الاجتماعي . أما « شين تسو » (Hsün Tzu) فكان يعتقد أن الطبيعة الانسانية في جوهرها ليست حسنة وليست سيئة ، وكان يعتقد أيضا أن الاستقامة ليست الاعادة يمكن الحصول عليها فقط من تكرير السلوك الحسن، وبذلك يكون هذا الفيلسوف هو أول شخص نادى بما تقول به مدرسة علم النفس الخاصة بالشخصية عن « نظرية التعليم » . وتعشيا مع هذه النظرية النفس الخاصة بالشخصية عن « نظرية التعليم » . وتعشيا مع هذه النظرية نقد شك « شين تسو » أيضا في أفضلية العصور الماضية . وكان من رأيه أن عقدم المجتمع لم يكن الا عملية تقدمية يستطيع الحكماء المعاصرون أن يفهموها جيدا وأن يقودوها خيرا من غيرهم .

وفى العصر المتأخر من أسرة هان قبلوا الفلسفة الكونفوشية بعد تقلبات مختلفة قبولا ظاهريا كمرشد فى تنظيم الامبراطورية. وهناك قصة ، ربما تكون قصة لا أصل لها ، وهى أن أحد أباطرة أسرة هان ، وكان قد أحس أن قوة النبلاء الاقطاعيين قد أخذت تتزايد ، وأنها أخذت تسبب له المصاعب أثناء حكمه ، بعث فى طلب أحد العلماء الكونفوشيين وسأله كيف يتحاشى ضرر هذه الجماعة . ويقال ان العالم أجابه :

« اسمح لهم بأن يقسموا ممتلكاتهم بالتساوى بين أبنائهم » . وأعجب الامبراطور اعجابا كبيرا بما فى هذه النصيحة من حكمة الى درجة جعلته يقرر الكونفوشية فلسفة رسمية للدولة .

وحتى لو صحت هذه القصة ، فليس فى مقدور حادث واحد أو عطف رسمى أن يفسر لنا الطريقة التى جعلت الفلسفة الكو تفوشية قادرة على السيطرة على التفكير الصينى قرابة ألفى سنة ، وربما كان مفتاح حل تلك المعضلة

هى تلك الميزة فى الخلق الصينى التى سماها «فرانسيس شو » (Erancis Hsu) «حالة موجهة ». فطبقا لهذا التحليل العميق نجد أن الشخص الصينى العادى حريص على فهم معظم الحالات أو المواقف التى يجد فيها نفسه وأن يلائم سلوكه معها ، ورغبته فى أن ينجح فى تلك الملاءمة تجعله يضعها فوق أى قيمة مجردة . والفلسفة الكونفوشية ، بما فيها من تعريف صريح للحالات الثابتة والأدوار التى تتعلق بها توضح المواقف الاجتماعية التى تلعب دورا هاما فى حياة أى فرد ، وتمده بأساليب خلقية جاهزة ليستخدمها فى تلك الحالات .

أما فلسفة «لاوتسو» (Lao Tzu) فهى تتعارض مع فلسفة «كونفوشيوس» تركز فى كل نقطة تقريبا. ففى الوقت الذى نجد فيه مدرسة «كونفوشيوس» تركز جهودها على العلاقات الانسانية ولا تمتدح القوى التى فوق قوى الطبيعة الا بمناسبة اصرارها على وجوب أداء الطقوس على الطريقة الصحيحة ، نجد أن مدرسة «لاوتسو » تتجاهل العلاقات الانسانية وتركز جهودها بدلا من ذلك فى فهم الكون ، ويشمل ذلك فهم مظاهره التى يمكننا اعتبارها قوى فوق القوى الطبيعية . وحيثما تبحث المدرسة الكونفوشية بصفة دائمة عن تعريفات أوضح وأسهل لما فيها من آراء ، وكان مثل هذا البحث يحتم الاشادة بالعلم وبخاصة دراسة التاريخ ، نجد أن مدرسة « لاوتسو » تجنح الى التأمل وفحص النفس وتقنع بترك أفكارها الأساسية فى صورة غامضة وتبحث عن الرد على المشاكل بطريقة الالهام آكثر من بحثها عنها فى دراسة السوابق .

ومن الحقائق الهامة أن هذه المدرسة ، وتعرف عادة باسم « الطاوية » ، نشأت فى جنوبى الصين وكانت على ما يظهر محاولة لتنظيم الآراء والعقائد التى كانت سائدة قبل ذلك فى تلك المنطقة . ومن المرجح أن الطاوية تطورت عن عبادة الطبيعة التى كانت منتشرة هناك وعن الاعتقاد غير المنظم فى القوى التى فوق قوى الطبيعة ، وذلك فى الوقت الذى سبق ظهور الصين كبلد له وحدة سياسية . ودخلت فى هدفه الديانة عناصر شعبية كثيرة كثرة تجعلنا

لا نعرف على وجه التأكيد أكان « لاوتسو » نفسه شخصية حقيقية أو لم يكن. فهناك عدد كبير من الآلهة الطاوية وبعضها كائنات ذوات قوى فوق قوى الطبيعة مثل ملك السماء والهة الرحمة. وقد ساووا بين الهة الرحمة — وكانت تسمى « شى وانج مو » (Hsi Wang Mu) — وبين احدى القديسات البوذيات ، كما ساووا بينها فى بعض الجهات التى انتشرت فيها المسيحية ، وبين السيدة العذراء . والآلهة الطاوية الأخرى ليسوا الا أبطالا أسطوريين قدماء . فاله الحرب الطاوى هو أحد القادة المشهورين الذى عاش ومات فى القرن الثالث الميلادى . ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أن يفكر الانسان فيما اذا كانت الصوفية الطاوية والصوفية الهندية لا ترجعان الى أصل ما فى الحضارة المشتركة فى جنوب شرقى آسيا ، لأن تلك الحضارة كانت ذات أثر على كل الديانتين .



والفكرة الأساسية فى فلسفة « لاوتسو » أن الكون فى حالة مستمرة من التغيير والتعديل فى داخل ميدان القوة التى كونها عنصران متعارضان وهما الد « ين » (Yin) (الأنثى) والد «يانج» (Yang) (الذكر) ، ولم ير الحكيم الصينى أن هذين العنصرين كانا فى صراع بل كانا متوازيين كقطبين متعادلين فى مغناطيس واحد . كان كل منهما مبهما غير شخصى ، ولا يعنى بالمبادى الخلقة .

وكانت الفكرة التى تنص على أن الكون ليس الا ميدان حرب بين «هرمز» (Ormuz) و «وأهر سان» (Ahriman) أو بين الاله والشيطان لدى المسيحيين ، والمطلوب من كل انسان أن يختار أحد الجانبين ويأخذ مكانه بين الصفوف لمحاربة عدوه ، فكرة غريبة وبعيدة تماما عن الفلسفة الطاوية . كانوا يرون في الين واليانج أنهما كانا عادة في حالة توازن يمكن اقلاقه لفترة مؤقتة ، والرجل العاقل هو الذي يتخذ الطريق الوسط أو « الطاو » ، الذي يمكن أن تتضح معالمه أمام الانسان تتيجة للتأمل ، وعلى الأخص بين أحضان الطبيعة غير متأثر بالنشاط الانساني . والرسوم الصينية النموذجية للمناظر الطبيعية ، بما فيها من جبال ومسقط للمياه وأشجار كبيرة ، وفي مكان منزو منها الطبيعية ، بما فيها من جبال ومسقط للمياه وأشجار كبيرة ، وفي مكان منزو منها نجد رجلا مرسوما في حجم صغير وهو جالس يتأمل انما تعبر خير تعبير عن تجد رجلا مرسوما في حجم صغير وهو جالس يتأمل انما تعبر خير تعبير عن تلك الفكرة الطاوية . فأمام الطبيعة وقواها العظيمة يحس الانسان بأنه صغير حقا ، واذا أراد أن يتخذ طريقا رشيدا فعليه أن يفهم تلك القوى حتى يتجنب الاصطدام بها .

وأدارت الطاوية ظهرها الى النشاط السياسى كنتيجة منطقية لنظرياتها ، ونصحت الفرد بأن يبحث عن سلامته واطمئنانه فى عودة تأملية الى أحضان الطبيعة وأن يمتنع عن العمل لئلا يزعج توازن الين — يانج. ولم يهتم المذهب الطاوى الأصلى بالعلاقات الاجتماعية ، ولكن فى بلد كالصين حيث كان التفكير الفلسفى يتحول فى النهاية الى مشاكل الحكومة وجد الطاويون أنفسهم

مضطرين لتغيير نظرياتهم في هذا الميدان . كانت نظرة الطاوى الى الطبيعة هي الأساس الذي قامت عليه فكرة الرجل الطبيعي ، وبعبارة أخرى الرجل السعيد . كان هذا الشخص رجلا ذا عظام كبيرة وعضلات قوية ورأس فارغ ، وهي صفات مطلوبة في رعايا أي دولة أوتوقراطية . وكان واجب الحاكم يحتم عليه أن يتأكد من أن رعاياه يطعمون على خير وجه ، ويقومون بالعمل بصفة مستمرة ، وأنهم دائما في حالة بلادة فائقة . ويجب على الحاكم آلا يعلمهم أو ينبههم من غفلتهم ، وذلك لمصلحته ومصلحة الفلاحين أنفسهم . ويجب ، قبل أي اعتبار آخر ، أن يحرم على ذلك الشخص أن يعمل في الحكومة أو يفهم كيف تسير دفة أمورها ، وقد لقيت هذه المبادىء بطبيعة الحال معارضة شديدة من المدرسة الكونفوشية .

كانت الطاوية القديمة لا تهتم الا بالعالم الذي تعيش فيه ، وكالكو تفوشية لم يكن لها قانون واضح عن موضوع الحياة بعد الموت ، ولكن شيئا غير واضح المعالم من عقيدة وحدة الوجود فى تلك الديانة سمح بوجود كائنات ذات قوى خارقة وفوق قوى الطبيعة دون تحديد لصفاتها . ومع كل ، فان غموض التعاليم الطاوية تركت الباب مفتوحا لتدخلها وتصبح جزءا منها جميع أنواع الخرافات الشعبية ، فدخلتها قوى الطبيعة كما دخلتها بسهولة الأرواح المحلية التي كانت معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ. وكان من تتيجة ذلك وجود اعتقاد قوى فى الأشباح والشياطين ، وكانت دائما من الأرواح الشريرة، واعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت على نظام حياتنا الحالية . ولعب مبدأ « الحالة الموجهة » في الخلق الصيني دوره في الطاوية في عصورها المتأخرة . فاذا قبل الشخص الصيني عقيدة الين - يانج فقد كان يرغب رغبة شديدة في معرفة الحالة التي يكونان عليها في أي وقت معين وفي أي مكان معين حتى يلائم سلوكه معهمًا . وكانت النتيجة هي أن الطاوية المتأخرة أصبحت ملاذا للسحرة والعرافين من جميع الأنواع ، وتحت تأثير البوذية دخلت عليها أيضا

المظاهر الضرورية لديانة منظمة باقامة التماثيل ، والمعابد ، والطقوس الرسمية والكهنة بل والرهبان والراهبات .

ويرجع تاريخ مدرسة « موتسو » (Mo Tzu) الى نفس الوقت الذى نشأت فيه مدرسة « كو نفوشيوس » ، ومبدؤها الأساسي هو مبدأ الجاذبية ، ولكنها أنكرت التدرج في الجاذبية الذي يقوم على درجات القرابة التي نصت عليها الكو نفوشية نصا قويا ، وأعلنت أن حب الشخص يجب أن يعم سواء بسواء جميع الجنس البشرى . وعلى نقيض المدرستين الأخريين ، كانت هذه المدرسة تؤمن بوجود الله بل تكاد تكون في حقيقة الأمر مدرسة تقول بوجود الله واحد .

لم يكن القدر هو الذي يحكم الدنيا بل كانت تحكمه ارادة مدركة واعية لكائن أعلى. وفي تلك الديانة وجود لبعض الكائنات ذات القوى التي فوق الطبيعة ولكنها لم تكن ذات أهمية . وكان الموضوع الذي وجهوا اليه اهتماما خاصًا هو حقيقة بعث الانسان بعد الموت وحياته مرة ثانية ، ولم يكن حب الانسانية الذي نادت به تلك المدرسة حبا غريزيا أو مكتسبا ولكنه كان واجبا دينيا . أما أتباع المدرسة فكانوا يؤمنون بالتقشف . وكان ينتظر منهم أن يضحوا بكل أنواع الراحة وأن تكون لذتهم هي خدمتهم للانسانية ، وفي الوقت ذاته مزجوا مع تقشفهم سلوكا عمليا وكانوا يقدرون قيمة الأشياء على أساس فائدتها ، ولهذا السبب حرموا تعليم الفنون وبخاصة الموسيقي . وعرف فلاسفة هذه المدرسة بأنهم كانوا شجعانا ومستشارين للأمراء يتفانون فى أداء واجبهم . وكانوا دائما ، حسب ما يقضى به مذهبهم ، على استعداد لتضحية أنفسهم من أجل خير الجماعة . وكان حبهم للسلام مظهرا من مظاهر عقيدتهم ولكنهم كانوا واقعيين وكانوا يفرقون بين حرب من أجل التوسع والاعتداء على الغير ، وحرب من أجل الدفاع عن النفس.

ويمكن عمل بعض المقارنات بين تعاليم هذه المدرسة وبين « الكويكر »

(Quakers) بالرغم من أن أتباع « موتسو » كانوا يعتمدون على المنطق الصريح ولم يعرفوا حالة النوبات التشنجية التي امتاز بها الكويكريون في مبدأ حركتهم ، ولكن الطائفتين تتفقان في موضوع العلاقات المباشرة بين الانسان وبين الله ، وفي الواجب المفروض على الشخص في أن يهب كل نشاطه لخير الانسانية مع احتفاظه بموقفه الواقعي . ويمكننا أن نرى في موقف كل من الطائفتين تجاه حب السلام بأنه رد فعل طبيعي لما يتعرض له الناس من مصائب وآلام تصيب الأجيال بسبب قيام الحروب ومما يثير الدهشة أن نتائج تعاليم « موتسو » بعد الغائها رسميا ظلت متبعة في عقائد جماعات بعيدة كل البعد عن حب السلام وهي جماعات الطوائف السرية التي كانت تشتهر من آن لآخر في الصين في أيام الاضطرابات ، وأحدث ما ظهر من هذا النوع كان فى ثورة « التايينج » (T'ap'ing) وفى ثورة « البوكسر » (Boxer)، وربما كانت وجوه الشبه بين مذهب « موتسو » وبعض العناصر فى الديانة المسيحية عاملا من العوامل التي سببت شك الحكومة الامبراطورية الصينية في المبشرين المسيحيين.

وعاشت الفلسفات الثلاث التى تحدثنا عنها جنبا الى جنب قرونا عديدة ، وكان لها تأثير كبير لا على النظم الصينية فحسب ، ولكن فيما بين بعض هذه الفلسفات وبعضها الآخر أيضا . وولد من اتصالها ببعضها عدد من الفلسفات الأقل شأنا لم يكن لأى واحدة منها أى تأثير ذى أهمية على تطور الحضارة في الصين ، اللهم الا واحدة فقط وهي مدرسة المتقيدين بالقانون التى كان هدفها الأساسي تغيير الوسائل الفعالة لادارة الدولة . وجربت مبادئها تجربة تامة فى تنظيم دولة « تشن » (Ch'in) التى اتخذت بعد مرور قرون قليلة خطوة ناجحة فى توحيد الصين التى أضعفتها حروب لا نهاية لها بين الحكام الاقطاعيين المتواهنين . كانت الفكرة الرئيسية التى يستهدفها المتقيدون بالقانون هى خلق حكومة بحكم القانون مع استبعاد جميع التدخلات والأغراض

الشخصية استبعادا تاما . ووجهوا اهتمامهم الى سن القوانين وتحديد معانيها بدقة حتى لا يجد الرأى الفردى سبيلا الى التدخل فى تطبيقها . وربما كانت هذه الفئة أقدم جماعة ظهرت فى أى مكان فى العالم تصر على مساواة جميع سكان الدولة أمام القانون ، وكان ذلك بدون شك تغييرا ثوريا اذا قارناه بالحصانة التى كان يتمتع بها النبلاء فى عهد أسرة شو حسبما جاء فى القانون الامبراطورى . ونجح ذلك الحياد المطلق فى رأب ما كان فى ولاية « تشن » من تصدع ، وربط أجزائها بعضها ببعض ، وجعل منها قوة متماسكة فى وقت توسعها . ولكن عندما تم كل شيء وتأسست الأسرة الجديدة اختفت هذه الفئة بصفتها مدرسة بالرغم من أن مبادئها ظلت حية تحت قشرة سطحية من الفلسفة الكونفوشية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الفلسفة استمتعت بفترة قصيرة من الاحياء فى عهد الجمهورية الصينية فى أوائل القرن الحالى وذلك راجع الى حد كبير الى مشابهتها للمبادىء الأوروبية فى نظام القضاء .

ولم تستطع كل تأملات الفلاسفة أن توقف الفوضى التى أخذت تزداد يوما بعد يوم فى القرون الأخيرة فى عصر شو الاقطاعى. لقد استنفدت العروب الدامية التى حدثت بعد استخدام الخيل فى القتال الكثير من عدد سكان البلاد ، كما أن عادة قتل الأسرى كانت سببا فى الاطاحة بعدد كبير من النبلاء . ولكن ، ولاية « تشن » التى كانت تقع فى الشمال من الجزء الأوسط من النهر الأصفر ، نجت من تلك الشرور . لقد حمتها سلسلة من الجبال من معظم ما تعرضت له من هجوم حربى ، كما كان يتولى شئونها عدد من الحكام والمستشارين امتازوا بأنهم سياسيون ذوو مقدرة عظيمة . فبالرغم من أن اخضاع الصين كلها لحكمهم فقد تجنبوا الحروب التى شكوا فى تتائجها واتبعوا سياسة ثابتة تستهدف تقوية الدولة باستغلال مواردها الطبيعية الغنية واتبعوا سياسة ثابتة تستهدف تقوية الدولة باستغلال مواردها الطبيعية الغنية بما فى ذلك سكان البلاد . وكان معظم مستشارى الحاكم من المتقيدين بالقانون فغيرت ولاية تشن بفضل توجيهاتهم من ولاية اقطاعية من النسوع الصينى

العادى الى دولة تحب التوسع وذات مذهب جماعى فى الحكم من نوع عصرى يدعو الى الدهشة .

وكان أكثر سكان « تشن » من الهون غير المتحضرين الذين انحدروا الى هذه المنطقة من الاستيس ، وقد ساعد ذلك على تنفيذ مشروعات الحكام لاعادة التنظيم الاجتماعي. لقد ألغى ذلك التنظيم العائلة الكبيرة ونظام القرية ذات العائلات الثمان ، ولكن من المشكوك فيه أن تكون هاتان العادتان كانتا راسختين رسوخا كبيرا فى تلك الجهة . ومحوا تماما التمييز القديم بين فئات الناس الذي كان سائدا في أيام الاقطاع مع تركيز كل السلطة في الحاكم ومستشاريه . وكانت كل عائلة تعيش فوق حصة أرض معينة وكان عــدد الحقول والمنازل والخدم ، حتى عدد الملابس المسموح بها لكل عائلة ، محددا تحديدا دقيقا . وكل عائلة فيها أكثر من اثنين من الذكور البالغين يتحتم عليها أن تنقسم الى عائلتين أو تدفع ضرائب مضاعفة ، وكانت الولاية كلها مقسمة الى مناطق يتولى كلا منها أحد الموظفين. وكانت العائلات في كل منطقة منظمة فى جماعات اما من خمسة أفراد أو من عشرة أفراد ، فاذا اقترف عضو من الجماعة ذنبا عوقبت كل الجماعة من أجل هذا الذنب ، ولهذا كان كل منهم يراقب الآخر ويبلغ السلطات في الحال عن أي تقصير أو خطأ .

وتمتع الجيش بمكانة ممتازة ، وكان كل رجل عرضة للخدمة الحربية طول حياته ، وكان جميع الموظفين ضباطا فى الجيش وكانوا يكافئون بسخاء قواد المعارك الناجحة والجنود الذين أظهروا شجاعة فائقة ، وفى الوقت ذاته يعاقبون من يفشل أو يجبن بالحكم عليه بالموت . وحرص المتقيدون بالقانون على أن تنفذ هذه القوانين بكل صرامة ، وكانت نقطة الضعف فى هذا النظام هى أنه لم يكن يكافىء الفلاحين ، بل كان يوقع عليهم العقوبات فقط . وفى استطاعة مثل هذا النظام أن يفرض الطاعة ولكنه لا يفرض الوفاء ، ولا يمكن أن يجلب الولاء . ولهذا فعندما تم لولاية « تشن » فى نهاية الأمر اخضاع

كل بلاد الصين فى عهد أعظم حكامها ، وهو المعروف للتاريخ تحت اسم « شيه هوانج تى » (Shih Huang Ti) لم تطل مدة سيطرتها .

جمع «شيه هوانج تى» ما كان لأوغسطس قيصر من حسن ادارة ومقدرة فى التنظيم وما كان لهتلر من حب العظمة . ومع مضى الزمن كان ما حققه من تقوية للصين وما وضعه من نماذج للحكم الامبراطورى فى العصور التالية مكسبا حقيقيا ، ولكن اسمه ما زال يلعنه الصينيون بسبب افراطه فى الملذات ، ولسبب آخر أهم من ذلك ، وهو محاولة تحطيم كل النظام العلمى التقليدى وادارة البلاد بوساطة العلماء . ورث ذلك الحاكم حكم ولاية « تشن » واستمر فى التوسع الذى بدأه من سبقه من الحكام ، وكلما أتم اخضاع منطقة اقطاعية كان ينحى نبلاءها الاقطاعيين ويلحق المنطقة بأحد أقاليم الامبراطورية التى كانت تتسع رقعتها من عام الى عام . وعند اتهاء غزواته كانت الامبراطورية مكونة من ستة وثلاثين اقليما ، أضيف اليها أربعة أقاليم فيما بعد . وكان كل من هذه الأقاليم مقسما الى عدة مناطق لأسباب ادارية ، وقد ظل هذا النموذج من هذه الأقاليم مستخدما فى جميع عصور التاريخ الصينى فيما بعد .

وامتاز تنظيم الصين الجديدة المتحدة بالتفريق الكبير بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . كان شخص الامبراطور يجمع بين السلطتين ولكنهما ظلتا مفترقتين عن بعضهما فى كل المراحل التى دون ذلك . كان رئيس الوزراء ، على رأس الادارة المدنية وكان اختصاصه ينحصر فى الأمور الداخلية وادارة الحكومة ، وعلى رأس الجيش قائد لا سلطة له خارج الشئون العسكرية ، وكان لكل اقليم ولكل منطقة عدد من الموظفين من كل من المدنيين والعسكريين وأخيرا ، كانت هناك هيئة ثالثة من الرقباء مستقلة تماما ، كان واجبها الوحيد مراقبة أعمال الموظفين المدنيين والعسكريين . وكانوا ينقلون الموظفين دائما من منطقة الى أخرى حتى يضمنوا اخلاصهم للحكومة المركزية اذ لم يسمحوا الأى موظف أن يبقى فى أى مكان مدة طويلة حتى لا تربطه روابط خاصة

بالسكان المحليين ، وكانت السلطة المركزية حريصة بنوع خاص على أن يكون تعيين كل موظف فى منطقة تبعد بقدر الامكان عن المنطقة التى تعيش فيها عائلة ذلك الموظف .

وفى عهد النظام الاقطاعي كانت توجد نظم محلية مختلفة ، كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، اذ اختلفت من مكان لآخر وحدة مقاييس الأراضى ، والموازين والمكاييل ومقاييس العربات ، وكان للأخيرة منها تأثير كبير على النقل الى مسافات بعيدة في بلاد يتحتم نقل سلمها على طرق غير ممهدة ولهذا ترك فيها أثر العجلات حفرا عميقة على الجانبين . وبدأ « شهوانج تي » في عمل نظام موحد لجميع تلك الأشياء ، ووضع قانونا امبراطوريا واحدا ليحل محل جميع القوانين المحلية . وفي خلال العهد الاقطاعي تم وضع كثير من طرق الكتابة المحلية ، فاختار « لي سو » (Li Ssu) وزير « شيه هوانج تي » ثمانية منها وأضاف اليها من عنده طريقة تاسعة وأمر بأن تكون كل واحدة منها هي الطريقة التي تستخدم في كتابة جميع المؤلفات في أحد أنواع واحدة منها هي الطريقة التي تستخدم في كتابة جميع المؤلفات في أحد أنواع العلوم التسعة ، ولكن اختلاف اللهجة في أجزاء الصين المختلفة ، الذي يجعل التفاهم بينها مستحيلا في كثير من الحالات ، كان أكبر من أن تتغلب عليه قدرة « شيه هوانج تي » بل وما زال هذا الاختلاف باقيا حتى الآن .

وكانت محاولة «شيه هوانج تى » فى توحيد الفكر أقل نجاحا من محاولته توحيد الكتابة. كانت المدارس الفلسفية المختلفة متغلغلة فى كل من التعليم والحكومة ، وكانت المدارس التى تدرس فيها تلك الفلسفات هى المراكز التى انظمت حولها المقاومة. وتنفيذا لاشارة الوزير «لى سو » اتخذ الامبراطور فى النهاية تلك الخطوة الخطيرة وهى اصدار الأمر بحرق الكتب. وسمحوا بأن تظل الكتب المؤلفة فى الزراعة والفلك والطب متداولة بين الناس ، ولكن الكتب الخاصة بالعلوم التى نسميها الآن العلوم الاجتماعية ، وكتب التاريخ ماعدا تاريخ ولاية « تشن » أمروا باعدامها. واحتفظوا بنسخة من كل كتاب

أمروا باحراقه فى مكتبة الامبراطور ليتمكن الأشخاص الحائزون على الصفات التى تؤهلهم لقراءتها من عمل ذلك بعد الحصول على اذن من الحكومة ، ولكنهم منعوا منعا باتا أن تكون ملكا لأحد الأفراد . ولا شك أن الغرض الذى كان يرمى اليه الامبراطور هو السيطرة على الفكر وليس الغاء التعليم ، ويؤيد ذلك أن الامبراطور أنشأ مكتبة عظيمة فى العاصمة جمعوا فيها كثيرا من المخطوطات القديمة من كل العلوم ، وقد سبب القضاء على هذه المكتبة ، عندما هوجمت العاصمة وأحرقها المهاجمون ، أضرارا بالغة بالقضاء على الوثائق القديمة أكثر مما اتخذه الامبراطور منخطوات لمنع امتلاك وتداول تلك الوثائق ومن الأمور التى لاحظها الكثيرون أن أضمن وسيلة للمحافظة على أى

ومن الأمور التي لاحظها الكثيرون أن أضمن وسيلة للمحافظة على أي عمل أدبى وايصاله للأجيال الصاعدة أن تحاربه السلطات وتأمر بأن كل مالك لنسخة يتحتم عليه أن يقدمها لاعدامها ، ففي هذه الظروف ترتفع قيمة هذا المؤلف ارتفاعا غير عادى ويخبىء الناس نسخا منه . وقد حدث بعد انهيار دولة « شيه هوانج تى » أن عادت الكتب المحرمة سريعا الى الظهور .

وعلى أى حال فان هذا المنع تسبب فى وجود ثغرة فى اعداد العلماء ، لأنه تتج عن التوحيد الجديد للكتابة ، أن الكتب الرئيسية الهامة أعيدت كتابتها ولا شك أنه حدثت فيها تعديلات كثيرة أثناء ذلك العمل.

أما عن مذبحة العلماء التى تنسب عادة الى « شيه هوانج تى » فالأرجح أن أكثر ما قيل عنها محض خيال . فقد حدث أن بعض العلماء الذين رفضوا تسليم مكتباتهم حكم عليهم بالموت ، ولكن معظم الضحايا كانوا من جماعة سحرة البلاط الذين أصبحوا غير محبوبين من الناس . كان « شيه هوانج تى » مثل بعض أمثاله من الحكام الجماعيين (أى الذين يحصرون الأمر كله فى أيديهم) يؤمن بالخرافات الى أبعد الحدود فأحاط تفسه بمنجمين وسحرة من جميع الأنواع ، فمن فشل منهم فى عمل المعجزات أو تنبأ بأشياء غير سارة كان يطرد من البلاط ، وكان يوجد دائما آخرون على استعداد ليحلوا محلهم .



الباجودا ، في بيكين

وظهر حب الامبراطور للعظمة فى تشييده للمبانى ذات الحجم الهائل ، فقصره وقبره كانا أعظم مبنيين أقيما فى الصين حتى ذلك العهد. كان أمام القصر عدد من التماثيل البرونزية الكبيرة الحجم التى صبت من الأوانى الطقسية التى كانت للولايات الاقطاعية المغلوبة ، كما قيل أيضا ان أرضية قبره كانت على هيئة خريطة للصين ، وفيها أنهار تجرى تمثل الأنهار العظيمة ، وقد اختفت تلك المبانى اختفاء تاما دون أن تترك وراءها أثرا. أما عمله الخالد فهو سور الصين العظيم .

أثبتت البحوث الأثرية أن الصينيين في أواخر عهد أسرة شو ، مشل الرومان في العصر الامبراطوري المتــأخر ؛ اهتموا اهتمــاما كبيرا بتشييد الأسوار على حدودهم. وبالرغم من أن هذه الأسوار لا يمكن أن تكون عائقا جديا لمهاجمين متمدنين يستخدمون الأدوات الميكانيكية الخاصة بالحصار فانها كانت تنجح الى حد كبير فى صد غارات غير المتحضرين ، وقللت من فائدة استخدام الخيل التي كانت أهم سلاح لديهم . وقبل أن يصل (شيه هوانج تي » الى الحكم كانت ولاية « تشاو Chao » قد بنت وحصنت سورا على الحدود الشمالية الغربية فكان هذا السور نواة للسور الكبير فيما بعد ، وفى الوقت ذاته كانت ولاية « ين Yen » أقامت سورا مماثلا فى الشرق وفي كل من هاتين الحالتين نجد أن كلا من الولايتين قد بنت سورها خلف الحدود الأصلية للولاية لتضم الأراضي التي استقر فيها فلاحو تلك الولاية . وعندما وصل « شيه هوانج تي » الى الملك كانت أهمية الـ « شيونج — نو »(Hsiung-nu)الهمج قد أخذت في الازدياد وأصبحت هجماتهم على الحدود أكثر خطورة . وربما كان أولئك الشيونج — نو ، هم نفس الشعب الذي خرج منه الهون الذين أثاروا الرعب في أوروبا فيما بعد ، أو على الأقل من قوم متصلين بهم بصلة القربي ، وكانت لهم نفس الأساليب الحربية والقدرة فى القتال . وفى عام ٢١٥ ق . م . سير عليهم « شيه هوانج تى » جيشا قوامه ٣٠٠ر ٣٠٠ رجل تحت امرة القائد الأكبر للقوات الحربية وهو أحد اثنين من الموظفين اللذين كانا أعظم موظفي الدولة . ونجح هذا القائد في صدهم ، وضم جزءا كبيرا من بلادهم ، ولكن ما جناه من فوائد ، كما في جميع الحروب مع البدو ، كان أمرا مؤقتا . ولكي يدافع عن المنطقة الجديدة التي حصل عليها أوصل ما بين الأسوار التي كانت قائمة بالفعل ، وكذلك حصون الحـــدود وجعل منها كلها « السور العظيم » .

وقال البعض ان الغرض من انشاء ذلك السور كان لتحقيق غرضين ، وذلك لمنع الفلاحين من الهرب وبقائهم داخله ومنع الهمج غير المتحضرين من دخول الصين وبقائهم خارجه . فاقتصاد الصين في ذلك العهد ، كما كان في العصور التالية ، يعتمد اعتمادا تاما على السكان الزراعيين الذين تعتمد الدولة في سد مطالبها على الفائض الاقتصادي منهم ، وهو شيء قليل من كل فرد . وهناك أدلة كبيرة على أنه في العصر القريب من أواخر أيام أسرة هان انضم فلاحون صينيون كثيرون الى الهمج . فقد كان الكثيرون من الصينيين الذين يعيشون على الحدود من نسل الهمج الذين هاجروا الى تلك الجهات الذين يعيشون على العدود من نسل الهمج الذين هاجروا الى تلك الجهات واستقروا فيها واندمجوا في الحياة الصينية في العهد الاقطاعي ، ولكن الظلم الذي وقع على الفلاحين في أيام حكم « شيه هوانج تى » كان سسببا قويا لحملهم على الهرب ممن كان يرسلهم لجمع الضرائب وأخذهم للعمل بالقوة .

ومهما كان السبب فى تشييد السور ، وبصرف النظر عن الأجزاء التى كانت قد شيدت قبل ذلك فان سور الصين العظيم أثر خالد للهمة التى تفوق همة البشر ، وللمقدرة العظيمة فى التنظيم ، اللتين امتاز بهما أول امبراطور حقيقى فى تاريخ الصين .

وكانت أنانية «شيه هوانج تى » كبيرة جدا فلم يفكر فى تأسيس أسرة لأن الرجال الذين من هذا النوع لا يطيقون رؤية أبناء يشبهونهم فى جهدهم وقدرتهم فلما حانت منيته ترك بلادا يعمها التذمر ، ولم يستطع ابنه الضعيف الذى خلفه فى الملك أن يبقى فيه أكثر من بضعة أشهر وحل النزاع بين الحكام محل الأمن الامبراطورى وأخذت جموع من الفلاحين الجائمين تتجول من مكان الى مكان تاركة الخراب يسير فى ركابها ومن هذا العماء والفوضى ظهر أخيرا حاكم قوى أثبت بقدرته فى اعادة السلام والنظام أنه هو الذى اختارته السماء وسار هذا الرجل «ليوپانج» (Liu Pang) على الأسلوب الذى

سار عليه « سادة الحرب » فيما بعد ، اذ لم يكن هو الذى خلق هذا النظام. كان ليوپانج فلاحا أميا بدأ حياته كقاطع طريق ثم أصبح حاكما لولاية « پى » (Pei) ، وفى النهاية صار امبراطورا ، وكان جلوسه على العرش بداية أسرة هان التى أصبحت فيها الصين ، لأول مرة فى تاريخها ، قوة فى الشئون الدولية.

الفصِيل الثامِن الثلاثون عصر الاسرات المناخر في الصين

كان الصينيون، وما زالوا، طيلة ألنى سنة أكبر شعب فى العالم له وحدته السياسية والحضارية. ويذكر التعداد الذى عمل فى عام ١٠٠ ميلادية فى عصر «هان» المتأخر أن عدد سكان الصين ١٠٠٠ ولكن يجب ألا ننسى أن الأعداد التى ترد فى تعداد الصين هى دائما أقل من الواقع ؛ لأن الفلاح يستنتج عادة عندما يوجه اليه موظف أى أسئلة أنه يريد الحصول على معلومات من أجل فرض الضرائب، ولهذا يقلل عدد عائلته بقدر الامكان. وظل عدد السكان ثابتا ما يقرب من ألف سنة مما يدل على أنه وصل الى الحد الذى فرضته موارد وتكنولوجية ذلك العهد. ومنذ عام ١١٠٠ م حتى الحد الذى فرضته موارد وتكنولوجية ذلك العهد ومنذ عام ١١٠٠ م حتى وخسة وعشرين مليونا ولكن بين أعوام ١٧٣٦ و ١٨٨١ زاد فجأة الى وخسة وعشرين مليونا ولكن بين أعوام ١٧٣٦ و ١٨٨١ زاد فجأة الى

وفى هذا الوقت بالذات حدثت زيادة فجائية فى عدد السكان فى جميع بلاد العالم القديم والسبب غير واضح فقد عزوا زيادة عدد السكان فى أوروبا الى ظهور التصنيع وفتح أسواق المستعمرات ، ولكن الظاهرة تقسها حدثت فى الصين وفى الهند اللتين لم تكن مستهما الثورة الصناعية فى ذلك الوقت وعلى أى حال ، فقد كان يقطن الصين منذ عهد طويل جدا عدد هائل من السكان تجمعهم وحدة ثقافية أكثر من أى شعب آخر فى العالم . وحتى فى الأوقات التى كانت تنهار فيها السلطة المركزية ، وتحدث الفوضى والحرب

الأهلية ، احتفظ الصينيون بتقاليدهم فى الوحدة ، ونظروا الى مثل هذه الأوقات بأنها أشبه شىء بالفترات التى تأتى بين فصول المسرحية الواحدة.

وكانت هذه الكثرة الهائلة لعدد السكان ذات فائدة كبرى للصين لأنها جملت البلاد منيعة مناعة حقيقية ، فان أى غاز يقهر هذا الشعب المتمدن الكثير العدد الموحد الثقافة يجد نفسه وقد اكتسحه التيار ولا يلبث حتى يتحضر بحضارتهم ، وينتهى به الأمر بأن يستوعب نهائيا فيه . ومع ذلك فان مشل هذا العدد الهائل من السكان يكون سببا فى وجود مشاكل اجتماعية وادارية هامة ، وهى مشاكل واجهتها أمم الغرب وما زالت فى بداية الطريق نحو ايجاد حلول لها . ووجود أعداد كبيرة من السكان شىء جديد ، حديث العهد فى تاريخ العالم . فأكثر أمم القارة الأوروبية حتى القرن الثامن عشر لم تصل واحدة منها الى ٢٥ مليونا ولم يزد سكان بريطانيا العظمى عن عشرة ملايين ، وتخلق ضرورة حكم مئات الملايين من السكان بحكومة مركزية موحدة مشاكل جديدة لم يتم وضع وسائل عملية ناجعة لحلها حتى الآن .

ولفهم العوامل التى أثرت فى تطور التنظيم السياسى للصين يجب علينا أن نلقى نظرة على النظم الاجتماعية العامة فى البلاد . فباستثناء القسم الشمالى الشرقى من البلاد حيث تعيش العائلات فى مزارع كبيرة بعيدة بعضها عن بعض ، مثل نظام المزارع الأمريكية ، فأن نظام اقامة عائلات مستقلة وحدها بعيدة عن الآخرين أمر نادر الحدوث فى الصين . فالوحدة الحقيقية هى القرية ، وهى مجموعة من العائلات التى تقيم معا فى بيوت قريبة من بعضها ، يحيط بها فى الغالب سور من الطين ليحميها من العصابات التى تتجول فى البلاد . وعدا القرى يوجد عدد من المدن التى تقوم بمهمة المراكز الادارية وفيها مساكن الأغنياء من السكان ، (وكان أغلبهم فى الصين القديمة من طبقة الموظفين) وكانت مركزا للمصانع البسيطة التى تقوم بعمل المصنوعات اللازمة لهم لصناعة أدوات الترف .

واختلفت النظم الاقتصادية في كثير من النواحي عن مثيلاتها في الهند وفي بلاد الغرب ، فليس هناك آثر لنظام الطبقات الهندى بما فيه من توارث الحرف التقليدى ، كما اختلفت أيضا عن النظم الغربية وما فيها من تركيز الصناعة في المدن اللهم الا في حالات قليلة . واستعاضوا عن ذلك بالتركيز المحلى لبعض الصناعات ، اذ كانت تقوم قرى معينة في احدى المناطق بعمل احدى الصناعات المعينة وتتبادلها مع منتجات القرى الأخرى ، ويتم هذا التبادل في بلاد تقام فيها الأسواق، وكان مثل هذا البلد في حجمه وسطا بين القرية والمدينة. كان الفلاحون يذهبون الى هذا البلد ليبيعوا أو يبادلوا على سلعهم بالمواد الخام التي يكونون في حاجة اليها ، أو ليشتروا منتجات مصنوعة . وقضى هذا التنظيم فى التخصص المحلى بأن منطقة صغيرة معينة تقوم مثلا بعمل جميع السلال التي من نوع معين وكانت تستخدم في جميع أرجاء الصين ، وتقوم منطقة أخرى بعمل نوع معين من الأدوات المصنوعة من الحديد وهذا يعكس لنا صورة لبلد موحد ، لحكومته سلطة مركزية قوية ، مكنت الناس من الاطمئنان على سلامة التجارة . وحتى في أيام الاضطرابات والفوضى التي استحال فيها اتباع تلك الطريقة ظل ذلك النظام فى ذهن الشعب لأنهم يعتبرونه المثل الأعلى.

وكان معظم السكان مالكين أحرارا للأراضى ويعيشون فى القرى ، ولكن كان هناك خطان فاصلان فى المجتمع الصينى : أحدهما الخط الذى يفصل بين رجل يملك أرضا ، حتى ولو كان حقلا صغيرا ، والرجل الذى لا يملك شيئا على الاطلاق . فمالك الأرض مثل قبطان السفينة سواء آكانت احدى المدرعات الحربية أو سفينة نقل صغيرة فهو قبطان على أى حال ، ويمتاز عن البحار العادى . وكذلك كان الفلاح الصينى الذى يمتلك حقلا صغيرا فانه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه أرفع من رجل لا يملك أرضا . أما الخط الفاصل الثانى فهو بين جماعة الفلاحين والصناع الذين يعملون بأيديهم ، وبين جماعة العلماء والموظفين .

ولما كان الفلاحون الصينيون لا يسيرون على نظام توريث الثروة كلها للابن الأكبر (البكر) بل كانوا يقسمون ممتلكاتهم بالتساوى بين أبنائهم فقد ترتب على ذلك تجزىء مستمر للأراضى ، ومعنى ذلك أن قسما من السكان الفلاحين يصبحون فى النهاية بدون أرض ويضطرون الى الهجرة الى المدينة فيصبحون من الدهماء أو يصبحون ، وذلك فى العصور الحديثة ، من المشتغلين بجر العربات الصغيرة التى يستأجرها الناس فى تنقلاتهم (الركشو) .

وتقوم المجاعات والحروب بدور الحد من تكاثر عدد السكان فاذا حدث فى أى وقت من الأوقات أن المجاعات والحروب لم تنتشر فى الصين ، فان النتيجة هي وجود عدد هائل من السكان أكثر مما تستطيع أن تستوعبه البلاد فى صناعاتها اليدوية ، فتستخدم أولئك الدهماء فى أشق الأعمال ، وفى الأعمال التي لا تحتاج الى خبرة على الاطلاق. ولهذا السبب ، أي وجود عدد كبير من الناس لأداء جميم ما يلزم من أعمال ويقبلون أى أجر يكفى لقوتهم ، فان الرق لم يثبت أقدامه أبدا في الصين. ففي منازل الأثرياء من القوم عاشت خادمات اشترتهن العائلة وهن في سن الطفولة ، ويمكن اعتبارهن من الرقيق ولكنهن فى الحقيقة ينشأن كأفراد فى العائلة ، وعلى سيدهن واجب صريح بأن يجد لهن أزواجا عندما يبلغن سن الزواج . وكان هناك رقيق في القصر الامبراطوري ، ولكن لم يوجد شيء كنظام الرق الذي كان سائدا في الغرب ، ولم يقدر لهذا النظام أن ينجح لأن استخدام الدهماء كان أقل نفقة وفقط عند انتشار استخدام الآلات الميكانيكية بدأت ضمائرنا تتحرك ازاء الرقيق، وذلك لأن الماكينة كانت أرخص من استئجار الانسان ، الذي أصبح عمله أمرا كماليا ويمكن طرد مثل هذا الرجل عندما يتقدم به العمر أو يحدث له ما يجمله عاجزًا ، وهذا أرخص جدا من امتلاك رقيق يضطر المالك للعناية به .

وتنكون القرية الصينية عادة من أشخاص ينتمون الى نفس الجماعة الخاصة باسمهم. ففي الصين عدد محدود من أسماء العائلات أكثرهم ينتسبون

أصلا الى أمكنة معينة في الصين ، وربما وصل عدد أفراد بعض هذه الجماعات التي تحمل نفس الاسم ٤٠٠٠ شخص ، ومع ذلك فان عائلات كثيرة داخل مثل هذه الجماعة لا يمكنها أن تثبت صلة قرابتها بها ، وهو نظام فريد في الصين فقط ، ولا يوجد نظير له في أي مدنية من المدنيات الغربية . وتضم كل جماعة من تلك الجماعات أشخاصا من جميع المستويات الاجتماعية ، فمنهم العلماء الذين يحتلون مراكز كبيرة في الحكومة ، ومنهم الفلاحون ومنهم الدهماء ، الذين تجردوا مما كانوا يملكونه من أرض. وعلى أى حال فان هذه الجماعات تحرص حرصا تاما على أن تتزوج من خارج جماعتها . ويحتم على الفلاح أن يحصل على زوجة له من قرية أخرى وهي عادة توفر على الانسان الكثير من المتاعب التي يسببها له والدا زوجته ، لأنهم يعيشون في قرية أخرى بعيـــدة فلا يسهل عليهم التدخل فى شئون الرجل وزوجه . وكانوا ينظمــون أمور الزواج عن طريق وسطاء ، وهم في الواقع نوع من السماسرة يهمهم جدا في كثير من الحالات أن يعرفوا السوق جيدا ويتأكدوا من نجاح الزواج. ويسبب الزواج كثيرا من الهم والقلق للعائلتين ، فالوالدان يحرصان على أن يتزوج ابنهما ، حتى يستمر اسم العائلة ، ونظرا لأنه لم يكن هناك محل أو مكانة للبنت فى المنزل الصيني فان والديها يحرصانعلى أن تتزوج فى عائلة أخــرى حتى يكون لها أسلاف ، ولها ذرية ، ولا تصبح شبحا لا منزل له عندما تموت . ولا تعرف الصين دفع مبلغ من المال نظير زواج البنت ، ولكن هناك تقليد خاص بتبادل الهدايا بين العائلتين.

وسكان القرية الصينية يشبهون سكان القرية الأمريكية في كونهم جماعة متصلين فيما بينهم ، يعرف كل منهم ما يعمله الآخر ، ويراعون الأخلاق وقواعد عدم الاتصال بين الجنسين مراعاة دقيقة ، وبنفس الشدة التي يمكن أن تكون في احدى القرى الصغيرة في ولاية ثرمونت الأمريكية بل ونفس الأسلوب . وكان يسمح للطبقات العليا بالطبع باتخاذ المحظيات ، ولكن لم يكن هناك

بين الفلاحين من تسمح له موارده المالية بأخذ محظية ، وعلى أى حال فلو أنه حاول ذلك لحدث ضغط اجتماعي شديد ضد ما فعله .

وكانت الزوجة تخضع خضوعا تاما لأم زوجها ، ولم يكن لها فى بدء الأمر أى مكانة فى العائلة ، ولكن الزوجة التى تلد أولادا من الذكور ، وتصل الى منتصف العمر تصبح لها مكانة كبيرة ، وذلك عندما يكبر أبناؤها ويصبح لها زوجات أبناء تسيطر عليهن بدورها ، وتصبح الرئيسة الحقيقية للمنزل . وتنقسم عائلة الفلاح عادة بعد زواج أبنائه ، وربما كان فى استطاعة الأخوة أن يظلوا متفاهمين ويفضلوا البقاء مع باقى العائلة تحت سلطان الأكبر سنا ، ولكن الزوجات اللائى أتين من قرى مختلفة يغرن من بعضهن خصوصا عندما يولد لهن أولاد ويثرن الكثير من المتاعب ، ولهذا تسير العائلات الى التفكك فى الجيل الثانى .

ومع هذا ، فهناك نوع آخر من الحياة العائلية يختلف تمام الاختلاف عن النوع السابق وهي حياة طبقة العلماء والموظفين . ففي هذه الطبقة نجد أن المثل الأعلى هو العائلة الكبيرة . ومثل هذه العائلة تستمر أجيالا تحت زعامة أكبر الذكور سنا في كل جيل . وعندما يتمكن أي شخص من جمع ثروة بأي وسيلة من الوسائل ، فان ما يطمح اليه هو تكوين عائلة من هذا النوع . فبيت العائلة بيت مجمع يسكن كل ابن وزوجته وأطفاله جزءا منه ، وتمتلك المجموعة ثروة العائلة سواء أكانت الثروة من الأرض أم العمل التجارى أو أي شيء آخر مشترك بينهم ، يعملون فيه متعاونين فيقسم الدخل بين أفراد العائلة المختلفين حسب ما يستحقون . فاذا لم يستطع أحد الأبناء أن يظل على وفاق مع الآخرين أو رغب في أن يجرب حظه في مكان آخر يدفعون له ما يخصه ويسمحون له بالذهاب . ويمكن أن تسير العائلات على هذا النظام مدى قرون ، ولكن في الواقع نجد أنه بالرغم من أن المثل الأعلى هو أن تبقي العائلة مستمرة في تماسكها مدة غير محددة فان قليلا من العائلات الكبيرة استطاعت أن تبقى في تماسكها مدة غير محددة فان قليلا من العائلات الكبيرة استطاعت أن تبقى

معا أكثر من أربعة أو خمسة أجيال وعلى أى حال فبعد مضى تلك الأجيال القليلة يصبح مجموع أفراد هذه الجماعة أكثر من مائة بما فيهم عدد من الأقارب الفقراء ، والمتطفلين الذين يحتلون مركزا وسطا بين أفراد العائلة والخدم ورئيس العائلة لا يعرف تماما مركز أولئك الأشخاص بالنسبة الى العائلة ، ولكن من مصلحته أن يكون لديه عدد كبير من الأشخاص في هذه الجماعة العائلية الكثيرة العدد .

وتوجد فى الصين وحدة عائلية أخرى تتكون من أشخاص يعترفون باتنسابهم الى شخص معين ، وتجمعهم شجرة نسب معروفة . فهم يعرفون أنهم مرتبطون معا برابطة القرابة بينما أن جماعة الاسم لا تفعل ذلك ، وأفراد هذه الجماعة لهم جبانة مشتركة ولهم معبد . ويصبح هذا المعبد أشبه بمؤسسة يغدق عليها الأغنياء من أفراد التسو (Tsu) — (وهو الاسم الذى يطلق على مثل هذه الجماعة) أموالا أو أرضا يستغلون ريعها فى مساعدة المعدمين من أفرادها أو فى تعليم صبى ذكى ليصبح عالما أو يصل به الأمر ليكون فردا من طبقة الموظفين ، والواقع أن التسو جمعية مشتركة للمساعدة والاغاثة ولها فى جنوبى الصين أهمية تفوق مالها من أهمية فى الشمال .

ومن أهم الأشياء في المجتمع الثاني وجود فرص كثيرة حقيقية ليرتقى الفرد وترتفع مكاته ، لا من الناحية النظرية بل من الناحية الواقعية . وهذا يشبه ما في انجلترا مثلا ، فانه بالرغم من وجود الفوارق القوية بين الطبقات ففي استطاعة شخص من العامة أن يجمع ثروة ويشترى لقب «سير » . ويكثر وجود التغيير في المراكز الأدبية للأفراد والعائلات في بلاد الصين ، وكثيرا ما ترتفع بعض العائلات التي كان أسلافها من الفلاحين ارتفاعا تدريجيا حتى تصل الي طبقة العلماء والموظفين ثم تسقط ثانية من مكانها ، والى ما قبل وقت قريب كان ذلك يحدث على الوجه الآتي :

كان الطريق الموصل الى الوظائف في الصين هو طريق التعليم والمقدرة

على اجتياز عدد من امتحانات المسابقة . ولما كانت طريقة الكتابة الصينية طريقة معقدة فقد كان يتحتم على كل من يريد أن يصبح عالما أن تكون عائلته ذات دخل يزيد عن حاجتها لكى تصرف عليه مدة ست سنوات على الأقل ، لأن ذلك هو الوقت اللازم للالمام بالكتب الأساسية (لدى الكونفوشيين ، أربعة كتب خاصة والخمسة كتب المعروفة باسم الكتب الكلاسيكية الخمسة) ، وأن يعرف كتابة النثر والشعر وأن يكون ملما بقواعد الحساب ، هذه هى الأشياء التى كان يتحتم على الشخص أن يكون قادرا على عملها لكى ينجح فى الامتحان الأول.

كان للعالم مكانة رفيعة فى الصين ، فقد كان أفقر عالم ، وهو الذى يعمل مدرسا فى احدى مدارس القرى مثلا ، يتقدم اجتماعيا على تاجر غنى لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا السبب كانت كل عائلة تستطيع أن تعلم أبناءها ، كانت تفعل ذلك آملة أن يستطيعوا يوما ما أن ينجحوا فى الامتحانات الرسمية . وكانت تلك الامتحانات أحد الأشياء القليلة فى بلاد الصين القديمة التى ظلت بعيدة عن ابتزاز المال بطريقة غير مشروعة ، لأنهم كانوا ينظرون اليها بأنها هى لب النظام القائم كله . حقيقة ، كان من الميسور فى أواخر أيام أسرة « منشو » وفى بعض الأسرات الأخسرى شراء بعض الشهادات العسكرية الصغيرة التى تعادل الشهادات الأكاديمية ، ولكن الصسينيين أنفسهم كانوا يسمون تلك الشهادة « شهادة عن طريق الباب الخلفى » . وعلى أى حال فلم يحدث أبدا أن شخصا حاصلا على شهادة عن طريق الباب الخلفى تولى وظيفة رسمية فى ادارة الحكومة .

ظهر نظام الامتحان وعمل به فى أيام أسرة هان حوالى ٢٠٠ ق.م. - ٢٠٠ ميلادية عـــلى وجه التقريب (١) ، ففى ذلك الوقت حدثت احتكاكات بين

⁽۱) غلى وجه الدقة بين عامى ٢٠٦ ق · م · و ٢٢٠ ميلادية · (المترجم)

الامبراطور وجماعة العلماء ويقال ان الامبراطور الذي أمر بعقد الامتحانات أعلن قائلا: « الآن قد أوقعت العلماء في شبكتي » ولكن الذي حدث هو أن العلماء هم الذين أمسكوا بالامبراطور لأن طبقة العلماء هي التي سيطرت على الحكومة الصينية منذ ذلك العهد حتى وقت قريب وأخذت الامتحانات طابعها النهائي تحت حكم أسرة « تانج » (T'ang) بين عامي ٧٠٠ ، ٥٠٠ ميلادية (١) وكانت تنكون من موضوعين في الانشاء وأن يكتب الممتحن قصيدة تتألف من اثني عشر سطرا ، وفي كل سطر خمس علامات ، وكان موضوع القصيدة يعلن للطلبة في آخر دقيقة ، وظل هذا النظام ساريا بلا تغيير تقريبا سواء في الشكل أو في الموضوع حتى عام ١٩١٢ عندما أعلنت الجمهورية الثورية في الصين

وكان يتحتم على أى شخص يتقدم الى وظيفة من الوظائف التى تحتاج الى تعيين أن يكون قد نجح على الأقل فى الامتحان الأول وحصل على شهادته ، ولكنهم كانوا يحتاجون عادة الى شهادتين . وكانت هناك أربعة امتحانات ولكن لم يكن يستطيع الوصول الى النهاية ويجتاز الامتحان الرابع الا عدد قليل ، وكانت الحكومة تعنى بأمر الذين يتمكنون من ذلك حتى ولو لم يحصلوا على وظيفة فى الحال ، وكانوا يربطون لهم مرتبا حتى تخلولهم وظيفة .

كان جميع الموظفين الاداريين الذين يتولون وظائف ذات مستوى أكبر من مستوى وظائف القرية لا يتولون وظائفهم الا بطريقة التعيين ، وكان المعينون يؤخذون من جداول (اثبات) أسماء الناجحين فى الامتحان وكانت القرية تحكم بطريقة ديموقراطية ، يشرف على شئونها مجلس قرية ، تنفذ أحكامه بدقة لأن المجلس كان مكونا من أعضاء هم رؤساء العائلات الذين كان

⁽۱) حکمت اسرة « تانج » من عام ۱۱۸ حتى عام ۹۰۹ میلادیة . (المترجم)

لآرائهم تفوذ كبير فى القرية ، ولكن كل الوظائف التى كانت أعلى من مستوى مجلس القرية ، كانت وظائف حكومية لا يتولاها أصحابها الا بعد تعيينهم من الحكومة.

وكان يصعب على أول جيل من العلماء ، الذين ينتسبون الى جماعات من عائلات الفلاحين أو التجار أن يتولوا منصبا حكوميا حتى ولو اجتازوا امتحان المسابقة ، وكانت العادة أن ينزوى مثل هذا العالم قانعا بما أحرزه من تكريم بعصوله على شهادته ، وتعمل جماعة عائلته وتكد حتى تجمع ثروة تكفى لأن يتعلم أبناؤه لكى يصبحوا من العلماء . فاذا نجح أولئك الأبناء فى الامتحانات فمن حقهم التطلع الى الوظائف الحكومية التى ينشدونها . وكانت المنافسة حادة لأنه كان يوجد دائما عدد من الحائزين على الشهادات الأكاديمية أكثر من عدد الوظائف . ولما كان المتقدمون لتلك الوظائف غير مرتبين فى أى كشف من كشوف الأسبقية حسب الدرجات التى حصلوا عليها فى الامتحانات فان العصول على احدى الوظائف الحكومية كان يحتاج الى مساع تبذل مع الموظفين القائمين بالأمر ، ولهذا كان المرشحون ينجذبون الى بيكين حيث ينتظرون هناك باذلين كل المساعى التى تتيسر لهم .

وكانوا يعينون المرشحين الناجحين في وظائف في أمكنة في الصين تبعد ما أمكن عن مواطنهم الأصلية ، وكانوا يفعلون ذلك لأنه بمجرد أن يعرف أن واحدا من « التسو » تولى منصبا حكوميا فان كل فرد ممن ينتمون اليه بصلة القربي يأتي اليه طالبا المساعدة أو طالبا التعيين في أحد الأعمال الصغيرة ، وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب هذا الجيش من الأقارب الجائعين أن يذهب الموظف الى مكان بعيد عنهم . وفي العصور الماضية عندما كان السفر صعبا كان الموظف الذي ينتقل الى اقليم بعيد يترك أقاربه بعيدا عنه ، ولكن بعد أن ظهرت وسيلة الانتقال بالأوتوبيس والوسائل الأخرى في المواصلات ، ففي الوقت الذي يصل فيه حاكم أحد الأقاليم الى مركز عمله يجد جيشا من أقاربه الوقت الذي يصل فيه حاكم أحد الأقاليم الى مركز عمله يجد جيشا من أقاربه

الفقراء جالسين على عتبة داره آملين أن يجد لهم عملا وأن يستفيدوا من الولاء للمائلة وما يحس به الشخص من التزامات نحو أهله.

وكانت كل وظيفة في الدولة – ما عدا وظيفة الامبراطور – مفتوحة من الناحية النظرية ، أمام كل رجل له مواهب كافية . كانت هناك بعض الجماعات مثل الشرطة ، وبحارة الزوارق والأرقاء مثلا ، التي لم يكن لها حق التقدم للامتحانات ، ولكن تلك الجماعات كانت قليلة العدد اذا قورنت بمجموع السكان الذين كانوا يعيشون في الصين فالطالب الذي ينتهي من منهج التعليم العالى الذي يتكون أساسا من دراسة الفلسفة الأخلاقية والتاريخ والآداب يتقدم الى امتحانه الأول. وكانت تلك الامتحانات تعقد فى المبنى الحكومي فى المدن فى كل اقليم مرتين فى كل ثلاثة أعوام ، وكان الممتحنون هم حكام المناطق ومستشارين علميين تعينهم الحكومة وعلى الممتحن عند تقدمه للامتحان أن يقدم بيانا بعمره والمكان الذي ولد فيه ، وأن يوضح أنه ليس عضوا في جماعة من الجماعات المحرم عليها دخول الامتحان. وكانوا يفحصون ملابسه ليتأكدوا أنه لا يحمل معه أوراقا تساعده على الغش في الامتحان ، ثم يتركونه بعد ذلك في حجرة صغيرة يختمون بابها الخارجي بوضع قطعة من الورق مختومة بالختم الرسسي.

وكانوا يؤدون الامتحانات فى موضوعات مختلفة متشعبة النواحى ، ويقصد منها اظهار ذكاء العالم ومقدرته ، وكان المفروض أن الرجل الذى يصل به ذكاؤه الى النجاح فى الامتحان يكون على قدر كاف من المهارة تؤهله للنجاح فى أى عمل يتولاه ، وهذا يتعارض تماما مع الاعتقاد الأمريكى بأنه اذا كان الرجل حاصلا على المهارة اللازمة للعمل الذى يؤديه فلا أهمية لأى شىء آخر بعد ذلك ، ويتعارض أيضا مع الفكرة الأمريكية عن الرجل السياسى بأنه هو الشخص القريب جدا من الرجل العادى ، ليس فيما يهتم به فحسب ، بل وفى مقدرته العامة . أما رأى الصينيين فكان يخالف ذلك ، اذ يحتاج العثور بل وفى مقدرته العامة . أما رأى الصينيين فكان يخالف ذلك ، اذ يحتاج العثور

على رجل متفوق حقيقة لأجل العمل فى الوظائف التشريعية والادارية الى قدر كبير من الحذق. ويعنون بالرجل المتفوق أنه الرجل الأمين الذى لا ينحاز الى ناحية معينة فى أحكامه ، والذى يخلص الاخلاص كله للصالح العام. وكان مثل هذا الرجل يلقى التقدير وحسن المكافأة ، وذلك على عكس النظام الأمريكي حيث يستطيع الرجل المدرب أن يحصل على قدر أكبر من المال لو عمل فى وظيفة حكومية ، اللهم الا اذا سار على خطة ابتزاز أموال الناس بدون وجه حق لمساعدتهم فى الحصول على ما يريدون.

كان النظام الصينى أشبه بنظام الخدمة البريطانية الاستعمارية الذى كان الى ما قبل وقت قريب من أنجح نظم الادارة في العالم . ففي النظام البريطاني كانت امتحانات الخدمة المدنية تهدف الى اكتشاف الرجال المثقفين الذين على قدر عظيم من الذكاء ، وكانت أسئلة الامتحان تجمع بين أسئلة عن كتاب بوكاشيو فى أذواق الذين يجمعون الكتب ، وبين أسئلة يطلبون فيها منهم قراءة احدى الخرائط البيانية الخاصة بتقلب الطقس. وكذلك كان الموظف الصيني. فقد كان رجلا يحسنون اختياره ، رجلا ممتاز الذكاء ، وكان كل موظف أوروبي يضطره علمه الى الاتصال بالحكومة الصينية عندما كانت أسرة منشو في أيام قوتها كان يدرك في الحال ما كان لأولئك الموظفين من القيمة العظيمة والمقدرة الفائقة . وفي بعض الأحيان كان ذلك النظام يقود الى عكس ما قصد منه ولنضرب لذلك مثلا بأحد الموظفين الصينيين الكبار ، الذي كان من الطبقة الرابعة ، وهي أعلى الطبقات ، الذي تولى قيادة الأسطول الصيني في الحرب الأولى بين الصين واليابان بالرغم من أنه لم يركب البحر فى حياته . وبطبيعة الحال انتهى الأمر بالقضاء على الأسطول الصيني. ولكن هذا الموظف الكبير اتبع خير تقاليد العلماء ، فكتب قطعة أدبية ممتازة يشرح فيها كل ما حدث ،

ورفعها الى الامبراطور ، ثم انتحر ولكن بصرف النظر عن مثل هذه الحوادث النادرة فان النظام الأصلى نجح نجاحا كبيرا في تطبيقه .

وكان يتقدم للامتحان الأول ستة آلاف أو سبعة آلاف طالب لا ينجح منهم عادة الا أقل من عشرة في المائة . ويسمح لأولئك الناجعين بدخول امتحان مسابقة آخر ، وهكذا فلا يحصل على الشهادة الأولى الا أقل من واحد في المائة أي نحو ستين من كل ستة آلاف ، ويذهب أولئك الناجعون الي عواصم الولايات ويدخلون الجامعات ويحضرون للامتحان الثاني . وكان الرجل الذي يحصل على الشهادة الأولى لا يحمل هما لشيء . فهو مطمئن كل الاطمئنان من الناحية المالية ، وذلك لأنه اذا لم تستطع عائلته أن تساعده على الاستمرار في الدراسة ، فإن الجماعة التي ينتسب اليها تدفع نفقاته على أمل نجاحه وحصوله على الدرجة الشانية وتعيينه في منصب حكومي . والصينيون محبون دائما للمقامرة ، وهم يقامرون بما يدفعونه مقابل أن يكون لهم صديق في الحكومة في استطاعته مساعدة الجماعة بأكملها .

كان النجاح فى امتحان الدرجة الأولى حادثا عظيما ، وكان اسم المرشح يكتب على لوحات أسلاف عائلته ، وقبل أن يدخل التلغراف الى الصين تخصص بعض الناس فى أن يكونوا رسلا لابلاغ مثل هذه الأخبار ، وجعلوا ذلك مهنة لهم . كانوا ينتظرون خارج حجرات الامتحان حتى تعلق أسماء المرشحين الناجحين ثم يجرون ليبلغوا الأخبار السارة الى العائلات فى القرى البعيدة ، وفى مثل تلك الحالة كانت الغبطة تملأ نفوس العمائلات في كافئون أولئك الرسل بسخاء .

وكان الامتحان الشانى يعقد فى عاصمة الاقليم تمتحنهم لجنة يعينها الامبراطور. وتشبه اجراءات الامتحان الثانى اجراءات الامتحان الأول، وكانوا يطوقون أعناق الناجحين من بينهم بقلادة، وزهرة ذهبية. وكان الحاصلون على الدرجة الثانية فى الأيام السالفة يذهبون الى العاصمة فى

ييكين لأجل الامتحان الثالث فمن يحصل منهم على الدرجة الثالثة يبقى فى العاصمة حتى يدخل الامتحان الرابع ، ويصحح أوراق هذا الامتحان الامبراطور نفسه ، ويستخدم الحبر الأحمر فى هذا الغرض . وكان الناجحون فى أعلى درجة ، وهى الدرجة الرابعة ، يقسمون الى أربع فئات : احداها يرتب لصاحبها مرتب ويبقى تحت الطلب ليملأ ما يخلو من وظائف هامة ، وفئة ثانية تصبح أعضاء فى المجلس الخاص بالامبراطور ، وفئة ثالثة تعين فى وظائف فى مكاتب الحكومة ، أما الفئة الرابعة فكانت ترسل الى الأقاليم ليكونوا حكاما لها .

ولا داعى للقول بأن مناصب الفئة الأخيرة كانت هى المناصب التى ينشدها الجميع ، لأن حاكم الاقليم كان فى مركز يساعده على ابتزاز الأموال من الناس لأن ذلك كان جزءا متمما لنظام الحكومة فى الصين ونظرا لقلة عدد الوظائف فان الحصول على وظيفة حتى بعد اجتياز الامتحان النهائمى كان يتطلب مزيجا من المهارة والنفوذ والموظف الصينى الذى يجتاز كل تلك المراحل يكون دون أى شك شخصا شديد الذكاء ، وطالما كانت حكومة الصين متروكة بين أيدى أولئك العلماء ، الذين عرفوا كيف يعدونهم ، فقد سار كل شيء على خير وجه . ولكن النقطة الضعيفة فى النظام الصينى هى أنهم لم يكن لديهم مثل هذا النظام الدقيق للحصول على الأباطرة .

ولم يتبع الصينيون عادة توريث الابن الأكبر بالرغم من أنه كان يوجد اتجاه واضح نحو هذا التقليد فى البيت الامبراطورى. كان الامبراطور يختار فى العادة أحد أبنائه ليخلفه على العرش. ونظرا لأن الامبراطور كان يتزوج من عدة نساء ، يختارهن من العائلات الصينية الكبيرة ، فمن السهل أن يتصور الانسان مدى الألاعيب والدسائس التى تسببها هذه الطريقة فى اختيار الوريث، فاذا تم اعلان اسم الشخص الذى سيتولى العرش تبدأ أمه فى التأثير عليه ليجد وظائف لجميع أفراد العائلة ، وكانت العلامة التى تنبىء بقرب انهيار أى أسرة

مالكة هى بدء خروج ادارة البلاد من يد العلماء الحقيقيين الذين وصلوا الى مناصبهم عن طريق الامتحانات ، ووضعها فى يد المقربين من القصر.

ولعب خصيان القصر دورا كبيرا في القضاء على الأسرات الصينية ، ويختلف أولئك الخصيان اختلافا تاما عن خصيان البلاد الاسلامية الذين كانوا فى العادة من الأرقاء ، أما في الصين فانهم كانوا متطوعين ، وفي كثير من الحالات كانوا رجالا في متوسط العمر أدوا واجبهم نحو العشيرة بالزواج وانجاب الأبناء ، ثم يتطوعون بعد ذلك لتجرى لهم تلك العملية ويدخلون في خدمة القصر حيث يتيسر لهم تولى منصب رفيع . ولكن الخصيان ، رغم •حالتهم التي لا يستطيعون معها انجاب الأطفال ، كان لهم عائلات في خارج القصر ولهذا السبب كانوا ينتهجون النهج الصينى القديم فى الادارة الحكومية وهو الصراع بين مطالب العائلة وبين ما تنطلبه المصلحة الوطنية. ومن الجلى الواضح أن الأشخاص الذين تركوا عائلاتهم ليدخلوا خدمة القصر بهذه الشروط كانوا اما رجالًا لم يتجاوبوا مع من حولهم ، أو لم ينجحوا في الحياة العادية ، أو أولئك الذين تتملكهم رغبة جامعة نحو السيطرة الى الحد الذى ِ يجعلهم يضحون بأى شيء للحصول عليها . وعلى أي حال ، فقد كانوا جماعة خطرين ، وعندما كان يقوى نفوذ الخصيان في ادارة القصر ويتولونالمناصب الادارية ويعينون أقاربهم فى الوظائف ، فان ذلك كان ايذانا بأن تلك الأسرة فى طريقها الى الزوال.

كانت نقطة الضعف فى النظام الصينى تكمن فى الهيئة العليا فى الادارة . وطالما كان الحكام حكاما صالحين ، كان النظام كله يسير بنجاح ، وتستطيع الصين أن تتقدم وتحصل بصفة مستمرة على طبقة من الموظفين فى درجة عالية من الذكاء ، تلقوا نوعا واحدا من التعليم وتجمعهم أسس ثقافية واحدة ، وكان خير نظام للابقاء على تلك الأرستوقراطية التى نجحت حتى ذلك الوقت فى أداء مهمتها . ومشكلة الحصول على موظفين صالحين هى فى الواقع من

المشاكل التي لا مندوحة عنها ، والتي تواجه الأمم الحديثة ،وهي من المشاكل التي لم نحسن حتى الآن معالجتها .

أما العيوب الأخرى في حكومة الصين فهي في انتشار الرشوة وابتزاز الأموال دون حق ، ثم في طريقتهم في معالجة الجريمة. كان المرتب الذي يدفع للحاكم الصيني مرتبا قليلا ، وكانوا يتوقعون منه أن يحصل على المال عن طريق الابتزاز أو الرشوة وكان المبلغ الذي يتقاضاه بهذه الوسيلة قد حددته العادات السائده تحديدا دقيقا وأصبح شيئا متوقعا من جميع الذين يتعاملون معه . كان هذا النوع من ابتزا<mark>ز المال</mark> ما سماه بعض الأمريكيين « رشوة مما جرى به العرف فان التجار والصناع يرسلون احتجاجا الى الحكومة المركزية ، وعند ذلك يرسلون لجنة للتحقيق دون سابق اخطار فتختم جميع السجلات وتعتقل الموظفين ثم تبدأ التحقيق. فاذا ثبت أن الموظفين كانوا يحصلون على تلك الرشاوى دون حق فانهم كانوا يتخذون اجراء سريعا . وبدلا منجعل القضية تستمر عشر سنوات وينتهىالأمربتغريم المرتشى ثلاثةفى المائة مما عرف أنه أخذه - حسب الطريقة الأمريكية - فانهم كانوا يحكمون عليه بالاعدام ، وكان هذا العمل رادعا قويا ضد الافراط في الظلم .

وكانت الطريقة الصينية فى معالجة الجريمة ، بالرغم من أننا لا يمكن أن نرضى عنها اذا حكمنا عليها بمقاييسنا ، أقسى على المجرمين منها على الجمهور، وهذا مالا يمكن أن نقوله دائما عن طرقنا التى تتبعها فى هذا الموضوع . كان العقاب ينفذ سريعا ، وكان لديهم أنواع كثيرة مبتكرة فى تنفيذ الحكم بالاعدام . ولم يكن للمجرم الاحق ضئيل للاستئناف ، أما الشهود الذين لم يكن لهم ضلع كبير فى الجريمة فانهم كانوا يعذبون وذلك جريا على مبدأ كانوا يؤمنون به وهو انهم بهذه الطريقة يحصلون على معرفة الكثير من تفصيلات الوقائع . ولكن هذه الطريقة كانت فى الواقع سببا فى هرب أى شاهد

يرى الجريمة ، وكانهذا بدوره يزيد من صعوبة الحصول على البراهين الضرورية في اثبات الجرائم . واذا كان المتهم موظفا ولم تكن جريمته من الجرائم الكبيرة التي يستحق عليها الاعدام فانهم كانوا يرسلونه الى العاصمة لينتظر المحاكمة ، وهناك كان ينتظر شهورا أو أعواما ، ويبتز منه كل من خوله رشاوى ، حتى يعصروا ماليته عصرا ، ولا يبقى لديه شىء . وكانت هذه الوسيلة أسلوبا واعيا لتكديس الثروة لفائدة الهيئة الحاكمة . ويتلخص هذا الأسلوب في أنهم كانوا يتركون الموظفين الصغار يبتزون من المال ما يشاؤون ثم يتلقفونهم بعد ثرائهم كما يقطف الانسان الثمرة بعد نضجها . وكانت هذه الطريقة قد بدأت تستخدم في ألمانيا خلال حكم النازى وينتظر أن تظهر في أي مكان فيه حكم دكتاتورى .

وتنفرد الصين بين جميع المدنيات الكبيرة بأنها خلال تاريخها الطويل لم تظهر فيها طائفة قوية من رجال الدين فى أى وقت من الأوقات. وبالرغم من أن الامبراطور نفسه فى العصور القديمة فى عهد شانج وشووهان ، كان فى الوقت ذاته كاهنا يقدم القرابين الى السماء نيابة عن المملكة بأسرها ، فان الواجبات الدينية الملقاة على عاتق أولئك الحكام كانت دائما فى المرتبة الثانية وتأتى بعد مشاغل الحكم ، أو على الأقل سن القوانين الحكومية الرادعة ، وترك تنفيذها بين يدى أناس مدربين وهم طبقة الموظفين . ولم يكن فى الصين فى أى مرحلة من مراحل تاريخها شىء يماثل منشآت المعابد الكبيرة التى سيطرت على الحياة الفكرية والحياة الاقتصادية فى بعض المدنيات الأخرى مثل مصر وبلاد ما بين النهرين والى حد ما ، فى الهند أيضا .

وأهم عنصر فى الديانة الصينية هو عبادة الأسلاف ، فان كل ديانة من الديانات ترفع من شأن القيم الأخلاقية والميول التى يرى فيها المجتمع أنها بالغة الأهمية ، وكان أهم شيئين فى الحياة اليومية فى الصين أسلوب التنظيم

العائلى ونظام استمرار العائلة ويلى ذلك فى الأهمية أساليب الأدب والكياسة التى ذكرت قواعدها بالتفصيل فى الكتب الصينية الكلاسيكية .

ونرى فى الديانة الصينية انعكاسا قويا لهذين الأمرين الهامين ، فمهما كانت العقيدة التى يؤمن بها الشخص الصينى من الناحية الرسمية فانه كان يؤمن قبل أى شىء آخر ايمانا أساسيا بعبادة الأسلاف.

وترجع نشأة هذه العادة وأصلها الى نظام الحياة العائلية ، فالعائلة ، ف رأى الصينى أهم من الفرد ، وهى شىء يمكن أن يستمر ، ويمكن أن يقال عن العائلة انها تحتوى فريقين أحدهما حى والآخر ميت . وهم يعتقدون أن الأسلاف الذين ماتوا يستمرون على اهتمامهم بمقادير وسلوك الذين من نسلهم ولهذا كانوا يخطرون أولئك الأسلاف بكل الأحداث الهامة فى العائلة ، ويقدمون لهم القرابين . ومهما كان ، فان ذلك لم يكن عادة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، فالقرابين كانت تقدم كعلامة من علامات الاحترام وكاعتراف مؤدب من الأحفاد بأنهم مدينون بوجودهم وبحظهم الحسن ، لأولئك الذين أصبحوا فى عالم الروح .

وللشعائر والطقوس أهميتها فى أكثر نواحى الديانة الصينية. فأقدم الكتابات الصينية التى وصلت الينا هى الكتابات التى تصف الطقوس الصحيحة التى يجب القيام بها عند تقديم مختلف أنواع القرابين ، وهى تصف وصفا دقيقا مفصلا كيف تصنع أوانى القرابين ، وما هى الطرق التى يجب اتباعها فى ذلك العمل ، وما شابه ذلك ، وكان ذلك كله نوعا من التقرب الى القوى التى هى فوق قوى الطبيعة ، ولكنه تقرب خال من العاطفة ويشبه كثيرا تقرب أحد المشرفين على ادارة القصر أو أحد كبار الموظفين الى الامبراطور. فاذا اتبعت القواعد الصحيحة الخاصة باللياقة فى معاملاتك مع القوى التى فوق الطبيعة فمن المفروض انك ستحصل على الفائدة. وليس المتوقع منك أن تحب

الله أو تخافه ولكن يجب أن تعرف كيف تنصل به حسب الأصول وكيف تؤثر عليه ، وهي كلها أشياء خصصت لها الآداب الصينية فصولا كثيرة.

لم يكن الصينيون فى عصورهم القديمة يقتصرون على تقديم القرابين لأسلافهم بل كانوا يضعون مع الموتى عند الدفن جميع الأدوات والأوانى والأشياء الأخرى التى يحتاجون اليها فى الحياة الأخرى. ففى مقابر «شانج» التى ترجع الى حوالى عام ١٥٠٠ ق. م كانوا يضعون قرابين كثيرة جدا مع الميت. والسبب فى العثور على تلك الأوانى الفخمة المصنوعة من البرونز بين أوانى عصر شانج هو أن الملك المتوفى يجب أن يدفن ومعه العدد الكامل من أوانى القرابين التى عساه يحتاج اليها عند تقديم القرابين الواجب تقديمها باعتباره ملكا فى العالم الآخر ، اذ أن ذلك العالم ليس الا امتدادا للحياة على الأرض. وأعطوا الملك أيضا ما يلزمه من الخدم ، وفى أغلب الحالات على الأرض. وأعطوا الملك أيضا ما يلزمه من الخدم ، وفى أغلب الحالات واحدة أو اثنتين من محظياته اللاتي يحبهن ، وكانوا يختقون أولئك الذين سيقومون على خدمته ويضعونهم معه فى القبر ، وفى بعض الحالات كان أحد النبلاء المخلصين ينتجر ويتبع صديقه الى العالم الآخر حتى يبدأ ذلك الحاكم الميت حياته الجديدة وحوله جماعة يعرفها من قبل .

واستمرت عادة القرابين الامبراطورية أكثر من ألف سنة بيد أنه فى خر أيام أسرة « شو » زاد الشعور بالاعتراض على تقديم الضحايا الانسانية وبدأوا يضعون فى المقابر بديلا لها . وفى احدى الأساطير أن الضحايا الآدمية ألغيت فى خلال أسرة « هان » ، وذلك لأنه بعد موت أحد الأباطرة أصر قيم القصر على أن الامبراطورة يجب أن تقتل لكى تكون مع زوجها ، ولكن السيدة اعترضت على ذلك بأن قيم القصر هو المشرف على كل شىء فى ادارته ويعرف ما يحتاج اليه سيده أكثر منها ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يلبى رغبات ما يحتاج اليه سيده أكثر منها ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يلبى رغبات الامبراطور خيرا منها . فصرفوا النظر فى الحال عن الموضوع ، وأبطاوا عادة تقديم الضحايا الآدمية فى جنازات الأباطرة ، وهذه التماثيل الصغيرة الفخمة تقديم الضحايا الآدمية فى جنازات الأباطرة ، وهذه التماثيل الصغيرة الفخمة

للراقصات والجنود والخيل ... الن الن يطلق عليها اسم تماثيل القبر والتى كانت توضع فى المقابر فى أواخر أيام «شو» وفى أيام أسرة «هان» وأيام أسرة « تانج » لم توضع فى المقابر الا لتكون بديلا عن أشخاص حقيقيين وأشياء حقيقية .

وفى العصور الحديثة استمر الصينيون المتمسكون برأيهم فى تقديم الأشياء التى يحتاج اليها المتوفى فى العالم الآخر ، ولكنها تصنع من مواد رخيصة مستهلكة ، فى أغلب الحالات من الورق ، وتحرق فى نهاية الجنازة ويرسلونها الى العالم الآخر وذلك باحراقها فى النار . وكثيرا ما يرى الانسان فى موكب الجنازات بين الأشياء التى يحملونها سيارة مصنوعة من الورق ويجلس فيها سائقها ، وفى أيام حكم «شيانج كاى — شك (Chiang Kai-Sheck) للصين ، سارت جنازة أحد القواد الصينيين وكان فيها طائرة من الورق أحرقت فى نهاية الجنازة . كان الصينيون يؤمنون ايمانا تاما بصدق فكرة وضع الأمتعة فى القبر أو حرقها بعد الانتهاء من الجنازة من أجل فائدة المتوفى ، والى عام ١٩٦٠ كان بعض الناس يعقدون قروضا فى بعض الأحيان ، وهم متفاهمون على أن رد قيمة تلك السلفيات سيكون فى العالم الآخر .

وكانت هناك عقيدة أخرى فى الصين بأن الجسم يكون فى العالم الآخر على الحالة التى كان عليها يوم الوفاة . ولهذا السبب كان الصينيون ، بل وما زالوا حتى اليوم ، ينفرون كل النفور من فكرة بتر أحد الأعضاء ، حتى ولو كان فى ذلك انقاذ لحياتهم . فاذا تم بتر أحد الأعضاء فانهم يحتفظون به حتى يدفن مع صاحبه . حتى رؤوس المجرمين التى يطيحون بها عقابا على ما اقترفوه من جرائم كانوا يسلمونها عادة لأهلهم ليضعوها فى مكانها مع الجثة عند دفنها . واذا لم يتيسر الحصول على عضو يفقد كانوا يعملون بديلا له من الفخار ويوضع فى مكانه من الجسم عند دفنه . وفى العصور القديمة كان خصيان القصر يحتفظون بأعضائهم التى فصلت من الجسم وذلك بوضعها

فى الكؤول ، فاذا ما وصل أحد هؤلاء الموظفين الى سن التقاعد كان يأخذ معه تلك الأعضاء . فاذا حانت منيته كانوا يخيطونها فى مكانها الذى فصلت منه حتى يبدأ حياته فى العالم الآخر وهو كامل الرجولة . ويعتز « برتولد لوفر Berthold Laufer » ، الذى ذكر لى هذه العادة ، بامتلاك بديل عن هذه الأعضاء وهى مصنوعة من حجر اليشم ، وتزيد كثيرا عن الحجم الطبيعى ، وقد عثر عليها فى مقبرة من عهد أسرة « تائج » .

والى عصر قريب كان الصينيون يعتقدون (ومن الصعب أن نعرف ماذا يعتقدون الآن) أن الأثاث الجنازي وكل ما يضعونه مع الميت كان ينتقل الى العالم الآخر . وكانت الصورة الصينية لهذه المملكة ، على الأقل بين العامة من الشعبُ الذين لا يتجهون اتجاهات فلسفية في تفكيرهم ، صورة عملية ومادية وهي حياة في عالم أسفل، موجود تحت أرض بلاد الصين الحالية مباشرة، وتماثلها تماما في جميم التفاصيل ، ويسرى عليها حكم امبراطورى كما يسرى على الصين التي فوق الأرض. وكانت العادة في أيام الامبراطورية أنه اذا كوفى، شخص من أجل خدماته المتازة ، فان هذا التشريف كان يشمل أيضا أجيالًا من أسلافه ، وكانوا يرسلون براءات التشريف الى العالم الآخر حتى تستفيد الأرواح في الحال من الألقاب التي منحت لأحفادهم . وكان يوجد أيضا عدد من الأنواع المختلفة من الجحيم لأجل الأشرار ، وفيها أنواع تعذيب متعددة يقوم بها الكثير من الشياطين. ومن أقسى وأشد أنواع العقاب ، نوع لم يكن فيه آلام جثمانية ، بل كانوا يجبرون الشخص المحكوم عليه بالوقوف أمام مرآة سحرية وينظر الى تتائج أعماله الشريرة وما يترتب عليها فى عالم الأحياء فوق الأرض. كان يرى عائلته وقد انهارت ، وأطفاله وأصدقاءه,وهم يتعذبون بسبب ما اقترفه من أعمال السوء ، حتى يرى نسله كله وقد تحطم وزال من الوجود وهو واقف ينظر اليهم لا يستطيع أن يتدخل أو أن يحول بصره بعيدا عنهم.

وموقف الصينيين تجاه الدين خليط من الخرافة والتفكير العملى . فالقولكلور الصينى ملىء بقصص الشياطين والأشباح ، والشيطان الصينى ليس الا روحا ارتبطت بالأرض ولم تستطع أن تنتقل الى الناحية الأخرى كما يقول الروحانيون . وأولئك الذين يلاقون حتفهم باعتداء الآخرين عليهم ، أو أن يموتوا غرقى أو منتجرين ، لا يمكن أن يسيروا فى الطريق المعتاد ليبعثوا مرة أخرى حتى يجدوا بديلا عنهم ، ومن المحتم عليهم أن يظلوا يحومون حول المكان الذي وقعت فيه المأساة . ولا يميل الصينيون الى الاقدام على انقاذ شخص يغرق لأنهم يعتقدون أن روح غريق آخر سبق أن لاقى حتفه فى نفس المكان تجذبه لأنها تريد غريقا بديلا عنها لتتجرر من قيدها . فاذا لقيت تلك الروح من يعوق عملها فانها لن تنسى ذلك ، وتجلب المتاعب على من أنقذ منها فريستها .

وبالرغم من أنه كان يوجد بعض المتصوفة فى العصور الأولى من تطور الفلسفة الصينية فان الاتجاه الصينى اتجاه عملى بالمعنى الصحيح . وكان الصينيون دائما متسامحين ازاء الديانات المختلفة ، وعلى استعداد لأن يعبدوا فى أى مكان ما يكون فيه فائدة لهم . ولم يضطهدوا أبدا قوما أو فردا لأسباب دينية ، ولا يوجد الا عدد قليل جدا من الصينيين الذين استشهدوا بسبب معتقداتهم ، واذا كانت هناك أى اضطهادات فانها تنحصر فى الاضطهادات التى تعرض لها البوذيون ، وهى لم تنشأ لأسباب دينية ولكنها نشأت من الخوف من استمرار البوذية فى استنفاد ثروة البلاد . والصينيون على استعداد تام للتحول من اله الى اله آخر اذا كانت لهم منفعة من وراء ذلك . ويرجع السبب الأكبر فى أن المسيحية لم تستطع أبدا تثبيت أقدامها فى الصين الى معارضة المبشرين المسيحين لعبادة الأسلاف ، وذلك بصرف النظر عن أن المسيحية هى المبنية التى كانوا يشعرون بأنها تهدد سلامتهم ووحدة بلادهم .

ومع كل فان الكنيسة الكاثوليكية صرحت أخيرا للصينيين الكاثوليك بأن يحرقوا البخور للوحات الأسلاف.

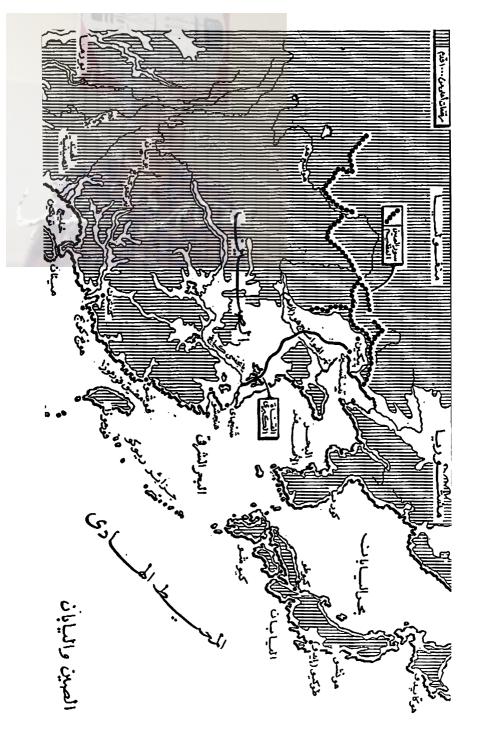
وكثيرا ما نرى فى موكب جنازة أحد الأثرياء الصينيين جماعة من الرهبان البوذيين يسيرون فى جانب يرتلون الأناشيد من الكتب البوذية ، وفى الجانب الآخر من موكب الجنازة يسير كهنة طاويون يتلون التعاويذ المناسبة لاخافة الشياطين ، ويحرقون النقود الورقية ليعطوا متسولى الأرواح ، اذ أنهم يعتقدون أن تلك الأرواح تسير فى الجنازة وربيا تسبب بعض المتاعب فى عالم الأرواح اذا لم يشتروا تهدئتها .

وأعظم ما قدمته الصين لحضارة العالم هو أهميتها كمركز لتطور وتوزيع المدنية . فقد كانت فيها مدن كبيرة آهلة بسكانها عندما كان يعيش معظم سكان الدنيا فى قرى صغيرة ، وحات معظم مشاكل الحكم التى تواجه الدول الحديثة ووجدت حلولا يمكن اتباعها ازاء تلك المشاكل ، وذلك فيما يمكن اتخاذه ازاء أقلية تحكم البلاد . وم تؤثر الصين على مدنيات الشرق الأقصى فحسب ، لأنها كانت مركزا تغترف منه بصفة مستمرة الحضارات المجاورة ، بل أثرت أيضا على أوروبا . ويشبه تأثير الصين على ما جاورها من حضارات ما كان للامبراطورية الرومانية نظمها من تأثير على الهمج البرابرة الذين كانوا على مقربة منها ولكن بدلا من الخمسمائة السنة التى استمر فيها تأثير الرومان على من جاورهم فان الحضارة الصينية ظلت ثلاثة آلاف سنة ، وكانت النبع الذى استقت منه كل حضارات هذا الجزء من العالم .

وكانت الصين فى مرات متعددة خلال تاريخها بلدا من أغنى وأقوى بلاد الدنيا ، وخلل القرنين السابع عشر والشامن عشر ، أى وقت الازدهار الأوروبى ، كانت الصين أغنى حدا من بلاد أوروبا وأكثر منها تمدنا فى معظم النواحى . وتاجرت أوروبا مع الصين على نطاق واسع ، وكانوا يجلبون منها الأقمشة الحريرية الجميلة والخزف ، ومنه جاءت كلمة « الصينى » التى تطلق

على جميع الأوانى الخزفية المستخدمة فى المائدة. وفى السنوات المبكرة من القرن الثامن عشر أدخلت الأشياء التي من أصل صينى طرازا جديدا فى أوروبا ، والتشرت انتشارا واسعا. فالأوراق التي تلصق على الجدران ، والقماطر ، والأثاث والرسوم الملونة التي رسمت تقليدا للأسلوب الصيني ، كانوا يطلقون عليها اسم الصينيات كما بنى الكثيرون من نبلاء فرنسا منازل صينية صيفية فى حدائقهم .

وذهب كثيرون من رهبان الجزويت الفرنسيين الى الصين أملا في حسل الامبر اطور « تشين لنج » (Ch'ien Lung) على اعتناق المسيحية ، فاستقبلهم استقبالا حسنا في القصر ، ولكن الامبراطور أظهر اهتمامه بالنواحي العلمية والرياضية والحربية التي كان في استطاعة العلماء الجزويت أن يقدموها له أكثر مما عرضوه عليه في الناحية الدينية. ومهما يكن من أمر ، فان الجزويت الفرنسيين درسوا الفلسفة الصينية والكتب الكلاسيكية الصينية ، وهناك ما يكفى للاعتقاد بأن كثيرا من الآراء التي انتشرت في عصر الاستنارة الذي كان سببا في ظهور الثورة الفرنسية ، قد دخلت الى التفكير الفرنسي من مصادر صينية . فالفكرة القائلة بأنه في الوقت الذي كان يتحتم على المحكومين أن يطيعوا حاكمهم ، يجب على الامبراطور في مقابل ذلك أن يحمى رفاهية ومصالح رعيته ، وانه كان للرعية الحق في الثورة اذا فشل في القيام بالتزاماته فكرة كونفوشية محضة . ومن الصعب أن نثبت في أي مرحلة من المراحل دخلت هذه الفكرة فى تيار الفكر الأوروبي ، ولكنا نعلم تماما انها ظهرت للمرة الأولى في الوقت الذي زاد فيه الاهتمام زيادة طاغية بالفن الصيني والفلسفة الصينية. ومن دراستنا لأساليب انتشار الحضارات يمكننا ، على أقل تقدير ، أن نظن أن الصين كانت مصدر تلك الفكرة.



ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أننا نرى في كتابات «روسو Rousseau » الذى رباه الچزويت في الوقت الذي كانت فيه تلك الطائفة مشغولة بالتفكير الصيني ، أن فكرة الرجل الطبيعي تذكرنا كثيرا بالمثل الأعلى للفلسفة الطاوية . بيد أن الرجل الطبيعي لدى الطاويين ، الذي استمد شخصيته من المشاهدات الواقعية لحياة الريف في البلاد الشرقية ، يختلف عن الرجل الطبيعي في فلسفة روسو الذي أغدق على رجله الأسطوري غرائز معصومة وفهما ممتازا للقيم الخلقية .

وتجتاز الصين فى الوقت الحاضر فترة من فترات البلبلة والسيطرة ، وربما احتاجوا الى قرن من الزمان ليتخلصوا من نير الروس ويعيدوا توجيه جهودهم كما نجعوا دائما فى الماضى فى امتصاص أو طرد أباطرتهم . فمن غير المحتمل أن يتحول الصينيون تحولا تاما الى الماركسية لأنهم كانوا شعبا ذا مدنية عظيمة لفترة طويلة ، اذ أن ذلك يحول دون اعتناقهم أى ايديولوجية سياسية بنفس الحماسة الدينية الذى أبداها الروس فى اعتناق الشيوعية . ان تفسية الصينى هى نفسية السيد الحكيم المتقدم فى السن الذى مرت عليه أحداث كثيرة وتغيرات كثيرة وأصبح من الصعب أن يثيره أى شيء اثارة حقيقية .

وهناك ميزة يمتاز بها الصينيون على الغرب وهى أنهم مرت عليهم فترة طويلة وهم شعب متمدن أكثر من الغربيين. فنحن معشر الغربيين لسنا الا جنسا من سكان القرى الذين لم يعرفوا حياة المدينة الا منذ وقت قريب. وما زلنا نحاول ملاءمة أنفسنا من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، للحياة بين جموع حاشدة . أما الصينيون فقد كانوا معرضين مدى ثلاثة آلاف سنة لأعظم عمليات الاختيار الطبيعى وذلك بسبب المجاعات والأمراض ، وجميع أنواع عليات الاختيار الحقيقة التى يجب التسليم بها هى أنهم قادرون على أن يعيشوا في مستوى أقل منا ، وهو أمر يجب أن يحسب حسابه في المستقبل ، وعلى في مستوى أقل منا ، وهو أمر يجب أن يحسب حسابه في المستقبل ، وعلى

الأخص عندما تظهر مشكلة ما يجب عمله ازاء عدد من القارات يعيش فيها عدد قليل من السكان البيض بينما توجد قارة كبيرة مترامية الأطراف مكتظة بعدد ضخم من السكان الذين من أصل مغولى ، والذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة . وما من شك فى أنه لن تمضى مائتا سنة أخرى حتى تظهر أسرة قوية فى الصين ، وما من شك فى أن الصينيين ، كما حدث لهم فى الماضى ، سيصبحون قوة عالمية هامة لها خطرها .

الفصل الناسع والثلاثون اليابان

تحتل اليابان موقعا يبعد عن شاطىء أوراسيا الشرقى ، وهى فى ذلك شبيهة بموقع الجزر البريطانية من شاطىء أوروبا الغربى. فكل منهما مجموعة من الجزر تقع على مسافة بعيدة الى الشمال من المنطقة التى يستطيع سكانها أن يحيوا حياة مريحة فوق أرض القارة ، وأصبحت تلك الجزر صالحة للسكنى بفضل تيارات المحيط الدافئة ، وهى تيار الخليج فى بريطانيا والتيار الأسود أو «كوروشيوو Kuroshiwo» فى اليابان.

ومجموعة الجزر اليابانية من أصل بركانى ، وهذا يفسر طبيعتها الجبلية الوعرة ، ومع هذا فان جميع أراضيها الصالحة للزراعة خصبة جدا لأن التربة البركانية التى تكونت من الرماد واللاقا المتحللة أغنى تربة يمكن أن توجد في العالم . وقد زرع اليابانيون جميع الأراضى التى أمكنهم تمهيدها ، وكل ما أمكنهم استخلاصه ، بطريقة عمل المدرجات وقد أضافت هذه الطريقة مساحات كبيرة من الأراضى ، تعتبرها أكثر البلاد أنه لا يمكن استخدامها . وبهذه الطريقة ، وهى زرع أكبر مساحات ممكنة من تربتها ، استطاعت اليابان أن تقدم القوت لسعبها المزدحم الكثير العدد . ونظرا لأنهم استغلوا الأرض الى أبعد حد ممكن فان ادخال الوسائل الميكانيكية الى المزارع لن يزيد الا الثيء القليل من كميات الطعام ، والامكانية الزراعية الوحيدة التى لم يهتم بها ، بل وأهملها ، اليابانيون هى امكانية الرعى لأن المنحدرات العليا للجبال يجب الانتفاع بها فى تربية قطعان من الماعز والغنم ، ولكن أساليب الرعى كانت يجب الانتفاع بها فى تربية قطعان من الماعز والغنم ، ولكن أساليب الرعى كانت دائما غربية على الحضارة المامانية .

ويجلب التيار الدافى الذى يمر حول اليابان ويمدها بجو معتدل ، يجلب معه عند مجيئه من الجنوب كمية كبيرة من الطعام المستخرج من البحر. فأهم مصدر غذائى لليابان هو مصايد الأسماك البعيدة عن الشاطى . ومنذ منتصف القرن السادس عشر حتى زيارة « پرى » (Perry) لليابان فى عام ١٨٥٢ ، باستثناء عهد الشوجن (Shogan) ، كان اليابانيون شعبا بحريا استطاع أن يبنى سفنا جيدة الصنع يخرج بها فى رحلات بحرية طويلة ، وكان اليابانيون يهاجمون الشواطى الكورية فى بداية العصر المسيحى .

ولا يوجد في اليابان رواسب معدنية كثيرة . فهناك بعض الحديد في الشمال ولكن لا يوجد فيها أي مقدار ذي أهمية من زيت البترول أو الحديد، ولا يوجد من النحاس أو الذهب الاكميات ضئيلة . وفي العصور القديمة كان تصدير الذهب من اليابان محرما تحريما قاطعا ، وكان العقاب الذي يوقعونه على من يجترىء على مخالفة ذلك هو القتل ، لأنه كان نادرا جدا وذا أهمية كبيرة ، مما جعل السلطات تحرص على ألا يتسرب شيء منه الى خارج البلاد. ولهذا فليس لدى اليابان موارد معدنية كافية لمد صناعة حديثة بما تحتاج اليه ، ووصولها الى القوة في القرن العشرين يرجع الى التنظيم السياسي الذي استطاع أن يدخل اليها المدنية الحديثة في سرعة كبيرة مصحوبة بالتفكير السليم ، واستخدامها لطرق وأساليب تم تطورها في الغرب مع استخدام كل وسيلة ممكنة للاستفادة منها. ومثل هذا البرنامج لا يمكن أن يستمر وقتا طويلا دون أن تحصل اليابان على أراض جديدة تمدها بالمواد الخام ، فاذا لم تستطع أن تحصل على كل ما تريده من تلك المواد التي توجد في القارة فلا مندوحة لها من أن تظل دولة من دول الدرجة الثالثة .

وما زال أصل سكان اليابان موضع جدل بين العلماء . فنحن لا نعرف الوقت الذى وفد فيه الى تلك الجزر أقدم السكان الذين وصلوا الى المرحلة الانسانية ، ولم يعثر فى اليابان على أى بقايا من « ما قبل الانسان » ، بل

لم توجد أى حفريات انسانية مبكرة بالرغم من أن اليابان كانت متصلة بقارة آسيا فى عصر الپليستوسين. وقد عثر على حفريات لبقايا من الفيل الهندى وغيره من الحيوانات الاستوائية ، فاذا كانت هذه الحيوانات استطاعت أن تصل الى اليابان فقد استطاع الناس دون أى شك أن يفعلوا ذلك أيضا.

ولا يرتفع الستار من الناحية الأثرية حتى العصر النيوليتي. فحوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد كان ثلثا بلاد اليابان في الشمال مسكونا بشعب غريب يسمى الـ « أينو » (Ainu) ، وكان أولئك الأينو يعتبرون منذ عهد بعيد من بقايا جنس قوقازى ، كانوا يعيشون في تلك المنطقة البعيدة ، ولكن الدراسات الأحدث أثبتت أنهم متصلون بالأوستراليين الأصليين. وربما كانوا نوعا انسانيا قديما لا يختلف عمن كانوا في شرقي آسيا ، ولكن اقامتهم في بيئة شمالية تكثر فيها السحب جعل لونهم أفتح من أسلافهم الذين كانوا يعيشون في الجنوب. وهم ذوو لون فاتح ، ورؤوس مستطيلة ، ووجــوه عريضة ، وأنوف قصيرة غليظة . أما عيونهم فيمكن أن يقال انها مستديرة أكثر منها لوزية الشكل ، وكان شعر الوجه ينمو بغزارة على الجانبين . وفي جسدهم شعر كثيف ، أما اليابانيون في العصر المتأخر فكانوا ذوى جسد أملس نسبيا ولا لحية لهم ، وعندما كانوا يشيرون الى الأينو يقولون عنهم الأينو ذوو الشعر الكثير. ونستطيع أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه حياة الأينو من الدراسات الأثرية من ناحية ، ومن حياة الأينو الذين ما زالوا يعيشون في شمالي اليابان من ناحية أخرى .

كانت حضارة الأينو فرعا من الحضارة المشتركة للمنطقة التى تحيط بالقطب الشمالى ، وكان الأينو قوما من الصيادين وجامعى القوت ، عاشوا فى مساكن محفورة فى الأرض واستخدموا أدوات نيوليتية ، وكانوا يستخدمون قطعا من الحجر لتهشيم الأشياء ، وكانت لديهم قاذفات مدببة من العظم وغيرها ، وصنعوا فخارا من الطين المدهوك الذى زخرفوا سطحه بتمرير حبل حوله قبل

أن يجف ، ولا يستطيع أحد أن يميزه من الفخار الذي كان يصنعه الهنود الأمريكيون الذين كانوا يعيشون في الغابات الشرقية في أمريكا ، وبعبارة أخرى كانت أوانيهم صورة تامة من أواني الطبخ في حضارة المنطقة القطبية .

والتنظيم الاجتماعي للأينو لا يعدو حياتهم في قرى صغيرة يقطعها جماعة طوطميون يتزوجون من الأباعد (الذين من غير عائلتهم أو قريتهم) ، وكان لكل جماعة حيوان مقدس يطلق اسمه عليهم ويظهرون نحوه احتراما خاصا وكانت ديانتهم هي عبادة أرواح الطبيعة ولم يقتصروا على العناصر كالشمس والمطر ولكنهم عبدوا مساقط المياه ، والصخور ، والأشجار وغيرها من عناصر الطبيعة ، ولكن أهم العقائد تركزت حول الدب الذي كان أخطر الحيوانات في تلك البيئة ، كما كان في الوقت ذاته أكثر الحيوانات لحما . وكانوا ينظرون الى الدببة نظرتهم الى قوم من قبيلة مختلفة ، وكانوا يعتقدون أن تلك الدببة عندما تكون وحدها ولا يوجد غريب بينها تخلع الفراء وتسلك سلوك الآدميين الآخرين. وكانوا يقومون بطقوس خاصة عندما يقتلون دبا حتى يرضوا روحه ، وتخبر الدببة الأخرى بأنها اذا جعلت الأينو يقتلونها بسهولة فانهم يحسنون معاملتها . وفي الوقت الحاضر يسعى الأينو لقنص دب صغير يحضرونه الى قريتهم ويربونه كحيوان القرية المدلل ، ويعاملونه باحترام ورعاية ، حتى يحين موعد قتله .

وكان السكان الأوائل الذين سكنوا الجزء الجنوبى من اليابان قوما زراعيين منذ أبعد العصور ، على عكس الاينو . فقد أحضروا معهم نبات التارو ، وربما الرز ، ولكنهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على صيد السمك وبنوا محلاتهم السكنية فى المناطق القريبة من الشاطىء . ولا تكاد توجد أى أدلة أثرية باقية من حضارتهم لأنهم استخدموا الغاب الهندى (البامبو) والخشب فى تشييد مساكنهم ، وفى صنع أدواتهم ، ولم يصنعوا فخارا ، ولم يستخدموا الحجر الا قليلا . وكان أولئك الجنوبيون من الناحية الجثمانية أشبه بمن

يسمون « الپروتو – مالايو » على الأرجح ، أى كانوا ممتلئى الجسم وذوى لون أسمر ، وفى جسمهم قليل من الشعر ، ولهم وجوه عريضة وأنوف صغيرة ، وشفاهم رفيعة وعيونهم مستقيمة غير منحرفة .

ولم يكن هناك خط حدود ثابت بينالمنطقتين اللتين يسكنهما الأينو وجيرانهم الجنوبيون الذين كانوا على مستوى حضارى مماثل لهم ، بل ان هذا الخط كان يختلف من آن لآخر . كان كل منهما محاربين أشداء ولكن الجنوبيين كانوا يمارسون الزراعة ولهذا كان في استطاعتهم اعالة أعداد أكبر من السكان فأخذوا تدريجيا يدفعون بخط الحدود نحو الشمال. وحوالي القرن الثالث أو القرن الرابع قبل الميلاد قام شعب من كوريا بغزو لليابان. جاءوا ومعهم أسلحة من البرونز ، والفخار ، وأساليب متقدمة فى الزراعة . وبالرغم من قلة عددهم فقد استطاعوا ، بفضل حضارتهم المتقدمة ، أن ينتشروا كفاتحين في المناطق الجنوبية التى يحتلها جماعة الأندوسيين النيوليتيين الذين استوعبوهم وامتصوهم . أما أسلاف الأينو فقد اتجهوا بعيدا نحو الشمال حيث بقوا هناك، ولم يفعلوا شيئًا كثيرا في ميدان الحضارة أكثر من فرضهم على جيرانهم في الجنوب أن يبقوا دائما على نشاطهم الحربي. ومنذ بداية الحضارة اليابانية نرى بينهم طبقة حربية ، وفى جميع عصور تاريخهم كانت فئة الجنود هي الفئة التي بيدها السلطة في حين نرى في الصين أن الجنود كانوا ذوى أهمية قليلة ، وكان الصينيون ينظرون الى الجندية بأنها ضرورة يؤسف لوجودها ، وهي لأجل حماية العلماء والمزارعين والتجار .

وكون أحفاد الغزاة تنظيما قبليا أصبح أساسا للمجتمع الياباني فيما بعد . كانت قبائلهم أو عشائرهم تتبع نظام الزواج من الأقارب ، وكانت تخضع لحكم زعيم للعشيرة كان له مركز كبير بينهم لأنه ممثل العشيرة وحامل «مانا» الجماعة . وانحصر نشاط رجال العشيرة في الزراعة ، والصيد ، والقتال . أما الصناعة فكانت من نصيب جماعات من الصناع الذين كانوا يتوارثون

حرفتهم ولم يعتبروهم أعضاء حقيقيين فى العشيرة ، بالرغم من أنهم كانوا مرتبطين بها ، وكان يسمح لهم باتخاذ زوجات منهم ، وبمرور الزمن اختلطت عائلات الصناع بالعشيرة وأصبحوا يحملون اسمها ويشاركونهم فى نسبها . وكان للصناع حرف يتخصصون فيها وهى النسيج الدقيق والبناء وصنع الأدوات والأسلحة . وكانت هناك أيضا طبقة قليلة العدد من الأرقاء الذكور والاناث ، الذين كانوا عادة من أسرى الحرب ومن نسلهم ، وكانت هذه الطبقة فى مركز أقل من مركز الصناع ورجال العشيرة .

وكان لكل عشيرة مجموعة آلهتها ، ومن بينها الآله الحارس للعشيرة ، ولكن قوة تلك الآلهة لم تكن معروفة على وجه التحديد ، وكذلك كان الحال فيما يختص بمكانها وطريقة حياتها . وكانت آلهة العشائر المختلفة متشابهة الى حد كبير ، فلما حان وقت الاتحاد السياسي بينها تيسر توحيدها وأصبحت آلهة للجميع . وزعمت كل قبيلة أنها من نسل الهي ، ومن فرع الابن أو البنت الكبرى لذلك الآله . فاذا كان الطفل الأكبر في عائلة الزعيم بنتا أصبحت هي الزعيمة للقبيلة ، وهذا يفسر لنا وجود عدد كبير من الأباطرة النساء في التاريخ الياباني القديم .

ومن الصعب علينا أن نكون فكرة صادقة عن تاريخ اليابان القديم لأن البحوث الأثرية الدقيقة التى تمت حتى الآن قليلة جدا فضلا عن أن اليابانيين لم يتعلموا الكتابة ولم يدونوا الوثائق الا في عصر متأخر جدا. كانوا يتناقلون الأساطير والتقاليد عن طريق الرواية الشفهية ، ولم يبدأ التاريخ المدون الا بعد عام ٥٥٠ بعد الميلاد عندما أتى عدد من الكتاب الكوريين والمبشرين البوذيين الى اليابان. زد على ذلك ، أن التاريخ الياباني كان منذ بدايته متأثرا بالاتجاه نعو الدعاية ، وتسيطر عليه الحماسة الدينية والاعتزاز بالوطنية ، وهذا كله لا يساعد على كتابة وثائق دقيقة صحيحة. وعندما اتصل اليابانيون بالصينيين ذوى العقلية التاريخية في القرن السادس الميلادي أحسوا بحاجتهم الى كتابة

تاريخ لبلادهم ، وحاولوا أن يصنعوا لهم تاريخا من الأساطير المختلفة التى كانت لديهم . وكانت اليابان مقسمة فى ذلك الوقت الى عدد كبير من العشائر التى تقطن فى أماكن مختلفة . وحاول كل كاتب أن يقوم بواجبه فى كتابة تاريخ لليابان يثبت فيه أن عشيرته كانت تحكم اليابان طيلة أيام تاريخها فلما تمت السيطرة للعشيرة التى أسست العائلة الامبراطورية الحالية كان من مصلحتها أن تزور الوثائق وتدعى أنها كانت دائما صاحبة السلطة فى البلاد . وعلى هذا الأساس عظموا من شأن الالهة الرئيسية لهذه العشيرة وهى الالهة «أماتراسو» ورفعوا من مكانتها بين آلهة اليابان بالرغم من أنه لا يكاد يوجد شك فى أنها كانت فى الأصل الهة قليلة الشأن .

تأسست الامبراطورية اليابانية عندما استطاعت احدى العشائر أن تخضع العشائر الأخرى لسلطانها واتخذ زعيمها لقب الامبراطور . وكان المجتمع الجديد يسير على الأسلوب الاقطاعي ، وظلت فيه بقايا من العشائر المختلفة . والنبلاء اليابانيون منحدرون من زعماء العشائر ، ولكن عندما استقرت الامبراطورية تفككت وانهارت تنظيمات العشائر وحلت محلها تنظيمات العائلات الكبيرة الممتدة التي تجمع الأقارب الذين يجمعهم نسب الأب ، والتي كانت تنكون من عدد كبير من الأشخاص ولكنه أقل بكثير من عـــد أفراد العشائر الأصلية ، وقد حافظت تلك العائلات على ما كان فيها من نظام طبقي . وانتظم المجتمع في أربع طبقات ، كان في أسفله الـ « ايتا » (Eta) أو المنبوذون. ولا يعلم أحد أصل هذه الجماعة ، وربما كان الأرقاء من أسرى الحرب في عصر ما قبل الامبراطورية هم نواتها الأولى ، ولكنها اتسعت تدريجيا حتى شملت منبوذين من جميع الأنواع مثل المجرمين بل وفي بعض الأحيان أعضاء من فئة النبلاء لم تكن لديهم الشجاعة لعمل الهاراكيرى عندما كان يحتم ذلك حسن السلوك. ولا يختلف الـ « ايتا » في الوقت الحاضر عن غيرهم

من اليابانيين فى مظهرهم الجثماني بالرغم من انهم موضع الاحتقار منذ قرون. كان مجرد لمسهم ينجس من يفعله وكان عملهم محصورا فى الحرف « غير النظيفة » مثل جامعى القمامة ، والذين ينفذون أحكام الاعدام ، والمشتغلين مالدباغة والجزارين . والحرفتان الأخيرتان تعتبران فى درجة وضيعة جدا فى كل بلد بوذى لأن البوذية لا تقر قتل الحيوانات ، ومن يفعل ذلك يضعونه فى أقل وأحقر منزلة .

ويضعون العامة فوق طبقة الايتا ، ويقسمون العامة الى زارعين الأرض وصناع وتجار . فالزارعون بالرغم من أنهم تعساء اقتصاديا لأنهم معرضون لدفع الضرائب لكل شخص ، كان لهم مع ذلك مكانة اجتماعية لأن زرع الأرض فى حد ذاته حرفة شريفة ، فالساموراى نفسه يستطيع أن يكون مزارعا دون أن يقلل ذلك من قدره أو يفقده الانتماء الى طبقته . وكان الصناع دون المزارعين فى مكانتهم وربما كان ذلك راجعا الى أن الصناع المهرة كانوا على صلة بالعائلات الحاكمة بصفتهم زبائن لهم ، وذلك فى أيام الاقطاع . وكان اخدهم قليلا لأنهم كانوا من الأجانب الذين أتوا بهم من خارج البلاد ، عددهم قليلا لأنهم كانوا من الأجانب الذين أتوا بهم من خارج البلاد ، اذ كانوا يحضرون مشلا الى اليابان صانع خزف صينى ليعمل فى تجارته ، ويعطونه زوجة يابانية ، ولكن أطقاله ، وفقا لعادة الانتساب الى الأب ، لا يمكن أن يصيروا أعضاء حقيقيين فى العشيرة ، وكانت العائلات النبيلة تعنى بهم ولكنهم يظلون غرباء دائما .

وكان التجار فى الأصل يحتلون مكانة وضيعة فى اليابان ، ولكن خلال المصر الذى أقفلت فيه اليابان أبوابها فى وجه الأجانب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذت أهميتهم تزداد شيئا فشيئا . وخلال هذا العصر توطدت سلطة الحكومة المركزية ، وأصرت العشيرة الحاكمة ، لكى تسيطر على النبلاء ، على أنه يتحتم على كل نبيل أن يعيش فى العاصمة أو يرسل شخصا مسئولا من عائلته ليعيش فيها . وكان يسمح للأعضاء المختلفين من أى

عائلة من العائلات النبيلة أن يتناوبوا الخدمة فى البلاط ، ولكن « الشوجن » كان يصر على وجود عضو من كل عائلة نبيلة على مقربة منه ليكون رهينة عن عائلته . وتطور الاقتصاد الاقطاعى القديم ، الذى كان اقتصادا يعتمد على الانتاج ، فأصبح فخفخة وانفاق مال ؛ لأنه كان يتحتم على النبلاء وعائلاتهم الذين أقاموا فى العاصمة أن يدفعوا نقدا ليشتروا الملابس الفخمة التى تتطلبها عادات البلاط ، وأن ينفقوا على منازلهم الانفاق الذى تتطلبه مكاتهم .

وعند ذلك بدأ التجاريت كون، فخلال التاريخ الياباني كله كائت توجد النقابات والاتحادات التي كانت تعمل في المراكز المهمة التي توجد فيها صناعات أدوات الترف، ولم يكن عمال المدن اليابانيون الذين كونوا تلك النقابات طبقة وادعة مسالمة، وكثيرا ما كانت تلك النقابات المنظمة ترد ما يقع عليها من اعتداء اذا أحسوا بأن النبلاء أساءوا معاملتهم، وكلما ازداد عدد السكان في المدن تمكن التجار من جمع الثروة، في حين ظل النبلاء محتفظين بمكانتهم ولكن التجار بدورهم بدأوا تدريجيا في ايجاد مكانة لهم، وفي المائة السنة الأخيرة قبل فتح أبواب اليابان للأجانب، كان النبيل الذي افتقر ويريد أن يحسن مركزه المالي يسعى الى الزواج من ابنة أحد التجار الأغنياء، ويصبح يحسن مركزه المالي يسعى الى الزواج من ابنة أحد التجار الأغنياء، ويصبح عندما لا يوجد ابن في احدى العائلات اليابانية أن يزوجوا بنتا لأحد الشبان الذي يتبنونه ويصبح ابنا ويحمل اسم العائلة، وفي المائة العام الأخيرة تكونت بهذه الطريقة أعظم بيوت التجار اليابانية.

وكون النبلاء طبقة وراثية من المحاربين وهم « الساموراى » . ولما كان أبناء النبيل من محظياته من طبقة الفلاحين يعتبرون من النبلاء فقد ازداد أفراد هذه الطبقة باطراد . وكان أعظم النبلاء شأنا هو اله « شوجن » ومعناه « القائد الظافر » الذى كان فى الأصل اللقب الذى يمنحه الامبراطور للنبيل الموكل اليه ادارة منطقة الحدود الشمالية حيث كان اليابانيون فى حسرب

لا نهاية لها مع الأينو. وفى العصور التالية أصبح لقبا للحاكم المدنى الذى كان من حقه أن يتشفع أمام الامبراطور. ويأتى بعد الشوجن فى المرتبة كبار السادة الحربيين ، « الديميو Daimyo » ويلحق بهم فى المرتبة الزعماء الأقل منهم والفرسان.

ويختلف النظام الاقطاعى فى اليابان عن النظام الاقطاعى الأوروبى فى أنه كان يحتوى على تركيز كبير للقوة فى يد أولئك الذين فى أعلى درجة . ففى أوروبا كان الفارس يعيش مباشرة من استغلال رقيق الأرض الذين فى أملاكه ، أما فى اليابان فان الضرائب كانت تجمع بوساطة السيد الأكبر ثم يصرف منها للنبلاء الذين فى مراتب أقل . وكان الابن يرث أباه فى الحصول على هدنه المعونة فاذا لم يوجد ابن له كانت العائلة تفقد حقها فى الحصول على تلك المعونة . وكون الساموراى الذين فقدوا أراضيهم جماعة خاصة اسمها هرونسين Ronin » ومعناها « رجال الأمواج » وكانوا يعملون كجند مأجورين فى خدمة السادة المختلفين ، وكانوا دائما على استعداد للاشتراك فى أى هجوم على القارة ، وكان كثيرون منهم يخدمون فى خارج اليابان ، ولهذا السبب كان الحرس الملكى لملوك سيام مدة قرون عدة من الرونين ولهذا السبب كان الحرس الملكى لملوك سيام مدة قرون عدة من الرونين .

وسن الساموراى قانونهم الخاص بالأخلاق وهو المسمى « بوشديدو Bushido » ، وكان لهم لباسهم الخاص وعاداتهم الاجتماعية الخاصة . وكانت دروعهم المصنوعة من قطع معدنية مثبتة مع بعضها بخيوط من الحرير كافية لحمايتهم من ضربة أى سيف يابانى ، وكان هذا السيف يستخدم أساسا فى شق البطون . أما السيوف تفسها فكانت صناعتها من خير ما عرفته صناعة المعادن فى أى مكان فى العالم . كانت تصنع من طبقات متعاقبة من الصلب ذى الكربون المنافى والصلب ذى الكربون المنخفض يكررون دقها ويطبقونها

ويحمونها في النار ويطرقونها ، ويصل الأمر في صنع بعض السيوف الفائقة الصنع أنهم يصفحونها ما يقرب من ألفي مرة .

وبالرغم من أن أدوات القتال الفردى وأساليبه كانت متقدمة جدا فان فن الحرب لديهم كان بدائيا بسيطا . لم يفهم يابانيو العصر الاقطاعي الا الشيء القليل عن التكتيك أو المناورات الحربية . وبالرغم من أنهم كانوا يمتلكون الخيـل وأنهم استخدموا الجنـود الذين كانوا يمتطون ظهـورها ، فانهم لم يستخدموا في أي يوم من الأيام الفرسان الخيالة كسلاح مستقل. كانت الحرب مجرد قوة حيوانية ودهاء ، وكانت المعارك تبدأ عادة بالأبطال الذين يخرجون فرادى من بين الصفوف ثم يتنازل اثنان منها . وكان من حق كل بطل أنيقدم نفسه ويذكر نسبه ، فاذا استطاع خصمه أن يجد ثغرة فيما ذكره فان ذلك يساعده مساعدة قوية في القتال الذي ينشب بينهما بعد ذلك . وبالرغم من مثل هذا السلوك المتسم بالنبل والفروسية فان المعارك الحربية في اليابان كانت تكلفهم الكثير من الدم المراق لأن قانون الساموراى كان لا يعترف أبدا بالتسليم أو بحسن معاملة الأسرى . ومن المفروض ان الذين لا يتمكنون من الهرب بعد المعركة أن يقوموا بعمل الهاراكيري . وربما كان هذا التقليد هو السبب الذي ترجع اليه عادة عدم التسليم في الحروب الحديثة وعدم اتباعهم لما اتفقت عليه الشعوب المتمدنة من حسن معاملة أسرى الحرب.

وكان لقواعد الطاعة واتباع الفرد للنظام التى حتمتها نظم الاقطاع فائدة كبرى عندما اتصلت اليابان بالغرب. فقد ظهر فى الأمة عدد كبير من القادة الوطنيين الذين اعتادت الجماهير على طاعتهم. وساعدت سنوات الاقطاع الطويلة على تجنيد اليابانيين لتجميع القوى الوطنية لاستيعاب عناصر الحضارة الغربية التى رأوا فيها فائدة لهم ، ولا حاجة الى القول بأن التكتيك الحربى الغربي كان من بين الأشياء التى أقبلوا على اقتباسها بحماسة شديدة.

كانت العائلة الامبراطورية ، التي كانت طبقة قائمة بذاتها ، على رأس جميع الطبقات في المجتمع . وكانت هذه العائلة في الأصل زعماء احدى العشائر النبيلة القوية ، ولكن عندما أخذوا يعتبرونها من أصل الهي وصارت لها قداستها فصلوها عن النبلاء الآخرين . وبالرغم من أن الزواج فى العائلة · الامبراطورية محصور فقط في داخل العائلة فان أي أمير من تلك العائلة كان يسمح له باتخاذ المحظيات من بنات النبلاء . وطبقا للقوانين اليابانية التي تحتم الانتساب الى الأب ، كان الأطفال الذين يولدون من أولئك المحظيات ينظر اليهم على أنهم من أصل الهي أيضا ، ولهم جميع الحقوق التي لأفراد العائلة الامبراطورية ، ولهذا زاد عدد أفراد تلك العائلة زيادة كبيرة . واذا حدث أنه كان هناك خلاف بين الشوجن والامبراطور فقد كان يوجد دائما عدد كبير من الأمراء الذين يمكن أن يختار واحدا منهم ليكون بدلا من الحاكم المشاكس وكانت الطريقة المعتادة في مثل هذه الحالة أن يطلبوا من الامبراطور التنازل لأحد الأمراء الصفار الوادعين.

وكان الأسلوب المتبع فى النظام العائلى أسلوبا واحدا فى جميع الطبقات. كانوا جميعا يتبعون نظام العائلة الممتدة ، كان جميع سكان القرية عادة متصلين ببعضهم البعض بصلة القربى ، وفى بعض القرى البعيدة فى الريف كانوا يعيشون كلهم فى بيت واحد كبير. ويرأس العائلة أكبر أفرادها الذكور سنا ، ولكن أفراد العائلة لم يقدموا له الاحترام الكافى أو السلطة التى كان يتمتع بها رئيس العائلة فى الصين . واعتاد اليابانيون على تفضيل عمل لجان للبت فى أمورهم سواء أكانت المشكلة اجتماعية أم سياسية ، ولهذا كان رئيس العائلة فى اليابان يتحدث طويلا مع أفراد العائلة الآخرين قبل اتخاذ أى قرار هام .

وكان اليابانيون يقبلون على ارتياد منازل العاهرات التي كانت ملأى بفتيات باعتهن عائلاتهن أو بعن أنفسهن حتى يدفعن ما على عائلاتهن من

ن ، وكان اليابانيون يعتبرون أن مثل هذا العمل شيء شريف ويدا له البنوية فاذا تمكنت الفتاة من تسديد ما عليها من دين للمنزل آ لاعتها أن تتركه وتعود الى قريتها وتتزوج . ولكن صاحبات الما لاتهن في هذه المهنة في كل مكان ، كن يحرصن على أن تبقى الله دائما .



مدخل أحد المسارح ، من القرن الثامن عشر

وتختلف فتاة « الجيشا Geisha » اختلافا تاما عن الفتاة العاهرة . ففتاة الجيشا مدربة خير تدريب على حسن استقبال الضيوف وفى استطاعتها العزف على آلات موسيقية مختلفة ، وتحسن الغناء والرقص وأن تكون لبقة فى حديثها ، وربما قبلت فتاة الجيشا أن تقضى الليل مع صديق اذا أرادت ، ولكن مثل هذا العمل ليس جزءا من مهنتها .

وأقدم تاريخ مؤكد فى تاريخ اليابان هو عام ٢٠٠ ميلادية عندما غزا اليابانيون كوريا فى أيام الامبراطورة « چنجو Jingo »، ونحن لا نعرف هذا التاريخ من الوثائق اليابانية لأنه لم يوجد كتبة يابانيون فى ذلك الوقت، وانما نعرفه مما كتبه المؤرخون الكوريون والصينيون. ويلوح أن تلك الامبراطورة كانت حاكمة قوية فى وسط اليابان ونجحت فى توحيد عدد من العشائر ، كان كافيا للقيام بغزوات على نطاق واسع على أرض القارة. وقد كانت هذه السيدة الامبراطورة چنجو ، أول من جعل اليابان الموحدة تنصل بالقارة الآسيوية ومهدت الطريق لدخول الحضارة الكورية والحضارة الصينية الى اليابان.

وفى عام ٢٨٤ ميلادية كان الامبراطور «أوچين Ojin » قد دعا حكيما كوريا ليعمل مستشارا له ، فأدخل هذا الرجل الكتابة للمرة الأولى الى اليابان ومع ذلك فان الكتابة لم تثبت أقدامها فى اليابان الا بعد مرور قرنين أو ثلاثة ، واستمدت اليابان الحضارة والعلم من بر القارة وأصبحت بلدا متمدنا فى القرن السابع فقط.

وبنيت أول المعابد البوذية فى اليابان قبل عام ٢٠٠ ميلادية بوقت قصير وذلك باشارة من « شوتوكوتايشي Shotoku Taishi» الذى كان وليا للعهد ونائبا للامبراطور ، وهو الشخص المعروف بأنه مؤسس البوذية فى اليابان . وفى عسام ٦٤٥ ميلادية بدأ المصلح العظيم الامبراطور « كوتوكو Kotoku »

حملة لتعليم واصلاح شعبه. ونجد لهذا الامبراطور المصلح عدة أسماء ، فمن عادة اليابانين أنهم يعطون للطفل اسما عند ولادته ويعطونه اسما آخسر عندما يكبر ويتولى وظيفة ، ويعطونه اسما ثالثا ، ويسمونه بالاسم المقدس بعد موته . ومهما كان الاسم الذي يطلق عليه فقد عرف هذا الامبراطور أن شعبه أقل مدنية من الشعوب التي تعيش في القارة فعزم عزما أكيدا على القيام بعمل شيء لاصلاح تلك الحالة ، فلم يدخر وسعا في ذلك . ويعطينا ذلك صورة من السيكولوجية اليابانية التي ما زالت باقية حتى يومنا هذا . فاليابانيون على استعداد دائم لأن يستعيروا ويستفيدوا من آراء واختراعات الشعوب الأخسري ولكنهم يظلون دائما يابانيين في أعماق نفوسهم وفي اتجاهاتهم وولائهم .

ولم يقتصر «كوتوكو » على محاولته تمدين وتعليم الشعب ، ولكنه عمل أيضا على اعادة تنظيم الحكومة القبلية المتفككة بتقوية السلطة المركزية وهي سلطة عشيرته هو بالطبع ، وحاول أيضا أن يقدم لعامة الشعب قدرا أكبر من الحرية والاعتراف بهم . كانت كوريا هي المصدر الرئيسي لما استعارته اليابان وما أدخلته من نظم . وفي القرن التالي عندما زادت أسفار اليابانيين الى مسافات أبعد عن جزائرهم استكشفوا أن المركز الحقيقي للمدنية لم يكن كوريا وانما هو الصين ، وان الحضارة الكورية التي أقبلوا على تقليدها لم تكن الا نسخة منقولة عن الحضارة الصينية . وعندئذ أرسل الامبراطور لجانا الى الصين لتدرس نظمها وتقدم تقارير عنها . وهذا أمر فريد في التاريخ الانساني والحالة الوحيدة المعروفة التي نجد فيها أمة تبدأ عامدة في اعادة تكوينها على أسلوب تأخذه من أمة أخرى ، ولا توجد أي حالة مماثلة لها الا ما فعله اليابانيون أنفسهم بعد ذلك بقرون كثيرة . وبقيت اللجنة اليابانية في الصين ُنحو عشرين عاما اختارت خلالها أفضل من قابلوهم من الصناع الماهرين في جميع الحرف ، وشجعوهم على أن ينقلوا عبر البحر الى اليابان مهارتهم في صناعة اللاكيه (Lacquer) والخزف والمينا وغيرها . كما أرسلوا أيضا الى اليابان بعض العلماء والصناع من الهند ومن الهند الصينية للسفر الى اليابان .

وخلال القرنين السابع والثامن عسد اليابانيون الى تجديد حياتهم تجديدا يشبه ما فعلوه بعد ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد امتاز ذلك التجديد واعادة التنظيم بالناحية السيكولوجية نفسها وهي الاحساس بأنهم أقل من غيرهم كثيرا، ورغبتهم في ألا يلحقوا بغيرهم من شعوب العالم وحسب، بل ويجب أن يتفوقوا عليهم.

وفشلت محاولة تجديد الحضارة اليابانية على نمط الحضارة الصينية في بعض النواحي. كان نظام امتحانات المسابقة وتكوين طبقة محترفة من الموظفين قد وصل الى المرحلة التي ظلت مستمرة بعد ذلك في الألف سنة القادمة . وبالرغم من أن اليابانيين حاولوا ادخال هذا النظام الى بلادهم فانهم فشلوا لأن أكثرية الأرستوقراطيين اليابانيين كانوا ما زالوا أميين. وكان هناك عدد قليل من العلماء اليابانيين ، ولكن لم يكن لليابان أى آداب أو فلسفة يابانية يمكن أن يجعلوها أساسا لمثل ذلك النظام الصينى. وكانت الأرستوقراطية الاقطاعية في الصين قد حطمت ودمرت نفسها خـلال الحروب التي سبقت تأسيس أسرة هان ، أما في اليابان فان الأرستوقراطية اليابانية لم تتحطم ، ونجحت الحكومة المركزية في وضعها تحت سلطتها ولكن لفترات قليلة وكانت النتيجة التي ترتبت عـــلي ذلك هي أن الموظفين اليابانيين كانوا يعينون في وظائفهم اذا كانوا موضع الرضا والعطف دون أي اختبار تمهيدي . وفي ظل النظام الياباني ، وما فيه من عائلات قوية وولاء شديد للعشيرة ، ظهر اتجاه قوى الى جعل الوظائف الحكومية وظائف وراثية دون أى اعتبار للأمانة أو للمقدرة .

وانهارت أيضًا محاولة تركيز السلطة في الامبراطور بعد هذا العهد الاصلاحي ، ولكن بعد أن حكم عدد من الأباطرة القادرين بدأ البيت المالك يسير في طريق الفناء. وقد عالج اليابانيون هذا الموقف بأسلوبهم الخاص بهم فقد احتفظوا بالامبراطور كمركز فقط ، فزادوا من قداسته ووضعوا السلطة المركزية في يد احدى العشائر اليابانية القوية ثم تقلوها الى غيرها . وابتداء من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر كان الامبراطور في حالة ركود وسكون بفضل ما كان له من قداسة ، وما أحاط به من قوانين التحريم . فمثلا عندما كان الامبراطور يجلس في أي حفلة رسمية فقد كان يتحتم عليه أن يجلس ثابتا لا يتحرك لأنه اذا حرك رأسه الى أى ناحية فان زلزالا يحدث في الاتجاه الذي نظر اليه ، ووصلت قداسة شخصه الى أنه كان يتحتم قص شعره وأظافره وهو نائم فقط ، وكانت كل أمتعته الشخصية ، بل وأى شيء تلمسه يداه ، أشياء محرمة (طابو). وكان يتحتم أيضا أن يتناول الامبراطور طعامه فى كل وجبة فى أطباق جديدة يكسرونها بعد استخدامها مباشرة ، وكان هذا مدعاة لاستخدام أدوات رخيصة ومن نوع ردىء فى القصر الامبراطورى .

وعامل الحكام المدنيون امبراطورهم باحترام شديد فى أول الأمر ، ولكن هذا الاحترام أخذ يتضاءل تدريجيا مع مرور الزمن حتى أصبحوا لا ينظرون اليه الا كرمز لا أكثر . وتبلورت هذه الصلة بين الامبراطور وبين الحسكام المدنيين فى عهد « يوريموتو Yorimoto » الذى حكم بين عامى ١١٨٥ و ١١٩٩ . فقد حدثت فى ذلك الوقت حرب طاحنة بين عشيرتين من العشائر القوية وانضمت معظم العشائر الصغيرة الى أحد الجانبين . وبدأ يوريموتو الذى كان على رأس الجانب الذى خرج منتصرا فى تلك الحرب فى اعدادة تنظيم الامبراطورية حتى يستطيع السيطرة عليها .

ولم تكن اليابان حتى ذلك الوقت أمة تميل ميلا خاصا الى الحرب. لقد كانت توجد فيها المنازعات العادية بين العشائر ولكن بعد هذا التنظيم الجديد الذى قام به « يوريموتو » والذى شمل تغييرا فى نظم وراثة الوظائف والدخل ظهرت طبقة حربية خاصة ظلت محتفظة بسلطتها فى البلاد حتى دخل الاصلاح الى السياسة اليابانية فى منتصف القرن التاسع عشر بعد زيارة الكومودور « پرى Perry » لليابان.

وفى عام ١٩٩٦ اتخذ « يوريبوتو » لنفسه لقب « شوجن » ولم يكن هذا اللقب جديدا فى اليابان ولكن منذ ذلك الوقت أصبح له مدلول جديد وأصبح يعنى دكتاتورا حربيا واحتفظ « يوريبوتو » بالامبراطور والبلاط فى « كيوطو » ، ودون أن يهدم نظام الوظائف المدنية الذى كان قائما من قبل خلق ادارة حربية تحت سلطانه ، وظل على وئام مع الرهبان البوذيين الأقوياء وعين مشرفين عسكريين فى جميع الأقاليم . كان يوريبوتو سياسيا نابغة وبقى نظامه المزدوج فى ادارة الحكومة مدى ١٥٠ عاما أى حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وفى القرن التاسع عشر أصبح الشوجن أنفسهم مجرد ألعوبة فقد آلت السلطة الى بيت حاكم آخر ونشأت وظيفة جديدة أصبحت هى صاحبة السيطرة، ففى المائتى السنة التى سبقت الاصلاح على النمط الأوروبى كانت الحكومة مكونة من امبراطور مقدس يقف بعيدا عن التدخل ولا يحرك ساكنا على الاطلاق ، ويليه « شوجن » مقدس ، وسلطانه محدود جدا ثم يأتى بعد ذلك الحكام الحقيقيون وهم خلفاء هيديوشى (Hideyoshi) الذى استطاع أن يتخلص من الشوجن وأسس ما يمكن أن يسمى بحق دولة جماعية ، وقد نجحت هذه الحكومة فى حسن تدريب اليابانيين واعدادهم لما سيأتى بعد ذلك .

كان البرتغاليون هم أول الأوروبيين الذين وصلوا الى اليابان اذ وصلوا اليها في عام ١٥٤٢ ووصل بعد فترة قصيرة الاسپان والهولنديون والبريطانيون وبدأت بعض المعلملات التجارية بين اليابان وأوروبا ، وأتى الأوروبيون ومعهم

شيئان كان لهما أثر عميق على الحضارة اليابانية وهما الأسلحة النارية والمسيحية . فقد أمدت الأسلحة النارية السادة الاقطاعيين بقوة جديدة وساعدتهم على أن يصبحوا أكثر استقلالا عن السلطة المركزية . واستبدلوا منازلهم البسيطة المشيدة من الخشب بقصور مشيدة من الحجر تشبه الى حد ما مثيلاتها الأوروبية لأنهم كانوا فى حاجة الى حصون تستطيع أن تصد اطلاق المدافع عليها .

وأول مبشر دينى وصل الى اليابان هو الأب الجزويتى « كساڤييه Francis Xavier » الذى وصل الى اليابان عام ١٥٤٩ يصحبه أفراد من جمعية يسوع ، ووجد أولئك المبشرون استجابة سريعة بين اليابانين ؛ اذ أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها تشبه الديانة البوذية ، وكان الكهنة البوذيون فى ذلك الوقت قد أخذوا يفقدون سلطانهم على الشعب بعد أن كانوا ذوى نفوذ كبير فى الماضى ، وكان الشعب اليابانى اذ ذاك على استعداد لأن يتجه نحو زعامة روحانية جديدة . ووجدت العقيدة الجديدة مساندة من الحكومة المركزية لأنها ساعدت على الاتجار مع الغرب . ولم يمض قرن واحد بعد وصول كساڤيه الى اليابان حتى كان فيها مائتا كنيسة مسيحية ومائة وخمسون الف مسيحي ، وأرسل السادة الاقطاعيون رسلا الى روما ، وبدا الأمر كما لو أن اليابان كانت فى طريقها لتصبح أمة مسيحية .

وفى هــذا العصر ظهــر فى اليابان ثلاثة زعماء أقوياء وهم « نوبوناجا الyeyasu » و « اليياسو Nobunaga » و « اليياسو Nobunaga » كان « نوبوناجا » أحد ســادة الحرب الاقطاعيين الذى تغلب على جيرانه وأصبح سيد العاصمة ، وتلاه « هيديوشى » ، وكان من طبقة وضيعة ، بل ولم يكن من طبقة الساموراى . وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخ اليابان التى يرتفع فيها شخص من العامة الى أعلى مركز مباح لشخص لا يكون من النسل الالهى .

وبعد أن نجح « هيديوشى » فى توحيد اليابان تحت دكتاتوريته العسكرية رمى بناظريه الى التوسع خارج اليابان أيضا . فغزا معظم كوريا التى كان يعتبرها الباب الموصل الى الصين وهو الذى قال بأنه سيطوى الصين كما يطوى الانسان الحصير ، ولكن اليابانيين لم ينجعوا فى ذلك الوقت أكثر من محاولتهم الحديثة لغزو الصين ، فان الصين بلد لا يمكن أن يطويه أحد بسهولة . فقد وصل الجنود اليابانيون الى بلاد الصين فى الوقت الذى كانت فيه أسرة « منج » فى حالة فوضى واضطراب ولم تكن فى البلاد سلطة مركزية قوية ولكن بالرغم من ذلك فقد نظمت الصين صفوفها عندما تعرضت للمهاجمة .

وكذلك فعل الكوريون. فبالرغم من أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شعبا متوقد الذكاء أو ميالا الى الحرب فقد أظهروا قوة ونبوغا فى صد الاعتداء اليابانى. فقد اخترعوا أول سفن مصفحة بالحديد، وبنوا أسطولا من تلك السفن التى أسموها « السلاحف » أغرقت الأسطول اليابانى وقطعت خطوط تموينهم. واخترع الكوريون فى ذلك الوقت أيضا أول مدفع يرمى بقنبلة متفجرة، وهو اختراع لم تكن أوروبا قد توصلت اليه فى ذلك الوقت، ولكنه ظهر فيها بعد ذلك بزمن قليل. فتوقف غزو « هيديوشى » وتمكن الكوريون بعد موته من تخليص أنهسهم من النير اليابانى.

كان غزو كوريا فى الواقع اتجاها ترتب عليه اختفاء السلطة العسكرية من اليابان ، وساعد الحكومة الجديدة على تثبيت نفسها فى حكم البلاد أكثر من ذى قبل . ومن الأمور المشاهدة منذ زمن بعيد أن أى حرب تثير الوطنية فى الناس هى خير وسيلة لاتحاد الشعب . فبالرغم من أنه لم يكتب النجاح فى النهاية لذلك الغزو فانه أوصل اليابانيين الى أرض القارة . ولهذا اتجه الكثيرون من أفراد ال « رونين » نحو الجنوب وانتشروا فى اندونيسيا ، وفى

جنوب شرقى آسيا ، حيث عملوا جنودا مرتزقة . كان أكثر أولئك المهاجرين رجالا من طبقة النبلاء الذين أصبحوا فقراء ، أو أصابهم التحقير بسبب ما اقترفوه ، أو من بين الأفراد الذين يملك التفانى فى حب المفامرة عليهم كل مشاعرهم ، ولهذا قطعوا صلتهم بعائلاتهم النبيلة وأصبحوا مستقلين بأنفسهم وان الغزو اليابانى الحديث لأندو نيسيا ليس الا استمرارا لذلك الأسلوب القديم وهو تدفق الفائض العسكرى من بين السكان اليابانيين الى مناطق خارج جزرهم .

وتولى الأمر بعد « هيديوشى » الزعيم الثالث « اييياسو » الذى كان فى الأصل خصما له ثم أصبح مساعده الأول. وجه « اييياسو » اهتمامه نحو الشئون الداخلية أكثر من اهتمامه بالغزو فى الخارج ، وتم تثبيت دعائم البلاد بصفة نهائية تحت زعامته . فعين نفسه فى منصب « شوجن » فى عام ١٦٠٣ وبذلك أصبح مشرفا على نظام العسكرية الاقطاعية التى أنشأها يوريموتو قبل ذلك بأربعمائة سنة . وأنشأ عاصمة عسكرية فى « ايدو Edo » وهى طوكيو الحالية بعيدا عن البلاط الامبراطورى . وخلفه فى الحكم ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتمتعت اليابان بعصر سلام أكثر من مائتى سنة .

لم يمتنع اليابانيون أثناء تلك الفترة عن الغزو فى الخارج فحسب ، بل قطعوا الصلة بينهم وبين العالم الخارجى قطعا تاما . ولم يرغب الحكام اليابانيون فى أن يعرف شعبهم ما يحدث خارج بلادهم ، وكانوا يحرصون بصفة خاصة على ألا يسافر واحد منهم الى خارج البلاد ، ولهذا كانوا يحكمون بالاعدام على كل يابانى يترك الجزيرة ثم يعود اليها ثانية . وتحولت المركزية الى دولة تحكمها قوى البوليس مع وضع كثير من العراقيل فى الطريق . كان يتحتم على كل من ينتقل من اقليم الى آخر أن يكون معه جواز سفر وكانوا يحصلون ضرائب محلية كما كان الأمر فى فرنسا . كانت اليابان تعيش اذ ذاك فى حدود نظام بيروقراطى يذكرنا كثيرا بالستار الحديدى الروسى .

وقبل ذلك الوقت كان اليابانيون شعبا بحريا ، ولم يمض جيل واحد بعد اتصالهم بالأوروبين حتى كانوا يبنون سفنا قادرة على عبور المحيط الهادى ، وكانوا يتاجرون مع سكان الشاطئ الغربي لأمريكا . فلما أغلقت اليابان أبوابها صدر قانون يقضى باعدام أى شخص يبنى سفينة تزيد حمولتها عن حد معين . وكانت هناك أيضا قوانين أخرى تحدد انشاء السفن حتى لا يستطيع أحد أن يبنى سفينة تستطيع أن تمخر عباب المحيط . وكانوا يعفون الأجانب من هذه القيود ، وبخاصة عددا من التجار الهولنديين الذين سمحوا لهم باحتلال جزيرة صغيرة في أحد الموانىء . وكان الطب هو الشيء الأجنبي الوحيد الذي اعترف اليابانيون بحاجتهم اليه ، ولهذا سمحوا لطلبة الطب بتعلم اللغة الهولندية حتى يستطيعوا قراءة كتب الطب الهولندية .

ومهما يكن من أمر ففى خلال الوقت الذى كانت فيه أبواب اليابان مفتوحة التجه اليابانيون اتجاها قويا يدعو الى الدهشة نحو استعارة الآراء والأساليب الفنية الصناعية من أوروبا . وبعد أن أقصل اليابانيون على أنفسهم الباب استمروا فى ادخال التحسينات على ما أخذوه عن أوروبا . فمثلا تقدموا كثيرا فى صناعة الأسلحة النارية التى أخذوا نماذجها الأصلية من أوروبا ، ولكنهم أدخلوا عليها تعديلات تلائم الصناعات اليدوية اليابانية . فقد صنعوا عدة الحرب التى يلبسها المحاربون ، ولكنهم أدخلوا تعديلات على عدة الحرب ومن الجلد الخام يثبتونها معا بأربطة من الحرير . وارتقوا كثيرا فى صناعة المعدن وكان لسيوفهم حد كحد الموسى ولكنه يتحمل كل أنواع الاستخدام القاسية . وكان لسيوفهم حد كحد الموسى ولكنه يتحمل كل أنواع الاستخدام القاسية . وكان للسيد من طبقة الساموراى أغمدة متعددة لسيفه ، بعضها المعنو وقور المظهر لأجل الاحتفالات الدينية ، وبعضها مطعم بالذهب لأجل احتفالات اللاط .

وكان اليابانيون فى جميع العصور شعبا محبا لكل ما هو حسن مع الرغبة فى الكمال الجمالى. كان فنهم يعتمد اعتماداتاما على ما كانوا يجلبونه من الخارج، وخاصة من الصين، ولكنهم يغيرونه تدريجيا حتى يرضى احساسهم الطبيعى للنسب المتطابقة والأسلوب الزخرف، وما يتفق مع مزاجهم. ولهذا السبب، نجد انه فى الفترة التى مرت فى القرنين السابع والثامن، وفى فترة أخرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عندما أتت موجة جديدة من التأثير الصينى ومعها التصوير بالكتابة الجميلة، كاد الفن فى اليابان يصبح فنا صينيا خالصا.

وحوالى عام ١٩٠٠، أى فى عصر « هيديوشى » حدث تقليد وتوليف لهذا الأسلوب فى ناحية التصوير ، وأتتج اليابانيون فى هذه المرة تلك الحواجز (الباراڤانات) المزخرفة الزاهية الألوان التى كانت تزين القصور الامبراطورية والمعابد.

وبظهور طبقة بورجوازية من التجار ظهر نوع جديد من الفن ، وذلك باستخدام طريقة لا تكلف كثيرا ، وطبع الألوان بوساطة الحفر على الخشب التى استخدمت قبل أى شيء آخر لرسم التفاهات من الحياة اليومية . وكانت هذه الرسوم هي أول نوع من أنواع الفنون اليابانية استرعى انتباه العالم الغربي . وفي عصر أحدث تأثر الغرب بتلك البساطة المزيفة في الأدوات المستخدمة في طقس تقديم الشاى المأخوذ في الأصل عن احدى الشعائر في ديانة الزن البحدية على الفن الماكن للفن الياباني في عسارة المساكن أثر عميق على الفن الحديث .

واليابانيون ، مثل الصينيين فى تسامحهم ازاء جميع أنواع المعتقدات . كانت البوذية أولى الديانات العالمية التى دخلت الى اليابان ، وحلت مكان عبادة الطبيعة التى كانت الديانة الأصلية فى اليابان ، ولكن الديانة البوذية لم تصبح فى مركز قوى الافى القرن السابع فقط عندما أخذت تنفرع منها فرق

محلية مختلفة وكان للمسيحية أثر كبير في القرئين السادس عشر والسابع عشر ولكن الشوجن منعوها وقضوا عليها قضاء يكاد يكون تاما وكانت الديانة الوطنية اليابانية ، وهي ديانة « الشنتو Shinto » التي تفرعت أصلا من عبادة الطبيعة تعيش جنبا الي جنب مع البوذية والمسيحية وفي معظم مراحل التاريخ الياباني كانت البوذية ديانة المثقفين والأرستوقراطيين وكان للبوذية الزنية ، بما فيها من ضرورة الرفع من شأن شخصية الفرد ، انتشار كبير بين طبقة الساموراي بصفة خاصة وقد تسرب سلوك هذه الفرقة الدينية الي جميع مظاهر الاحساس بالجمال، والي الأخلاق ، فيجميع أنحاء اليابان وكانت الشنتو في الأصل ديانة يمارسها أتباعها كعقيدة غير منظمة في المناطق الريفية ، ولكن بعد أن فتحت اليابان أبوابها وأخذها بأساليب الحياة الحديثة أصبحت الشنتو هي الديانة الرسمية للدولة .

وفى خلال العصر الذى كانت فيه البلاد خاضعة لنفوذ الحكام من الشوجن كانت الأمور مستتبة ، ويرجع جانب من ذلك الى نبوغهم فى معالجة الموضوعات الجنسية ، وأساليب منع الحمل والى طريقة ، لا يحب اليابانيون الاعتراف بها ، وهى الطريقة المسماة « التخفيف من العائلة » لم يتبع اليابانيون العادة الشائعة فى قتل الأطفال فى صغرهم وهى طريقة التخلص من الطفل الزائد عن الحاجة بقتله بعد ولادته بفترة قصيرة . ولكن كبير العائلة اليابانى الذى كان لديه من الأطفال عدد أكبر من العدد الذى يستطيع اعالته كان ينتظر حتى لصبح عمر الطفل عامين أو ثلاثة ، وتظهر معالم صحته وذكائه ، فيتخلصون منه اذا كان من لا تنضح فيهم تلك المعالم . وهدذا « التخفيف » يشبه تماما ما يفعله الانسان بالمحاصيل المزروعة ، فهو يخلع النباتات الضعيفة حتى تزيد فرصة التحسين أمام النباتات الأخرى . وعلى أى حال فعندما أدخلت اليابان نظم التصنيع واحتاجت تنمية الموارد التجارية الى أيد عاملة رخيصة ، واحتاج نظم التصنيع واحتاجت تنمية الموارد التجارية الى أيد عاملة رخيصة ، واحتاج

الامبراطور الى عدد أكبر من الجنود ، فقد شجعوا الناس على انجاب عدد أكبر من الأطفال ، وفى وقت قصير ولما كان اليابانيون شعبا يحب وطنه ويؤمن بالنظام فقد لبوا النداء وزاد عدد السكان زيادة كبيرة .

أقفلت اليابان أبوابها فى عام ١٦٣٩ ، وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٣ عندما فتحتها ضد ارادتها . فقد حدث اذ ذاك أن أمريكا أرسلت الى اليابان أسطولا من السفن الحربية أقوى بكثير جدا مما كان لدى اليابان اذ ذاك ، واقترحت عليها بشكل مؤدب أن الأمريكان يطلبون عقد معاهدات تبيح لهم التجارة مع اليابان فاذا لم توافق على ذلك اضطرت أمريكا ... الخ وكان هذا العمل شبيها جدا باقتراح عقد المعاهدة الهجومية الدفاعية الذى تقدمت به الروسيا الى فنلندة ، ولم يرحب به اليابانيون الاكما رحبت به فنلندة . فقد كان اليابانيون يفضلون أن يظلوا هانئين فى عزلتهم عن العالم .

وبعد وصول الكومودور « پرى » الى اليابان ببضع سنوات فتحت بعض بطاريات الشاطىء اليابانية نيرانها على بعض السفن الأوروبية المسلحة التى ردت عليها فى الحال بنيران سريعة وبدقة أدهشت اليابانيين. فأيقنوا تماما أنهم لا حول لهم ولا قوة أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة ، وأدركوا أنهم اذا أرادوا أن يتصلوا بالعالم مرة ثانية فلا مندوحة لهم من أن يأخذوا بأسباب المدنية بأسرع ما يمكن. كان اليابانيون معتادين تقليد الأمم الأخرى عن قصد ، ولكن الصين التي سبق أن قلدوها واتخذوها نموذجا لهم كانت فى ذلك العهد فى حالة فوضى وضعف ، وفى طريقها الى الوقوع تحت السيطرة الأوروبية. ولهذا اتجه اليابانيون نحو الغرب وأرسلوا وفودا الى مختلف بلاد أوروبا ليجلبوا منها الأشياء النافعة التي جعلت تلك البلاد متفوقة على غيرها . عرف اليابانيون أن البلاد المختلفة كانت تتفوق فى نواح مختلفة ولهذا نظموا جيشهم على غرار الجيش الألماني ، وبحريتهم على نسق البحرية البريطانية ، وماليتهم ومصانعهم الجيش الألمان ما كان فى فرنسا وانجلترا. أما الولايات المتحدة فقد تجاهلوها فى على مثال ما كان فى فرنسا وانجلترا. أما الولايات المتحدة فقد تجاهلوها فى

ذلك الوقت لأنها كانت غير متقدمة التقدم الكافى الذى يستحق الدراسة أو التقليد.

كانت زيارة پرى في عام ١٨٥٣ ، وما وافي عام ١٨٦٧ حتى كانت الثورة على النظم الداخلية قد تمت فقضوا نهائيا على الامتيازات الاقطاعية وأعادوا للامبراطور حقه كحاكم سياسي ، وألا يظل رمزا مقدسا ولا شيء غير ذلك '. ومن حسن حظ اليابان أن امبراطور ذلك العصر المسمى عصر « ميچى Meiji » كان رجلا قديرا . وأقام اليابانيون حكومة جديدة كان لها من الكيان الديموقراطي والدستوري المظهر الكافى لنيل احترام الأوروبيين ، ولو أنها كانت قائمة في حقيقة الأمر على نظام ياباني في جوهره ، وهو النظام الذي يقوم على أساس سيطرة العائلات . ومن الأمور التي تلفت النظر أنهم فى ذلك التنظيم الجديد جعلوا الاشراف على الجيش من نصيب احدى العشائر والاشراف على البحرية من نصيب عشيرة أخرى كما اتجهت عشائر أخرى الى النواحي المختلفة في التجارة وغيرها . ومرت فترة من الزمن قل فيها تقدير اليابانيين لتقاليدهم القديمة في الحياة لأن التفوق الأوروبي أذهلهم ، فلم يعيروا حضارتهم القديمة أى أهمية ، وكثيرا ما كانوا يبيعون الكثير من أعظم ما أخرجه الفن الياباني لقاء شيء تافه بسيط يقدمه أحد الأوروبيين الذين يعرفون قيمتها، واتجه اليابانيون الى محاولة الالمام بنواحى الابداع فى التصوير فى العصر الڤيكتورى الذي كان يطلق عليه اذ ذاك اسم ما قبل رافاييل.

وكان لاعتياد اليابانيين منذ وقت طويل على اتباع النظام أثر مباشر على اقبالهم على العمل معا مارادة متحدة فى تنفيذ ما يتلقونه من أوامر. ووضعوا تخطيطا دقيقا لادخال عناصر التمدن الى بلادهم ، وللسيطرة على أسواق العالم ، كما وضعوا أيضا تخطيطا طويل المدى للسيطرة على العالم ليتيحوا الفرصة لجميع الأجناس لتعيش فى ظل الامبراطور الرحيم. وتفذوا تلك الخطط خلال الحرب العالمية الأولى ، ولكنها أخفقت وانهارت بسبب موء تفدير اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية .





الفضيل لأربعون

السكان الاصليون في أمريكا الشمالية

ان قارتی أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية دنيا جديدة بحق ؛ فقد فصل بينها وبين مراكز التمدن فی الدنيا القديمة محيطان واسعان ولهذا تأخرت جدا عن ركب المدنية وعندما وصل الكاشفون الاسپان الی شواطیء أمريكا كان سكانها قد بلغوا من مراحل الحضارة ما كان قد بلغه جنوب غربی آسيا فی عام ٣٥٠٠ ق . م . وما كان قد بلغه غربی أوروبا فی عام ٢٥٠٠ ق . م .

ومما يدل على أن أولئك القدماء كانوا شعبا موهوبا ، أنهم رغم عزلتهم توصلوا ، وهم مستقلون عن غيرهم ، الى معظم الكشوف والاختراعات التى كانت أساسا للحياة المتمدنة . ولو أن أولئك الناس أعطيت لهم الفرصة ليخطوا الى الأمام بحضارتهم ، ويحددوا مصيرهم بأنفسهم ، فربما كان فى وسعهم أن يقدموا مساعدات قيمة للمدنية العالمية .

وهناك كثير من التخمينات والنظريات البراقة التى اخترعها أصحابها عن أصل الهنود الأمريكيين ، بل ان اسمهم تفسه ليس الا تتيجة خطأ وقع فيه خريستوف كولمب. وقد حاول بعض محترفى التخمين ، فى أكثر من مرة ، أن يثبتوا أن أولئك الهنود من قبائل اسرائيل العشر المفقودة ، وقال آخرون انهم نسل الذين ظلوا أحياء من رجال أسطول الاسكندر الأكبر ، أو من المهاجرين من قارة أطلاتيس الأسطورية ، ومن الجزيرة الأسطورية المسماة جزيرة مو (Mu)فى المحيط الهادى . ولما كانت آثار حضارة المايا (Maya) فى أمريكا الوسطى تشبه فى كثير من النواحى آثار قدماء المصريين فقد ظهرت

أيضا بعض المحاولات لاثبات أن أولئك الهندود أتوا من الدنيا القديمة ، متجاهلين حقيقة هامة وهي أنه في الوقت الذي كان فيه المايا يبنون معابدهم كانت المعابد المصربة قد هجرها المصربون منذ آلاف السنين.

وما من شك في أن أول من جاء واستقر في أمريكا جاء من آسيا عن طريق ألاسكا. وأن النوع الانساني لم يتطور تطورا مستقلا في تلك القارة ولم توجد فيها أى حفريات من أى نوع انساني اللهم الا من الانسان العاقل. لقد أتى الانسان الحديث ، وكان يعرف عند قدومه اليها استخدام الأدوات والنار ، ويعرف نوعا من اللغة . ونظرا لأنهم كانوا مضطرين لاختراق بعض المناطق القطبية ، فمن المعقول أن نفرض أنه كان يعرف أيضا كيف يعد لنفسه نوعا من الملابس والمأوى الذي يأوى اليه . وفي عصر الجليد كان ما نسميه الآن برزخ پرنج (Bering Strait) جسرا أرضيا ؛ لأن المثالج الكبيرة خزنت كثيرا من كميات المياه ، وكانت تلك الكمية كافية لانزال مستوى المياه . ونظرا لأن مياه المنطقة القطبية كانت محجوزة من ناحية الشمال فان تيار المحيط الهادىء الدافئة كانت تمر بشواطىء الاسكا وشمال شرقى سيبيريا . هذه هي الحالة التي ربما كانت عليها المنطقة عند حدوث الهجرات الأولى ، وكانت أكثر منطقة الاسكا غير مغطاة بالجليد فى ذلك الوقت ولكن مثالج منطقة الشاطىء كانت تحول دون الهجرة نحو الجنوب.

ومن الجائز أن أولى موجات الهجرة سارت قريبة من السهل الشاطىء نحو الشمال ونحو الشرق من وادى ماكنزى . وكان هناك ممر خال من الثلوج على طول الجهة الشرقية من جبال الروكى (Rockies) ، وكانت تنوافر هناك حيوانات الصيد .

وسبقت الحيوانات الآسيوية هجرة الانسان الى هذه القارة ، وقد عثر على حفريات انسانية ومعها أدوات قديمة ، وعثر على مقربة منها ، أو مدفونة

معها ، عظام من حيوانات قد انقرضت الآن ، ومنها الجمل وذلك الحيوان الضخم الذي كان يعيش على الأرض ويسمى الرسيف (Sloth) وثور البيسون التيلوري (Bison Taylori) والحصان الأمريكي الأصل واعتقد بعض الباحثين في وقت من الأوقات أن هذا يدل على قدم الإنسان في هذه القارة لأن تلك الحيوانات قد انقرضت من الدنيا القديمة منذ أزمان بعيدة جدا ، ولكن البحث بطريقة «كربون ١٤» الجديدة قد أثبت أن الحيوانات عاشت في أمريكا فترات أطول ، ولم يكن الإنسان هو الذي أتي في عصر أقدم ، ان أقدم تاريخ وصل اليه فحص ما عشر عليه في أمريكا لم يزد عن ١٠٠٠٠٠ سنة ، فاذا فرضنا أن وصول المهاجرين الى المناطق الجنوبية في أمريكا الشمالية قد استغرق بضعة آلاف من السنين فان ١٠٠٠٠٠ أو ١٠٠٠٥٠ سنة هو الحد الأقصى لوجود الانسان في أمريكا .

وقد ساعد على توضيح تلك الصورة طريقتان للتاريخ اخترعهما العلماء الأمريكيون. أولاهما طريقة اكتشفها الدكتور أ. ا. دوجلاس (A.E.Douglass) وهو فلكى كان عاكما على دراسة وضوح البقع الشمسية وتذبذب الجو ، فعرف وهو يدرس المقاطع العرضية لأشجار الصنوبر فى جنوب غربى أمريكا أن مواسم المطر والجفاف مدونة واضحة فى علامات الحلقات التى تدل على النمو السنوى لتلك الأشجار. وبمقارنة حلقات بعض الأشجار القديمة ، وذلك فى كتل الأخشاب التى استخدمت فى تشييد بعض المبانى فى السنوات الأولى من استعمار أمريكا ، وبعض أخشاب من مواقع يرجع تاريخها الى عصر ما قبل التاريخ ، استطاع دوجلاس أن يضع تقويما للتاريخ بوساطة حلقات الأشجار يمتد تاريخها من سنة ١١ ميلادية حتى العصر الحاضر ، وقد ثبتت صحة تطبيق يمتد تاريخها من سنة ١١ ميلادية حتى العصر الحاضر ، وقد ثبتت صحة تطبيق هذه النظرية فى المواد التى توجد فى جنوب غربى أمريكا الشمالية فقط.

أما الطريقة الثانية للتأريخ فهى متفرعة من البحوث الذرية الحديثة. فان أحد الايزوتوپات المشعة — وهى كربون ١٤ — موجود دائما على سلطح

الأرض ، اذ أنه ينتج من الاصطدام بين الأشعة الكونية وذرات النيتروچين ، وتمتص الأشياء العضوية الحية ، سواء من النبات أو الحيوان ، كميات من الكربون الموجود في الجو ، ولكن هذا الامتزاج يتوقف عند موت هذه العناصر . ولما كان كربون ١٤ له نصف حياة مقدارها ٢٥٥٨ + ٣٠ سنة ، فمن الممكن تقدير النسبة المئوية لهذا الايزوتوب (isotope) في الكربون الذي تحتويه العينة ، يؤرخ العينات التي يرجع تاريخها الى ٢٥٠٠٠ سنة . وهناك عوامل متعددة يمكن أن تؤثر على النتيجة ومع ذلك فان طريقة كربون ١٤ أثبتت أنها أفضل الطرق في تأريخ المواد القديمة .

وجميع الحفريات الانسانية التي كشفت تساعدنا على الالمام بالاختلافات الجثمانية للهنود في العصر التاريخي. والفارق كبير ، لأنه بينما كان المهاجرون الأوائل بوجه عام من النوع المغولي على الأرجح ، فقد انتشروا في كثير من الأنحاء واستقروا في جماعات قليلة متصلة بصلة القربي ، في أماكن ذات مناخات مختلفة ، وسرعان ما أصبح لكل منها مظهر جثماني خاص بها . ولجميع الهنود عيون سوداء وشعر أسود ولون جلودهم متوسط الاسمرار ، ولكن مشل هذه الميزات لا يمكن أن تظهر في الحفريات. فمن دراسة العظام نعرف أن بعضهم كان طويل القامة والبعض الآخر قصيرها . وكان بعضهم ذوى رؤوس مستطيلة ، على حين كانت رؤوس البعض الآخر مستديرة . وكان لبعضهم أنوف طويلة دقيقة وللبعض الآخر أنوف فطساء عريضة . وفى أعمق الطبقات عثر الباحثون على أدوات من الشطفات الكبيرة ، وحى أدوات غير متقنة الصنم تذكرنا بمثيلاتها من العصر الپاليوليتي في شرقي آسيا ، وفي طبقة أخرى أحدث عهدا من الطبقة السابقة عثر على بفايا كثيرة تمكن المكتشفون من جمعها الى بعضها فأصبحت صورة تكاد تكون كاملة لحياة الانسان البدائي الذي كان يعيش في نفس الوقت الذي عاش فيه الماموث والرسيف.

كان جميع المهاجرين الأوائل من الصيادين الرحل ومن صائدى الأسماك ؟

لأن هذه هي الحياة الوحيدة التي يمكن أن يعيشها الانسان في المناطق القطبية التي كان يتحتم عليهم اجتيازها وعندما اتجهوا جنوبا في وادى ماكنزي الى مناطق السهول وجدوا أرضا ملأى بحيوانات الصيد وخالية من الأعداء الانسانيين ، وفي هذه البيئة زاد عددهم زيادة كبيرة في وقت قصير . وعندما تراجع الجليد نحو الشمال وجدوا طريقا آخر بين جبال روكي وسهل الشاطيء يؤدى الى الحوض الكبير (Great Basin) . ولم يتم استيطان أمريكا بموجة واحدة من أمواج المهاجرين ، ولكن تم بطريق التسلل المستمر الذي استمر آلافا من السنين. وكان جميع المهاجرين الأوائل يتجهون نحو الجنوب بحثا عن بلاد أفضل حتى جاء الاسكيمو ، وكانوا آخر من وفد من تلك الهجرات ، جاءوا ومعهم المعدات الكاملة للحياة القطبية والطرق الفنية لصيد الثدييات البحرية الكبيرة فاستقروا في المنطقة ومنعوا غيرهم من المهاجرين من اجتيازها. وانقسم سكان القارة منذ وقت مبكر جدا الى نوعين متباينين من أنواع الحضارة : وهما جامعو البذور ، وصائدو الحيوانات الكبيرة . فالذين استقروا في هضبة جبال روكي الى الغرب من كاليفورنيا وشرقا في تكساس ، كانوا من جامعي البذور ؛ اذ لم يوجد في تلك المنطقة الا القليل من حيوانات الصيد ؛ ولكنها ملأى بالأطعمة النباتية البرية والبذور والثمار العنيبية وثمار الجوز والجذور والأبصال. ولما كان أولئك الناس غير صيادين فان قاذفاتهم المدببة ومنها رؤوس السهام كانت قليلة وفجة الصنع ، ولكنهم صنعوا أدوات من الشطفات الكبيرة والمهاشم وعرفوا كيف يحمصون الحبوب ويطحنونها على حجر مقعر لتصير دقيقا ، كما عرفوا كيف يجففون ما يتبقى مما يجمعونه ويخزنونه في سلال محبوكة الصناعة من الحبال المجدولة ، ولهذا السبب كانت سلالتهم تعرف باسم « صانعی السلال » .

وتجمع صائدو الحيوانات في السهول العليا في غربي الولايات المتحدة ، وذهب القلبلون منهم الى الغابات الشرقية والى حدود تكساس. ومن المعروف

أن الجماعات التي تعيش فيها خضوع أي نوع من أنواع الثدييات ، وتبتعد لبيئة المنطقة التي تعيش فيها خضوع أي نوع من أنواع الثدييات ، وتبتعد عن الجهات التي تحتم عليهم اختراع أو استعارة طرق جديدة لحياتهم . فالصياد الذي كان يعيش في منطقة السهول كان يرى في وجود منطقة ملأى بغابات كثيفة حاجزا شبيها بسلسلة الجبال . ولهذا ظل الصيادون في السهول حيث توافرت حيوانات الصيد ، وكانوا يستكملون وجبات طعامهم من البذور البرية والحذور .

وتمتاز هذه الحضارة بصناعة عدد كبير من الأدوات الدقيقة الصنع من القاذفات المدببة المصنوعة من الحجر ، والسكاكين ، والمقاشط . و يمكن التعرف على نوعين من القاذفات المدببة (رؤوس السهام ورؤوس الحراب) في هذه الحضارة يسمى أحدهما « فلسم Folsom » والثاني يسمى « يومان Yuman الحضارة وهما اسما المكانين اللذين عثر في كل منهما على ذلك النوع الخاص في ولاية نيومكسيكو . فالنهاية المدببة لدى الفلسم ليست الا قطعة مدببة من الحجر ، فيها على كل من الجانبين حفر طولى أعمق من السطح ، أما الأداة التي استخدمها اليومان فهي طويلة وغير عريضة ومشطوفة في كلتا الناحيتين بصورة واحدة ولا يوجد في سطحها خط عميق ، وهاتان الجماعتان ، جماعة الفلسم وجماعة اليومان هما أسلاف قبائل الصيد الأمريكية الذين نعرف أنهم كانوا يصطادون الماموث وغيره من الحيوانات المنقرضة . ومهما يكن من أمر فان الطرق التي كانوا يتبعونها في الصيد هي نفس الطرق التي استخدمها الهنود في عصرهم التاريخي. كانوا على الأرجح يحيطون بالحيوانات ويحاولون جمعها الى بعضها ثم ينقضون عليها بالحراب. وقد عثر على النهايات المدببة التي كان يستخدمها الفلسم مغروسة في عظام ثيران البيسون . ومن المشاهدات التى تثير الدهشة أن عظام الذيل وجدت ناقصة فى جميع الهياكل العظمية التى عثر عليها للبيسون مما يثبت أن سكان فلسم كانوا يسلخون الحيوانات

ويبقون الذيل مع الجلد و لما كانت جميع الهياكل العظمية قد عثر عليها كاملة فان ذلك يدل على أنهم اتبعوا على ما يظهر الطريقة التى كان يتبعها الصيادون فى العصر التاريخى فيما بعد ، وهو أنهم كانوا يفصلون اللحم من الشور ويحملونه فى قطع كبيرة الى مساكنهم .

واذا نظرنا الى الموضوع نظرة عامة يمكننا القول ان أقدم ما عثر عليه يدل على أن أولَى موجات الهجرة الى أمريكا كانت لقوم يعرفون نوعا فجا من حضارة الشطفة الحجرية ، وكانت لهم المميزات العامة للشعوب الأسترالية -المنغولية . ويرجح أنهم وصلوا الى أمريكا خلال آخر عصر لتقهقر الجليد عندما كانت الجهة الشرقية من الولايات المتحدة ما زالت مغطأة بالجليد وهذا هو السبب في أنه لم توجد حتى الآن أي بقايا حضارية من ذلك العهد في تلك المنطقة . وانتشر أولئك المهاجرون فى معظم أمريكا الشمالية وكانوا أول من وصل الى أمريكا الجنوبية . ويحتمل أن تكون الهجرات قد توقفت لفترة طويلة لأن احدى الفترات التي اشتدت فيها البرودة جعلت اجتياز برزخ پرنج أمرا مستحيلاً . وعندما تحسن المناخ عادت الهجرات من آسيا مرة أخرى ، وجاء فى هذه المرة قوم كانوا فى المرحلة الپاليوليتية العليا من حضارتهم وكانوا يعرفون معرفة جيدة حياة الصيادين الرحل. كان أولئك القادمون من النوع المسمى « الآسيويون القدماء » Paleoasiatic ، ولهم مميزات تجعلهم وسطا بين الجنس القوقازي والجنس المغولي ، ويشبهون شبها كبيرا والهنود الحمر التاريخيين . واختلط أولئك الذين جلبوا معهم حضارة الصيادين مع السكان الذين كانوا هناك قبلهم واقتبسوا منهم جميع البذور في المناطق التي كان الصيد فيها أقل من أن يغنيهم عن الحصول على طعامهم من الأرض.

ومنذ هذه الهجرة الثانية تعددت العجرات عن طريق بوغاز پرنج ، ربما بالقوارب ، لأن عبور هذا البوغاز كان يتوقف بسبب سده بالجليد من آن لآخر نظراً لتغير الحالات الجوية . واستمر أولئك المهاجرون يتقاطرون نحو



الجنوب ونحو الشرق يبحثون عن بقاع أفضل. ثم جاء بعد ذلك جساعة يمارسون حضارة المناطق المحيطة بالقطب ، يعرفون الصيد فى الثلج ويعرفون الأدوات المصنوعة من العظم ويعرفون استخدام قلف الأشجار فى صنع الزوارق والأوعية ، وانتشرت هذه الجماعة من المهاجرين من بوغاز پرنج متجهين جنوبا فى كندا سائرين على حدود البحيرات التى تحيط بها الغابات.

كان أولئك الآسيويون القدماء ، هم أجداد الهنود الذين عاشوا فى شمال شرقى أمريكا فى العصر التاريخى ، وهم المعروفون باسم الهنود «الالجونكيين» (Algonkians) ، أما المهاجرون الذين أتوا بعدهم فكانوا من نوع يزيد فى مميزاته المغولية .

وحوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وصل الاسكيمو الى بوغاز پرنج ، وكانوا على دراية بنوع من الحضارة القطبية القديمة ، ولما كانوا معتادين تماما على الحياة فى المناطق القطبية لم يكن هناك ما يدعو الى البحث عن مناخ أفضل فاستقروا فى المنطقة وسدوا الطريق على أى هجرات أخرى .

وتدل البقايا الأثرية على أن الزراعة نشأت فى أماكن مختلفة متعددة فى أمريكا وكل منها مستقل عن الآخر ، ثم تلا ذلك استعارتهم للحاصلات بعضهم من بعض وجميع النباتات الهامة الصالحة للطعام التى استخدمها سكان عصر ما قبل التاريخ فى أمريكا من أصل محلى ، وأهمها جميعا نبات الذرة الذى تم تدجينه تدجينا تاما حتى أصبح لا ينمو من تلقاء نفسه أو يبقى بدون عناية الانسان به واعتقد الناس منذ وقت طويل أن الموطن الأصلى لهذا النبات كان فى مرتفعات المكسيك حيث توجد بعض المحلات الزراعية التى يرجع تاريخها الى عام ١٥٠٠ ق . م ولكن البحوث الحديثة تميل الى القول بأن هذا النبات أو النبات الأصلى الذى تفرع منه تم تدجينه فى أمريكا الجنوبية ، وربما فى پاراجواى (Paraguay) ، وذلك بالرغم من أن أحد الأنواع البدائية من

نبات الذرة ، والذي يرجع تاري<mark>خه الى حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . عثر عليه فى</mark> بات كيڤ (Bat Cave) فى نيومكسيكو .

ووجدت الذرة بيئة صالة لها في وسط أمريكا وهناك ضموها الى محصولين محليين استطاعوا تدجينهما وهما الفول والقرع العسلى ، وقد زرعت معا هذه الأنواع الثلاثة وهى الذرة والفول والقرع العسلى في معظم مناطق أمريكا الوسطى والمناطق الأخرى التي تقع في الشمال منها . زرعوا الذرة في التلال وكانت أعوادها تصلح لتتسلق عليها أعواد نبات الفول . أما القرع العسلى فكان يزرع بين التلال المزروعة بالذرة ، وقد سمى الهنود الذين استقروا في شرقى الولايات المتحدة هذه المحاصيل الثلاثة باسم « الأخوات المقدسات » .

وانتشرت الذرة منذ عصر مبكر نحو الشمال ولكن عندما دخلت زراعة الفول والقرع توافرت للسكان وجبات فيها مقادير متوازنة من النشاء والپروتين والڤيتامينات. ويسرت هذه المحصولات سكنى المناطق التى كانت تقل فيها حيوانات الصيد فيعجز سكانها عن الحصول على كمية كافية من الپروتين في طعامهم ، وقد ترتب على ادخال هذه المحصولات الثلاثة الى أى منطقة كانت ازدياد عدد السكان وسرعة تقدم الحضارة.

ولم تكن تربية الحيوان فى أمريكا ذات أهمية فى أى يوم من الأيام لأنه لم يوجد فيها الا القليل من الحيوانات التى تستحق الاستئناس ، ولم يستأنس منها الا الكلب والديك الرومى فى شمالى المكسيك . وقد تم استئناس « الديك الرومى » أولا فى الجنوب الغربى ، ويلوح أنهم استأنسوه للحصول على ريشه أكثر من استئناسهم له للحصول على لحمه . أما الكلب فقد كان موجودا فى كل مكان فى أمريكا وربما جاء فى صحبة أول المهاجرين من آسيا ، وكان رفيق الانسان فى جميع تجولاته فى هذه القارة . وقد استخدموا الكلاب فى المنطقة القطبية وفى منطقة السهول كحيوانات للجر ، وفى بعض الأماكن كانوا المنطقة القطبية وفى منطقة السهول كحيوانات للجر ، وفى بعض الأماكن كانوا يعيشون على

الشاطى، استخدموا شعر الكلاب كمادة لعمل أغطيتهم ، وكانوا يربطون الكلاب من رقابها فيتساقط شعرها وقد ذكر أوائل الرحالة أن كلاب الساليش كانت حيوانات شرسة جدا ، وهذا أمر غير مستغرب وفى منطقة الاندس استأنسوا اللاما وغنم الالهاكا والكابياء (الخنزير الهندى) واستخدموا الأول والثانى لأجل الانتقال والحصول على الصوف ، أما الثالث وهو الكابياء (الخنزير الهندى) فقد ربوه لاستخدامه كطعام لهم .

وعندما وصل البيض الى أمريكا كان السكان الهنود قد بدأوا يغيرون حياتهم نظرا لما تتطلبه الزراعة فقد انتشرت القرى شبه الثابتة التى تعتمد في حياتها على الزراعة ووصلت في الشمال الى كل مكان تصلح البيئة فيه لنمو الحاصلات ، ولهذا ظهرت أنواع من الأساليب الحضارية مرتبطة بالمؤثرات المناخية والبيئية . ويمكن تقسيم السكان الذين كانوا يقطنون شمالي المكسيك في عصر ما قبل التاريخ الى تسع مناطق رئيسية : (١) الاسكيمو (٢) الأرض القاحلة (٣) الغابات الواقعة في الشمال الشرقي (٤) الغابات الواقعة في الشمال الشرقي (٤) الغابات التي في الجنوب الشرقي (٥) السهول (٢) هضبة الشمالي وكي (٧) الجنوب الغربي (٨) كاليفورنيا (٩) الشاطيء الشمالي الغربي .

فالمناطق 1 و 7 و 9 و 9 و كان سكانها ذوى حضارة تعتمد كثيرا على صيد الحيوانات أو صيد الأسماك ، وهى حضارات تتصل اتصالا وثيقا بحضارة المنطقة القطبية في الدنيا القديمة . أما في مناطق 3 و 7 و 8 فان طعام الخضراوات كان هاما جدا لديهم مع اعتمادهم بين حين وآخر على صيد الحيوان أو صيد الأسماك .

ويستحيل علينا أن نعطى وصفا مسهبا لتلك المناطق فى هـذا الكتاب وسنعطى وصفا مختصرا لتوضيح النقط الرئيسية فى التنظيم وفى الميزات التى جعلت كلا منها منطقة مختلفة عن جارتها. ١ - عاش الاسكيمو على شاطىء المنطقة القطبية من مدخل سانت لورنس حتى جنوبي الاسكا ، وكانت حضارتهم خاضمة لظروف مناخية قاسية وغير عادية ، طفت فيها الحاجة الى الطعام والى المأوى على كل شيء آخر ، فان انعدام المأوى في هذه المنطقة لا يؤدى الى عدم الراحة وحسب ، بل يؤدى الى الفناء. ولهذا كان نضالهم لأجل البقاء هو الأمر الذي استوعبكل جهودهم فظل تنظيمهم الاجتماعي والديني على درجة قليلة من التقدم . لم يعرفوا نظام العشائر ، ولم يعرفوا شيئًا عن أى نظام حكومي ، بل لم يعرفوا أى تنظيم قبلي محدد المعالم. كانت المحلة السكنية للاسكيمو مكونة من مجموعة من العائلات يرأسها ، ولا يحكمها ، أقوى رجل فيهم توافرت فيه الشخصية القوية والقوة البدنية . وكانوا متساهلين الى أبعد الحدود في موضوع العلاقات الجنسية ، وذلك بسبب قسوة الحياة في المناطق القطبية ، وكان تبادل الزوجات أمرا عاديا بينهم ، فمثلا اذا ذهب أحدهم الى المرتفعات لصيد الكاريبو (الوعل الأمريكي) بينما يبقى آخر على الشاطىء لصيد السمك وكانت زوجة صائد السمك ماهرة في تجهيز جلد الكاريبو بينما أن زوجة الصائد غير ماهرة في ذلك فان كلا من الرجلين يأخذ زوجة الآخر لتعيش معه طيلة الموسم.

والمسكن الشتوى للاسكيمو فى الشرق وفى المنطقة الوسطى هو البيت الجليدي ويسمى الايجلو (igloo) ، ويشيد من كتل من الجليد يضعونها معا لتكورن قبة . أما الاسكيمو الغربيون فكانوا يشيدون لهم مساكن ، الجزء الأكبر منها تحت الأرض. وهم يدفئون تلك المساكن باستخدام قناديل يحرقون فيها زيت عجل البحر ، وكانوا يستخدمون هذا الزيت أيضا فى طهى طعامهم . وكانت هذه القناديل تدفئ المساكن الجليدية تدفئة تامة تجبر ساكنيها فى العادة على خلع كل ملابسهم عندما يكونون فى داخل تلك المساكن . أما فى الصيف فان الاسكيمو يعيشون فى خيام من جلود الأيائل أو جلود عجول البحر . وفى بعض الأحيان كانوا ينصبون تلك الخيام داخل المساكن الجليدية (الايجلو) بعض الأحيان كانوا ينصبون تلك الخيام داخل المساكن الجليدية (الايجلو)

لتكون لديهم ما يشبه الحجرة بين تلك الخيمة والحائط الجليدى الخارجي ليمنعوا تأثير الحرارة في الداخل من اذابة الجليد.

وتركزت ديانتهم حول الصيد وكان لديهم كثير من أنواع الطابو المتصلة به فاذا لم ينجحوا فى الصيد فانهم كانوا يرجعون ذلك الى انتهاك حرمة أحد الطابوات . وفى مثل هذه الحالة يدعون الرجال المطبين الذين يسمونهم « انجكوك » (angekoks) ليكتشفوا المذنب ويجبروه على الاعتراف العلنى . وكان أولئك المطببون يعقدون جلسات روحانية فى خلال فصل الثناء الطويل يحضرون فيها الأرواح (انظر موضوع الديانة القديمة فى المناطق القطبية فى الفصل الثانى عشر من هذا المؤلف) .

والمعبود الرئيسي لهم هو الالهة « سدنا Sedna » التي تعيش في أعساق البحر وكانت صاحبة السلطان على ثديبات البحر ، وعلى حيوانات الصيد ، فاذا أغضبها أحد منعت الحيوانات فيقل محصول الصيد . وكان الانجكوك يدعونها مرة في كل عام وذلك بعمل رقصة طقسية خاصة تعود بعدها الى البحر ثانية وهي في حالة نفسية طيبة بعد أن يكونوا قد أرضوها . ويخاف الاسكيمو من الموت ومن الأشباح . فاذا مات أحدهم فانهم يحطمون أو يرمون كل شيء قد مسه الشخص عند موته والا تعرضوا للموت . وغالبا ما يتركون المكان كله وينقلون مخيمهم الى جهة أخرى .

وبالرغم من هذا المستوى المنخفض نسبيا فى كثير من المظاهر الحضارية فان الاسكيمو قوم ذوو ذكاء خارق ، يعتمدون كثيرا على أنفسهم ، وهم غير مسالمين ، ولكنهم يستخدمون كل نبوغهم فى النواحى العملية . فهم يحبون الأجهزة والآلات دائما ، وأينما اتصلوا بالأوروبيين فانهم استطاعوا استخدام الآلات الميكانيكية بسهولة ومهارة . وبين عامى ١٨٨٠ ، ١٨٨٠ كان بعض الاسكيمو من أهل الاسكا يعملون دائما فى سفن صيد الحيتان كمساعدين ميكانيكين . وقد أخبرنى أحد وكلاء الشركات المشتغلة بصيد الحوت فى ميكانيكيين . وقد أخبرنى أحد وكلاء الشركات المشتغلة بصيد الحوت فى

برزخ پرنج انه أعطى فى مرة من المرات ساعة مكسورة الى أحد أصدقائه من الاسكيمو الذى لم يكن قد رأى ساعة فى حياته من قبل ففك أجزاءها ودرسها وأخذ فى تصليحها ، وبعد بضعة أسابيع أعادها اليه وهى تدور وذكر دنكان السكيمو فى لبرادور (Duncan Strong) عن أحد الاسكيمو فى لبرادور (Labrador) الذى استطاع أن يركب أجزاء موقد بالكيروسين وصل الى المعسكر وهو مفكك الأجزاء وعجز علماء الانثروبولوجيا عن تركيبه ، ولكن الاسكيمو الذى لم يكن قد رأى موقدا فى حياته من قبل عكف على دراسة الرسم ، وركب أجزاءه الى بعضها البعض فى أقصر وقت ممكن .

وأظهر الاسكيمو نبوغا خارقا فى صنع جميع نظارات الثلج كما اخترعوا للبات الزيت. والزلاقات التى يصنعها الاسكيمو أفضل من أى شىء من مثيلاتها استطاع الأوروبيون صنعه. كانت تلك الزلاقات مصنوعة من عدة أجزاء من الخشب، وتربط تلك الأجزاء بعضها الى بعض بسيور من الجلد الخام، ولكنهم لا « يعشقونها » مع بعضها حتى تبقى على مرونة كافية للسير فوق جليد خشن أو أرض غير مستوية دون أن تتحطم من كثرة الرجرجة. وكانوا يضعون فى باطن المزلقين قطعا من العاج، ومن الأشياء التى تدعو الى الدهشة أن الاسكيمو لم يصنعوا أبدا أحذية للسير بها على الجليد أو اسكيات. وكانوا يحولون دون تعقد الاسارين اللذين يمتدان من الرقابية بعمل وصلات وكانوا يحولون دون تعقد الاسارين اللذين يمتدان من الرقابية بعمل وصلات عصنعونها من قطع العاج، كما أن الوتد الذى يثبت فيه الاسار كان فى داخل حلقة مثبتة فى الخلف، وبذلك تستطيع أن تدور دون عائق.

واستخدم الاسكيمو الـ «كاياك » (Kayak) فى الصيد أثناء الصيف ، . وهو قارب مصنوع من جلد الحيوان البحرى الذى يسمى الفظ يكسون به هياكل من خشب مربوط الى بعضه ، وذلك بالاضافة الى بعض قطع من العظام تستخدم كأضلاع لهذا القارب ، ويدل صنع هذه القوارب دون شك على نبوغ

يدعو الى الدهشة وكانت صالحة جدا للسفر فى البحر ، اللهم الا اذا بقيت فى الماء أكثر من ٤٨ ساعة فان الماء يرشح اليها ويصبح الجلد طريا وينفصل عن الضلوع. واذا حدث أن عاصفة من العواصف هبت وكان أحد الاسكيمو فى «كاياك » وقذفت به العاصفة الى البحر ، فان هذا الكاياك يتفكك به.

وفى الشتاء يلبسون ملابس من الجلد يفصلونها ويتركون الفراء عادة فيها ، ويلبسون فى أرجلهم حذاء فيه تحسين على الد « موكاسين » ويسمونه « المكلوك » (عدلاله) ويتكون نعله وجوانبه من قطعة واحدة . وباستثناء الأحذية الطويلة المصنوعة من المطاط فان المكلوك هو الحذاء الوحيد الذى يحفظ الأرجل من أن تبتل بمياه الثلج .

وصنعوا نوعا من الفخار كافيا لطبخ طعامهم ، بالرغم من أنهم لم يحرقوه نظرا لعدم توافر الخشب. وصنعوا بعض السلال غير المتقنة ، ولكنهم ركزوا مهارتهم فى الأشياء المصنوعة من العظم والحجر. ففى ليالى الشتاء الطويلة ينحتون تماثيل صغيرة لطيفة للانسان والحيوان يصنعونها من العاج. وليس لديهم معادن ولكن يحدث بين آن وآخر فى العصر الأخير أن المياه تقذف بأشياء بها أجرزاء من الحديد وعدد ذلك يستفيدون منها ويصنعون منها السكاكين والفؤوس.

ولما كانت المنطقة التى يعيش فيها الاسكيمو من المناطق التى لم يطمع فيها البيض فقد ظلت بعيدة عن المؤثرات التى تحدث من جراء استقرارهم فى أى مكان على السكان الأصليين. ولهذا احتفظوا بطابعهم الأصلى أكثر من أى سكان أصليين فى أى منطقة أخرى فى القارة ويكادون يعيشون اليوم نفس المعيشة التى كانوا عليها عندما رسا خرستوف كولومب على شاطىء هذه السلاد.

۲ — والمناخ فى الأرض القاحلة (Barran Ground) والتى تشمل المنطقة
 الداخلية فى كندا من هدسون باى(Hudson Bay) . حتى جبال الروكى تقرب

فى صعوبة العيش فيها من منطقة الاسكيمو ، بل ان مشكلة الطعام فيها أكثر قلقلة وخطورة . وكان سكانها يعتمدون كثيرا على صديد الأسماك من المياه العذبة وصيد الأرانب الثلجية ووعل الكاريبو الذى يعيش فى قطعان هائلة فى تلك الفيافى القطبية ، تهاجر من مكان الى آخر حسب فصول السنة . فاذا نجح الصيادون فى العثور على واحد من تلك القطعان فانهم يستطيعون أن يحصلوا على قدر كبير من اللحم يكفيهم عدة شهور ، أما اذا أخفقوا فى ذلك فلا مندوحة لهم من أن يعيشوا على مقادير ضئيلة من الطعام .

وحضارة أمثال هؤلاء الناس هي حضارة البدو الرحل ففي الصيف ينتقلون من مكان الى آخر بزوارق مصنوعة من قلف الشجر أو من الجلد أما في الشتاء فانهم يستخدمون أحذية الجلود ، أو زلاقة مصنوعة من قطعة من قلف الشجر يحنون الجزء الأمامي منها الى أعلى ، أما مساكنهم فهي اما خيام من الجلد مخروطية الشكل واما من الأكواخ البسيطة .

وبالرغم من قسوة المناخ وقلة ما لديهم من التقدم الحضارى فان تنظيمهم الاجتماعى أكثر نضوجا من تنظيم الاسكيمو. فقد كان لديهم تنظيم مبتكر لمجموعات من السكان. كانت كل مجموعة منها تعيش معا وتصطاد معا ويحكمها زعيم ، وكثيرا ما تصبح هذه الزعامة وراثية فى عائلة معينة. وبالرغم من أنهم لم يمارسوا احتفالات دينية خاصة بمجموعتهم ، فقد كان لديهم «شامان» يقومون بالطقوس السحرية والشعائر التي تجلب الشفاء. وكانت لعقيدة الحارس الخاص أهمية لديهم ، وهذا الحارس الخاص كائن له قوة فوق القوى الطبيعية يستطيع الفرد أن يتصل به عن طريق الرؤيا فى المنام. كما يستطيع الفرد أن يحصل من حارسه على ما يحتاج اليه من معونة فى صيد الحيوان وصيد الأسماك اذا راعى بعض الطابوات ، وقدم له بعض القرابين. الحيوان وصيد الأسماك اذا راعى بعض الطابوات ، وقدم له بعض القرابين. ٣ — أما الغابات التى فى الشمال الشرقى فتشمل شرقى كندا وتمتد

شمالا حتى مناطق الطندرة (tundra) وشرقى الولايات المتحدة من المحيط الأطلسي حتى السهول العظمى (Great plains) وتمتد جنوبا حتى ڤرچينيا . ولهنود هذه المنطقة صلة طويلة وثيقة بالبيض أكثر من جبيع الهنود الآخرين . فربما كان مصير جميع المستعمرين الأوائل هو الموت جوعا اذا لم تعلمهم قبائل المنطقة الساحلية الشرقية طريقة زرع الحاصلات المحلية . ومن الأمور التي ساعدت البيض أيضا أن الأمراض التي جلبها المستكشفون الأوائل معهم قضت على عدد كبير من القرى الواقعة على الشاطىء فأصبحت القرى ذاتها خالية ، وحقولها الصالحة للزراعة مهجورة ، فاستولى عليها أولئك المستعمرون ، ولو كانت القبائل فى كامل قوتها لكان استقرارهم أكثر صعوبة . وفى الوقت الذى تم فيه كشف أمريكا كانت هذه المنطقة آهلة بقبائل مختلفة كان يسير أكثرها على نظام مفكك من نظم العشيرة ، ولكل قبيلة منها زعيم يرأسها . وفي معظم أرجائها كانت المنطقة ملأى بالغابات وفيها حيوانات صيد كثيرة لا تغادرها ولهذا كان الحصول على لحومها ميسورا في جميع أيام السنة . وكان معظم أفراد القبائل مزارعين وصيادين في وقت واحد ، ولكنهم لم يهتموا بحقولهم الا عند الزرع وعند الحصاد ، وكانوا يذهبون للصيد في الأوقات الأخرى . ومن بين الأشياء الغريبة فى تلك المنطقة وجود نظام غريب لتملك الأفراد للأراضي ، وهو من الأنظمة النادرة بين سكان أمريكا الأصليين. كان هـذا النظام سـائدا بين القبائل الالجونكية (Algonkian) التي كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين لبرادور وڤرچينيا ، ويقضى بأن تخصص لكل جماعة مساحة محددة لصيد الحيوان وأماكن محددة لصيد الأسماك. فاذا أرادت جماعة أخرى أن تصطاد الحيوانات أو الأسماك في منطقة غيرهم فعليهم أن يدفعوا أجرا مقابل الصيد في الغابة أو للحصول على حق صيد السمك ، وذلك لمدة مؤقتة . وكانت الأرض لا تباع بأى حالة من الحالات ، ولهــذا فعندما عرض البيض على الهنود من السكان الأصليين أن يدفعوا لهم ثمن

أراضيهم ظن السكان الأصليون أنهم يدفعون حق السماح لهم بالصيد ، وثارت ثائرتهم عندما حاول البيض الاستيلاء على الأرض وطرد الهنود منها .

وكانت منطقة الغابات الشمالية الشرقية آهلة بعدد كبير من القبائل المختلفة التى يستحيل علينا وصفها كلها ، ولكن القبيلة التى كان لها أكبر الأثر على المستعمرين كانت قبيلة الايروكوى (Iroquois). كان الاتحاد المكون من عشائر الايروكوى قوة يجب أن يعمل لها حساب فى الأيام الماضية ، وربما كان النظام الذى سار عليه اتحاد عشائرها ذا أثر على تكوين التحالف والاتحاد بين المستعمرين.

كان الايروكوى يعيشون فى المنطقة التى حول نيويورك ، وفى المنطقة الشرقية من البحيرات الكبرى ، وكانوا متقدمين فى حضارتهم أكثر من جيرانهم المحيطين بهم من قبائل الألجونكى. والواقع ، أنهم كانوا يشاركونهم فى بعض مظاهر حضارتهم ولكن الايروكوى انفردوا على الأقل فى ناحيتين هامتين وهما اتساع نطاق الزراعة بينهم وسفسطتهم السياسية . ويهمنا أمرهم بنوع خاص بسبب الدور الذى لعبوه كقوة سياسية فى كل من التاريخ الاستعمارى والتاريخ الثورى فى أمريكا .

والقبائل الرئيسية التى نعرفها باسم الايروكوى هى الاتحاد الذى كان يتكون من خمس منها وكانوا يسمونه « عصبة الأمم الخمس » . وكانت هذه القبائل من الشرق الى الغرب هى الموهوك (Mohawk) والأونيدا (Oneida) والأونانداجا (Senca) والكايوجا (Cayuga) والسنكا (Senca) ، وكانت كلها تعيش فى ولاية نيويورك الحالية . وكانت هناك قبائل أخرى تتكلم لهجات من لغة الايروكوى وهى قبيلة هورون (Huron) التى كانت تعيش فى الشمال من بحيرة هورون وقبيلة المحايدين وكانت تعيش فى شمال بحيرة ارى (Erie) من بحيرة هورون وقبيلة المحايدين وكانت تعيش فى ولايات أوهيو (Ohio) وغيرها فى ولايات أوهيو (Ohio) ونيسيلفانيا (Pennsylvania) . وكان الهورون هم الأعداء التقليديين للأمم

الخمس ، وزادت عداوتهم عندما أصبحوا تحت النفوذ الفرنسي منذ وقت مبكر ، بينما وقعت قبائل الأمم الخمس تحت النفوذ البريطاني .

وسمى المحايدون بهذا الاسم لأنه بالرغم من أن منطقتهم تقع بين منطقة عصبة الايروكوى البارزة ومنطقة أعدائهم الهورون فان كلا الفريقين المتحاربين لم يحارب هذه القبيلة الصغيرة . وكان السبب في احتفاظ المحايدين بحيادهم أنهم كانوا يملكون المحاجر الوحيدة التي يمكن استخراج الظران الجيد منها في كل المنطقة ، وكانت تتاجر في هذه المادة الصالحة لعمل رؤوس السهام وغيرها وتبيعها للفريقين ، فلم يجرؤ أي فريق على مهاجمتهم لأنه كان يعلم أن الفريق الآخر سيهب للدفاع عن هذه القبيلة الصغيرة والمحاجر ، أي ان المحايدين كانوا في موقف شبيه بموقف السويد في الحرب العالمية الثانية حتى المحايدين كانوا في موقف شبيه بموقف السويد في الحرب العالمية الثانية حتى بدأ الايروكوى يحصلون على الأسلحة النارية والسيوف من الهولانديين والانجليز ، ولم يعودوا في حاجة الى الظران ، وعند ذلك هاجموا المحايدين وأخضعوهم .

كان الايروكوى يختلفون اختلافا واضحا عن جيرانهم من قبائل الالجونكى في تنظيمهم العائلي والاجتماعي لأنهم كانوا ينتسبون الى الأم ، وكان جيرانهم يميلون الى نظام الانتساب الى الأب. كانت العائلة التى تتكون من جماعة من الأخوات أو بنات العم والعمة والخال والخالة اللاتي تربطهن ببعضهن البعض صلة الانتماء الى النساء يعشن معا فيما كان يسمى « البيوت الكبيرة » وكانت هذه البيوت مصنوعة من الخشب وتحتوى على عدد من المساكن تقطن في كل منها احدى العائلات. وكانت السلطة على كل تلك العائلات لاحدى النساء ، وكانت أكبرهن سنا ، وكانت في الغالب أما أو جدة للنساء اللائي كن زعيمات للعائلات. وكان أحد هذه البيوت الكبيرة أو اثنان أو ثلاثة منها تكون فرعا ، وكان فرعان أو ثلاثة منها تكون العشيرة. واختلف عدد العشائر في كل قبيلة من قبائل الايروكوى ، وفي جميع الحالات كانت هذه العشائر

لها صلة قرابة فى عدة قبائل. كانت العشائر عادة تتبع عادة الزواج من خارجها أى أنه لم يكن يسمح لأى فرد من أفراد العشيرة أن يتزوج من عشيرته ولكنه يستطيع أن يتزوج سواء من قبيلته هو أو من قبيلة أخرى . وكانوا ينظرون الى أعضاء العشيرة الواحدة كأقارب يرتبطون برابطة الدم مهما كانت قرابتهم لبعضهم أو حتى اذا لم تكن بينهم قرابة . وكانت صلات القرابة الخارجة عن القرابة عن طريق الأم أقل أهمية ، وبعد مرور أجيال قليلة ينظرون اليها كأنها لم يعد لها وجود .

وبهذه الطريقة كانت القبائل والعشائر التى تنتسب الى الأم أساسا متشابكا للتنظيم الاجتماعى للايروكوى اذ كانت القبائل وحدات يربط بينها العيش فى مكان واحد ويتكلمون فيما بينهم لغة واحدة ، وكانت تلك القبائل تعيش فى منطقة الايروكوى ويتكلمون عدة لغات أو لهجات على حين كانت العشائر تتغلغل داخل تلك القبائل وتكوين وحدات من القرابة الممتدة ذات التماسك الاجتماعى.

وكانت النساء يقمن بأكثر الأعمال الزراعية بارشاد السيدة الأكبر سنا في كل فرع أو في كل عشيرة. وكانت جماعات العمل من بينهن منظمة كتنظيم النحل ، وكانت التعليمات تصدرها مقدما الأم الكبيرة الى جميع نساء الفرع أو العشيرة. وكانت العاملات يشتغلن متعاونات في أرض مشتركة الملكية ، وكانت المحصولات تقسم بين أفراد العائلات المشتركة معا. وكانت هذه الجماعات الشبيهة بجماعات النحل تحيى معا المناسبات اللطيفة لقضاء وقت ملىء بالسرور كما يشتركن معا في العمل ، وقد اقتبس هذه الطريقة أول المهاجرين الى الولايات المتحدة.

وكان العمل الرئيسي الذي يقوم به رجال الايروكوى هو الصيد والاشتغال بالأمور السياسية والحرب ، وكانت كلها تستلزم السفر الكثير ولهذا كانوا يتركون للنساء القيام بالحرف التي تستلزم الاقامة في مكان ثابت.

وتمثل عصبة الايروكوي نوعاً من النظام السياسي ، واذا حاولنا معرفة أصل نشأته نجد أن مرور الزمن قد أحاطه بالكثير من الفموض ، وأضافت اليه الأساطير كثيرا من الحواشي ، ولكن رغم ذلك فان خطوطه الرئيسية ما زالت واضحة . لقد بدأ هذا النظام على الأرجح في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، أو مستهل القرن السادس عشر ، أو كما يقول الايروكوي حتى الآن : « ثلاثة أو أربعة أجيال قبل مجيء الرجل الأبيض » . وتذكر الأساطير أن اللذين أوعزا به اثنان أولهما يسمى « هياواثا » (Hiawatha) ويكتبونه أحيانا هيونهواثا (Hayonhwatha) والثاني يسمى « دجاناويدا » (Deganawida) وكانا ممن تنزل عليهم الرؤيا . واستطاعا بعد التغلب على كثير من العقبات أن يجعلا الناس يقبلون آراءهما . كانت قبائل الايروكوي في ذلك الوقت في حالة تنازع وحروب فيما بينها وبين جيرانها من غير الايروكوي . كانت العصبة التي دعيا الى تكوينها عصبة سلم وكانا. يدعوان الى تحريم الحرب وكانت قبيلة « أونونداجا » (Onondaga) هي القبيلة التي قاومت الدخول في ذلك التحالف ولكنها قبلت أخيرا الدخول في عضوية العصبة بشرط واحد وهي أن تكون لها المكانة الأولى بينهم .

ووضعوا لهم قانونا سياسيا أو دستورا يتكون من مواد وتشريعات تشمل ما يمكن عمله ازاء أى طارىء تصور حدوثه واضعو ذلك الدستور ، وكانوا يحفظون هذا الدستور عن ظهر قلب ويتناقلونه عن طريق الرواية الشفهية الى أن كتبوه فى العصور الحديثة ، وهو خليط بين السفسطة السياسية والسذاجة البدائية . وكانوا يتصورون أن هذه العصبة لا تقتصر على القبائل التى أسستها ، بل ان « السلام الأعظم » يجب أن يعم جميع القبائل التى تحيط بها حتى يمكن القضاء على الحروب قضاء نهائيا . ومع ذلك فان القبائل المؤسسة لم ترض عن التنازل عما كان لها من مكانة سياسية ممتازة فى تلك العصبة وأرادت أن تجبر القبائل الأخرى على الانضمام اليها ، ولكن على

شرط أن تكون فى مركز أقل من مركزها وما لبث النظام الذى وضع ليكون أداة لانهاء الحرب والذى كان يعرف باسم « السلام الأعظم » حتى أصب أداة للغزو وأصبح مصدر رعب لمن كان حولهم من الناس وها هو ذا مثل من مواد ذلك الدستور يوضح كيف كانوا ينشرون السلام بين من جاورهم من القبائل :

« عند اقتراح عمل « السلام الأعظم » لشعب أجنبى فان ذلك يتم عن طريق لجنة من الطرفين ويجب اغراء الشعب الأجنبى بطريق التفاهم والحث على أن يدخل فى السلام الأعظم . فاذا فشلت الشعوب الخمسة ... بعد اجتماع ثالث ... فان زعيم الحرب فى الشعوب الخمسة يرسل الى الرئيس الأكبر للشعب الثائر ويطلب منه ثلاث مرات أن يقبل السلام الأعظم ، فاذا أصر بعد ذلك اصرارا مطلقا على الرفض فان زعيم الحرب يجعل حفنة من المحار الأبيض المستخرج من البحيرات تسقط من يده الممتدة ، ثم يتقدم بسرعة ويضرب الرئيس المعارض بهراوته حتى يقتله . وبهذا يكون اعلان الحرب . وعلى زعيم الحرب أن يعد رجاله ليؤازروه ويعاونوه عند حدوث أى حطر . وستسر الحرب حتى تكسبه « الشعوب الخمسة » .. ثم تفرض « الشعوب الخمسة » السلام الأعظم بعزو الشعب الثائر .

وبعد استقرار السلام وانتهاء السلام وانهاء الحرب يعمل زعيم الحرب على حمع السلاح من ذلك الشعب ، وبهذا يستقر السلام الأعظم ، ويراعى ذلك الشعب جميع اشتراطات السلام الأعظم فى جميع الأوقات فى المستقبل.

وكلما يتم اخضاع شعب أجنبى يظل نظامهم الداخلى فى الادارة ساريا بينهم طالما كان ذلك مناسبا ، ولكنهم يجب أن يمتنعوا امتناعا تاما عن الحرب مع الشعوب الأخرى » (١).

⁽¹⁾ Arthur C. Parker; The Clinsitution of the Five Nations. New York State Bulletin, No 184). Albany, 1916.

كان عدد أفراد المجلس التأسيسي للعصبة خسين شخصا يمثلون عدة قبائل أصبحت تسع وأربعون وظيفة منها وظائف مستديمة يشغلها ممثلون للمجلس، وما زالت هذه الوظائف باقية بينهم حتى اليوم. أما الوظيفة الخمسون وهي وظيفة « دجانا ويدا » فيجب أن تظل شاغرة لأنه لا يمكن أبدا أن يوجد شخص آخر يستحق أن يسمى بهذا الاسم المبجل. وهذه الوظائف وراثية في بعض فروع العائلات النبيلة ، ولكن الذي يختار مرشح هذا الفرع هم نساء ذلك الفرع. فاذا النبيلة ، ولكن الذي يختار مرشح هذا الفرع هم نساء ذلك الفرع. فاذا وقبيلتهم في ذلك المجلس. وكانت لهم طقوس متقنة عند قيامهم بالأعمال وقبيلتهم في ذلك المجلس. وكانت لهم طقوس متقنة عند قيامهم بالأعمال السياسية ، وعند قيامهم بعمل الشعائر الخاصة بالحزن عند وفاة أحد الرؤساء وعند تعيين الرؤساء الجدد الذين يحلون محلهم.

وكما حدث فى حالات أخرى فى تاريخ السكان القدماء فى الشعوب ، كان تحريم الحروب الداخلية بين القبائل سببا فى تحويل ذلك التنازع الداخلى الى شىء أكثر تمدنا — وهو لعبة الكرة . كانت قبائل العصبة تلعب لعبة الدرلاكروس » (Lacrosse) ناظرة اليها نظرة جدية جدا . ومن المرجح أنه ليس من المصادفة أن تكون الاتحادات السياسية ودورات ألعاب الكرة بين القبائل أو بين المدن تسير جنبا الى جنب بين سكان أمريكا الأصليين . كانوا يستعدون لهذه اللعبة كما يستعدون للحرب ويلجأون فى ذلك الى المران والى الاستعانة بالقوى التى فوق قوى الطبيعة . ان لعبة الكرة التى كانت سائدة بين الأيروكوى هى أصل لعبة لاكروس كما نعرفها الآن ، وقد اختلفت لعبة الكرة بين الايروكوى عن مثيلاتها فى قبائل الجنوب الشرقى ووسط غربى الكرة بين الايروكوى عن مثيلاتها فى قبائل الجنوب الشرقى ووسط غربى أمريكا ، وذلك فى نوع المضرب المستخدم فى اللعبة وفى بعض التفاصيل

الأخرى ، والمضرب المعتمد الآن فى هذه اللعبة هو نفس المضرب الذى كان يستخدمه الايروكوى .

كانت عصبة الاروكوي قوة سياسية لها خطرها أدركتها كل من الحكومتين البريطانية والأمريكية . وفي أيام حرب الثورة الأمريكية تمكن القس صمويل كيركلاند الذي كان يقوم بالتبشير بين قبيلة الأوينداس من اقناعهم بالبقاء على الحياد في تلك الحرب. ولكن الغالبية العظمي من الآخرين انضموا الي البريطانيين لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم انهم سيفقدون أراضيهم واستقلالهم اذا انتصر المستعمرون المهاجرون . وتم القضاء على عصبة الايروكوى عندما ذهب الجنرال سوليفان في عام ١٧٧٩ لينفذ أوامر واشتجطون بالقضاء على هذا المصدر الذي يقوى جانب البريطانيين ، وكانت الطريقة التي اتبعها سوليفان هي حرق القرى والحقول بدلا من الالتحام في حرب مع الايروكوي. وتدل كمية الطعام التي أحرقوها على مدى انتشار الزراعة بين الايروكوي اذ تصف وثائق تلك الحملة كيف قضت على ١٦٠٠،٠٠٠ بوشل (البوشل ٣٦ لترا) من الذرة وكمية هائلة من الخضراوات من جميع الأنواع ، وعدد لا يحصى من أشجار التفاح ، اذ كان يوجد فى حديقة واحدة ١٥٠٠ شجرة . وانتهى أمر الايروكوى بعد أن أحرقوا قراهم وما لديهم من مؤونة يعيشون عليها ففر كثيرون منهم الى كندا ، وبقى البعض الآخر ليعقد الصلح مع المستعمرين . ومنذ هذا اليوم حتى الآن أصبح اللقب الذي يطلقونه على رئيس الولايات المتحدة هو « راناداجارياس » (Ranadagaryas) أي « مدمر القري ».

وديانة الايروكوى يهمنا أمرها أيضا . فقد كان هناك فى الأصيل كثير من العقائد السحرية والعادات المختلفة التى تبلورت منها فى الوقت المتأخر من عصر ما قبل التاريخ نواة ما أصبح بعد ذلك ديانة لها شىء كثير من الجمال والوقار . وفى أعقاب تلك الأزمة الشديدة التى مرت بالايروكوى بعد حرب الشورة ظهر نبى من قبيلة « سنكا » يسمى « جانيا دايو » (Ganyadaiyo)

ومعناه « البحيرة الجميلة » ، أدخل على تلك الديانة الكثير مما أمدها بقوة جديدة ووضع تفسيرات جديدة ، وما زالت هذه الديانة التي دخل عليها الاصلاح باقية حتى الآن . والموضوعات الأساسية التي تتكرر في طقوس هذه الديانة هي شكر الخالق وشكر الآلهة العديدين من آلهة الكواكب وآلهة الزراعة لما منحوه للناس من نعم وطلب بقاء تلك النعم بينهم الى الأبد . وفي صلواتهم التي يصلونها في كل احتفال ديني على مدار السنة ، بل وفي كل اجتماع لهم ، يكررون هذه المعاني ، عندما يشكرون ويبتهلون الى « أمنا الأرض » و « أخينا الأكبر الشمس » وأهم من هؤلاء جميعا « الخالق » . وفي بعض الصلوات كانوا يعددون هذه النعم يبدأونها بتلك التي في البحر والنعم القريبة من سطح الأرض ثم الشجيرات والأشجار ، والأشياء التي في الهواء ثم ما فوقها .

ويعيش الايروكوى فى الوقت الحاضر فى ست مناطق محددة اقامتهم فى داخلها فى ولاية نيويورك واثنتين فى أوتتاريو السفلى وواحدة فى كويبك وواحدة فى ويسكونسن وواحدة فى أوكلاهوما . وقد هاجر كثيرون منهم الى المدن وأصبح لأفراد قبيلة الموهوك شهرة خاصة فى اقبالهم على الممل فى العمارات التى تشيد من الصلب وترتفع كثيرا عن الأرض . ويذكرنا اقبالهم على هذا النوع من العمل الحديث بأمر ذكره أحد أوائل المؤرخين فى عصر الهجرة الأولى اذ لاحظ ذلك المؤرخ مع الدهشة الشديدة كيف كان الايروكوى يعملون وهم على ارتفاع كبير دون أن يعتريهم أى خوف ، كما لاحظ الاطمئنان الذى كان يبدو عليهم وهم يمشون فوق عروق سقف منزل أو مخزن يشيدونه . وما زالت عصبة الايروكوى باقية حتى اليوم فى كل من كندا وولاية نيويورك ، وتعترف بها حكومة الولايات المتحدة ، وهى النظام السياسى الذى يسيرون عليه . أما فى كندا حيث أدخلت الحكومة اليهم نظام المجلس النيابى يعد هناك محل للاعتراف بهم كممثلين لنظام سياسى ، ولهذا أصبحت

العصبة حركة سرية تعنى قبل كل شيء آخر بالأمور الدينية أكثر من عنايتها بالسياسة .

وقد لعب الايروكوى دورا هاما فى التاريخ الأمريكى. وبالرغم من أن أكثر الأمريكيين لا يعبرفون الآن الا الشيء القليل عنهم فانهم ما زالوا يستخدمون الأسماء التي أطلقوها على البلاد والمدن والممالك. فكلمة «كندا» كلمة ايروكوية معناها « المحلة السكنية » وكلمة شنكتادى(Schenectady) معناها « فى الناحية الأخرى من الأشجار » ، وكان الايروكوى يطلقون هذا الاسم فى الواقع على مدينة الباني وليس على مدينة شنكتادى الحالية اذ كانت توجد فى العصور البعيدة غابة صنوبر كبيرة بين هاتين المدينتين. وهناك أسماء أخرى يعرفها كل من يقيم فى ولاية نيويورك مثل اسم مدينة «كاناچوهارى» (كاناچوهارى» (Canajoharie) ، ومعناها «حوض مفسول» وقد سميت بذلك نظرا لوجود دوامة بين الصخور ، واسم مدينة « سكانيتالس » فكل من يطلع على خريطة الولاية يرى الكثير من تلك الأسماء.

إما منطقة الغابات الجنوبية الشرقية فانها تشمل جنوبى الولايات المتحدة من شاطىء المحيط الأطلسى حتى حافة السهول ما عدا قبيلة السمينول (Seminole) فى جنوبى فلوريدا الذين كانت لهم حضارة شاذة لن تتعرض للحديث عنها فى هذا الكتاب. وكثيرا ما يقلل الناس من شأن حضارة الجنوب الشرقى لأنها زالت فى وقت مبكر من العصر التاريخى ، ولكنها كانت على ما يرجح أغنى وأهم الحضارات التى كانت فى شمال المكسيك.

كان السكان القدماء فى هذه المنطقة من جامعى البذور ، وكانت وجبتهم الرئيسية المحتوية على البروتين هى المحار المعروف باسم بلح البحر (mussels) الذين كانوا يحصلون عليه من الأنهار ، وقد خلفوا وراءهم حيثما أقاموا أكواما من محار هذا السمك اللذيذ الطعم مما يدل على أنهم كانوا يعيشون

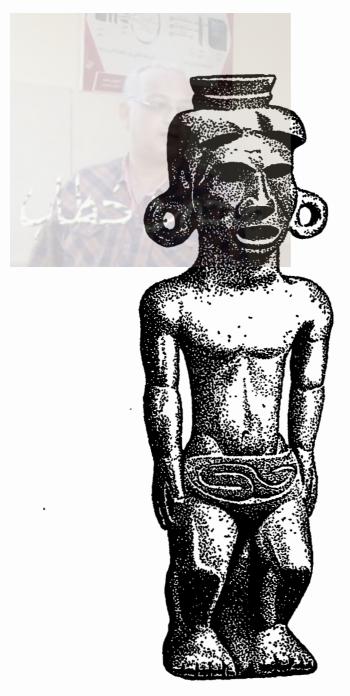
في مكان واحد فترة طويلة من الزمن ، وزرعوا تدريجيا بعض النباتات مثل سالف العروس (amaranth) واليقطين وعباد الشمس من أجل الحصول على بذورها ، وكذلك نبات الدخان وليست هذه النباتات من الحاصلات المرغوب فيها تجاريا ولكنها أفادتهم فى تعلمهم طرق الزراعة فلما أتت اليهم الذرة والفول والقرع العسلى من المكسيك حوالي بداية العصر المسيحي أقبلوا على زراعتها في الحال وكان ذلك سببا في زيادة عدد السكان وتقدم الحضارة ، وهما الأمران اللذان كانا يصاحبان انتشار زراعة هذه المحصولات. وما حل عام ١٣٠٠ ميلادية حتى كانت هذه المنطقة عامرة بعدد كبير من السكان المستقرين المتقدمين في جميع الفنون. وكان يقوم أفراد هذه القبائل بنحت الحجر نحتا بالغ الدقة ، وكانوا يصنعون أنواعا كثيرة من الفخار وعليها زخارف ملونة كما صنعوا أيضا أدوات كثيرة من البرونز . وأهم من ذلك كله كانوا مزارعين ممتازين ، وقد ذكر الزوار المبكرون الذير زاروا تلك المنطقة وجود حقول مزروعة تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة .

وكان السكان يعيشون فى منازل من الخشب وملاط الجبس: يصنعون الهيكل من أخشاب السرو ويغطونها بخليط من الطين والطحلب الاسبانى ثم يرشونها بالجير، وكثيرا ما استرعت قراهم أنظار من زاروهم فتحدثوا عنها لأن مثل هذه النظافة لم تكن من طابع القرى الهندية. كانوا يبنون مدنهم عادة حول ميدان متسع، وفى أحد طرفى المدينة معبد ذو هرم، وفى الطرف الآخر بناء مجلس المدينة. وكان الكهنة يقومون بعملهم بصفة مستمرة فى المعابد ويحرصون على بقاء النار المقدسة مشتعلة ليلا ونهارا. وكان لقبيلة ناتشز ويحرضون على المسيسيى كاهن - ملك من سالالة اله الشمس، وهذا يذكرنا بالكهنة - الملوك فى مدنيات الدنيا القديمة فى بلاد الشرق الأدنى، وهذه هى الحالة الوحيدة من هذا القبيل فى أمريكا الشمالية.

وكانت المعابد تشيد فوق مرتفعات كبيرة من التراب ، وهذا مستمد دون شك من الأهرام الطقسية فى المكسيك . كان هؤلاء الناس يبنون جدرانا خارجية للأهرام ثم يملؤونها بعد ذلك ، كما كان يفعل المكسيكيون ، ولكنهم كانوا يستخدمون التراب أو الخشب بدلا من الحجر . وكانوا يجددون تلك الأكوام المرتفعة من آن لآخر باضافة طبقة جديدة ، وربما كرروا ذلك سبم أو ثمانى مرات . وقد أقاموا الكوم المعروف باسم كوم «كهوكيا » (Cahokia) فى سانت لويس الشرقية ، وهو من أعظم الانشاءات البدائية فى العالم .

وحوت هذه الحضارة عقيدة ذات أهمية بشأن الموتى ، كما حوت أيضا شعائر دينية متقدمة تقوم بها الجماعة معا ، وكان أهمها احتفال التطهير السنوى الذى كانوا يسمونه الد « بسك » (busk) وكان يقام هذا الاحتفال عندما ينضج محصول الذرة ويصلح لأكله وهو فى أعواده . ففى هذا الوقت كانوا ينظفون جميع المساكن ويرشون جدرانها بالجير ، ويدفعون جميع الديون ويطفئون النيران ثم يعيدون اشعالها من النار الخالدة فى المعبد . وكان كل شخص منهم يغتسل حسب طقوس معينة ثم يخرج بعد ذلك الى ميدان وهو يرتدى ملابس جديدة ليشسترك فى الرقص .

وللتنظيم الاجتماعي والسياسي في هذه المنطقة أهمية خاصة. فقد كانت المدينة هي الوحدة السياسية ، وفي داخل المدينة عشائر تسير على نظام الانتساب الى الأم وتعيش كل عشيرة في حي خاص بها في المدينة ، ولها مكانها المخصص لها في الميدان عندما يجتمع أفراد القبيلة من أجل الألعاب أو الاحتفالات. وكانت العشائر مقسمة الى مجموعتين « الحمر » و « البيض » ، وفي كل منهما كان لكل عشيرة مركزها الاجتماعي بالنسبة الى غيرها. كان زعيم الحرب من العشيرة التي تحتل المكانة الأولى في الفريق الأحمر في المدينة في حين كان زعيم السلام من العشيرة التي تحتل المكانة الأولى في الفريق الأبيض . كان زعيم السلام من العشيرة التي تحتل المكانة الأولى في الفريق الأبيض . ولم يقتصر عمل زعيم الحرب على قيادة المحاربين وتنظيم الدفاع ، بل كان من



مبسم لقصبة التدخين على هيئة انسسان ، من « هوبول »

اختصاصهم تنظيم جميع أنواع النشاط الجماعى مثل قطع الأشجار من الأرض واصلاح التحصينات (السور المصنوع من القوائم الخشبية والخندق) ، وما يحتاج اليه المعبد وبيت مجلس المدينة من تجديد. أما رئيس السلم فكان موكلا بأمور القضاء وهو الذي كان يحكم في المخاصمات ويعمل على منع المنازعات ويرأس المجلس التشريعي المكون من رؤساء العشائر.

وكان يسود بينهم نظام أرستوقراطي اذ كانت للزعماء سلطة قوية ، وكانت أكثر القبائل استمساكا بهذا النظام قبيلة الناتشز (Natchez) التي كان لها نظام اجتماعي تنفرد به . كان يوجد في هذه القبيلة جماعة أرستوقراطية قليلة العدد ينقسم نبلاؤها الى ثلاث طبقات ، ويأتى بعد ذلك العامة الكثيرو العدد الذين أطلق عليهم الفرنسيون اسم «ذو السمعة السيئة». كان الأرستوقر اطيون ينقسمون الى « الشموس » وهم الطبقة العليا ثم « النبلاء » ثم « الأشراف » . وكان يتحتم على كل فرد منهم سواء أكان ذكرا أم أنثى أن يتزوج من العامة . فاذا كانت المرأة من طبقة الشموس فان أبناءها يصبحون من طبقتها ، أما اذا كان الرجل من طبقة الشموس فان أبناءه ينزلون ويصبحون من طبقة النبلاء. ويتحتم على الابن أن يتزوج امرأة من طبقة الاشراف فينزل أبناؤه درجـــة أخرى أى أن الجيل الثالث من فرع الذكور حتى ولو كان رئيس طبقة الشموس نفسه يصبح من العامة . وفي الوقت ذاته يستطيع أي فرد من العامة أن يصبح من الأشراف بل ومن النبلاء اذا قدم أبناءه قربانا ليضحى بهم عند موت أحد الأشراف .

واحتلت عادة تضحية الآدميين مكانا كبيرا فى هذه الحضارة كما انتشرت بينهم عادة تعذيب المسجونين . فاذا مات أحد الأفراد من طبقة النبلاء فان الزوجة أو الزوج الذى من طبقة العامة يقتل ويدفن مع النبيل ، وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يتم هذا القتل دون أن يتألم الشخص المقتول وذلك باعطائه ثلاث كرات صغيرة من الدخان معجونة بمخدر ليتلمها ثم يخنقوه بعد ذلك .

وأهم المظاهر السياسية في هذه المنطقة هي التحالف الذي كان بين القبائل فان جميع ما كان يطلق عليه اسم القبائل في المنطقة الجنوبية الشرقية في أمريكا الشمالية كان في الحقيقة مدنا مرتبطة ببعضها برابطة التحالف ، ولم يكن تنظيم هذه المحالفات الا امتدادا مباشرا للتنظيم السياسي لكل من تلك المدن. وكانت هذه المدن المتحالفة تنقسم الى فريقين فريق الحمر وفريق البيض ، وكان يتحتم على كل مدينة بأكملها أن تكون تابعة لأحد الفريقين . وكان مجلس القبيلة مكونا من زعماء المدن ، وكان على رأس كل قبيلة زعيم للحرب من احدى المدن الحمراء وزعيم للسلم من احدى المدن البيضاء .

وكانت المسابقات فى الألعاب هى مظهر التنافس بين المدن ، وبخاصة فى نوع من لعبة « اللاكروس » يلعبونها بعصوين وكرة مخيطة من الجلد . ويلوح أن تلك التحالفات الأمريكية قد أدركت أنه لا يكفى وضع القوانين لفض المنازعات بين أعضائها ، فان أولئك الأعضاء كانوا فى حاجة الى فرصة لوضع حد لعداواتهم وذلك بعمل شىء لا ينتج عنه ضرر أو أذى . وتكاد تتشابه الصلة فى توزيع التحالفات فى أمريكا وبين ألعاب الكرة المنظمة بين الهيئات المختلفة . وسواء أكانت ألعابهم من أنواع لعبة اللاكروس التى كانت تلعبها قبائل شرقى الولايات المتحدة أم أنهم كانوا يلعبون لعبات الكرة الأخرى الشبيهة بلعبة كرة السلة التى كانوا يلعبونها فى الاحتفالات الدينية فى أمريكا الوسطى فان كلا النوعين متشابه فى كثير من مظاهره . وعند عمل الترتيبات اللالعاب كان كل فريق من المتنافسين يلجأ الى السحر ، وكان فى الغالب نفس السحر الذى كانوا يفعلونه لكسب الحرب فيما مضى .

وكانت القرية التى تفوز فى النهاية فى هذه الألعاب تحقق أرباحا كثيرة نتيجة للمراهنات التى كان يراهن بها سكان كل بلد على فريقه أو من جراء حقوقهم الرسمية فى النهب. ويستطيع الانسان أن يقول ان كل مدينة فى منطقة الجنوب الشرقى كانت تتنافس مع كل مدينة أخرى فى لعبة اللاكروس. وكانوا

يبدأون اللعب فى كل مباراة مع أى مدينة أخرى بالشعائر التى كانت تسبق خروج الجماعات المحاربة الى القتال فاذا تمكنت احدى المدن من قهر مدينة أخرى أربع مرات متوالية أصبح لزاما على المدينة المقهورة أن تنتقل الى الفريق الذى تنتمى اليه المدينة الفائزة فاذا كانت المدينة المقهورة من فريق المدن البيضاء أصبحت من فريق المدن الحمراء .

وبدأت حضارة المنطقة الجنوبية الشرقية فى الضعف والانحلال حوالى الوقت الذى وصلت فيه بعثة « دى سوتو » (De Soto) الى القارة الأمريكية فى عام ١٥٤٠. ومن المحتمل أن الأمراض الجديدة التى جلبها البيض اتتشرت فى القرى الهندية اتتشارا وبائيا ، وعندما بدأ البيض يتسللون الى المنطقة حاول الهنود أن يعيشوا كمزارعين بين جيرانهم البيض . وعلى أى حال فان أراضيهم كانت على حالة كبيرة من الرخاء . وعندما كشفوا وجود الذهب فى جورجيا عام ١٨٣٩ اتنهى أمر قبائل المنطقة الجنوبية اذ حدث اذ ذاك ذلك الاقبال الجنوني على استخراج الذهب فقام البيض بجمع جميع الذهب وبعثوا بالهنود الى أوكلاهوما ضاربين بجميع ما كان بينهم من معاهدات عرض الحائط . واتضح فيما بعد أن رواسب الذهب قليلة وغير مربحة ، ولكن فى الوقت الذى أيقن فيه البيض من ذلك لم يعد للقرى الهندية وجود فى المنطقة الجنوبية أيشن فيه البيض من ذلك لم يعد للقرى الهندية وجود فى المنطقة الجنوبية الشرقية .

ه — امتدت منطقة السهول العظيمة من الغابات الى جبال روكى وجنوبا الى حدود المكسيك وشمالا الى الغابات شبه القطبية والى الأرض القاحلة (Barren Ground). كانت هـذه المنطقة فى العصور المبكرة مركز صيد الحيوانات الكبيرة ومركز حضارة الفولسوم — يومان. وحدث فيما بعد أن السكان الذين كانوا يعيشون قريبا من الحدود فى داخل منطقة الجنوب الشرقى أخذوا يتنقلون الى منطقة السهول متخذين طريقهم على امتداد وديان الأنهار. وأدخل أولئك المهاجرون الزراعة الى تلك الجهات ، وبالرغم من أن جميع

الصيادين لم يتحولوا الى الزراعة فقد أصبحوا يعتمدون عليها . كان الصيادون يتجولون فى المناطق المرتفعة فى منطقة السهول خلال فصل الصيف باحثين عن حيوانات الصيد ثم يعودون فى الشتاء الى قراهم وزراعتهم التى على وديان الأنهار ، أو يذهبون جنوبا الى المكسيك ليعيشوا مع قبائل الد « پيوبلو » (Puebelos) الشرقية .

وعلى طول مجرى الميسورى سادت علاقة تدعو الى الدهشة بين القبائل التى تمارس الصيد وبين السكان المزارعين. فبالرغم من أن الفريقين كانا فى العادة فى حالة حرب مستمرة فقد كانوا متفقين على عمل هدنة عندما يزهر نبات العود الذهبى. وفى هذه الهدنة يستطيع الصيادون أن يأتوا الى قرى المزارعين كما يشاؤون ، ومعهم الجلود واللحوم المجففة ويأخذون منهم الذرة بدلا عنها. وفى ذلك الوقت يجلس الأعداء مع بعضهم البعض وكل منهم يتباهى بمعاركه ويحصى مغانمه ، ولكن عندما يحين وقت تحول هذا النبات الى بذور يأخذ الصيادون ما حصلوا عليه بطريق التجارة ويعودون الى التلال ، ومنذ هذا اليوم حتى يحين الموسم التالى ويزهر نبات العود الذهبى يقتل كل من الفريقين من تقع عليه عينه من أفراد الفريق الآخر.

وكان يعيش سكان وديان الأنهار فى قرى تحيط بها حقول الذرة وتحصنها الخنادق والأسوار المقامة من أعواد الخشب. وكانوا يبنون منازل كبيرة من الطين تعيش فى كل منها بصفة دائمة احدى العائلات ، وكانت منازل المندن (Mandan) والهيداتسا (Hidatsa) تبلغ ثمانين قدما فى طولها وثلاثين قدما فى ارتفاعها فى أعلى نقطة فيها وهو المكان الذى يخرج منه دخان الموقد الذى فى وسط المنزل. وكان سكان تلك القرى يقضون معظم وقتهم فى قراهم ولكنهم كانوا يذهبون الى السهول للقيام ببعض الصيد فى فصلى الربيع والخريف ، وكانوا يستخدمون فى مثل هذه الرحلات مهمات خفيفة ويعسكرون فى خيام من الجلد ذات شكل مخروطى ويستخدمون لنقل أمتعتهم عربة خشنة الصنع

يسمونها « الناقلة الشبكية » ، تجرها الكلاب وكانت مكونة من عمودين يربطون اليهما الكلاب ويضعون السيور حول رقابها وبطونها ، وفى وسط العمودين شبكة يضعون فوقها أمتعتهم ، أما الأشياء التى لم يكن فى الاستطاعة وضعها فوق الناقلة فكان حملها من نصيب النساء .

وعندما عرفوا الجواد تغيرت الأوضاع فى منطقة السهول تغيرا سريعا اذ أن هذه المنطقة من المناطق التى على الحدود ، وسكانها خليط من سكان المنطقة الزراعية التى فى الشرق ، وقليل من القبائل الرحل التى تعيش على الصيد. كان الحصان حيوانا جديدا على أمريكا لأن الحصان الأمريكي الأصلى كان قد انقرض مع الماموث والرسيف ، وأول الجياد التى وصلت الى هذه القارة هى الجياد التى أحضرها «كورتيز » (Cortez) الذى وصلت سفنه الى « تباسكو »(Tabasco) في عام ١٥١٩ ، وكان معه فى رحلته الأولى ثمانية عشر جوادا ، ولكن هذه الجياد لم يكتب لها البقاء واذا كان قد بقى واحد منها حيا بعد المعارك التى خاضها كورتيز ومن معه فان الاسپانيين الجياع قد فيحوه ليأكلوه .

وأحضر كورتيز فى رحلته الثانية ما يقرب من ألف جواد ، كما أحضر « دى سوتو » عندما رسا على شاطىء فلوريدا فى عام ١٥٣٩ نحو مائة منها .

وفى منتصف القرن السابع عشر كانت الخيول البرية تمرح فى السهول ، وكانت هذه الخيول على الأرجح من الخيول التى هربت من الاسپان الذين كانوا فى الجنوب الغربى من القارة . وكانت منطقة السهول مراعى مثالية فأخذت هذه الخيول تتزايد بسرعة كبيرة . وأقبل الهنود اقبالا شديدا على الامساك بها أو سرقتها من بعضهم البعض ، وأصبح ذلك بمثابة الرياضة الرئيسية بينهم ، وما وافى منتصف القرن الثامن عشر حتى كان كل هندى فى منطقة السهول يمتلك جوادا يركبه . وللمرة الأولى فى حياتهم أصبح ميسورا للهنود ، بفضل وجود الخيل ، استثمار قطعان الثيران استثمارا حقيقيا .

وأصبحت منطقة السهول كعبة تقصدها القبائل الهندية من جميع النواحى الأن وجود كميات لا حصر لها من الطعام وهى الثيران ، كما أن وجود الخيل التى يستطيعون بوساطتها سرعة الانتقال والصيد ساعد كثيرا على اقبال الناس على حياة البدو الرحل فان السكان الذين كانوا يعيشون فى وديان الأنهار فى قرى مستقرة وجدوا أن قيامهم بحملات للصيد أكثر مكسبا لهم وأكثر متعة من عزقهم للأرض لزراعة الذرة ، ولهذا السبب أخذت الزراعة تضمحل ويقل شأنها .

وتحولت معدات الانتقال الخفيفة التي كانت تعتمد على نقلها بنقالات تجرها الكلاب الى معدات أكبر حجما وأثقل وزنا وكانت أشبه شيء بالمعدات اللازمة في الحروب. أصبحت الخيام أكثر انساعا ، وأكثر راحة لساكنيها ، وكان هيكل الخيمة مكونا من أربعة أعمدة رئيسية ونحو عشرين عمودا أصغر منها توضع حول الأعمدة الكبيرة على شكل دائرة ويضعون فوق تلك الأعمدة سقفا مشدودة من جلود الثيران بعد اعدادها لذلك. وكانت هذه الخيام ذات بياض ناصع ومزخرفة بالألوان وريش الطيور ، وفي كل خيمة منها يستطيع عشرون صيادا أن يناموا فوق معاطفهم المصنوعة من الفراء حول موقد النار الذي في وسط الخيمة ويعلقوا ملابسهم وأسلحتهم في أعمدة الخيمة.

ويعتقد الناس أن حياة البدو الرحل حياة عرضية وغير منظمة ، ولكن كل الجماعات الهندية التي كانت تعيش في السهول كانت تسير في نظام ودقة كأى فرقة من فرق الخيالة في جيش الولايات المتحدة . وكانت لهم طريقة خاصة ذات نظام دقيق في أسفارهم ، فالنساء والأطفال والحيوانات التي تحمل الأمتعة فوق ظهورها كانت توضع في الوسط ، يتقدمها ويمشي وراءها الرجال المسنون لحراستها ، أما الشبان فكانوا يمتطون خيولهم ويسيرون حولهم يتقدمهم كشافة منهم ليكونوا درعا تقيهم من هجوم العدو .

وكانت العناية بالرحلة أثناء السفر واقامة المعسكر من نصيب النساء ،

وكانت النساء تضع فوق ظهر كل جواد من خيول الأمتعة والمهمات أشياء خاصة معروفة فاذا احتاج أحد المسافرين الى مخراز أو الى زوج من الموكاسين (نوع من الأحذية) أثناء السفر فان النساء يعرفن كيف يجدن ذلك فى الحال فاذا ما وصلت الجماعة الى مكان المعسكر الذى تختاره الكشافة فان زعيم الجماعة يتقدم الى المكان الذى اختاره لاقامة خيمته ، وعند ذلك تنصب كل عائلة خيمتها فى مكان خاص معروف بالنسبة لموقع خيمة الزعيم ، كما لو كانوا فرقة حربية تقيم معسكرها . وكان معسكر هنود السهول أشبه شىء بقرية تتحرك بأكملها ثم تضع رحالها بعد عشرين أو ثلاثين ميلا على نفس الصورة التى كانت عليها . وكانت النساء تتعاون معا على اقامة الخيام المخروطية وفى ازال الأحمال من فوق ظهور الخيول ، وفى أقل من ساعة بعد اللحظة التى يقف فيها الزعيم بعد اختيار موقع خيمته يكون المعسكر كله قد تمت اقامته وبدأت النسوة فى اشعال النيران لاعداد الأكل .

ونظرا لعدم وجود أى حدود طبيعية فى منطقة السهول فان القبائل كانت دائمة النزاع فيما بينها ، خصوصا وأن الخيول كانت تغرى دائما بالاستيلاء عليها لأن الجواد يصلح لمساعدة سارقه على الهرب اذ يمتطيه ويسرع به بعيدا ، ولهذا أصبحت الحروب وسرقة الخيول هى الشاغل الأكبر لسكان منطقة السهول ، وربما كان سكان السهول من الهنود أعظم من رأتهم الدنيا من المحاربين ، وكان الرجال ينظمون أنفسهم فى جمعيات أشبه بالجمعيات الأخوية تتنافس فيما بينها من أجل الحصول على أمجاد الحرب ، كما كانت تتنافس أيضا فيما بينها فى سرقة الزوجات وهى احدى العادات التى كانت سائدة بين سكان السهول .

والى جانب حبهم لأمجاد الحرب ، كانت تتملكهم رغبة شديدة فى الحصول على معونة القوى التى تفوق قوى الطبيعة ، اذ أن هذه المنطقة كانت أصلح

المناطق للباحثين عن الوحى والرؤيا . كانت الارواح تظهر للناس فى الحلم أو فى هيئة وحى وتمدهم بنصائحها عن الحرب وعن الصيد .

ولم يكن المراهقون وحدهم هم الذين يصومون من أجل ظهور الوحى لهم بل كان المحاربون الذين يشعرون بأن قواهم بدأت تضعف يفعلون ذلك أيضا ، اذكانوا يصومون ويلجأون الى بعض الأساليب الماسوشية (نوع من الانحراف الجنسي يتلخص في الحصول على اللذة الجنسية عن طريق تعذيب شخص آخر له) ليستدروا بذلك عطف القوى التي فوق القوى الطبيعية فتساعدهم . وكانت قبائل الشوشون (Shoshon) في الجنوب تذهب الى تلك الكائنات وتطلب منها أن تمدها ببعض القوى اذا وجدت أنها أهل للحصول عليها . وكان الشبان يطلبون الحصول على هذه القوى لتعينهم قبل كل شيء آخر على الفوز في الحروب. ولم يكن للمتقدمين في السن مكان في حضارة منطقة السهول، فالمثل الأعلى للرجل هو أن يكون محاربا عظيما ، وأن يسرق مئات الخيول وأن تكون له زوجات كثيرات ثم يموت وهو فى عنفوان قوته . فالرجال الطيبون الذين يقضى عليهم سوء الحظ أن يعيشوا حتى يصبحوا من العجائز يتركون ما اعتادوا عليه في أيامهم الخالية ويعيشون وادعين مسالمين ، أما الأشرار الذين لا يسمح لهم تقدمهم الكبير في العمر بمصاحبة الذين يخرجون الى الحرب فانهم يتحولون الى السحر ويصبحون سحرة .

وأهم شيء في الحياة الدينية لسكان السهول هو احتفال واحد كبير يقام مرة في كل سنة ويسمونه « رقصة الشمس » ، وفي هذه المناسبة تتجمع القبائل كلها ، وتحضر كل قبيلة معها ما يكفيها من الأطعمة وتعسكر كل منها في مكان مخصص لها ، فتصبح القبائل كلها في دائرة كبيرة قطرها ميل تقريبا . وكانوا يبنون لهذه المناسبة بيتا كبيرا من الطين شبيها بالبيوت التي كانوا يعيشون فيها قبل حياة البداوة التي أصبحوا عليها . وكانوا يقيمون مذبحا يرقصون حوله ، اذ كان الراقصون ينشدون الحصول على القوة برقصهم رقصا مستمرا

مدة طويلة وبتعذيب أنفسهم . وكان الهدف من ذلك الرقص هو ايصال الشخص الى حالة تنويم مغناطيسي يسمع فيها أصواتا ويرى الوحي .

وكان هؤلاء المحاربون الذين يعيشون فى منطقة السهول يمتطون صهوة الجياد ويلبسون قلانس من الريش ، وهم الهنود الذين كانوا يهاجمون قوافل العربات والذين خلد اسمهم فى قصص الأطفال وفى الروايات السينمائية الأمريكية . كان هؤلاء الهنود آخر السكان الأصلين القدماء الذين هزمهم البيض المستعمرون وأخضعوهم لسيطرتهم ، ولكن لم يتمكن البيض من ذلك الا بعد أن كلفوا فرق الفرسان فى جيش الولايات المتحدة ثمنا باهظا .

7 — تمتد هضبة جبال روكى من أوتاه (Utah) وكولورادو (Colorado) شمالا حتى حدود كندا تقريبا ، وفى هذه المنطقة عاشت قبائل من الهنود لها حضارة من أبسط الحضارات فى أمريكا الشمالية ، وهى مستمدة مباشرة من أصل الحضارة القديمة التى كانت تعتمد على جمع البذور . لم يكن لأولئك الناس بيوت دائمة ، وكانت منازلهم تتكون من هيكل خشبى بسيط المظهر وجوانبه من الحشائش وأغصان الأشجار . ولم يعرفوا صناعة الفخار ولكنهم كانوا يصنعون سلالا دقيقة الصنع يستخدمونها فى كل ما يحتاجون اليه فى تخزين الأشياء ، وفى حمل البذور ، وفى غربلتها ، وفى الطبخ بطريقة الأحجار الساخنة (اسقاط أحجار ساخنة فى اناء مملوء بالماء) . وكانوا يطحنون الحبوب فوق مطحنة من الحجر الصابونى ، ولم يلبسوا من الملابس الا أقلها ، وكان هذا القليل مصنوعا من قلف الأشجار . وكانوا يمشون حفاة الأقدام طيلة أيام السنة ، ولكن فى أيام الشتاء كان الرجال يلفون حول سيقانهم أشرطة من الفرو بينما اكتفت النساء بلف القنب حول سيقانهن .

وكانت الوحدة الاجتماعية بين تلك القبائل هى العائلة الممتدة ، ولكنا نجهل الكثير من التفاصيل ، وعلى أى حال ، فانها كانت تتكون عادة من زوج وزوجة متقدمين فى العمر ومعهما أولادهما البالغون وعائلاتهم . ولم يتبعوا

نظما خاصة دقيقة في الاقامة بعد الزواج ، فان الشاب والفتاة اللذين يتزوجان كانا يذهبان الى الاقامة مع والدى الزوج أو والدى الزوجة على حد سواء ، وكان الأمر الذي يرجح تلك الاقامة هو وجود الكمية الكافية من الطعام فى المنطقة التي يختارانها . ولم يكن لهم زعماء أو تنظيم سياسي معروف . واذا كانت هناك أي سلطة لانسان فانها كانت سلطة المتقدمين في السن وسلطة المطببين الذين كان يقتصر عملهم على شفاء الناس من الأمراض ، وامتازت عقيدتهم الدينية بما فيها من بحث عن الوحى والخوف الشديد من الأشباح. ٧ — وتشمل المنطقة الجنوبية الغربية من ولايتي نيومكسيكو والأريزونا وتمتد شمالا فتشمل أجزاء من ولايتي كولورادو وأوتاه ، وكانت تختلف عن منطقة جبال روكي بحضارتها الأكثر تقدما أكثر من اختلافها عنها في المناخ. وقد قام كثير من العلماء بعمل البحوث الأثرية فيها ، ولهذا فهي معروفة لناً ومدروسة من الناحية الأثرية أكثر من غيرها من المناطق في الولايات المتحدة ، وذبك لأن الجو الجاف ساعد على الاحتفاظ بالمواد الهشة التي كانت تتعرض حتما للفناء والدمار في المناطق الحضارية الأخرى ، كما ساعدت طريقة التأريخ عن طريق حلقات الشجر في معرفة تواريخ دقيقة أكثر من أي جهة أخرى ، وربما كانت كل هذه البحوث هي السبب في اعتقاد الكثيرين في تقدم وغني تلك الحضارة ولكن هذا الاعتقاد فيه شيء من المبالغة أكثر مما تستحقه في حقيقة الأسي

كان السكان الأوائل فى منطقة الجنوب الغربى من جامعى البذور وصائدى الحيوانات الصغيرة ، وقد تسلل اليهم فى الجزء الشرقى من منطقتهم بعض السكان من حضارة الفولسوم - يومان . وقد انقسم سكان المنطقة منذ عصر بعيد الى قسمين مختلفين فى تطورهما ، فالذين كانوا يسكنون فى الجزء الشرقى منها كانوا من صانعى السلال الذين كونوا الحضارة المعروفة باسم حضارة الد (أنازاسى » (Anazasi) أما فى الغرب فكانت تعيش القبائل

المعروفة باسم «كوشيز » (Cochise) الذين أصبحوا يسمون فيما بعد الدر موجولتون » (Hohokam) والدر هوهوكام » (Hohokam)



اناء من الفخار من صناعة قبائل الهيو بلو ـ من ولاية نيومكسيكو

وأقدم ما عرف حتى الآن من قرى حضارة صانعى السلال يرجع تاريخه الى عام ٢٠٠ ميلادية ولم يكن لديهم فخار ، ولكنهم صنعوا سلالا فاخرة من النوع المجدول ، كما عرفوا أيضا نسيج خيوط القنب على سداة معلقة ولكنهم لم يعرفوا النول ومن دراسة بقايا محلاتهم السكنية يمكن القول انهم كانوا يعيشون فى أكواخ مصنوعة من غصون الأشجار كما كان يعيش سكان الهضبة فى العصور التاريخية ولم يعرفوا القوس ولكنهم استخدموا الحربة ذات القاذفة ، كما فعل أسلافهم منذ ألف سنة .

وحوالى عام ٧٠٠ ميلادية عرفوا زراعة البقول في منطقة الجنوب الغربي وكان لذلك أكبر الأثر في تنشيط حضارتهم . كانت الذرة والقرع المسلى معروفين لهم منذ وقت بعيد ، وكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على الپروتين اللازم لوجبات طعامهم من صيد الحيوانات البرية التي كانت متوافرة في منطقتهم . فلما زرعوا البقول وأمدتهم بكمية كافية من الغذاء الپروتيني بدأت حياتهم تتجه اتجاها جديدا . وفى المائتي السنة التي أعقبت ذلك تطورت حضارة هذه المنطقة الجنوبية الغربية تطورا سريعاً . ففي عام ٧٠٠ ميلادية كانوا قوما بسطاء من سكان القرى يعيشون في مساكن محفور أكثرها تحت مستوى سطح الأرض أو في كهوف، ولم يمارسوا الزراعة الا بقدر محدود، ولم يكن لديهم الا القليل من المعدات ، ولكن بعد مرور مائتي سنة كانوا يعيشون في منازل ثابتة فوق سطح الأرض ومشيدة من الخثيب والطوب. وحلت القوس والسهم مكان الأتلتل (القاذفة) ، وتقدموا في جميع الفنون ومهروا فيها وعلى الأخص فى صناعة الفخار وفى النسيج ، فانتشروا وزادوا من رقعة منطقتهم ، وكانوا يذهبون من أجل التجارة الى مسافات بعيدة .

وبلغت حضارة الأنازاسي ذروتها بين عامي ١٠٥٠ ، ١٣٠٠ ميلادية وهو الوقت الذي شيدوا فيه المباني الجماعية ومساكنهم المنحوتة في الصخر . وأحد تلك المباني الجماعية المبنى المسمى « پيوبلو بونيت و (Pueblo Bonito) الذي بدأوا في تشييده عام ٩١٩ ولكنهم لم ينتهوا منه الا في عام ١٠٧٦ أو بعد ذلك . كان هذا المبنى مشيدا فوق مساحة قدرها ثلاثة أفدنة ، ويمكن أن يعيش فيه ١٢٠٠ شخص . كان أمثال هذا ال « پيوبلو » يشيد حولميدان فسيح يتوسط المباني وكانت أسواره الخارجية رأسية ولا نوافذ فيها ، وكانت لهم بمثابة حصن يصعب التغلب عليه ويستطيع أن يصد هجوم أي عدو لا تكون معه آلات الحصار . وكان المبنى الرئيسي مشيدا في ثلاث جهات من ذلك الميدان الفسيح ، وكانت مبانيه ترتفع على هيئة مدرجات اذ كانت

المبانى التى فى الصف الأمامى مشيدة من طابق واحد وكانت المبانى التى فى آخر للصفوف الخلفية ذات أربعة طوابق وكانوا يعيشون فى الحجرات الأمامية من المساكن ، أما الحجرات الداخلية التى لا يصل اليها الضوء ، فقد استخدموها لتخزين ما لديهم .

وفى وسط الميدان شيدوا عددا من الد «كياً » (Kiva) ، وهى مبان تحت مستوى الأرض شبيهة بمساكنهم التى كانوا يعيشون فيها فيما مضى من عصور ، ولكنهم لم يسكنوها بل استخدموها فى الاحتفالات الدينية ، ونواد يجتمع فيها الرجال . وتتمسك الديانة دائما بالتقاليد القديمة فلهذا احتفظوا بطابع منازلهم التى كان الجرزء الأكبر منها تحت مستوى سطح الأرض واستخدموه ليكون «كيا » لهم بعد أن تركوه كمسكن يعيشون فيه . أما مساكنهم المنحوتة فى الصخر فقد كانت فى حقيقة الأمر قرى منحوتة فى الأماكن العلوية من صخور الجبل على هيئة كهوف تحميها كتل الحجر الرملى التى فوقها ، وكان كل كهف منها صالحا كل الصلاحية كمكان يحمى من فيه ضد هجوم العدو . ويحتوى «قصر الصخر » فى الجهة المعروفة باسم ضد هجوم العدو . ويحتوى «قصر الصخر » فى الجهة المعروفة باسم «ميراڤردى » (Navajo) على مائتى حجرة و ٣٣ كيڤا (Navajo).

وكان للحياة الجماعية أثر كبير على الپيوبلو. فقد كان يتحتم على أى جماعة عائلية صغيرة أن تصنع لنفسها كل ما تكون. فى حاجة اليه ، ولكن لم تلبث هذه البيوت حتى أخذت تميل الى التخصص. فالشخص الذى تظهر براعته فى حرفة من الحرف يركز جهوده فيها ، ويحاول أن يثبت نبوغه ومهارته باختراع أشكال جديدة ، وكان يتبادل ما ينتجه مع غيره من المتخصصين. وفى هذا الوقت أيضا بدأ تطور الحياة الدينية التى أصبحت فيما بعد الظاهرة الكبرى فى حضارة الجنوب الغربى. فقد زادوا فى حجم الكيفا وكسوا جدرانها بالحجر وزخرفوها بالصور الدينية ، وأخذوا يزيدون من فخامة الاحتفالات الدينية مع مرور الزمن.

وربما كان التدهور الذى أصاب تلك الحضارة فى أيام ازدهارها يرجع الى عاملين هما الجفاف وانهاك التربة فمن المعروف أن فترة جفاف مرت على تلك المنطقة بين عامى ١٢٧٦ و ١٢٩٩ . كما أن التربة الصحراوية مهما كانت غنية فهى معرضة للانهاك ، وقد ظلت حقول تلك الجهات تنتج الحاصلات مدة طويلة جعلت الناس يستقرون استقرارا تاما ، خصوصا بعد أن شيدوا تلك المبانى الفخمة فتوقفوا عن التحرك من مكان الى آخر وظلوا الى جانب حقولهم مدة طويلة بعد أن بدأت تضعف تربتها . وعلى أى حال فان هذه الحضارة انهارت بعد عام ١٣٠٠ وهجر الناس بيوتهم المقطوعة فى الصخر ومساكنهم الجماعية الكبيرة واضطر من بقى منهم الى الرحيل نحو الجنوب .

ومن المحتمل أيضا أن يكون وصول أجداد الهنود من قبال النقاچو (Novajo) هو الذي جعلهم يسرعون بترك المنطقة . كان أولئك القادمون الجدد يتكلمون لغة النادين (Nadene) ، وقد شقوا طريقهم الى هذه المنطقة من الشمال . وتنكلم قبائل الهيوبلو في الوقت الحاضر لغات متعددة تنتمى الى أصول لغوية مختلفة مما يدل على حدوث غزوات متكررة لهذه المنطقة ، وان الذين قاموا بها كانوا من القبائل الصغيرة التي تعيش في جهات نائية ، وما لبثوا حتى تطبعوا بطباع أهل المنطقة الذين امتصوهم . وتقهقر الهيولو الى المنطقة التي ما زالوا يقيمون فيها حتى الآن ، اذ تعيش منهم قبيلتا « الهوپى » (Hopi) و « الزونى » (Zuni) في الغرب ، وينتشرون في الشرق على طول مجرى الريو جراندى (Rio Grande) .

وكان للپيوبلو تنظيم عشائرى قوى وكانت عادة الانتساب لفرع الأم سائدة بينهم . كان لكل عشيرة حيها الخاص بها فى القرية ، ولها أيضا الكيڤا الخاص بها ولكن السلطة السياسية كانت مركزة بين أيدى المتقدمين فى العمر . ولديهم وظيفتان رئيسيتان احداهما يشغلها زعيم الحرب الذى كان ينظم أمور الفرق التى تخرج للحرب ، وينظم أيضا وجوه نشاط الشبان ، أما الوظيفة

الأخرى فهى وظيفة الكاسيك (Cacique) ، (وهو اصطلاح مستمار من الاسبانية) . وفى الوقت الحاضر يقوم زعيم الحرب بالاشراف على الشئون العملية كاصلاح المبائى العمومية وتنظيم الاحتفالات . أما الكاسيك فان شدة قداسته تحتم عليه أن يبقى بعيدا عن السلطة بعدا تاما .

وللمطر والحاصلات المركز الأول فى تلك الديانة وحولهما تدور حياتهم الدينية. وأهم معبودين لديهم هما الشمس وعرائس الذرة والى جانبهما عدد لا يحصى من المعبودات الأقل أهمية تمثل طبقات من الكائنات ولا تمثل كائنا واحدا معينا. ويرتدى الراقصون أثناء القيام بالشعائر الدينية أقنعة تمثل هذه الأرواح ويسمونها الكاشينات (Kachinas) ويصنعون دمى من هذه الكاشينات ليلعب بها الأطفال ويقصدون من ذلك تعليم الأطفال خصائص ومميزات هذه الأرواح المختلفة.

وقسموا السنة الى فصلين ، فصل الشتاء الذى كانوا يعتقدون أن الآلهة تقيم أثناءه فى الپيوبلو ، وفصل الصيف الذى كِانت الآلهة تذهب أثناء شهوره الى الجبال . وفى وقت تغير الفصلين ، أى فى وقت الخريف ، كانوا يحتفلون بعودة الآلهة من الجبال احتفالا كبيرا ، وكان سكان القرية يلبسون ملابس تمثل الآلهة ويدخلون الى القرية وهم يرقصون ، وبعد ذلك يدخلون الى الكيڤات . وبعد فترة من الزمن يخرجون منها وقد ارتدوا ملابسهم العادية دلالة على أن الآلهة بقوا فى الكيڤا . وكانوا يقضون الشتاء كله فى سلسلة من الاحتفالات كانت فيها الآلهة تنتقل من كيڤا الى أخرى .

وكان النقاچو يتكلمون اللغة النادينية ، وكانوا يعيشون فى الأصل فى هضبة جبال روكى كبدو رحل يمارسون الصيد ، وبين عامى ١٢٠٠ و ١٣٠٠ بدأوا يسيرون نحو الجنوب بعد أن اجتذبهم رخاء منطقة الپيوبلو وتقدم حضارتها ، فاستقروا فى جنوبى كولورادو وفى نيومكسيكو الشمالية وتعلموا من جيرانهم معظم فنونهم سواء فى الزراعة أو فى صناعة الفخار أو فى النسيج

كما استعاروا منهم أيضا الكثير من مظاهر الاحتفالات الدينية . ومع ذلك فانهم آثروا أن يعيشوا فى منازل خاصة ولم يشيدوا على الاطلاق تلك المبانى العامة التى كانت سائدة بين الهيوبلو . وبعد أن أدخل الاسپان تربية الأغنام الى تلك المنطقة مالوا ميلا شديدا الى حياة رعى الأغنام وما زالوا كذلك حتى الآن . ولم يتحمس النقاچو للزراعة ، والكلمة النقاچية للذرة معناها الحرفى «طعام الأعداء » مما يدل على أنهم عرفوها للمرة الأولى من الهيوبلو الذين كانوا يحاربونهم . زد على ذلك أنهم عندما استولوا على الأراضى كانت هذه الأرض منهوكة التربة فلم يزرعوا أكثر من مساحات صغيرة حول قراهم .

وفى خلال الفترة التى احتل فيها الاسپان المنطقة الجنوبية الغربية أى منذ منتصف القرن السابع عشر حتى الحرب المكسيكية كانت قبائل النقاچو مصدر متاعب لقبائل الهيوبلو الذين يعيشون الى الجنوب منهم ، اذ أن الهيوبلو لم يكونوا محاربين قديرين مثلهم ، ولهذا كانوا يغيرون عليهم فى أيام الحصاد وكانوا يستولون على قطعانهم بل وكانوا يخطفون نساءهم . وقد جعلتهم هذه الأعمال التخريبية يصطدمون اصطداما قاسيا بالقوات الأمريكية بعد حرب المكسيك . وفى عام ١٨٦٧ غزا الكولونيل «كيت كارسون » («Kir" Carson») منطقتهم وأتم اخضاعهم بعد قتل عدد كبير جدا من أغنامهم ، جعلهم يفقدون مصدر طعامهم ، ثم جمع النقاچو وأخذهم الى الأسر حتى عام ١٨٦٧ .

ولما كان النقاچو قوما واقعيين مثل معظم شعب النادين فانهم استقروا بعد هزيمتهم يرعون أغنامهم وتقدموا فى فنونهم وحرفهم . فتقدموا كثيرا فى صناعة الأغطية وأوصلوه الى فن على درجة كبيرة من الجمال ، كما تقدموا فى صناعة الفضة التى تعلموها من الأسرى الاسپان . وكان لانتهاء الحروب وانماء مواردهم من رعى الأغنام وما تدره عليهم صناعة الأغطية والفضة من أموال سببا فى وجود كثير من أوقات الفراغ لدى النقاچو ملاوه باقبالهم على الاحتفالات تقام من أجل الاحتفاء

بالمحصولات كما كان يفعل الپيوبلو ، بل كان يقصد منها شدفاء المرضى فأصبحوا مع مرور الزمن جماعة ممن تتملكهم وساوس الأمراض فاذا أحس شخص من النقاچو بالمرض فان أقاربه كلهم يهبتون للحصول له على شفاء سحرى وللحصول على الشفاء كان المطبب يرسم على الأرض بوساطة رمل ملون ينزل من بين يديه رسما منمقا ، وكانت هذه الرسوم جميلة ومعقدة ولها مدلولات ميثولوجية ، ويجعلون المريض ينام فوق هذا الرسم ويغنون حوله عددا كبيرا من الأغانى ، وفى أثناء ذلك كانوا يزيلون أجزاء الرسم واحدا بعد الآخر.

ونجح النقاچو فى الاحتفاظ بشخصيتهم القبلية كما نجحوا فى الحيلولة بين البيض وبين تأثيرهم على حضارتهم ، وكان السبب فى ذلك راجعا بطبيعة الحال الى أن منطقتهم التى يعيشون فيها كانت أفقر من أن يمد اليها البيض أبصارهم للحصول عليها . وقد ازداد تناسلهم زيادة كبيرة فأصبح عددهم حسب احصاء حديث ٥٠٠٠٠٠ بعد أن كان عددهم فى عام ١٨٦٧ لا يزيد عن ١٨٣٠٠ ، بيد أنهم فى الوقت الحاضر أصبحوا معرضين للمجاعة نظرا لأن مواردهم أصبحت لا تكفى هذا العدد الكبير .

وانقسمت حضارة الكوشيز (Cochise) القديمة الى فرعين يختلفان عن بعض نظرا لاختلاف المناخ. فالذين استقروا منهم فى الجزء الغربى من الولاية، وهى منطقة صحراوية أصبح يطلق عليهم اسم الهوهوكام (Hohokam) على حين أصبح الذين يعيشون فى الهضبة الشرقية التى كانت على ارتفاع كبير وتسقط عليها الأمطار يسمون الموجولون. وبالرغم من أن كلا الفريقين من أصل واحد فان لكل منهما طريقة حياة تختلف عن الأخرى.

ويمكننا أن تتبع حضارة الهوهوكام الى حوالى عام ٣٠٠ ق. م. وكانوا فى ذلك الوقت يستخدمون الفخار ، ويعرفون استخدام القوس ويزرعون الذرة ويعيشون فى مساكن محفورة تحت سطح الأرض. ومعلوماتنا الأثرية عن الهوهوكام أقل من معلوماتنا عن حضارات الأنازاسي نظرا لأن الهوهوكام كانوا يعيشون في قرى مسورة ولأنهم كانوا يحرقون موتاهم .

وفى مثل هذه المنطقة الجافة تصبح الزراعة على نطاق واسع شيئا مستحيلا اللهم الا اذا كان هناك نظام ثابت للرى . ولهذا السبب أصبحت هذه المنطقة هى المكان الوحيد فى آمريكا الشمالية الذى كان لدى آهله رى منظم . وفى عام ٧٠٠ ميلادية عرف الهوهوكام نظاما للرى استمروا فى تحسينه والتوسع فيه حتى عام ١٤٠٠ ، اذ كانت تبلغ قنواتهم فى اتساعها نحو ثلاثين قدما ، وعمقها عشر أقدام وبلغ طول بعضها ١٥٠ ميلا . فاذا ما وضع الانسان فى ذهنه ان الشعب الذى قام بمثل تلك الأعمال الهندسية لم يكن يستخدم الالادوات غير المتقنة المصنوعة من الحجر أو من الخشب يدرك ادراكا كاملا أن عملم هذا كان عملا رائما . ومن المؤكد أنه كان يسود بينهم نوع من السلطة المركزية استطاعت أن تشرف على تنفيذ الأعمال لأن مثل هذه القناة تستفيد منها قرى كثيرة ، ولابد أيضا من العناية المستمرة بهذه القنوات لأن الطمى كان يسد مجراها من حين ، لآخر وكان تطهيرها يحتاج الى عمل جديد .

وبين عامى ٩٠٠ و ٩٠٠ وصلت الى تلك المنطقة تأثيرات قوية من المكسيك نتج عنها تقدم فن الحفر فى الحجر والعظم والمحار ، كما عرفوا أيضا زراعة القطن التى وصلت اليهم من الجنوب ، كما انتشرت بينهم ملاعب الكرة التى كانوا يلعبون فيها لعبة شبيهة بكرة السلة التى كانوا يلعبونها على الطريقة المكسيكية مستخدمين كرة من المطاط.

وفى وقت ما بين عام ١١٠٠ وعام ١٤٠٠ أتى قوم يسمون ال « سلدو » (Salado) فغزوا هـنه المنطقة ، وكانت حضارة أولئك السلدو متأثرة جدا بحضارة الأنزاسى . وبدلا من أن يصدوهم عن بلادهم عاش الشعبان معا فى وئام ، ولكن لم يتأثر أحدهما كثيرا بحضارة الآخر . وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن سكانا من الشعبين كانوا يعيشون معا فى نفس القرى فى وقت واحد

ولكن منازل كل منهما وفخاره تختلف عن الشعب الآخر ، وهذا أمر يدعو الى العجب والدهشة . وربما كان وجود ملاعب الكرة التى أشرنا اليها كافيا كميدان يتنافس فيه الفريقان لاطفاء ما عساه أن يكون هناك من عداوة ، وبهذا امتنعت الحروب بينهما . وفضلا عن ذلك فان ضرورة تعاونهم لشق قنوات الرى والمحافظة عليها كان يحول دون قيام الحرب بينهما لأن مثل هذه الأعمال لا يمكن القيام بها فى منطقة تنقسم على بعضها ويتحارب سكانها فيما بينهم . وربما كان السبب راجما أيضا الى أن الهوهوكام كانوا شعبا شرسا عند قيامه بالحرب فكان ذلك مدعاة لتجنب النزاع معهم أو مهاجمتهم . والهوهوكام بالحرب فكان ذلك مدعاة لتجنب النزاع معهم أو مهاجمتهم . والهوهوكام هم أسلاف الهيما (Pima) واليوما (Yuma) والهاباجو (Papago) الحاليين وهم جميعا يشتهرون بفروسيتهم فى الحرب وقد استطاعوا الدفاع عن منطقتهم عندما غزاها الاياش (Apache) المشهورون بحبهم للحرب ، كما أحسنوا الدفاع عن بلادهم ضد البيض آيضا .

وكان يسقط على منطقة الموجولون (۱) ما يكفى لزراعة الذرة دون اروائها. ولما كان الحافز الذى جمل قبائل الهوهوكام يتعاونون فيما بينهم فى عمل مشاريع الرى وفى الصناعة غير موجود لديهم فان الموجولون لم يفعلوا الا الشىء القليل نحو تقدم بلادهم شبه الجافة. وكانت أهم حرفة لديهم هى صاعة الأوانى ، اذ كانت الأوانى المعروفة باسم « ممبرس » (Mimbres) التى تصنعها قبائل الموجولون تعتبر من أفضل ما يصنع فى المنطقة الجنوبية الغربية. وبمرور الزمن امتصت قبائل الأنزاسى هذا الشعب الذى لم يكن قد عرف الكتابة ، وفى العصور التاريخية احتلت بعض الجماعات المتجولة من الإياش الناديين هذه المنطقة.

 ⁽۱) اسم د موجولون ، نسبة الى جبال موجولون التى سميت بدورها باسم احد حكام نيومكسيكو الأواثل وكان يسمى د خوان اجانشيوفلورس موجولون ، •
 حكام نيومكسيكو الأواثل وكان يسمى د خوان اجانشيوفلورس موجولون ، •

٨ — وتمتد منطقة كاليفورنيا من جبال الروكي حتى شاطيء المحيط الهادى وتمتد شمالا الى ما نسبيه الآن حدود كاليفورنيا على وجه التقريب ، يى منطقة تهيأت فيها الفرصة أمام حضارة جمع البذور وصيد الحيوانات الصغيرة لتصل الى ذروة امكانياتها لأنها معزولة جغرافيا بالجبال وبالصحراء . وربما كان مناخها اللطيف سببا في عدم الحاجة الى محاولة الانشاء والتقدم ، اذ أن هنود كاليفورنيا لم يعرفوا الزراعة أو الفخار أو النسيج وكانوا يصطادون الحيوانات الصغيرة واذا كانوا على مقربة من الشاطيء فانهم كانوا يصطادون السمك ، ولكنهم اعتمدوا في غذائهم الرئيسي على ثمرة جوز البلوط . وهذا النوع من ثمار الجوز مر الطعم لأنه يحتوي على حامض التنيك ، ويعتبرها الناس عادة غير صالحة للأكل . ولكن الهنود كانو يصحنون الثمرة بعد نزع قشرتها الخارجية ويعملون منها عجينة يضعونها في حفرة يحفرونها في الرمل ويصبون فوقها ماء ساخنا يصغي الحامض ويترك بعد ذلك عجينة لا طعم لها ويصون فوقها ماء ساخنا يصغي الحامض ويترك بعد ذلك عجينة لا طعم لها ولكنها مغذية يصنعون منها بعد ذلك ثريد جوزة البلوط .

وكان الجماعة الذين يقطنون جزيرة تشنل (Channel Island) يصنعون نوعا من الزوارق المنحوتة فى كتلة من الخشب ، ولكن فى جميع الجهات الأخرى كان هنود كاليفورنيا الذين ينزلون الى الماء يستخدمون نوعا من الطوف يسمونه « بلسا » (balsa) وهى حزمة من الأعشاب شكلها كشكل السيجار يحزمونها بأغصان نبات الباچونا (bajuna) ، ويركبون فوقها كما يركب الذين يقضون اجازتهم على شواطىء كاليفورنيا فى الوقت الحاضر الحيوانات المصنوعة من المطاط.

وكانوا لا يلبسون من الملابس الا أقلها ، وكانت مساكنهم بسيطة هشة مصنوعة من هيكل من أعواد الأشجار ، وجدرانها الجانبية من القش أو من قلف الأشجار ، بيد أنهم كانوا يقيمون فى كل قرية بيتا جيد البناء وهو بيت الرقص . وكان جزء من هذا البيت يشيد تحت سطح الأرض ، وكان مستديرا

وهو على ما يظهر مأخوذ من المساكن المحفورة تحت الأرض التى كانت معروفة بين الهنود ، وكانوا ينزلون اليها من الفتحة الصفيرة التى كانت تستخدم لخروج الدخان أو من نفق جانبى ، وكان هذا البيت يستخدم كناد للرجال وكمركز يقيمون فيه احتفالاتهم . وفى الليالى التى يشتد فيها البرد كان ينام فيه سكان القرية كلهم . وكانوا يوقدون النار فى وسط المكان ويفذونها بالوقود حتى يصبح المكان كله دافئا ، وعند ذلك يخمدون النار ويسدون فتحة خروج الدخان ثم ينامون هناك طول الليل ، فاذا ما أصبح الصباح وشعر أحدهم بالصداع فكان يعزو ذلك الى عمل الأرواح الشريرة .

وكانت فنونهم وحرفهم فى درجة منحطة باستثناء صناعة السلال التى نبغ فيها أولئك الناس ، اذ يلوح أنهم ركزوا كل ما لديهم من احساس بالجمال فى هذا الفن وحده . كانت قبيلة الهوبا (Hupa) تصنع سلالا كروية الشكل يدخلون فى صنعها ريش الطيور فتصير السلة كلها مغطاة بطبقة ناعمة الملس من الريش المختلف الألوان . وكانوا يصنعون ثياب الحفلات من الريش الناعم يثبتونه فوق أرضية محبوكة ، تذكرنا بالعباءات المصنوعة من الريش لدى اليولينيزيين .

وكان نظامهم الاجتماعي هو نظام القبيلة الصغيرة . وأكبر الوحدات السياسية هي وحدة القرية المكونة من أناس تجمعهم كلهم صلة القرابة وينتمون الى أصل واحد ، ولم يكن لهم زعماء أو مجالس مدينة ، ومع ذلك فقد كانوا يتاجرون على نظاق واسع ويبادلون على ما يصنعونه من سلال ، وعلى المحار، وجلود الأيائل . واتسع نظاق التجارة في شمال كاليفورنيا فاضطروا لاختراع نوع من العملة اتفقوا على استخدامها ، وكانت من المحار المسنن الذي كانوا يصطادونه من المكان المعروف باسم پوجت ساوند (Puget Sund) ويتاجرون فيها في جميع أرجاء المنطقة .

وكانت كل قبيلة من تلك القبائل لها طابعها المحلى الخاص بها ، وكان مكان المنطقة يستخدمون لغات كثيرة ، ولكل واد لهجته الخاصة .

كانت كاليفورنيا أشبه شيء بزقاق حضاري مقفل تأتي اليه الجساعات الصغيرة فتستقر فيه وتنسى كل شيء عن المكان الذي أتت منه ، فأصبحت أشبه شيء بفسيفساء من القبائل التي عاشت كل منها في منطقتها الخاصة دون حاجة الي غيرها . وكان لدى أهل كاليفورنيا أسطورة خلق منبقة ، ولكن كل قبيلة من قبائلها اعتقدت أن الدنيا خلقت في منطقتها التي تعيش فيها . وكان كل فرد من رجال القبيلة يستطيع أن يقف في وسط واديه ويذكر لأولاده الأماكن التي صنع فيها الخالق كل شيء واحدا بعد الآخر . واعتبرت كل قبيلة أن منطقتها التي تعيش فيها هي مركز الدنيا ولم يحسوا بأي رغبة في التجول عددا عنها .

فعندما أتم الخالق خلق هذه الدنيا وكل ما فيها هجمت عليه الحيوانات وقتلته فأصبح الها ميتا أى أصبح رمزا أدبيا لا يحتاج الى استعطاف أو صلاة. ولهذا السبب كان نشاطهم الدينى موجها الى الأرواح القريبة منهم ، التى كانت لها السيطرة على الصيد ولها القدرة على مد الناس بالحظ الحسن فى مختلف أنواع النشاط. وفى معظم قصص تلك المنطقة وأساطيرها نجد «كويوت » (Coyote) المكار الذى كان دائما يخادع الآخرين ويحصل على خير ما يمكن الحصول عليه بمهارته وسعة حيلته.

وكان الصبية يلقنون أسرار الرجولة فى بضعة احتفالات فخمة يلبسون فيها ملابس خاصة . وكانوا يستخدمون الآلة المعروفة باسم الثور الخوار في هذه الشعيرة وهى من الحالات القليلة التى تظهر فيها هذه الآلة فى أمريكا الشمالية . وكان للسحر أهمية فى هذه المنطقة ، وكان يستخدم للسيطرة الاجتماعية وبالأخص فى أمور التجارة اذ كان التهديد باستخدام السحر الذى يجلب الأذى رادعا قويا للمدينين السيئين .

وكانت جنازات العائلات التى تستطيع تكريم موتاها جنازات فخمة . كانوا يخرجون الجسم من القبر للاحتفال به رسميا بعد أن تكون العائلة قد أعدت المبلغ الكافى لأجل هذه المناسبة . كانوا يقيمون هيكلا خشبيا يضعون فوقه الجسم أو الأجسام ثم يعلقون فى الأخشاب كل ما تمكنت العائلة من اعداده من السلال والأغطية والحلى . ثم يوقدون النار بعد ذلك ويتحول كل شىء الى دخان وهو مثال من المباهاة باتلاف المال .

 ۹ امتدت منطقة الشاطىء الشمالى الغربى على امتداد شاطىء كولومبيا البريطانية من شمالي كاليفورنيا حتى جنوبي الاسكا. وبالرغم من أن هذه المنطقة واقعة في شمال القارة فان التيار الياباني الدافيء أمدها بمناخ معتدل مع سقوط أمطار غزيرة عاونت على وجود غابة من أشجار الشوكران والتنوب الفضى والسدر . وتمتاز هذه المنطقة بأنها المنطقة الوحيدة فى العالم التي استطاعت أن تخلق لنفسها حضارة متقدمة دون أن تعتمد على الزراعة أو تربية الحيوانات المستأنسة . وقد ساعدها على بلوغ هذه الحضارة وفرة مواد الطعام ، فقد كانت أسماك السالمون تجرى فى كثير من الأنهار فى فصل الربيع وكان البحر يعج بأسماك القفندر والبكلاه والسردين ، كما كانت الأيائل والغزلان والدببة تمرح فى الغابات. وكانت النباتات التي تنمو تحت أشجار الغابات غنية بالثمار والخضراوات التي يمكن أكلها ، ولهذا فلم يكن السكان فى حاجة الى القيام بذلك المجهود الشاق الذى يستلزمه من قطع أشجار الغابة لزرع الأرض.

ولم يصنعوا أى نوع من أنواع الفخار لأن الأخشاب كانت متوافرة لديهم وكانوا يستخدمونها فى جميع احتياجاتهم ؛ فقد كانوا يطهون طعامهم فى صناديق خشبية بطريقة القاء الأحجار المحماة فى الماء . وكانوا مهرة فى حفر الخشب ، وكانت أوانيهم وأدوات احتفالاتهم الدينية على درجة عالية من

سمو الذوق الفنى . ووصلت مهارتهم فى حفر الخشب ذروتها فى زخرفة الأعمدة الطوطبية العالية المصنوعة من الخشب التى كانت من معيزات هذه الحضارة . وكانوا يصنعون السلال ، وينسجون ملابسهم على أنوال حقيقية مستخدمين خيوطا من قلف أشجار السدر يخلطونها أحيانا بصوف الماعز الجبلى وأحيانا بشعر الكلاب . وكانت ملابسهم بسيطة ، اذ كانوا يلبسون شيئا لحماية أقدامهم . وفى موسم الأمطار الذى يكاد يكون نصف شهور السنة فى هذه المنطقة كانوا يضعون فوق رؤوسهم قبعات عريضة لاتقاء المطروهي من القش المنسوج ، وهذه هي الحالة الوحيدة التي كان فيها السكان الأصليون يلبسون القبعات في حياتهم العادية ، وذلك طبعا غير القبعات التي كان يلبسها بعض الهنود الأمريكيين في الاحتفالات الدينية .

أما منازلهم فكانت من الخشب وكانت مستطيلة الشكل ، وكانوا يثبتون الألواح الخشبية على القوائم العمودية . وفي الشمال كانوا يضعون الألواح عمودية وكان السقف هرمي الشكل (جمالون) أما في الجنوبفكانوا يضعون الألواح أفقية وكان السقف مثلثا شبيها بسقف الزريبة. وكانت المنازلفسيحة، ويعيش في كل منها بضع عائلات ينتمون الى نفس الفرع ، يعيش فيها زعيم المنزل وأطفاله غير المتزوجين وبناته وأزواجهن وأطفالهن ؛ وربما يكون معه أيضا أخ صغير أو ابن أخ وعائلته ، كما كان يقيم معــه عادة بعض أقاربه المسنين ، وواحد أو اثنان من الرقيق . وكان طول أحد هذه المنازل الكبيرة فى الجهة المعروفة باسم « كواكيوتل Kwakiutl » ، ٢٥٠ قدما وعرضه ٦٠ قدمًا . وكانوا يزخرفون الأعمدة الخشبية الرئيسية في المنزل ، كما كانوا يزخرفون أحيانا الأعمدة التي في أركانه برسوم تمثل شعار العائلة ، وتمثل تاريخها والشمار الذي اختاره هذا الفرع لنفسه . وكانت هـذه الأعبدة الطوطمية مرتفعة وتبلغ فى بعض الحالات ستين قدما وترتفع كثيرا عن سطح

المنزل. وكانوا يضعون أيضا عمودا طوطميا فوق المقابر وعليه زخارف توضح في قصة رمزية تاريخ العائلة ، أو احدى الأساطير التي لها صلة بذلك الفرع من العائلة .

وكانوا يبنون قراهم على حافة الماء ، وكانت المنازل كلها تشيد فى صف واحد يطل على الماء , وكانوا يبنون المراسى والزوارق على الشاطىء وفى خلال فصل الصيف ، أى فى موسم صيد سمك السالمون ، وفصل الصيد ، وفصل جنى الحاصلات ، تخرج القرية كلها وتعسكر قريبا من العمل الذى يقومون به حيث يعيشون فى أكواخ خشبية واهية ويعملون منذ الفجر حتى يحل الظلام . ويخرج الرجال لصيد السمك أو للصيد . أما النساء فكن يعملن فى تجفيف السمك أو اللحم ووضعه لفترة قليلة على النار وذلك فوق ضفات تبنى فى المسكرات . وكانت النساء والأطفال يجمعون الثمار من نباتات الغابة ويجففونها لأكلها فى فصل الشتاء . وعندما تحل الشهور الباردة تكون المخازن ملاى بالصناديق الخشبية المصفوفة فوق بعضها وكلها ملاى بالأطعمة المجففة أحيانا والموضوعة فى الدهن أحيانا أخرى . فاذا ما اطمأن الناس الى وجود

وأهم المظاهر الغريبة في هذه الحضارة هي الد « پوتلاتش » (potlatch) وهي حفلة كبيرة منظمة تقام لاظهار ثراء صاحبها . كانوا يعلنون عن هذه الثروة في احتفال كبير ، يوزعون بعضها على الناس ويدمرون بعضها كرمز لثرائهم وعدم حاجتهم اليها ، وكان يقصد من اقامتها أن يلتحق صاحبها بعضوية جماعة ذات مركز اجتماعي ممتاز . وكانت الطريقة الوحيدة لحصول أي فرد على السلطة والمكانة هي عمل الد « پوتلاتش » . كان زعماء البيوت الذين قاموا بعمل الپوتلاتش يعتبرون نبلاء القرية . وكانت القرية هي الوحدة الاجتماعية الرئيسية وكانت منظمة على أساس نظام العشائر . ولم تكن المكانة الاجتماعية لأي فرد من نبلاء القرية حقا دائما مستمرا بل كان يتحتم على هذا

النبيل أن يعمل لاحتفاظه بها. وكان العامة المتصلون ببيت أحد النبلاء يعملون من أجله حتى يزيدوا من قدر بيته . فاذا تيسر لأحد العامة أن يجمع قدرا كافيا من الثروة لعمل پوتلاتش لنفسه فانه يزتفع الى مرتبة النبلاء . وكان أقل سكان القرية في المرتبة الاجتماعية همم الأرقاء وكانوا عادة من أسرى الحرب الذين كانوا يجبرون على العمل في بيت الزعيم حتى يفتديهم قومهم . وقد نشأت عادة اليوتلاتش دون شك من احتفال كانوا يقيمونه ليحصلوا على عمال يعملون في تشييد المنازل الكبيرة واقامة الأعمدة الطوطمية. ولكن حدث فيما بعد أن هذا الاحتفال تحول الى نوع من المنافسة ووسيلة لاظهار مكانة أى جماعة من الناس بين القبائل ، وبالرغم من أنه كانت توجد في بعض الأحيان حروب بين فروع القبيلة الواحدة كما كان يغير بعضهم على البعض الآخر لينهبوا ما لديهم ، فإن اليوتلاتش محا التنافس بين أبناء القرية الواحدة وحل محل الحرب بينهم. فاذا كانت هناك منافسة قوية بين أحد الزعماء وزعيم جماعة أخرى فانه يدعو هذا الزعيم الى حفلة پوتلاتش ويأتى الضيف ومعه جميع أتباعه وأهل منزله فيحتفى بهم المضيف احتفاء كبيرا ويكرم وفادتهم فى أحتفالات تستمر بضعة أيام أو أسابيع ثم يقدم لهم الهدايا على حسب مكانة كل شخص منهم في احتفال كبير. وفي الأزمنة السابقة كانت الهدايا من الأغطية والأواني الخشبية والصناديق المزخرفة السطح ، والملاعق المصنوعة من قرون الماعز وفي بعض الأحيان كانوا يهدون الرقيق أيضًا . ولكن بعد اتصالهم بالبيض أضافوا الى الهدايا غلايات غسيل الملابس وماكينات الخياطة والفونوغرافات وما شابهها . وبالاضافة الى هذه الممتلكات الحقيقية فقد كان أولئك الناس يعترفون بنوع آخر من الممتلكات ، وذلك بأن تكون لديهم حقوق خاصة في بعض الأغاني أو الرقصات أو عضوية احدى الجمعيات الدينية ، كما كان من الممكن رهن الشعارات العائلية أو بيعها أو اهداؤها في حفلة اليوتلاتش.



قناع ملون ، من منطقة الكواكيوتل

ولم يقتصر الأمر على تقديم الهدايا بل كانوا يلجأون أيضا الى تدمير بعض ما يملكونه . كان المضيف يأمر أتباعه بايقاد النيران فيصدعون بأمره ويكسرون زورقا ويستخدمون أخشابه فى الوقود ، أو يحضرون كومة كبيرة من الأغطية ويصبون فوقها زيت السمك الذى كانت له قيمة كبيرة بين أولئك الناس ليزيدوا من اشتعال النيران . وكان المفروض أن الضيوف لا يمكنهم أن يغادروا أماكنهم القريبة من النيران وكثيرا ما كانت تشيط ملابسهم أثناء هذه الحفلات . ويتحتم على الزعيم الذى أقيمت من أجله هذه الاحتفالات أن يتقبل كل شيء دون أن يظهر عليه أى تأثر ، ولكنه ينزل هو وعائلته فى درجتهم الاجتماعية حتى يحين الوقت الذى يستطيع فيه أن يقيم حفلة يوتلاتش ردا على الحفلة التى أقيمت له وألا يقدم لمنافسة أشياء تعادل ما قدمه له منافسه فحسب بل يتحتم عليه أن يقدم اليه ضعفها أى مع فائدة ما قدمه له منافسه فحسب بل يتحتم عليه أن يقدم اليه ضعفها أى مع فائدة

١٠٠٪ فاذا استطاع أن يقدم له أكثر من الضعف فانه يسبب العار لمنافسه الذي تنزل درجته الاجتماعية بعد مثل هذه الاهانة.

واستلزم تمويل تلك الحفلات الصاخبة بين المتنافسين خلق نظام للتسليف، وما يستتبعه من تحصيل ، والفوائد على الديون . وفي مثل هذا المجتمع الذي لا يوجد فيه اقتصاد يسير على نظام آلى ، وليس فيه أى نوع من أنواع الايداع غير السلف والهدايا فقد ترتب على وجود عادة البوتلاتش تضخم الرصيد لأنه في بعض الحالات كانت ثروة الزعماء تزيد على ثروة القبيلة بأكملها . ولكى يحافظوا على استمرار عادتهم فقد اخترعوا نوعا من النقد المالي أسموه « النحاس » وهو طبق من النحاس يبدأ سعره بين عشرة وعشرين دولارا حسب قيمته الحقيقية . فاذا قدموا هذا الطبق كهدية متبادلة فان قيمته تتضاعف أى يزيد ثمنه فى كل مرة يتداولونه كهدية مائة فى المائة ، حتى بلغ ثمن بعض تلك الأطباق النحاسية ١٥٠٠٠ دولار ، وبهذا أصبح اليوتلاتش نوعا من الايداع ، وفيه دورات للايداع والسحب مع زيادة الفائدة فى ارتفاع وانخفاض المكانة الاجتماعية . وكانت الديون مضمونة لأنه مهما حدث ومهما كان مركز المدين حرجا في وقت من الأوقات ، فان سمعة الانسان ومركزه الاجتماعي كان لهما المكانة الأولى في هذه الحضارة ، ولابد له من دفع دينه . ويلوح أن اقامة القبائل الهندية فترات طويلة فى أمريكا الشمالية لم تترك الا أثرا قليلا في حضارتها المحلية ، التي يرجع أغلب أصلها في الوقت الحاضر الى شمال أوروبا. فاذا استثنينا الكثير من الحاصلات المحلية التي أصبحت جزءا من الحاصلات الزراعية في الدنيا كلها ، وباستثناء ما قدمه السكان الهنود الأصليون من معلومات فنية الى المهاجرين الجدد عما يمكن عمله عند الوصول الى منطقة جديدة للتغلب على صعوبات المعيشة فيها ، فان حضارتهم في شمال أمريكا لم يكن لها أى فضل كبير على الأمريكيين الحاليين. ومما يستحق الذكر أن نظام التحالف الذي كان منتشرا في شمال القارة الأمريكية لم يظهر

نى أى مكان آخر الا نادرا. فان هذه التحالفات ، على عكس الامبراطوريات ، تمتاز بالأهمية التى يعلقونها على الابتكار الشخصى ، وعلى حرية الاختيار . ويمكننا أيضا أن نظن أن تأسيس التحالف الذى أصبح يعرف الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية مستمد من النظم التى كانت سائدة بين السكان الأصليين ، فانتشرت تقاليد الديموقراطية والحرية الفردية انتشارا قويا فى هذه الأرض الأمريكية التى أعدها أولئك الهنود المعتدون بأنفسهم ، والذين كانوا لا يعتمدون على غيرهم ، وتلقفها من أتى بعدهم من الأمريكية الراحية الراحية المتلادة بالأمريكية التى أعدها المناود المعتدون بأنفسهم ، والذين كانوا لا يعتمدون على غيرهم ، وتلقفها من أتى بعدهم من الأمريكية الراحية المناود المعتدون بأنفسهم ،

الفصل اسحادي والأربعون

الحضارات المتقدمة في أمريكا الجنوبية

نشأت جميع المدنيات فى الدنيا الجديدة جنوبى نهر ريوجراندى. وبالرغم من أن جميع الهنود الذين هاجروا الى أمريكا الجنوبية أتوا من الشمال فان القبائل الشمالية لم تصل فى يوم من الأيام الى مستوى المدنية كما نفهم من مدلول هذه الكلمة ، لأنهم لم يستطيعوا تشييد المدن والاقامة فيها ، فقد ظل الهنود الذين عاشوا فى منطقتى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى فى أمريكا الشمالية والذين وصلوا فى حضاراتهم الى أعلى مستوى اذا قورنوا بغيرهم ، من سكان القرى والمزارعين .

ولم يصل المهاجرون الهنود الى المنطقة الواقعة الى الجنوب من ريو جراندى ويستقروا فيها الا بعد عدة آلاف من السنين بعد وصولهم الى الشمال لأن مثل هذه المدة كانت ضرورية لهم ليصلوا الى الجنوب فى أسفارهم من مكان الى مكان جيلا بعد جيل ويرجع السبب فى تفوق سكان الجنوب على سكان الشمال الى حصولهم فى وقت مبكر من استقرارهم فى الجنوب على محصول هام يكفى لاطعام عدد كبير من السكان ، وهو الله المنطقة على محصول الأمريكي الرئيسي الذي تم تدجينه فى هذه المنطقة ويعتقد بعض المتخصصين فى دراسة النبات البرى (الذي لا يوجد له أثر فى الوقت الحاضر) أنه جيء به من مرتفعات جواتيمالا ، ويصر آخرون على أن تدجينه كان فى سهول پاراجواى ، وفى كلتا الحالتين فانه من نباتات أمريكا الجنوبية . وهناك عدد آخر من الحاصلات الفذائية التي تم تدجينها فى الجنوبية .

الجنوب ثم انتشرت فيما بعد ووصلت الى شمالى القارة مثل البقول والفلفل والبطاطس والطماطم والفول السوداني ، وغيرها من الحاصلات الهامة .

ولم تكن هناك مندوحة من استسلام مدنيات أمريكا الجنوبية الراقية للاسپانيين لأن ادعاءات الأوروبيين بتفوقهم على غيرهم انما تقوم على قوة الأوروبيين الحربية ، وقد نال الغزاة الاسبان كل ما نالوه من نصر كامل سريم بفضل استخدامهم للأسلحة النارية وبخاصة المدافع التي لم يكن لسكان أمريكا عهد بها.

ومهما يكن من أمر ، فان سكان هذه الحضارات كانوا أكثر عددا وأذكى من أن تمتصهم أى قوة أجنبية امتصاصا كاملا. وفى جميع بلاد القارة الأمريكية نجد جميع الحضارات التى تسير على الطابع الأوروبي قد أخذت في النهوض ، وذلك لأن الحضارات الهندية القديمة والطابع الجسماني الهندي القديم أخذا يثبتان أقدامهما فى جميع مناطق المرتفعات من المكسيك وما وراءها نحو الجنوب.

وظهر فى المكسيك فى العصور القديمة نوعان من العضارات ، وهما حضارات الهضبة فى وادى المكسيك وحضارات الأراضى الواطئة على شواطى، أمريكا الوسطى. وبالرغم من وجود عدد غير قليل من العضارات التى ظهرت فى الجنوب فان هذا الكتاب سيقتصر على الحديث عن أهم ثلاث فيها وهى : مدنية المايا (Maya) التى كانت أهم وأفخم ما ظهر فى منطقة الأراضى الواطئة، ومدنية الأزتك (Aztec) التى كانت أهم ما ظهر من حضارات فى الهضبة ، ومدنية الانكا (Inca) العظيمة التى كانت مزدهرة على الشاطىء العربى لأمريكا الجنوبية عند حدوث الغزو الاسهانى . ولكل حضارة من هدنه الحضارات الشلاث طابعها الخاص فى الحياة ، يختلف عن غيره ، وكانت هذه الحضارات فى مناطق بعيدة بعضها عن بعض ، فلم تكد تعرف احداها

شيئًا عن وجود غيرها ، وذلك بالرغم من أن كثيرا من علوم المايا قد وصلت الى حضارة الازتك .

عاش شعب المايا القديم فى المنطقة التى توجد فيها الآن ولايات «يوقاطان» (Yucatan) و «كبيشى» (Campeche) و «هندوراس البريطانية» ومعظم «جواتيمالا» وهى مساحة تبلغ ١٢٥٥،٠٠٠ ميل مربع وكان المايا معزولين عن باقى شبه جزيرة المكسيك لأن المياه كانت تحيط بها من ثلائة جوانب (ولم يكن المكسيكيون القدماء من الملاحين فى أى وقت من الأوقات) ، ويحدها فى الجهة الرابعة جبال كورديلليرا المرتفعة ، وقد تقدمت مدنية المايا دون أى تأثير من مصدر خارجى ، بل وصلت الى ما وصلت اليه بفضل عبقرية شعب المايا نفسه وبفضل البيئة الخصبة التى أسعدهم الحظ بالعيش فيها .

كان اقتصاد هذه المدنية قائما على الذرة ولكن المنطقة غنية بجميع ما تحتاج اليه أى مدنية راقية ، اذ كانوا يزرعون البقول والقرع العسلى والفلفل الأحمر الحار (الشطة) والطماطم والبطاطة والكاكاو وكمثرى القاطور والدخان ، الى جانب زراعتهم للذرة . وكانوا يضعون « البانيلية » والبهارات في طعامهم لتحسين مذاقه . وكانوا ينسجون ملابسهم من القطن كما استخدموا نبات القرع بعد تجفيفه كأوعية لهم . وأمدتهم الغابة بأنواع مختلفة من الخشب الجيد كما أن نوع الحجر الجيرى الذي في منطقتهم كان من أحسن أنواع أحجار المباني المعروفة في القارة الأمريكية قبل مجيء كولمبس. كان هذا الحجر سهلا في قطعه من المحاجر ، وتزداد صلابته بمجرد تعرضه للعناصر الجوية ، ويتحول الى جير عند حرقه . وكان يوجد أيضا في جميع أرجاء المنطقة طبقات من الحصى صنعوا منها نوعا من الأسمنت الجيرى الطبيعي ، وتوافرت لديهم جميع المواد اللازمة لتشييد مبان حجرية قوية والمونة اللازمة لها . واستطاع المايا أن ينبغوا فى التشييد بالحجر ، وكانت أعمالهم المعمارية أفضل ما ظهر من نوعها في الدنيا الجديدة ، على الأقل من ناحية الذوق الجمالى. وبالرغم من أنهم لم يعرفوا استخدام مفتاح العقد المشيد من الحجر فقد شيدوا مبانى عظيمة جدا لها سقوف حجرية من نوع العقد ذى الطبقات. واذا زرنا اليوم المراكز الدينية العظيمة التى شيدوا فيها مبانيهم الدينية مثل تشيتشن اتزا (Chichen Itza) وأوكسمال (Uxmal) وبنن (Peten) فانا فقف مبهوتين أمام جمالها ، رغم ما أصابها من تخريب.

ويعد فن النحت لدى شعب المايا من أعظم ما ظهر من فنون فى أى عصر من العصور. فمعابد المايا ملأى بالمناظر المنحوتة على الحجر نحتا دقيقا متشابكا يمثل الآلهة مع صفاتها ، والطقوس الدينية ، ومشاهد انتصار الملوك كما نرى فيها أيضا الطيور والأزهار والأفاعى مرسومة فى أسلوب مبسط. ومن المرجح أن مدينة بالنك (Palenque) التى يرجع تاريخها الى الامبراطورية القديمة فى حضارة المايا كانت البلد الذى تقدم فيه هذا الفن الجميل ، ومنه انتشر الى غيره من البلاد ، فان كثيرا من تلك الأحجار المنحوتة وأعمال الجبس المصبوب يرجع تاريخها الى القرن السابع ، كما أن غطاء التابوت الكبير المصنوع من الحجر الجيرى الذى عثر عليه فى عام ١٩٥٢ فى معبد النقوش فى بالنك يمكننا الحجر الجيرى الذى عثر عليه فى عام ١٩٥٢ فى معبد النقوش فى بالنك يمكننا أن نقارنه بأجمل النقوش المحفورة على آثار مصر القديمة .

كانت مدنية المايا فى حالة تدهور عندما حدث الغزو الاسپانى وكان الناس يعيشون فى قرى أو بين بقايا مدنهم القديمة ، وكانت مدن الامبراطورية القديمة مثل پالنك قد هجرها أهلها منذ وقت طويل واختفت بين أشجار الغابة النامية ، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر عند ما نظف الأثريون هده المنطقة وكشفوا عما بقى من جمال تلك المدن التى اندثرت منذ زمن بعيد ، وعرفوا مدى عظمة تلك المدنية .

ولم يكن أهل المايا أقدر النحاتين والمعماريين فى الدنيا الجديدة فحسب ، بل كانوا أيضا أعظم العلماء وكادوا يصلون الى اختراع طريقة منتظمة للكتابة . استخدم المايا كتابة تصويرية استعملوا فيها العلامات أو الاشارات كرموز اصطلحوا عليها للتعبير عن المعانى. وبالرغم من أن مدنية المايا كانت فى تدهور عندما حدث الغزو الاسپانى فان الكهنة والطبقة الحاكمة كانوا ما زالوا محتفظين بالمعرفة العلمية وفن الكتابة وكانوا مستمرين فى تقدمهم فيهما ، ولو تيسر لهم الوقت الكافى لتمكنوا من الوصول الى أسلوب للكتابة أكثر مرونة وأكثر تعبيرا. وعلى أى حال ، فان أول ما استهدفه الغزاة الإسپانيون هو محو العلم وأهله. ولهذا سارعوا بعد الغزو بالقضاء على تلك الجماعة الصغيرة من المتعلمين الذين كانوا يصونون هذه المعرفة. فجمع « دييجو دى لاندا » (Diego de Landa) مطران يوقاطان فى عام ١٥٦٢ مئات من كتب التاريخ والفلك والرياضيات وأحرقها فى الميدان فى بلدة « مريدا » ، ولم يظل باقيا من مكتبتهم الا تلك المجلدات القليلة التى أرسلوها الى أوروبا كتحف نادرة ، وقد تمكن العلماء بعد سنوات من الدراسة من حل رموز الأسلوب التصويرى

ومخطوط درسدن (Dresden) هو أهم ما بقى من كتب المايا ، وهو كتاب يبحث فى الرياضيات والفلك سجلوا فيه أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر ، وجميع ما شاهدوه من أشياء غير عادية فى سير الكواكب ووضعوا لذلك نوعا من التقويم الطويل المدى . وتثبت هذه الحسابات الفلكية انه فى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسپانى كان شعب المايا أكثر تقدما فى كل من الفلك والرياضيات من أى شعب فى أوروبا . وقد توصلوا أيضا الى عمل تقويم مشوش ولكنه دقيق دقة فائقة ، وذلك باستخدامهم عدة أنواع مختلفة من الملاحظات التى تتفق مع بعضها فى نفس الزمن واستطاعوا بوساطتها أن يحددوا بدقة أى تاريخ يقع فى عصر « الدورة التقويمية » ومدتها ٢٥ سنة وكل سنة ٣٥٠ يوما أى ١٨٥٩٨ يوما . واستخدم « الأزتك » (Aztek) و « الميكسستك » (Mixetec) دورة الأيام و « الميكسستك » (Zarotec) دورة الأيام و « الميكسستك » (Mixetec) دورة الأيام

«حزمة السنين » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحسبوا أكثر من دورة الاثنين والخسين عاما فقط ، وعجزوا عن الوصول الى حساب التاريخ الطويل الذى توصل اليه المايا . ونعرف من النقوش التى على آثار شعب المايا أنهم كانوا يعرفون الطول الحقيقي للسنة الشمسية ، ولهذا كان في استطاعتهم عمل الحسابات المطولة لمعرفة موضع أى يوم منذ الوقت الذى بدأوا فيه وضع ذلك التقويم .

ومما يدعوالى الأسف أن تقدم المايا فى الناحيتين الثقافية والذوق الفنى لم يكن مرتبطا بما يقابله من التقدم فى العلوم السياسية والحربية . ومهما يكن من أمر فان سقوط الامبراطورية القديمة الذى حدث فى القرن التاسع لم يرجع الى غزو أجنبى بقدر رجوعه الى العوامل الاقتصادية الداخلية . فقد ركزوا اهتمامهم فى الفنون والعلوم الى الحد الذى جعلهم يتفوقون تفوقا كبيرا فى هاتين الناحيتين ويهملون نظم الاقتصاد والزراعة ، ثم انتهى بهم الأمر الى عجزهم عن سد حاجات السكان الذين ازداد عددهم . وفى القرن الثانى عشر تعرضت امبراطورية المايا الى غزو قامت به قبائل رحل من شعب التولتك عشر تعرضت امبراطورية المايا الى غزو قامت به قبائل رحل من شعب التولتك (Toltec) الذين اضطرهم توسع امبراطورية الازتك الى الرحيل عن مواطنهم فشقوا طريقهم بالقوة متجهين نحو الجنوب ، الى منطقة المايا ، حيث بدأوا حياتهم كجنود مرتزقة كما فعلت قبائل القوطيين فى الامبراطورية الرومانية .

واستسلمت الامبراطورية المتواهية لمهاجميها ولكن الغزاة الأجانب الذين أقاموا فى تلك البلاد امتصتهم حضارتها . وحوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ظهرت نهضة جديدة فى بلاد المايا ، ومنذ هذا الوقت حتى عام ١٤٠٠ ، مرت بالبلاد فترة ازدهار وهى التى نسميها « الامبراطورية الحديثة » وكان مركز حضارتها فى منطقة يوقاطان . وفى خلال هذا العصر شيدت مدينتا « تشيتشن اتزا » و « أوكسمال » ، ولم تكونا مدينتين بالمعنى المعروف فى الدنيا القديمة ، وانما كانتا مركزين دينيين . ومهما يكن من أمر ، فان المايا لم يكن لهم فى أى وقت من

الأوقات حكومة مركزية قدية ، ولم تكن امبراطوريتهم فى يوم من الأيام مملكة متحدة ، ولكنها كانت مجموعة من المدن يحكم كلا منها كاهن — ملك من بيت معين فى تلك المدينة ، يتوارث أفرادها هذا المنصب . وبين حين وآخر نجحوا فى عمل اتحادات بين تلك المدن ولكنها كانت اتحادات مفككة التنظيم، ولم يكتب لها البقاء لفترة طويلة ، وقبل أن يصل الاسپانيون بزمن طويل كانت حضارة المايا القديمة قد اضمحلت وانتهى أمرها .

أما الأزتك الذين كانوا يعيشون في وادى المكسيك عند وصول كورتيز في عام ١٥١٩ فقد كانوا حديثي عهد بالمدنية ، وكانوا في الأصل قبيلة من قبائل « ناهوان » الذين هاجروا في القرن الثالث عشر الى جزيرة مليئة بالأدغال في بحيرة « تكسوكو » (Texoco) فاستقروا فيها وأسسوا مدينة « تنوتشيتلان » . (Tenochitlan) وهو المكان الذي تقوم فيه مدينة المكسيك الحالية . ونظرا لأن منطقتهم كانت من المناطق غير المرغوب فيها ، وفي الوقت ذاته يصعب الوصول اليها ، فقد ظلوا في مكانهم غير معرضين للغزو ، وتقدموا تدريجيا في مدنيتهم ، وزاد عددهم . وفي أيام رابع ملوكهم وكان يسمى تدريجيا في مدنيتهم ، وزاد عددهم . وفي أيام رابع ملوكهم وكان يسمى أخرين وهما « تكسكوكو » (Taxcoco) و « تلاكوپان » (Tacopan) وشن ذلك الخيط الثلاثي الحرب ضد غيرهم من شعب اله « نهوان » ووسعوا رقعة بلادهم حتى أسسوا امبراطورية شملت معظم المكسيك الوسطى ، وامتدت من شاطىء المحيط الأطلسي حتى شاطىء المحيط الهادى .



رسم على فخار من مدينة الأزتك

وكانت امبراطورية الأزتك تقوم على الغزو والنهب ، وهي تشبه في ذلك الامبراطورية الأشورية في الدنيا القديمة. فجمع حكامها ثروة طائلة وأصبحت لهم سلطة كبرى بفضل ما كانوا ينهبونه من غيرهم وما يأتيهم من الجزية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا يذكر لتنظيم أو استيعاب القبائل التي أخضعوها لسلطانهم . ولما كان الأزتك يعتمدون في حياتهم على شن الحروب فقد كان طبيعيا أن ينشئوا نظاما حربيا قويا . كانوا يدربون جميع الرجال الأصحاء على الحرب ، وكان أولئك الرجال على استعداد دائم لتلبية أى نداء للخدمة العسكرية . وكانت الحروب دائمة الحدوث بينهم ولكنها لم تكن تستمر عادة وقتا طويلا . كان السلاح الرئيسي الذي يستخدمه الأزتك حرابا ثقيلة الوزن يقذفونها على العدو بوساطة قاذفة خاصة ، كما كانوا يستخدمون الأقواس والسهام وسيفا خشبيا يثبتون في حده شطفات من حجر الاوبسيديان. وقد جاء في بعض المؤلفات التي كتبت عنهم انه كان في استطاعة المحارب من الأزتك أن يقذف بحربته فتخترق درع المحارب الاسپاني وأن يقطع رأس الجواد بضربة من سيفه الخشبى. وكان الجندى العادى يحارب دون أن يرتدى من الملابس الا نقبة صغيرة حول الجزء الأوسط من جسمه ، ولكن زعماءهم كانوا يلبسون صديريات من القطن المدثر (مثل اللحاف) ينقعونها فى الملح لتكون أكثر مقاومة ، كما كانوا يلبسون خوذات من الخشب على هيئة رؤوس بعض الحيوانات. وكان الحكام العظام يذهبون الى الحرب وهم يرتدون دروعا من صفائح الذهب يعطونها بطبقة من نسيج زاهي الألوان من ريش الطيور .

وكانت المعارك ذات طابع احتفالى أكثر منها ميدانا تراق فيه الدماء . لأن الهدف منها هو أسر العدو لا قتله ، فلم يهللوا للمحارب اذا قتل رجالا فى الحرب ، ولكن شرف الفروسية الذى كان يرنو اليه قلب كل محارب ، كان من نصيب أولئك الذين يعودون بالأسرى الى العاصمة ليقدموهم قربانا على



المعبود و ثالوك ، اله المطر لدى الاز تك

مذابح الآلهة . كان أعظم آلهتهم هو الآله « هويتزيلو پوشتلى » (Huitzilo) اله الحرب ، ولكى يبقى هذا الآله قويا ويجعل النصر فى الحروب من نصيب أتباعه فقد كان يتحتم عليهم أن يقدموا اليه قلوب عدد كبير من الأسرى المحاربين قربانا له . وكلما كان مركز الضحية كبيرا زادت قوة الآله ، ولهذا كانت الحاجة الى الضحايا الآدمية سببا فى الحرب ، وكانت الحرب هى الطريق الموصل الى أولئك الضحايا وهكذا دواليك .

كانت تنو تشتلان عند حدوث الغزو الاسپانى مدينة كبيرة جميلة مشيدة فوق عدد من الجزر فى بحيرة تسكوكو ، وكانت فى تنظيمها الاجتماعى وفى ادارتها مثلا للمدينة القبلية الهندية ، ولكن غناها جعلها تظهر فى مظهر العاصمة لامبراطورية كبيرة . ولم يكن بالمدينة الا عدد قليل من الشوارع ، وكانت تتخللها القنوات التى أقيمت عليها قناطر يمكن رفعها عند الحاجة . وعلى حافة الجزيرة كان الفلاحون يعنون بزراعة ما أسموه « الحدائق العائمة » وكانوا ينقلون حاصلاتها الى المدينة فى زوارق صغيرة من تجويف الأشجار . وكانت منازل الطبقة الأرستوقراطية مشيدة من طابق واحد ، ويتوسطها حوش كبير

يزرعون فيه الأزهار والشجيرات. أما معابدهم فكانت تبنى فوق أهرام ترتفع فوق مستوى منازل المدينة ، وأمام تلك المعابد ساحات كان يجتمع فيها الشعب الذى كانت تهتز مشاعره لرؤية الطقوس التى تراق فيها دماء الضحايا فوق درجات المعبد. وكان مجتمع الأزتك مجتمعا أرستوقراطيا ، وكانت حياة الطبقة العليا فيهم حياة بذخ ورفاهية. وكان المجلس القبلى ، وهو أكبر هيئة حاكمة ، مكونا من ممثلين يمثل كل واحد منهم قبيلة من القبائل ، وكان ينتخب على أساس ما كان يتحلى به من صفات.

وكان نظامهم القضائى على درجة كبيرة من التقدم ، وكانوا يشتدون فى معاقبة من يقترف أى جريمة اذ كانوا ينظرون الى الأعمال التى تقترف ضد المجتمع مثل الرشوة وسوء استغلال الوظيفة ، والسكر ، باستثناء المتقدمين فى العمر الذين لم يكن لهم نشاط فى الحياة العامة ، على أنها جرائم خطيرة . وربما كانت السرقة أمرا سهلا فى هذا المجتمع الغنى الذى كان لا يقفل فيه أحد باب بيته ، لو لم يعتبروها جريمة لا تغتفر ، عقوبتها الاعدام لمن يقترفها . وعنيت الدولة بأمر الشعب فلم يكن فيهم من يسرق بدافع الجوع ، وكانوا يزرعون مساحات من الأرض على جانبى الطرق بنبات الذرة ليأخذ منها المحتاجون متى شاءوا ، فاذا حدثت مجاعة سيروا الحملات الحربية ليحصلوا على موارد اضافية من الجزية التى يفرضونها على العدو يوزعونها بين الناس . وكان لدى الأزتك نظام غريب فى التطوع للرق ، كان له أيضا شىء من الفضل فى مساعدة الفقسراء .

كانت هناك أنواع مختلفة من الرق فى مجتمع الأزتك ؛ فقد كانوا يسترقون فى بعض الأحيان أسرى الحروب ولكنهم كانوا فى أغلب الحالات يقدمونهم ليكونوا قربانا تعمل فى قلوبهم مدية الكهنة . ولكن العائلات الفقيرة التى أنجبت أطفالا أكثر من العدد الذى تستطيع أن تعوله كان فى استطاعتها أن تبيع واحدا أو اثنين من أطفالها ليكونوا رقيقا . وكانوا لا يستجنون

المجرمين ، ولكنهم كانوا يحكمون عليهم بأن يكونوا رقيقا لمدة معينة من الزمن ، وكانوا يسلمونهم الى الأشخاص الذين وقعت عليهم أو اقترفت ضدهم المجرائم ، لأن العدالة لدى الأزتك كانت تستهدف تعويض الشخص الذى وقع عليه الضرر أكثر من الانتقام من المعتدى . وكان هناك أيضا نظام التطوع في الرق . ففي مقدور الرجل الذي لا يمتلك أرضا وعجز عن اعالة نفسه أن



صور على النسيج _ من مدينة الأزتك

يقدم نفسه كرقيق ليصبح غيره مسئولا عن اعالته. وكان فى استطاعه المسرفين الذين يبعثرون ما يملكونه فى حياة البذخ أو فى حياة المقامرة أن يصبحوا رقيقا لغيرهم الى أن يحين الوقت الذى يستعيدون فيه ثروتهم. كما كان فى استطاعة الفتيات الجميلات اللاتى ولدن فى عائلات فقيرة أن يتطوعن فى الرق لمدة معينة

حتى يجمعن الحلى وأدوات الزينة اللازمة لهن ليعملن كعاهرات. ولم يكن الرق قاسيا ، اذ كان فى استطاعة الرجل الرقيق أن يتزوج وأن يكون صاحب السلطة على عائلته ، وأن يمتلك ويجمع ثروة خاصة به ، بل وصل الأمر الى الحد الذى كان فيه بعض الأرقاء يملكون أرقاء خاصين بهم ، وكان الأطفال الذين يولدون للأرقاء يعتبرون أطفالا أحرارا. وبالرغم من أنهم لم يسمحوا الأى شخص سبق له أن كان رقيقا فى وقت من الأوقات أن يرشح نفسه لرياسة القبيلة ، فإن نظام الرق التطوعى ، فيما عدا هذه الحالة ، لم يكن يعتبر عيبا اجتماعيا كبيرا.

وكان الآباء يقومون بتعليم أبنائهم في المنزل ، فاذا ما بلغ الصبي سن الخامسة عشرة كانوا يرسلونه الى مدرسة للعشيرة كانوا يسمونها « بيت الشباب » ، وفيها كانوا يتلقون دروسا في الوطنية ، والحرب ، والتـــاريخ والموضوعات الدينية . وكان للمعابد مدارس تسمى الواحـــدة منها كالمكاك (Calmecac) للاعداد لوظائف الكهنوت ، وكثيرا ما كان الآباء يقدمون أبناءهم وهم في سن الطفولة الى الكالمكاك التي كان التعليم فيها قاسيا ومعقدا. كانوا يعلمون الصبيان الكتابة ، وكانت نوعاً من الكتابة التصويرية المقدسة وتشبه كتابة المايا ، وكانت تستخدم بنوع خاص في القوانين وفي تحرير الوثائق التجارية . وكانوا يطلبون من الصبية أن يحفظوا عن ظهر قلب عددا هائلا من الأغاني والأناشيد التي يغنونها من الذاكرة وهي التي حفظت لنا الكثير من أساطير وآداب ديانة الأزتك . وكان الكهنة يعملون من بقى منهم في المدرسة ، واختار الكهنوت مهنة له ، تنظيم الاحتفالات والطقوس المتبعة في الأعياد والمناسبات الدينية . وكان الصوم وتعذيب النفس جزءا من هذا النظام التعليمي ، وكانوا يعطون أعلى الوظائف في المعابد لأولئك الذين أظهــروا التفوق والامتياز في مدارس الكالمكاك.

لقد برر الاسكان غزوهم لامبراطورية الأزتك ونهبهم لها بادعائهم أن

واجبهم كمسيحيين يحتم عليهم أن يقضوا على زعماء أمة وثنية تقدم الضحايا الآدمية قرابين لآلهتها الملمونة. ولكن هؤلاء الضحايا في نظر الأزتك لم يكونوا الا تعبيرا عن الشعور الديني الصادق. فقد كان أولئك الآلهة في حاجة الى التقوية ، ولم يكن هناك ما يمدهم بالقوة أكثر من القلب الانساني الذي يقدمه الكاهن الى الاله وهو ما زال ينبض ويقطر منه الدم فوق المذبح الحجرى بعد نزعه من الجسم . ولم يتعرض أولئك الضحايا الى أنواع التعذيب والمهانة التي كانت توقعها محاكم التفتيش الاسپانية على من كانوا يتهمونهم بالمروق عن الدين في ذلك العهد. فكثير من أولئك الأسرى الذين يقدمون الى الآلهة كانوا يعاملون معاملة كريمة وينزلونهم فى منازل فخمـة يقوم بالخدمة عليهم وصيفات ، وكانوا يقيمون لهم الحفلات ليروحوا عنهم ، وكثيرا ما كان هذا الموت الطقسى الذي يتم أمام جموع من المشاهدين الذين تتملكهم النشوة ، سببا في احداث النشوة الدينية في نفوس الضحايا أنفسهم لأن موتهم فوق المذبح كان يضمن لهم الوصول الى أعلى السماوات ، بل ان علم الضحية بأن جسمه سيقذف به ليتدحرج على درجات المعبد ليأخذوه فيأكلوه فى مأدبة دينية لم يكن أمرا فيه شىء من المهانة لأنهم كانوا يأكلون ذلك اللحم اعتقادا منهم بأن من يأكل منه يصبح أكثر اتحادا مع الله نفسه . ان هذا النوع من تقديم الضحايا الآدمية ليس الا فكرة دينية تشب تناول القربان في الديانة المسيحية ولكن مع الفارق ، اذ أن الأزتك كانوا في هذه الناحية واقعيين وعمليين في صورة قاسية .

وشاء القدر أن تصبح المدنيات الهندية ، وما حوته من كنوز الذهب ، فريسة لطمع وتعصب الغزاة الاسبهانيين . وعلى أى حال ، فان استسلام امبراطورية الأزتك فى وقت قصير أمام كورتيز ، الذى أتى اليهم ومعه قوة مكونة من أربعمائة وخمسين رجلا وثمانية عشر جوادا ، كان راجعا الى مجموعة من العوامل التى كانت فى صالح الاسهانيين .

وأول هذه العوامل هو الارتباك الذى حدث بينهم فى البداية وتساؤلهم عمن يكون كورتيزوما الذى يريده . ففى جميع أرجاء المكسيك كانت تنتشر أسطورة «كوتزا لكواتل » (Quetzalcoatl) أو الثعبان ذى الريش ، وهو أحد آلهة التولتك الذى نزل فى العصور القديمة من السماء ليعيش على ظهر الأرض ليحكم الناس ، وأحضر لهم معه الفن والحكمة وعندما طرده اله آخر أقوى منه هرب الى المحيط فى زورق مصنوع من جلود الثعابين ، ووعد أن يعود ثانية الى شعبه وستكون عودته ايذانا بيدء عصر ذهبى لهم . وكان «كوتزا لكواتل » يرسم أحيانا فى صورة رجل أبيض اللون ، وله لحية ، وكان مجرد التفكير بأنه من المحتمل أن يكون كورتيز هو الآله نفسه الذى عاد الى الحياة كافيا لشمل ارادة محاربى الأزتك ، فدخل كورتيز الى العاصمة دون أن يعترضه أحد .

وسارع كورتيز بالقبض على الملك « مونتزوما » وأبقاه رهينة لديه » ولكن هذا العمل العدواني زاد من شدة خوف الناس ولم يبعث فيهم روح المقاومة . وسمحوا لكورتيز بالعبودة الى الشباطىء فأناب عنه معباونه « ألقارادو » فأقفل الناس الأسواق وقبعوا في منازلهم . وعندما حل موعد الاحتفال بعيب الد «هويتزبلوپوشتلى » (Huitzilopochtii) اجتمع الناس في الميدان ففسر « القراداو » ذلك بأنه اجتماع حربي فأصدر أمره الى جنوده الذين أعملوا القتل في الرجال والنساء والأطفال ، وقد أحدث عمله هذا رد فعل شديد فهاجت المدينة ولكن هذا الهياج جاء متأخرا جدا .

واتضح ضعف الامبراطورية واضطر المغلوبون على أمرهم الى الخضوع لقوة الغاصبين وأجبروهم على دفع الجزية ، ولكن الأزتك لم يرضوا عن الانضمام الى الامبراطورية الاسپانية ولم يحسوا نحوهم بأى ولاء. واستطاع الاسپان أن يغروا كثيرا من القبائل التى كانت خاضعة للأزتك بالانضمام الى جنود « ألقارادو » المحاصرين . وحتى الذين كانوا موالين لحكومة الأزتك

لم يقبلوا على حمل السلاح فى ذلك الوقت لأنه كان موسم الحصاد، وتصوروا أن فقد محصولاتهم كان مصيبة أكبر من المصيبة التى تحيق بهم من نهب الغزاة . ولم يكن المحاربون الأزتك كفؤا لصد جنود يستخدمون البنادق، كما أن أسلوب حروبهم ذات الطابع الاحتفالي لم يكن ذا جدوى ضد تكتيكات الاسبان الواقعية . لقد حاربوا بتصميم وشنجاعة يائسة عندما استثارهم العدو، ولكن الخيانة، وانتشار الأمراض، وضمائرهم الدامية، اضطرتهم للخضوع والاذعان.

أما في أمريكا الجنوبية فقد ظهرت المدنيات العظيمة في هضاب الأندس. وما زال وصول المهاجرين الى أمريكا الجنوبية لغزا من ألغاز الدراسات الأثرية لأن منطقة البرزخ تكاد تكون منطقة لا يمكن اجتيازها حتى فى وقتنا الحاضر. فهي منطقة ملأى بالغابات ، ومياهها التي على مقربة من الشواطيء وعلى الأخص شاطىء المحيط الهادي صعبة في الملاحة ، اذ توجد رياح مضادة ولا توجد فيها موانىء صالحة نظرا لأن الغابات تمتد حتى شاطىء البحر. وبالرغم من كل هذه الصعوبات فقد تمكن المهاجرون بطريقة ما من اجتياز هذه المنطقة الموحشة ثم انتشروا بعد ذلك فى أنحاء القارة . وفى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسياني كان يعيش في غابات الأمازون الاستوائية قبائل متوحشة تعيش في أكواخ من القش المغطى بالطين، وكان الرجال يصطادون السمك وكانت النساء يزرعن حقولا صغيرة من الذرة والفول السـوداني ونبات المنيوق (Manioc) . وكانت اليمياس (سهول المراعي) في الأرجنتين وسهول پتاجونیا کهلة بقوم رحل یعیشون علی الصید وعلی جمع البذور ، ولم تكن هناك مدنيات متقدمة الافى منطقة واحدة فقط وهي منطقة الأندس حيث عاش الناس في المدن وتقدموا في النواحي الفنية والسياسية والدينية .

ومنطقة الأندس مرتفعة جدا حتى ليظن الانسان انها مكان لا يصلح لتطور مدنية كبيرة ، ولكن هنود هضبة الأندس يتمتعون باتساع كبير في



اناه من الذهب ، عثر عليه في كولومبيا

رئتهم ، وبتركيز أكبر فى كرات الدم الحمراء ، ولهذا السبب يستطيعون أن يحتفظوا بكمية أكبر من الأوكسجين ويستطيعون أن يؤدوا أعمالهم فى أماكن مرتفعة يحس فيها الرجل الأوروبي بالدوار ويتحول لون وجهه الى الزرقة . وهناك من يعتقد أن الهضبة هى المكان الذى بدأت منه الحضارة الأندية ولكن الأدلة تثبت أنه منذ أقدم العصور كان هناك قوم يعيشون فى منطقة

الشاطىء ، وقد خلفوا وراءهم بعض الآثار. كان أقدم المهاجرين الى منطقة الشاطىء قوما على علم بالزراعة ، فحطوا رحالهم فى وديان الأنهار ، وكانوا يعيشون على الخضراوات المختلفة وبعض المحصولات الجذرية والسمك ، ونشأت حضارات مستقلة عن بعضها البعض فى الوديان القريبة من الشاطىء ولكن المنطقة الداخلية البعيدة عن الأنهار كانت منطقة صحراوية وغير صالحة للزراعة . واخترعوا طريقة للرى وذلك بحفر قنوات توصل المياه الى أبعد ما يمكن أن تصل اليه ، ولكى يمنعوا تبخر الماء فى هذه المنطقة الحارة ذات المناخ الجاف كانوا يضعون سقوفا فوق قنوات الرى . وكانوا يبنون قراهم فى الصحراء لأن الأرض الصالحة للزراعة كانت أثمن من أن تستخدم فى الصحراء لأن الأرض الصالحة للزراعة كانت أثمن من أن تستخدم فى تشييد مساكن القرى .

وحوالى عام ١٠٠٠ ق . م . حدث تقدم فجائى فى حضارتهم وذلك عندما عرف المزارعون الذين كانوا على مقربة من الشاطىء زراعة الذرة والبقول وأضافوها الى محاصيلهم الجذرية .

وحدثت النهضة الحضارية الثانية فى القرن الثالث أو القرن الرابع بعد الميلاد وكان ذلك فى منطقة الوديان الساحلية الشمالية ، وهى التى تعرف بعصر « موشيكا » (Mochica) . ففى ذلك العصر وصلت الصناعة الى مستوى عال وبالأخص فى صناعتى الفخار والنسيج . فقد صنع أولئك الناس جرارا فى صورة رؤوس منحوتة راعوا فيها الأمانة التامة فى الأداء ويستطيع الانسان أن يقول عنها انها تمثل أشخاصا معينين . ورسموا على فخارهم الملون مناظر من الحياة اليومية ، ومن الأساطير ، ومن مناظر المعارك ، وكلها تعطينا صورة دقيقة عن حضارتهم ، وكانوا على ما يظهر قوما محبين للحرب، فوسعوا رقعة بلادهم عن طريق الغزوات الحربية .

وجاء العصر المتألق التـالى حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ويسـمى عصر « تهواناكو » (Tihuanaco) نسبة الى ذلك المركز الدينى الذى ما زالت خرائبه

حتى الآن باقية على الشاطىء الجنوبي من بحيرة « تيتسكاكا » (Titicaca) في بوليفيا . وكانت هذه الامبراطورية تشمل جميع أراضى بوليفيا وپيرو ، ومن الصعب أن يتصور الانسان كيف استطاعت هذه المنطقة ذات التربة الفقيرة المكونة من الصخر ، والتي ترتفع ١٤٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر أن تقوم بأود سكان توافر لديهم الوقت والمقدرة الكافيان لتشييد مبان كالتي شيدها أولئك التهواناكو . ففي الهضبة التي الى التسمال من ذلك المركز الديني نجد أهراما من الحصى الكبير الحجم يبلغ ارتفاعها نحو أربعين قدما . وهي ليست أهراما جنازية ولم تشيد لأي غرض ديني وانما هي مجرد أكوام من الحجارة التي تكدست بعد تنظيف الحقول فكوموها فوق بعضها .

ومهارة التهواناكو في نقل الأحجار الضخمة تدعو الى الدهشة . فقد شيدوا بوابات كبيرة يتكون كل جانب منها من حجر واحد زخرفوه برسوم محفورة . وهذه الرسوم وان كانت منمقة فان الابتكار ينقصها ، ونرى عليها رسوما كثيرة منقولة على ما يظهر من الرسوم التي كانت مستخدمة في الأقمشة المنسوجة . ومهما حاولنا تفسير الطريقة التي استخدموها في نقل حجر يزن ستين أو سبعين طنا لمسافة بضعة أميال فاننا لا نجد تفسيرا نرتاح اليه وسيظل ذلك سرا من الأسرار لأنهؤلاء الناس لم يعرفوا الأدوات اللازمة لمثل هذا العمل بل لم يكن لديهم الخشب اللازم لعمل الصقالات والرافعات. ومن الواضح أن سكان هذه المنطقة كشفوا فى وقت مبكر كشفا أحسن التهواناكو استخدامه ، وأصبح من ميزة جميع الحضارات الأندية التي ظهرت فيما بعد ، وهذا الاكتشاف هو مقدرتهم في التنظيم وحسن توجيه الأعداد الضخمة من العمال. وظهر عدد من الامبراطوريات التي كانت الحروب سبيا فى قيامها ، وانتشرت تلك الامبراطوريات فى الهضبة كلها ، وضمت اليها تدريجيا الوديان القريبة من الشاطىء . ومن أهم هــذه الامبراطوريات امبراطورية ال « شيمو » (Chimu) التي ظهرت حوالي عام ١٣٠٠ ميلادية

وكانت تمثل ، ولو جزئيا ، نهضة جديدة للموشيكو أدخل عليها التهواناكو بعض التعديلات وامتاز هذا العصر ، مثل عصر الموشيكا ، بالصناعات الدقيقة كما يتضح ذلك فى الفخار الذى كانوا يصنعونه فى صور حيوانية جميلة الشكل وكان الشيمو من سكان المدن الذين شيدوا مدنا كبيرة من نوعين ، أحدهما المراكز الدينية الشبيهة بما شيده التهواناكو ، والثانى مدن حقيقية كبيرة تشبه مدن الدنيا القديمة وكانت مراكز سكنية وحربية فى وقت واحد . وكان عدد السكان كبيرا وكانوا منظمين تنظيما حسنا ، والأراضى تروى بانتظام ، حتى لم يبق فدان واحد صالح للزراعة لم يستغلوه .

وكانت امبراطورية الانكا الشمهيرة (١٤٣٨ — ١٥٣٢) آخــر تلك الامبراطوريات وأعظمها شأنا . ويشير اسم « انكا » الى القبيلة التي كانت تحكم هذه الامبراطورية كما كان هذا الاسم يطلق على الملك الوراثى الذى يحكم الامبراطورية ، وقد توصلت الجماعة الحاكمة في الانكا الى ما حققته من قوة باستفادتها من أساليب جمع واستخدام الأعداد الكبيرة من العمال التي كانت موجودة من قبل . وكانت الانكا في الأصل عشيرة صغيرة من قبيلة تسمى « كوشوا » (Quechua)كانت تعيش في أحد وديان هضبة ييرو . وكان هذا الوادي على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ولهذا أمكنهم بسهولة زراعة الذرة والبطاطس وغيرهما من المحصولات. ولكن معظم الأرض كانت شديدة الانحدار فاضطروا الى الزراعة بطريقة المدرجات. وكانت هذه المدرجات ترتفع واحدة فوق أخرى آلافا من الأقدام ، وكانوا يعملون من آن لآخر ميازيب مكسوة بالحجر كافية لتخليص الأرض من مياه الأمطار مهما كانت غزيرة . واستغلوا مياه العيون وكانوا يحولون مياهها المتدفقة فتسقى مدرجا بعد آخر ، وقد أحسنوا تخطيط تلك المدرجات وعنوا بقوة جدرانها وما زلنا نراها حتى اليوم على جوانب التـــلال . وعرف السكان المرتفعات المختلفة والحاصلات التي يمكن أن تنمو فيها ، كما عرفوا أيضا

فائدة مخصبات الأرض اذ كانوا يحتفظون بكل المخلفات الآدمية والحيوانية لاستخدامها فى الحقول. وبالرغم من أنهم لم يعرفوا المحراث فاننا نستطيع أن تقارن حقول الأنديين بحقول الصينيين أو اليابانيين التى كانوا يزرعونها فى مدرجات ، ويستخدمون فيها المخصبات.

وكان الانكا مهندسين وبنائين مهرة ، وكانوا يبنون معابدهم وحصونهم من كتل ضخمة من الحجر ينحتون جوانبها حتى تصبح زواياها قائمة ويصقلون سطحها بدقة كبيرة حتى اذا ما استخدموها فى البناء كانت كلمنها تكاد تكون ملتحمة بما جاورها دون أن يستخدموا المونة في بنايتها . والمنطقة التي عاش فيها الانكا منطقة جبلية ، وكان من الممكن أن تتهاوى مثل هذه الجدران عند حدوث أول زلزال ولكنها ما زالت قائمة حتى الآن وبعـــد أكثر من خمسمائة سنة ، لم تتزحزح واحدة منها من مكانها ، ولا يستطيع الانسان أن يدخل سلاح سكين بين اثنين من أحجارها . وتجعلنا مباني الانكا نحس بقوة ظالمة محشودة تأخذ بمشاعرنا ، وفى أيام الامبراطورية كانوا يذهبون بممثلى الجماعات الأجنبية التي يريدون ضمها اليهم ليزوروا الحصن الكبير في « ساكاشوامان Sacashuaman » ، فكانت ضخامة البناء وقوته تؤثران في نفوس السفراء فيخضعون لمطالب الانكا دون مقاومة . وقد تم تشييد هذا الحصن قبل وصول الاسپانيين بوقت قصير ، ولهذا لا يمكننا القول انهم في وقت حدوث الغزو كانوا قد نسوا هذا النوع من الفنون.

وأدرك الأنكا فائدة سرعة المواصلات فى امبراطورية كبيرة ، فبنوا طرقا أفضل مما بناه أى شعب قبلهم باستثناء الرومان . وكانت الطرق ضيقة لأنها صممت ليستخدمها أناس يجرون ، وليست للعربات ذات العجلات ، ولكنهم بنوها لتستخدم فى جميع الفصول وفى جميع أنواع الطقس فى أرض صعبة مارة بمناطق جبلية ، وتخترق كثيرا من الأغوار ومجارى المياه . وأقاموا استراحات بين مسافة وأخرى ليستريح فيها حملة البريد ، وينتظرون فيها

زميلهم الذى كان يقطع المسافة جريا ليأخذوا ما معه من رسائل. وكان من المسور أن يبعث الانسان بهذه الطريقة رسالة من كوزكو الى كويتو وبينهما ١٣٠٠ ميل.

وضم الانكا القبائل المجاورة الى الامبراطورية بطريقة منظمة للتوسع جيلا بعد جيل وكانوا يفضلون أن يتم ذلك الضم بطريقة سلمية كلما أمكن ذلك لأن الانكا لم يكونوا يرحبون بالحرب حبا فيها وأخيرا اتسعت المبراطوريتهم فحوت كل هضبة الأندس وجميع المناطق القريبة من الشاطىء معتدة شمالا الى كولومبيا وجنوبا الى بوليفيا وشيلى والى الغرب كانت تعيش قبيلة «أيمارا Aymara» الهندية فى المناطق الواطئة ، وهم قوم غير متحضرين لم يستطع الانكا غزو بلادهم ، ولكنهم تمكنوا من تأسيس بعض المراكز التجارية بينهم .

كانت امبراطورية الانكا مثلا صارخا للدولة الجساعية المستبدة التى ترتبط أجزاؤها عن طريق اصدار الأوامر التى جعلت كل ما فى الدولة تحت سيطرتها المطلقة. كانت الأراضى ، والثروة المعدنية ، وقطعان اللاما والالپاكا ، ملكا للدولة . وكانت الدولة تشرف على ادارتها مقابل العمل الذى يقوم به الناس . وكانت الأراضى مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسم منها للانكا (أى طبقة الحكام) وقسم للمعبد والقسم الثالث وهو أكبرها للشعب . وكانت أراضى الشعب تخصص للعائلات ويعاد تحديد مقدارها فى كل عام . فاذا ولد طفل جديد فى العائلة زادوا على الجزء المخصص لهم شريحة من الأرض ، واذا مات أحد أفرادها أنقصوا جزءا منها . وكانوا يعطون كل زوجين منزلا وأرضا وطاقمين من الملابس عند زواجهما . وكانوا يصدرون الأمر بتحديد يوم معين وطاقمين من الملابس عند زواجهما . وكانوا يصدرون الأمر بتحديد يوم معين يتم فيه الزواج فيحضر الشبان والشابات غير المتزوجين الى أحد المراكز يتم عن الحكومية ويتركون لهم بضع ساعات ليتعارفوا ، أى أن الزواج كان يتم عن

طريق الدولة ، ولكن فى أغلب الحالات ، يتم ترتيب الزواج قبل ذلك بين الشاب والفتاة .

وعندما تزدحم احدى المناطق بسكانها كانوا ينقلون جزءا من السكان الى منطقة أخرى غير مسكونة فى الامبراطورية وكانوا يحرصون على نقلهم الى مناطق يكون مناخها وارتفاعها عن سطح البحر والزراعة فيها مشابهة للمنطقة التى تركوها. وكان هذا النظام الذى أطلقوا عليه اسم « ميتامى » (Mitamae) متبعا أيضا للمساعدة فى ابقاء بعض الجماعات المغلوبة خاضعة لسلطانهم . فبعد أن يضموا أحد الأقاليم الى مملكتهم كانوا يأخذون ما يقرب من نصف سكانه وينقلونه الى منطقة أخرى تبعد نحو مائة ميل عن موطنهم الأصلى ، ثم ينقلون جماعة أخرى من السكان الغرباء الذين لا يتكلمون اللغة المحلية ليحلوا فى المنطقة التى أخليت من سكانها . وبهذا استطاع الانكا القضاء على الحضارة القديمة للمغلوبين وفرض حضارة الانكا عليهم ، فلا تمضى أجيال قليلة حتى يتم استيعابهم .

وكان السكان مقسمين الى جماعات تتكون كل منها من عشر عائلات ، ولكل جماعة منها رئيس يمثلها ويصبح مسئولا عن سلوك جماعته كمسئولية زعيم الجماعة الصغيرة من الجنود عن سلوك جنوده . وكان لكل خمسة من الجماعات العشر رئيس آخر ، وكانت اثنتان من هذه الجماعات الخمسين تحت زعامة رئيس للمائة . ولكل لحسنة من رؤساء المائة زعيم ، ولكل اثنين من هذين الزعيمين قائد يكون له حق الاشراف والزعامة على ألف عائلة . وكانت الامبراطورية مقسمة الى أربعة أقسام فى الجهات الأربع من العاصمة كوزكو ويحكم كلا منها نائب للملك . وكان محرما على رؤساء الأقسام السياسية أن يكون لأحدهم أى علاقة مباشرة بزميل له ، وكانت جميع الأعمال تأخذ طريقها مباشرة الى الزعماء الى من هم أقل منهم . وكان الانكا نفسه الذى كان من سلالة الشمس على رأس الجميع . وكان الانكا

يقوم بين حين وآخر فى موكب فخم بجولات تفتيشية فى بلاده .

ولم تعرف دولة الانكا معنى الفاقة ، فاذا حدثت مجاعة أو عجزت المحاصلات عن سد حاجة الناس صرفوا لهم ما يلزمهم من المخازن العامة للغلال . وكانت قطعان اللاما والپاكا ملكا للانكا ، وكانوا يجمعون تلك القطعان مرة فى كل عام فينتفون أصوافها ، ولا يقصونها ، ويوزعونها بين العائلات ليقوموا بغزلها فى خيوط ثم يجمعون تلك الخيوط لصباغتها ، ثم يجمعون بعد ذلك الخيوط المصبوغة ويوزعونها بين النساجين المحترفين يجمعون بعد ذلك الخيوط المصبوغة ويوزعونها بين النساجين المحترفين ليصنعوا منها الملابس . وتقدمت فيهم صناعة النسيج الى درجة تدعو الى الاعجاب ويمكن مقارنة منسوجاتهم بأحسن ما أخرجه الصينيون أو الأوروبيون فى القرن السادس عشر . وكانوا يستخدمون اطارا بسيطا للنسيج دون استعمال المغزل ورغم ذلك تفوقوا فى صناعتهم بفضل مهارتها اليدوية المتازة .

واحتاج مثل هذا النظام الى عد أرقام هائلة . وقد حلوا هذه الصعوبة باختراعهم طريقة غريبة للعد بوساطة عمل عقد فى الخيوط وأطلقوا على هذه الطريقة اسم « كويبوس Quipus » ، وكانوا يعملون عقدا ذات أشكال مختلفة فى الخيوط ، لكل منها دلالتها ، وكانت أشبه شىء بطريقة الاختزال فى الكتابة ولكنها كانت تعتمد كثيرا على الذاكرة اذ لم يكن فى استطاعة أحد أن يقرأ الكويبو بدقة الا صاحبه الذى قام بعمله ، وكان فى استطاعة من يعملون الكويبو أن يقوموا بعمليات حسابية كبيرة بهذا النوع من تسجيل الأعداد .

وكان من عادتهم جمع عدد من الشبان لاعدادهم لخدمة الامبراطور . وكانت الدولة تتكفل بهؤلاء « الياناكونا Yanacuna » كما كانوا يسمونهم ، ويخصصون كلا منهم للقيام بنوع خاص من العمل . وكان منهم أحسن الفنانين والصناع ؛ اذ أدرك الانكا أن الشعب الذي اعتاد على تنفيذ ما يصدر



اناء مزخرف برسوم ملونة ــ من مدينة الانكا

اليه من أوامر ، واعتاد أن يعمل كما تعمل خلية النحل ينقصه الابتكار والدافع الى انتاج سلع ذات جمال فنى ، ولهذا كانوا يختارون هذه الجماعة ويدربونها لسد هذه الحاجة . وقد امتاز صناع المعادن من جماعة الياناكونا فى صناعة الأدوات النحاسية والفضية والذهبية ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد . وكانوا يستخدمون كلا من طريقتى الصب والطرق ، وعرفوا البرونز بخلطهم النحاس مع القصدير ، وعرفوا صناعة الأواني المغطاة بالصفائح المعدنية بوضع أوراق

الذهب فوق اناء من الفضة ووضع أوراق الفضة فوق اناء مصنوع من النحاس والطرق فوقها لتثبيتها فيها. وكان الذهب يتدفق على العاصمة ، وكانت جدران القصر مؤخرفته بطنف (أفاريز) من الذهب ، وكان الانكا يتناول طعامه في صحاف من الذهب الخالص . وفي أيام الاحتفالات العامة كانوا يحيطون الميدان الكبير في كوزكو بسلسلة صنعت حلقاتها من الذهب. وكانت توجد في معبد الشمس حديقة ذهبية كان كل ما فيها من أشجار وأزهار وأطيار مصنوعة من الذهب وفيها راع بالحجم الطبيعي يرعى قطيعا من اللاما وكلها من الذهب الخالص ، كما صنعوا الفراشات والحشرات الأخرى ، وكانت من الذهب المزركش المخرم وذات وزن خفيف ، وقد أتقنوا توازنها اذ كانت تتحرك في الهواء طائرة فوق الزهور الذهبية .

وكانت هناك جماعة أخرى تشبه الياناكونا ولكنها من النساء يسمونها ال « اللاكونا Allcuna » كانوا ينتخبونهن وهن فى سن الثامنة أو التاسعة ويضعونهن في مكان شبيه بالدير ، وتعمل بعضهن في المستقبل كاهنات في المعابد ويصبح البعض الآخر محظيات للامبراطور ، وكانوا يدربون هؤلاء الفتيات في صناعة النسيج ، وكن يقمن بعمل جميع المنسوجات الجميلة في قصر الانكا.

وكانوا ينتقون الحكام من بين النبلاء الوراثيين للقبائل التي أخضعوها لحكمهم . كان هؤلاء الشبان يذهبون الى مدرسة خاصة في العاصمة في كوزكو . وكانوا يختارون أكفأ من فيهم ليشمغلوا الوظائف الادارية في العاصمة ، أما الباقون فكانوا يرسلون لادارة الأقاليم النائية. وكان منصب الانكا منصبا وراثياً ، وكان المرشح لولاية العهد هو أكبر أبناء الانكا الحاكم من أكبر اخواته . وعلى عكس الاعتقاد السائد بشأن الزواج من الأقارب ، فانا نرى بعد مرور ستة أجيال على هذا النوع من الزواج عددا من الحكام الإذكياء ذوى المقدرة الفائقة. وكانت الغزوات التي يقوم بها شعب الانكا غزوات منظمة وحسنة الترتيب وتشبه تنظيمات الجيش الألماني. كانت هناك فرق نظامية على استعداد للحروب خارج البلاد. فاذا عزم الانكا على غزو أى منطقة بدأ باعداد الطرق الموصلة اليها وبناء الحصون التي يرتد اليها الجنود ويملأونها بالمؤن. وكانوا يرسلون الجواسيس ليحصلوا على المعلومات الخاصة بالمنطقة التي يعتزمون غزوها ، وكانوا يبذلون جهودهم لاحداث نوع من الثورة المحلية في ذلك غزوها ، وكانوا يفرضون على ذلك البلد حتى يكون الدفاع عنه مفككا ومضطربا. وكانوا يفرضون على ذلك البلد المغلوب شروطا سهلة عند استسلامه ، وكثيرا ما كان يتم هذا الاستسلام دون الالتجاء الى الحرب.

وربما كانت المبراطورية الانكا أنجح الدول الجماعية الاستبدادية التى ظهرت فى التاريخ ، ومن سوء حظ الانكا ، بل ومن سوء حظ التاريخ أن الاسپانيين وصلوا الى تلك البلاد فى وقت حدث فيه تصدع فى الجبهة المتحدة لتلك الدولة . فان والد « أتاهوالپا Atahualpa » آخر ملوك الانكا كان قد تزوج المرأة من قبائل « كويتو Quito » الى جانب أخته . فاعترفت القبائل الشمالية التى لم يكن قد تم ادماجها فى الامبراطورية بابن الزوجة الكويتوية كملك على البلاد ، وكانت الثورة التى قام بها هـذا الابن فى عنفوانها عندما وصل الاسپانيون . واستقرت أقدام « بيزارو Priazro » منفوانها عندما وصل الاسپانيون . واستقرت أقدام « بيزارو Priagro » القضاء على تلك الثورة . فلما تم القضاء على الثورة وتمكن « أتاهوالپا » من الخضاع القبائل الشمالية سارع الاسپانيون الذين كانوا فى العاصمة فقبضوا عليه وقتلوه هو ومعظم نبلائه .

واتضح اذ ذاك العيب للحكم الاستبدادى أينما كان فان الناس اذا اعتادوا على تلقى الأوامر ، ولم يفكروا أبدا لأنفسهم ، فان روح الاقدام تنعدم فيهم ويصبحون فريسة سهلة لأى زعيم يتولى السلطة . ولهذا استطاع

الاسپانیون أن یحکموا شعب الانکا فی صورة کان من المستحیل أن تحدث لو أن ذلك الشعب لم یعتد علی تنفیذ کل ما یصدر الیه من أوامر من رؤسائه و اتبع الاسپانیون كالعادة سیاسة قصیرة النظر الی أبعد الحدود و لا یكاد یصدقها العقل ، فی استغلال تلك البلاد ، لأنهم لم یکن یهمهم الا الحصول علی الذهب قبل أی شیء آخر ففشلوا فی المحافظة علی القنوات ومجاری المیاه اللازمة للری ، والتی یعتمد علیها اقتصاد البلاد . و كان لا تشار الأوبئة واجبار عدد كبیر من السكان علی العمل فی المناجم آثر آخر فی ابادة جزء كبیر من الشعب ، فلم تمض بضع سنوات علی احتلال الاسپانین للبلاد ، حتی نقص عددهم الی أقل من نصف ما كانوا علیه . وضاعت علوم ومعارف الانكا بقتل الاسپانین للطبقة العلیا فیهم ، ولكن أسلوب الحیاة فی القریة الذی قامت علی أساسه امبراطوریة الانكا ما زال باقیا بین هنود منطقة الأندس حتی الآن . وقد أخذ عددهم فی الوقت الحاضر فی الازدیاد ، ، ولهذا السبب بدأوا یتقدمون فی حضارتهم وسیبنون مستقبلهم علی أساس قومی وطید .



بعض المراجع الهامة الفصل الشامن والعشرون

- BURKITT, M.C.: South Africa's Past in Stone and Paint. Cambridge: The University Press; 1928.
- CATON THOMPSON, G.: The Zimbabwe Culture: Ruins and Reactions, Oxford: Clarendon Press; 1031,
- CLARK, J.G.D.: The Prehistoric Cultures of the Horn of Africa.

 London; 1953.
- HAMBLY, W.D.: Source Book for African Anthropology. Parts 1 and 11. Chicago: Field Museum of Natural History, Anthropological Series, Publication No. 394, Vol. XXVI; 1937.
- GOODWIN, A.J.H., and VAN RIET LOWE, C.: The Stone Age Cultures of South Africa. Capetown: Annals of the South African Museum, Vol. XXVII; 1929.
- LEAKEY, L.S.B.: Stone Age Cultures of Kenya Colony. Cambridge: The University Press; 1931.
 - : Stone Age Africa. London: Oxford University Press; 1936.
 - , editor: Proceedings of the Pan African Congress on Prehistory, 1947. New Work; 1949.
- POND, A.W.; CHAPUIS, L.; ROMER, A.S.; and BAKER, F.C.: Prehistoric Habitation Sites in the Sahara and North Africa. Beloit, Wisconsin: Logan Museum Bulletin No. 5; 1938.
- D'UCEL, J.: Berber Arts: An Introduction. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1932.
- Wulsin, F.R.: Prehistoric Archeology of Northwest Africa. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 1; 1941

الفصل التاسع والعشرون

- BAUMGARTEL, E.J.: The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford: Oxford University Press; 1947.
- BREASTED, J.H.: A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest. New York: Charles Scribner's Sons; 1905.
- BUDGE, E.W.: A Short History of the Egyptian People. London: J.M. Dent and Sons; 1914.
- CARTER, H., and MACE, A.C.: The Tomb of Tut Ankh Amen. London: Cassell and Co.; 1923.
- CHILDE, V.G.: New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.
- EDWARDS, J.E.S.: The Pyramids of Egypt. Harmondsworth: Penguin Books; 1947.
- HAYES, W.C.: The Scepter of Egypt. New York: Harper and Brothers; 1953.
- HUZAYYIN, S.A.S.: The Place of Egypt in Prehistory: A Correllated Study of Climates and Cultures in the Old World. Cairo: Memoires de L'institut Egypte, Vol. 43; 1941.
- MANCHIP WHITE, J.E. Ancient Egypt. New York: Thomas Y. Crowell Co.; no date.
- MURRAY, M.A.: The Splendour that Was Egypt. New York: Philosophical Library; 1949.
- PETRIE, W.M.F.: Prehistoric Egypt. London: British School of Archeology in Egypt; 1920.
- SELIGMAN C.G.: Egypt and Negro Africa: A Study in Divine Kingship. London: George Routledge and Sons; 1934.
- TABOUIS, G.R.: The Private Life of Tutankhamen. New York: The McBride Company; 1930.
- WADDELL, L.A.: Egyptian Civilization: Its Sumerian Origin & Real Chronololgy. London Luzac and Co.; 1930.
- WILSON, J.A.: The Burden of Egypt. Chicago: University of Chicago Press; 1051.

الفصل الثلاثون

- CHILD. G.M.: Umbundu Kinship and Caracter, London: Oxfor University Press; 1949.
- COLSON, C, and GLUCKMAN, M. (editors): Seven Tribes o British Central Africa. London: Oxford University Press; 1951
- CULWICK, A.T., and G.M.: Ubena of the Rivers. London: G. Aller and Unwin; 1935.
- DELAFOSSE, M.: The Negroes of Africa. Translated by F. Fligeman. Washington, D.C.: The Association Publishers; 1931.
- DOKE, C.M.: The Lambas of Northern Rhodesia. London: G.G. Harrap Co.; 1931.
- EVANS-PRITCHARD, E.E.: Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande. Oxford: Clarendon Press; 1937.
 - : The Nuer, Oxford: Clarendon Press; 1940.
- FORTES, M.: The Dynamics of Clanship Among the Tallensi. London: Oxford University Press; 1945.
 - : The Web of Kinship Among the Tallensi. London:
 Oxford University Press, 1949.
- FORTES, M., and EVANS-PRITCHARD, E.E.: African Political Systems. London: Oxford University Press; 1940.
- HUNTER, M.: Reaction to Conquest. London: Oxford University Press; 1036.
- JUNOD, H.P.: The Vathonga, Cambridge: Deighton Bell & Co. 1935.
- KABERRY, P.: Women of the Grassfields: A Study of the Economic Position of Women in Bamenda, British Cameroons. London: H.M. Stationery Office for the Colonial Office; 1952.
- KENYATTA, J.: Facing Mount Kenya. London Secker & Walburg; 1938.
- KRIGE, J.D., and E.J.: A Realm of a Rain Queen: A Study of Lovedu Society. New York: Oxford University Press; 1943.
- LUTTIG, H.G.: The Religious System and Social Organization of the Hererro. Utrecht: Kemink en zoon n.v.; 1934.

- MEEK, C.K.: The Northern Tribes of Nigeria. 2 volumes. London: Oxford University Press; 1925.
- NADEL, S.F.: The Nuba. London: Oxford University Press; 1942.
- RADCLIFFE-BROWN, A.R., and FORDE, D., editors: African Systems of Kinship and Marriage. London: Oxford University Press; 1950.
- REY, C.F.: The Real Abyssinia. Third edition. Philadelphia: J.B. Lippincott Co.; no date.
- RICHARDS, A.I.: Land, Labour and Diet in Northern Rhodesia.

 Second impression. London: Oxford University Press; 1951.
- RODD, F.R.: People of the Veil. London: Macmillan and Co.; 1926.
- SCHAPERA, I.: The Khoisan Peoples of South Africa. London: G. Routledge Sons; 1930.
 - : A Handbook of Tswana Law and Custom. London: Oxford University Press; 1938.
 - , editor: The Bantu Speaking Tribes of South Africa. London: G. Rourledge Sons; 1937.
- SCHWAB, G.: Tribes of the Liberian Hinterland. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 31; 1947.
- SMITH, E.W., and DALE, W.M.: The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia. London: Macmillan and Co.; 1920.
- TALBOT, P.A.: Peoples of Southern Nigeria. 4 volumes. London: Oxford University Press; 1926.
- WAGNER, G.: The Changing Family among the Bantu Kavirondo. London: Memoranda of the International African Institute; No. 18; 1939.
- WEEKS, J.H.: Among the Primitive Bakongo. London: Seeley, Service and Co.; 1914.
- WILSON, M.H.: Good Company. London: Oxford University Press 1951.
- WILSON-HAFFENDEN, J.R.: The Red Men of Nigeria. London: Seeley, Service and Co.; 1930.
- WINGERT, P.: The Sculpture of Negro Africa. New York: Columbia University Press, 1950.

الفصل الحادى والثلاثون

- HADFIELD, H.: Traits of Divine Kingship in Africa. London: Watts Co.; 1949.
- HERSKOVITS, M.J.: Dahomey, an Ancient West African Kingdom. Vols. 1 and 11. New York: J.J. Augustin, Inc., Publishers; 1938:
- KUPER. H.: An African Aristocracy. London: Oxford University Press; 1947.
- MAIR, L.P.: An African People in the 20th Century. London: G. Routledge Sons; 1934.
- MEEK. C.K.: A Sudanese Kingdom. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.
- MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1934.
- MADEL, S.F.: A Black Byzantium. London: Oxford University Press; 1942.
- RATTRAY, R.S.: The Ashanti. Oxford: Clarendon Press; 1923.
- ROSCOE, J.: The Baganda. London: Macmillan and Co.; 1911.

الفصل الثانى والثلاثون

- BARNETT, L.D.: Antiquities of India. London: P.L. Warner; 1913.
- CHILDE, V.G.: New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.
- MARSHALL, J., editor: Mohenjo Daru and the Indus civilization. London: A. Probsthain; 1931.
- MACKAY, E.: Early Indus Civilizations. Revised edition. London: Luzac and Co., 1948.
- MITRA, P.: Prehistoric India. Revised edition. Calcutta: University of Calcutta; 1927.
- MOVIUS, H.L., Jr.: Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 3; 1944.

- : Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.
- PIGGOTT, S.: Prehistoric India. Harmondsworth: Pelican Books, 1950.
- PRABHAVANANDA, S.: Vedic Religion and Philosophy. Editorial supervision by P.H. Houston. Mylapore, Madras: Sri Ramakrisna Math; 1950.
- SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Associated Human Cultures. Washington: Carnegie Institution of Washington Publication No. 493; 1939.
- WHEELER, R.E.M.: Five Thousand Years of Pakistan. London: C. Johnson; 1950.

الفصل الثالث والثلاثون

- GROUSSET, R.: The Civilization of India. Translated by C.A. Phillips. New York: Tudor Publishing Co.; 1939.
- HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The Story of a Living Past. Boston: Houghton Mifflin Co.; 1935.
- HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The University Press; 1946.
- HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.
- MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.
- RICE, S.: Hindu Customs and Their Origins. London: G. Allen and Unwin; 1937.
- RIVERS, W.H.R.: The Todas. London: Macmillan and Co.; 1906.
- SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Co.; 1948. Vol. 1.
- SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen Co.; 1930.
- SWANATHA, S.V.V.: Racial Synthesis in Hindu Culture. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1928.

الفصل الرابع والثلاثون

- DAVIDS, C.A.R.: Sakya; or Buddhist Origins. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.
- RADH-KRISHNAN, S.: Gautama, the Buddha. London: Oxford University Press; 1938.
- THOMAS, E.J.: The life of Buddha as Legend and History. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1927.

الفصل الخامس والثلاثون

- ARCHER, J.C.: The Sikhs: A Study in Comparative Religion. Princenton: University Press; 1946.
- CROOKE, W.: The Natives of Northern India. London: A. Constable and Co.; 1907.
- ELWIN, V.: The Baiga. London: J. Murray; 1939.
- HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.
- MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.
- SEN, G.E.: The Pageant of India's History. Vol. 1. New York: Longmans, Green and Co.; 1948.
- SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen and Co.; 1930.

الفصل السادس والثلاثون

- ANDERSSEN, J.G.: Children of the Yellow Earth. New York; 1934.

 : Researches in the Prehistory of the Chinese. Stockholm: Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities No. 15; 1943.
- CHILI: The Formation of the Chinese People. Cambridge: The University Press; 1928.

- CREEL, H.G.: The Birth of China. New York: The John Day Co.; 1937.
 - : Studies in Early Chinese History. (First Series). Washington: American Council of Learned Societies. Studies in Chinese and Related Civilizations. No. 3; 1938.
- CRESSEY, G.B.: China's Geographic Foundations. New York: McGraw-Hill Book Co.; 1934.
- MOVIUS, H.L. Jr.: Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University, Vol. 19, No. 3; 1944.
 - : Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.
- WHITE, W.C.: The Bone Culture of Ancient China. Toronto: University of Toronto Press. Museum Studies No. 4; 1945.
- WU, G.D.: Prehistoric Pottery in China. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1938.

الفصل السابع والثلاثون

- BUXTON, L.H.D.: China, the Land and the People. Oxford: Clarendon Press; 1929.
 - : The People of Asia, New York: Alfred A. Knopf; 1925.
- CREEL, H.G.: Sinism, A Study of the Evolution of the Chinese World View. Chicago: The Open Court Publishing Co.; 1929.
- FUNG, Y.L.: A Short History of Chinese Philosophy. Edited by Derk Bodde. New York: The Macmillan Co.; 1948.
- GOODRICH, K.C.; A Short History of the Chinese People. Revised edition. New York: Harper and Brothers; 1951.
- DE GROOT, J.J.M.: The Religion of the Chinese. New York: The Macmillan Co.; 1910.
- LATOURETTE, K.S.: The Chinese: Their History and Culture. New York: The Macmillan Co.; 1934.

- PANKU: History of the Former Man Dynasty. Translated by Homer H. Dubs. Paltimore: The Waverly Press; 1938.
- WALKER, F.L.: The Multi-State of Ancient China. Hamden, Connecticut: The Shoestring Press; 1953.
- WILHELM, R.: A Short History of Chinese Civilization. Translated by J. Joshua. New York: The Viking Press; 1929.
- WILLIAMS, S.W.: The Middle Kingdom. Revised edition Vols. 1 and 11. New York: Charles Scribner's Sons; 1883.
- WITTFOGEL, K.A., and FENG CHIA-SHENG: History of Chinese Society: Liao (907-1125). Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 36, 1846. New York: Distributed by The Macmillan Co.; 1949.

الفصل الثامن والثلاثون

- CHIANG MONLIN: Tides from the West. New Haven: Yale University Press: 1947.
- FEI, H.T.: Peasant Life in China. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1947.
- FRIED, M.H.: The Fabric of Chinese Society. New York: Frederick A. Praeger; 1053.
- HSU, F.L.K.: Under the Ancestor's Shadow. Routledge and Kegan Paul; 1949.
 - : Americans and Chinese. Two ways of Life. New York: Henry Schuman; 1953.
- KULP, D.H.: Country Life in Southern China. New York: Teachers College, Columbia University; 1925.
- LANG, O.: Chinese Family and Society New Haven: Yale University Press; 1946.
- LAUFER. B.: Jade. Chicago: Field Museum of Natural History. Anthropological Series, Publication No. 154, Vol. X; 1912.
- LEONG, Y.K.; and TAO L.K.: Village and Town Life in China. London; 1915.
- MORSE, H.B.: The Gilds of China. London: Longmans, Green and Co.; 1909.

- SIREN. O.: A History of Early Chinese Painting. London: The Medici Society; 1933.
- YANG. M.C.: A Chinese Village. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1948.

الفصل التاسع والثلاثون

- EMBREE, J.: The Japanese Nation: A Social Survey. New York: Rinehart and Co.; 1945.
- GROOT, G.J.: The Prehistory of Japan. Edited by B.S. Kraus. New York: Columbia University Press; 1951.
- HEARN, L.: Japan: An Attempt at Interpretation. New York: The Macmillan Co.; 1904.
- LATOURETTE, K.S.: The History of Japan. New York: The Macmillan Co.; 1947.
- MUNRO, N.G.: Prehistoric Japan. Yokohama 1911.
- REISCHAUER, E.O.: Japan, Past and Present, Revised edition. New York: Alfred A. Knopf; 1953.
- SANSOM, G.B.: Japan: A Short Cultural History. Revised edition. New York: Appleton-Century-Crofts; 1943.
- TAKEKOSHI. Y.: The Economic Aspects of the History of the Civilization of Japan. Vols. 1, 11, and 111. New York: The Macmillan Co..; 1930.

الفصل الأربعون

- BIRKET-SMITH, K.: The Eskimos. New York: E.P. Dutton and Co.; 1936.
- CATLIN, G.: North American Indians. 2 volumes. London: Chatto. and Windus: no date.
- CODERE, H.: Fighting with Property. New York J.J. Augustin, Inc., Publishers; 1950.
- COLLIER, J.: The Indians of the Americas. New York: W.W. Norton and Company; 1947.

- CURTIS, E.S.: The North American Indian. Second revised edition. 20 volumes. Norwood, Mass.: The Plimpton Press; 1907-30.
- DALE, E.E.: The Indians of the Southwest. Nodrman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1949.
- EGGAN, F.: The Social Organization of the Western Pueblos. Chicago: University of Chicago Press; 1950.
- GRINNELL, G.B.: The Cheyenne Indians. 2 volumes. New Haven: Yale University Press; 1923.
- HODGE, F.W.; editor: Handbook of the American Indians North of Mexico. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 30, Parts 1 and 11; 1907.
- JENESS, D.: Indians of Canada. Ottawa: National Museum of Canada, Bulletin No. 65; 1932.
- KENTON, E., editor: The Indians of North America. 2 volumes. New York: Harcourt. Brace and Co.; 1927.
- KINIETZ, W.V.: The Indians of the Western Great Lakes, 1615-176c. Ann Arbor: University of Michigan Press; 1940.
- KLUCKHOHN, C.: and LEIGHTON, D.: The Navaho. Cambridge: Harvard University Press; 1946.
- KROEBER, A.L.: Cultural and Natural Areas of Native North America. Berkeley: University of California Press; 1949.
 - : Handbook of the Indians of California. Berkeley: California Book Co.; 1953. (Bureau of American Ethnology Bulletin No. 78; 1925).
- LOWIE, T.H.: The Crow Indians. New York: Rinehart and Company; 1935.
- MACGOWAN, K.: Early Man in the New World. New York: The Macmillan Co.; 1950
- MARTIN, P.S.; QUIMBY, G.I.; and COLLIER, D.: Indians Before Columbus. Chicago: University of Chicago Press; 1947.
- MORGAN, L.H.: The League of theHo-Dé -No-Sau-Nee or Iroquois. H.M. Lloyd, editor. 2 volumes. New York: 1901.
- MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1934.

- OPLER, M.E.: An Apache Life-Way. Chicago: University of Chicago Press; 1941.
- OSGOOD, C.: Ingalik Material Culture. New Haven: Yale University Publications in Anthropology, No. 22; 1940.
- PARKMAN, S., Jr.: The Oregon Trail. New York: Caxton House; no date.
- PARSONS, E.C.: The Pueblo of Jemez. New Haven: Yale University Press; 1925.
- RASMUSSEN, K.: The People of the Polar North. Edited by G. Herring. Philadelphia: J.B. Lippincott C.; 1908.
 - : The Netsilik Eskimo. Copenhagen: Report on the Fifth Thule Expedition, 6921-24, VIII, No. 1 and 2; 1931.
- RITCHIE, W.Z.: The Pre-Iroquoian Occupations of New York State.

 Rochester: Rochester Museum Memoir No. 1; 1944.
- SELLARDS, E.H.: Early Man in North America. Austin, Texas: University of Texas Press; 1952.
- SPECK, F.G.: Naskapi. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1935.
- SPIER, L.: Yuman Tribes of the Gila River Chicago: University of Chicago Press; 1933.
- STERN, J.: The Rubber-Ball Games of the Americas. New York: J.J. Augustin, Inc., Publisher: 1048.
- SWANTON, J.R.: Indian Tribes of the Lower Mississippi Valley and the Adjacent Coast of the Gulf of Mexico. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 43; 1911.
 - : The Indian Tribes of North America. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 137; 1946.
 - : The Indian Tribes of North America. Washingon: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 145; 1952.

- UNDERHILL, R. M.: Red Man's America. Chicago: University of Chicago Press; 1953.
- WISSLER, C.: The American Indian. Third edition. New York: Oxford University Press; 1938.
- WORMINGTON, H.M.: Prehistoric Indians of the Southwest. Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 7; 1947.
 - : Ancient Man in North America. Third edition, revised. —— Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 4; 1949.
- ZEISBERGER, D.: History of the North American Indians. Edited by A.B. Hulbert and W.N. Schwarze. Columbus: Ohio State Archeological and Historical Society, no date.

الفصل الحادى والأربعون

- BENNETT, W.C., and BIRD, J.B.: Andean Culture History. New York: American Museum of Natural History, Handbook Series No. 15, 1949.
- BENNETT, W.C., and ZINGG, R.M.: The Tarahumara. Chicago: University of chicago Press; 1935.
- COLLIER, J.: The Indians of the Americas. New York: W.W. Norton and Co.; 1947.
- GANN, T.; and THOMPSON, J.E.: History of the Mayas. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.
- HAY. C.L.; and others: The Maya and Their Neighbours. New York: Applleton-Century-Crofts; 1940.
- JOYCE, T.A.: South American Archeology. New York: G.P. Putnam's Sons; 1921.
- KARSTEN, R.: A Totalitarian State of the Past. Helsingfors: Societas Scientarum Fennica; Commentationes Humanarum Litterarum XVI; 1949.
- KELEMAN, P.: Medieval American Art. 2 volumes. New York: The Macmillan Co.; 1943.

- MARKHAM, C.R.: The Incas of Peru. London: Smith, Elder and Co.; 1910.
- MEANS, P.A.: Ancient Civilization of the Andes. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.
- MONGE, C.: Acclimatization in the Andes. Translated by D.F. Brown. Baltimore: Johns Hopkins University Press; 1948.
- MORELY, S.G.: The Ancient Maya. Stanford, California: Stanford University Press; 1946.
- MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1935.
- PARSONS, E.C.: Mitla, Town of Souls. Chicago: University of Chicago Press; 1936.
- SPINDEN, H.J.: Ancient Civilizations of Mexico and Central America.

 Third edition. New York: American Museum of Natural History,
 Handbook Series No. 3; 1928.
- STEWARD, J.H., editor: Handbook of South American Indians. Washington: Smithsonian Institution. Bureau of American Ethnology Bulletin No. 143; 1949. Vols. I-VI.
- TAX, S., editor: Heritage of Conquest. Glencoe, Illinois: The Free Press; 1952.
- THOMPSON, J.E.: Mexico Before Cortez. New York: Charles Scribner's Sons; 1933.
- VAILLANT, G.C.: Aztecs of Mexico. New York: Doubleday and Compant, 1941.

فهرس الكتاب (الاجزاء الثلاثة)

(1)

احصاء (ج ۲) ۱۱۹ ، ۱۲۰ ، اباش (قبیلة) « ج - ۲ » ۳۰۹ اخناتون (ملك مصرى) (ج ٢) (ج ۳) ۲۸۳ ۰ 137) (5 T) VT) 13) V3) ابحدية (الحروف الـ ــ) (ج ١) . 11 ۱۰۳ (چ – ۲) ، ۱۸۳ ، ۱۸۳ ، · TTT ' TIA آخيــون (ج ۲) ۲۷۷ ، ۲۲۷ ، ابومي (مقر الملك في داهومي) . YYA (ج - ۳) ۱۱۸ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵ اداث (قانون ال _) (ج ٢) أبيدوس (مدينة مصرية) . YTY . A. (ج – ۲) ۲۹ ۰ ادیسون (ج ۱) ۱۳۸ ۰ اتروسكيون (ج - ١) ١٨٠ ، أراداكلما (معلم بوذا) (ج ٣) (TA1 (TE9 (TEA ((T - F) . 114 · TT7 · TTE · TTT · TTY · T.V اردواز (ج ٣) ٢٥ ، ٢٧ • · TTA · TTY ارمن (ال _) (ج ٢) ٢١٥ ، اتوم (اله مصرى) (ج ـ ٣) . 727 أرمينا (ج ۲) ۲٤۱ ٠ **اتون (اله مصری) (ج ـ ٣)** ارنهملاند (ج ۱) ۲۲۵ . . {A ' {Y (ج ۲) (ج ۲) (ج ۲) (ج ۲) اثار قاقیهدا (کتاب سحر) ۱۱۸ (۳ ج) ۲۰۰، ۱۱۹ ، ۱۲۸ (ج – ۳) ۱۵۳ (. 117 اثینا (ج ۔ ۲) ۱۰۷ ، ۲۰۷ ، **آرية (اللفة ال ــ) (ج ٢)** . 191 4 141 4 179 4 171 ۱۹۹ (چ ۲) ۱۹۱ ، ۲۰۱ ، ۱۳۲ · اثيوبيا (ج ١) ١٦٠ ، ١٦٤ آريون (ج ٢) ١٥٠ ، ١٥١ ، ٠ ٦٤ ، ٩ (٣ ج)

أجنى (اله النار عند الهند)

(ج ۲) ۱۲۰ ،

101 , 101 , 10A , 10A , 10L , 12L

٠١٥ ، ١٥١ (٣ ج) ٢٤٧ ، ٢١٠

۱۵۳ ، ۱۵۲ ، ۱۵۸ ، ۱۵۲ ، ۱۱۲ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۱۷ ، ۲۹۸ ، ۳۹۸ ، ۳۹۸ ، ۳۹۸ ، ۳۹۸ ، ۳۹۸ ، ۳۹۸ ،

۲۰،۶ ، ۷۰،۶ . ازمیسل (ج ۱) ۱۰۷ ، ۲۳۱ (ج ۲) ۱۱ (ج ۳) ۱۹۳ .

اســام (ج ۱) ۱۷۶ (ج ۳) ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۹ .

استئناس الحيوان (ج 1) ١٩٩ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١١٤ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٥ ، ١١٥ ، ١١٥ ، ١١٥ ، ١٤ .

190 (170 (171 (100 (108

177 > 737 > A37 > .07 > 607 >

اسد (ج ۱) ۱۵۳ ، (ج ۳) ۷۷ .

اسکتلندة (ج ۱) ۵۷ ، ۱۹۲ ،

(ج ۲) ۲۸ ، ۲۹ (ج ۳) ۲۰۱ . الاسكندر الأكبر (ج ۲) ۱۸۱ ، ۲۱۸ ، ۲۲۹ ، (ج ۳) ۱۳۱ ، ۱۳۱ ،

الاسكندرية (ج ٢) ٢٨٧ ، (ج ٣) ١٩٧ ،

اسكنديناره (ج ۱) }} ، ۸۶ ، ۵۷ ، ۷۷ ، ۷۵ ، ۲۱۸ ، ۱۸۱ ، ۱۹۷ ، ۲۱۲ ، ۲۱۲ ، ۲۱۸ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ ،

اسکیندیون (ج ۱) ۱۶۱ ، (ج ۲) ۱۹۷ ، ۱۹۳ ، ۱۹۷ .

اســـکیمو (ج ۱) ۲۵ ، ۷۷ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ،

1A > 3A > 1A1 > 0A1 > (5 7)

7A1 > 1F1 > 7F1 > 3F1 > 0F1 >

· TE. · TT3 · T.1 · 199 · 197

71 > 77 > 77 > 78 > 981 > 881 >

اســـوکا (ج ۳) ۱۹۸ ، ۱۸۶ ، ۱۸۱ ،

آسیا (ج ۳) ۲۲، ۱۹۵، ۱۹۹، ۱۲۷، ۲۲۲، ۱۶۲، ۲۶۲، ۲۳۳، ۱۳۳۸، ۲۶۱،

آسیا الصغری (ج۱) ۱۵۷ ، ۱۵۹ ،

٠٨١ ، ١٨٣ ، ١١٢ ، ١٨٣ (ج ٢) . 477 6 4.7 6 709 6. 70. اشانتی (قبیلة) (ج ۳) ۹۷ . **ا**شــمونين (ج ٣) ٣٦ . اشــور (ج ۱) ۲۱۲ ، ۲۱۵ ، (ج ۲) ۲۰۱ ، ۲۲۲ ، ۶۸۲ . أشوريون (ج ٣) ٩٦ (ج ٢) . 198 4 189 اطلنطيس (اسطورة عن كريت) · ۲۷۹ ، ۲۷۸ (' T &) اغریق (ج ۱) ۹۰ ، ۲۹۲ ، (ج۲) 177 3 777 3 777 3 777 3 777 3 · 1 / 1 / 1 / 3 / 7 · 6 / 7 · 7 / 7 · AP7 ' V.Y ' YYY ' A7Y ' F7Y (ج ۲۲) ۲۲ ، ۵ ، ۳۵ ، ۱۲ ، ۱۲ ، ۱۲ ، . 179 6 178 الاغريقيــة (اللفة ـ) (ج ٢) . YON 6 YOE اقاتار (ج ۲) ۱۸۷ ، ۲۰۸ ، ۲۰۸ . افریقیة (ج ۱) ۲۲ ، ۲۲ ، ۸۲ ، , \Ao , \T• , \EE , \To , T\ 707 : 377 : 777 : 777 : 777 (ج ۲) ۱۸ ، ۲۰ ، ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۲۱ ، 4 TTA 4 T.7 4 1A0 4 1AT 4 1EV ١٥٦ ، ٢٥٢ ، ٣٥٧ (ج ٣) ٩ ، ٣١ ، . 777 (177 (181 (188 (118

افغانستان (ج ۱) ۱۵۹ (ج ۳) . 191 **افلاطون (ج ۲) ۲۷۸ ، ۲۸۸ .** اكبر (الامبراطور) (ج ١) ٣٧ ، (ج ۲) ۱۰۲ . أكد واكديون (ج ٢) ٢٣٢ ، ٢٤٣ . اكروبول (ج ٢) ٢٧٤ . اكل لحسوم البشر (ج ١) ١٥ ، (ج ۲) ص ۲۱ (ج ۲) ۲۲۲ ، 137 . الاسكا (ج ٣) ١١٦ ، ٢٣٦ ، ٢٦٦ ، **Y37 ' 787 ..** الكتروم (ج ٣) ٣١ . الياذة (ج ٢) ٣٥٢ ، ١٥٢ ، ٢٥٢ . أمازون (ج ٣) ٤٠٧ . اماتراسو (ج ۳) ۳۱۳ . امتيست (ج ۲) ۹۹ . امریکا (ج ۱) ۲۰ ، ۱۱۳ ، ۱۲۳ ، ۲۳۱ ، ۱۶۷ ، ۲۵۱ (ج ۲) ۱۵ ، (ج ۳) ۲۳۱ ، ۲۳۱ ، الأمريكيون (ج ١) ٣٦ ، ٥٥ . امنحوتب الثالث (ج ٣) ٦] . أمون (اله مصرى) (ج ٣) ٢٦ ، . 97 6 89 6 8A 6 8Y انازاسی (ج ۳) ۳۷۲ ، ۳۷۵ ، ۳۸۱ ، . ٣٨٢ أناضول (ج ۲) ۱۱۲ ، ۱۱۸ ، ۱۳۲ ، V71 > 737 > 737 > 737 > 737 . انام (ج ۲) ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ .٠ انتاج الفذاء (ج ۱) ۱۲۹ ، ۱۵۶ ، YO! . NO! . LY! . YEL . ASI (ج ۲) ۹ ، ۹۲ .

أهريمان (اله الظلام) (ج ٢) ٣٣٦ انتروبولوجيه (ج ۱) ۸۲ ، ۸۲ . ٠ ٢٦٧ (٣ ج) انتو (اله سومري) (ج ۲) ۲۲۱ . اهمیسا (مبدأ دیتی هندی) (ج ٣) انجکور توم (ج ۲) ۸۳ . انجکور قات (معبد) (ج ۲) ۸۲ ، · 17A أهورامازدا (اله النور) (ج ٢) . TTY : TT7 انجکوك (مطبب) (ج ۲) ۳٤٧ . اوبسيديان (حجر ١ ل -) (ج١) انجلترا (ج ۱) ۲۸ ، ۷۷ (ج ۲) (7 5) (8 (7 5) 7.. (179 ٧٨ ، ٨٨ ٧٥٢ ، ٢٧٢ (ج ٣) ٣٥٣ -. ... اندرا (اله هندی) (ج ۳) ۱۲۰ ، اوتاه (ج ٣) ٢٧٣ ، ٣٧٣ . . Y.7 (11. (1AY (17Y اوديسة (ج ٢) ٢٥٣ ، ٢٦٦ . اندس (ج ۳) ۲۱۵ ، ۲۰۷ ، ۲۱۳ ، اوراسیا (ج ۱) ۲۲ ، ۲۲ ، ۸۸ ، (ج ۲) ۱۱۰ / ۱۱۱ / ۱۱۶ / ۱۱۵ / ۱۱۵ اندونیســـیا (ج ۱) ۲۷ ، ۱۲۵ ، 7.7 (187 (180 (17X (17T ۲۰۷ ، ۱۸۰ ، ۲۰۷ (ج ۲) ۲۰۷ ، ۱۸۷ ، ۱۲۷ (TY (T) (TY ()A () (T &) 01) 71) 71) 07) 70) 30) . 181 6 180 ()7. (A) (V. (7Y (77 (00 اوروبا (ج ۱) ۲۲۲ ، ۲۲۶ ، ۲۲۷ ، ۲۵۲ ، ٧٣٧ (ج ٢) ١٣٤ ، ٣٤١ ، ١٣٢ ، ۲۷۳ (ج ۲) ۱۴ ، ۱۱۱ ، ۱۱۹ ، ۲۷۳ . 777 . 777 . 711 441 3 Y41 3 181 3 331 3 Y47 3 الانسان العاقل (ج 1) ۲۷ ، ۲۵ ، TIA (T. 1 (TA. (TTT (TI. 777 (189 (189 (119 ()... (ج ٣).١٠ ، ١٢ ، ١٣١ ، ٤٠٢ ، (ج ۳) ۱۱ ۲۳۳۰ انکا (ج ۱) ۱۱۱ ، ۱۱۱ ، ۱۱۲ اورو کاجینا (ملك سومری) (ج ۲) ۲۱۱ ، ۲۰۱ ، ۲۰۱ (ج ۳) ۱۹۳ ، . 78. 6 779 أوزيريس (اله مصري) (ج ٣) ٢٣ ، . {14 (£14 (£14 انكشارية (ج ٢) ٣٥٦. . {0 ({ { انوبیس (الیه مصری) (ج ۲) اوستراليا (ج ١) ٤٧ ، ٧٧ ، ١١٩ ، (100 (101 (10. (1TA (179 انوفیلس (ج ۱) ۲۰ ، ۲۱ (ج ۳) · (3 ·) / (· ان _ يانج (ج ٢) ٢٣٧ .

. 1.1

· 77

. 17

أهل السنة (ج ٢) ٥ ؟٣ ، ٣٤٦ .

اوستراليون (ج ۱) ۱۳۸ ، ۱۳۸ 🎖 ۲۷۱ ، ۲۷۷ (ج ۲) ۶۱ ، (ج ۳) . ٣.٩ **أ**وسبانيا (جزر) (ج ۱) ٥٧ ، ٦٠ ، ۱۷۲ (ج ۲) ۲۱ (ج ۳) ۹۰ ۰ اوغسطس (امبراطور الرومان) (ج ۲) ۱۸۲ ، ۳۳۰ ، ۱۳۳ (ج ۳) • 177 أوغندة (ج ٣) ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٢ ، . 177 (117 **اوقیانوسیه (ج ۱) ۱۱۹ ، ۱۳۲ ،** ١٧٠ (ج ٢) ٢٥ . أوكلاهوما (ج ٣) ٣٥٩ ، ٣٦٦ ٠ اولیجار شیه (ج ۱) ۹۰ (ج ۲) آوهايو (ج ۱) ۱۲۹ ، ۲۰۰ . أويلـــو (ج ۲) ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، . 771 ایسائل (ج ۱) ۱۰۸ (ج ۳) • **٣**٨٦ ایسبریا (ج ۲) ۱۱۸ ، ۱۲۱ ،

ایتا (ج ۳) ۳۱۳ ، ۳۱۶ . ایدیاسو (ج ۳) ۳۲۰ ، ۳۲۷ . ایران (ج ۱)۱۰۹(ج ۲) ۱۰۰ ، ۱۸۲ ، ۲۶۱ ، ۲۳۳ ، ۳۰۰ ، (ج ۳)

ایرلنده (ج ۱) ۲۱۲ (ج ۲)
۰۰ ، ۱۰۰ ، ۲۰۸ ، ۳۰۹ ، ۳۱۰ ، ۳۱۰ ، ۳۱۰ ، ۳۱۲ ، ۲۱۳ ، ۲۱۳ ، ۲۱۳ ، ۲۰۸ ،

ایریتریا (ج ۳) ۲۰۰ . ایزیس (الههٔ مصریهٔ) (ج ۲) ۲۹۷ (ج ۳) ۳۰، ۳۰، ۳۰، ۳۰، ۲۶۰ . ایسلندهٔ (ج ۱) ۶۶، (ج ۲)

ایطالیا (ج ۱) ۱۸۰ ، ۱۹۰ ، ۱۹۰ ، ۲۲۹ (ج ۲) ۱۸۱ ، ۲۰۸ ، ۲۶۸ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸ ، ۵۰ ، ۵۰ ،

اینــو (قدماء الیابانیین) (ج ۳) ۲۲۹ . ۳۰۹

(ب)

بابل (ج۱) ۲۱۲، ۲۱۸ (ج۲) بارثیون (شعب ایرانی) (ج۲) بابل (ج۱) ۲۱۲، ۲۱۸، ۲۱۳۰ بابل (ج۲) ۲۱۸، ۲۲۲۰ بابل (ج۳) ۱۸۱، ۲۱۲۰ بابل (ج۳) ۱۸۱، ۲۱۲۰ بابل (ج۳) ۱۸۱، ۲۱۲۰ بابل (ج۳) ۱۰۵، ۲۰۲۰ بابل (ج۳) ۱۰۵، ۲۰۳۰ بابل (ج۳) ۲۱۳، ۳۹۳۰ بابل (ج۳) ۲۰۲۰ بابل (ج۳) ۲۵۳، ۳۹۳۰ بابل (ج۲) بابل

باسك (ج ۲) ۱۳۲ ، ۱٤٩ ، ١٤٩ ، (ج ۲) ۲۲۲ • پالیولیتی (عصر) (ج ۱) ۱۰۷، . 777 . 775 . 777 . 187 . 777 . · 779 · 777 · 777 · 777 · 677 · 737 , 337 , 037 , 537 , 707 , (ج۲) ۱۸۳، ۱۸۵، (ج۳) ۱۰، . 154 . 151 . 35 . 151 . 751 . · 727 · 777 · 777 پانشیات (شیوخ الهند) (ج ۳) · 109 . 10V بانتو (لغــة) (ج ١) ٢٣٩ ، (ج ۲) ۱۶۷ (ج ۳) ۷۷ ، ۸۷ ۰ بتاح (اله مصری) (ج ٣) ٣٧ . بترول (ج ۳) ۱۱۲ ، ۳۰۸ ۰ البحر الابيض المتوسط (ج ١) **١**٨٤ ، ١٦٤ ، ١٦٠ *،* ٦٣ *،* ٦٢ ، ٤٧ (37) / 6, ۲۰۱، ۵/ / ۲/ / ۲/ / ۸۱۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۰ ، ۱۲۱ ، ۱۲۱ ، **. 19. . 15. . 14. . 15. . . 14** 707 , PV7 , TAT , P/7 , P77 (ج ٣) ۱۱، ۲۲، ۹۰، ۳۳۱ ۰ البحر الاحمر (ج ۱) ٤٧ ، ١٥٧ (ج ۳) ۱۵ ، ۱۷ ، ۲۱ ، ۲۳ ۰ بحر ایجه (ج ۲) ۱۲۰ ، ۱۲۱ ، بحر البلطيق(ج٢) ١٤٨ ، ١٤٩٠ بداری (ال _) (ج ۲) ۲۲ ٠ بدجا (قبيلة هنــدية) (ج ٣) · \\\ \ \ \\\

١٩٨ ، ١٩٨ (ع ٢) ٥٠٠ ، ١٩٨ ٥٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٩ (ج ٣) ٢٣٩ ، بسرابسرة (ج ۲) ۱۳۲ ، ۲۹۹ ، · 4V (L E) L · · برانس (جبال ال -) (ج ٢) براهمة (ج ۲) ۸۰ ، ۱۳۵ (ج ۳) . T.7 . 19. . 1AV . 10A براهمانية (ج ۲) ۸۸ (ج ۳) · ۲۱٤ ، ۲٠٨ ، ١٩٩ براهمانیون (ج ۳) ۱۹۲ ، ۱۹۶ , \AY , \AX 777 , 381 , 081 , 781 , 777 . 10 . 115 . 111 . 110 . 101 برتغالیون (ج ۲) ۲۷۹ (ج ۳ **)** · 448 . 114 بردی (ج ۲) ۹۰ (ج ۳) ۲۲ ، · 21 , 20 , 77 برکلیس (ج ۲) ۲۸۱ ، ۲۸۹ ، ہرنج ۔ برزخ (ج ٣) ٣٣٦، · 454 · 454 · 451 پروتو ــ ملايو (شعب) (ج ٢) ۷۱ ، ۱۹ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۲۵ (ج ۳) پروتینات (ج ۱) ۹۳ ، ۱٦۲ ، ۲۲۱ ، ۱۷۵ ، (چ ۲) ۱۲۲ ، ۲۳۰ برونز (معدن) (ج ۱) ۱۰۶ ،

۰ ۱۸۱ ، ۱۸۰ ، ۱۷۹ ، ۱۷۸ ، ۱۷۷ ۸۲ ، ۱۸۶ ، (ج ۲) ۲۳ ، ۱۲ ، ٠ ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٤ ، ١١٠ ، ٧٤ · 717 · 717 · 117 · A17 · P17 · ۳۱۹ ، ۳۲۷ ، ۳۲۳ ، ۳۲۰ ، ۳۱۹ /7 · 7A · 0A · 33/ · 73/ · V3/ · . YEE . YET . YET . YEI . TT. · ٤\٦ ، ٣٦· ، ٣\١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ پرونز (عصر) (ج ۱) ۱۷۸ ، ۹۷۱ ، ۸۰۰ ، ۸۲۰ ، ۸۸۲ ، ۸۱۸ (ج ۲) ۹۲ ، ۹۸ ، ۹۲ (۲ ج) . ۱۲۰ . ۱۱۹ . ۱۱۱ . ۱۱۰ . ۱۰۹ , 144 , 144 , 144 , 145 , 144 , 154 , 154 , 151 , 150 , 174 V3/ 137 1787 1 A37 1 - 18V ۳۱۷ (چ ۲) ۱۸ ۰ یسری (ج ۳) ۳۰۸ ، ۳۳۱ ، بصل (ج ۱) ۱۵۹ (ج ۲) ۹۶، ر ج ۲) ۳۳۹ ۰ بطاطس (ج ۱) ۱۲۳ (ج ۳) · \$11 . ٣98 بطالمة (ج ٣) ٩٦ . بطلمی (عصر) (ج ۳) ۱۸ ، ۲۰ ، بطلیموس الاسکندری (ج ۲) بطلیموس فیادلفوس (ج ٣) بعث (ج ۱) ۲۷۲ ، ۲۷۳ (ج ۲)

بلاتين (ج ١) ١١٣ ٠ بــــلاد الرافدين (ج ١) ١٨٦ ، 6 15. (LE) 115 · 1V. بلاد العرب (ج ١) ٢٣٨ (ج ٢) 7X1 , 091 , ... , 1.7 , 737 , ٠١٦٦ ، ١٨ (٣ -) ٢٤٥ بلاد المغرب (ج ٣) ١٩ ٠ بلاد النــوبة (ج ٣) ٢٠ ، ٣٠ ، 17.70.79 بلاد پونت (ج ٣) ۲۰ ٠ پلازجپون (ج ۲) ۲۷۶ ، ۲۷۵ ، بلزاریوس (ج ۲) ۳۳۷ ۰ بلطة (ج ۱) ۱۷۸ ، ۱۸۱ ، ۲۲۶ ، ۰ ۲۲ ، ۲۲۸ ، ۲۲۶ (ج ۲) ۷۶ ، , WII , YTE , YTO , 170 , 99 (ج ۳) ۱۱ ، ۱۵ ، ۱۹ ، ۲۶ ، ۱۶۱ ، . 187 . 187 بلغــاد (قبائل ال _) (ج ٢) بلقـان (ج ۲) ۱۱۸ ، ۱۳۲ ، بلوخستان (ج ۲) ۸۳ ، ۱۳۲ ، . 10. . 120 بلیستوسین (عصر ال) (ج ۱) . 01 . 27 . 20 . 22 . 27 . 27 ٠١٠ (٣٦) ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ١٠٠ بليوســين (عصر ال) (ج ١) ہمپاس (ج ۳) ۴۰۷ ۰ پنجاب (ج ٣) ١٣١ ، ١٣٣ ، · 198 178 / 170

بنجر (ج ۱) ۱۲۳ ، ۱۰۹ · بندق (ج ۲) ۱۱۹ ·

بنغال (ج ۱) ۲۲۲ (ج ۲) ۸۸ (ج ۳) ۱۳۶ ۰

بنین (مذبح) (ج ۳) ۸۶ ، ۸۵ ، ۱۱۶ ۰

پوتلاتشی (ج ۳) ۳۸۸ ، ۳۸۹ ، ۳۹۹ ، ۳۹۰

بوذا (ج۲) ۱۸، ۱۹، ۱۸، ۳۸ (ج۳) ۱۹، ۱۷۱، ۱۷۱، ۲۸۱، ۱۹۷، ۱۹۲، ۱۹۲، ۲۹۱، ۲۹۱،

بوذیه (ال ــ) (ج۲) ۹، ۳۸، ۸۷، ۱۸۱، (ج۳) ۱۹۵، ۱۲۹، ۱۷۹، ۱۸۵، ۱۸۵

بوذیة (تابـع) (ج ۳) ۱۸۲ ، ۱۹۱ ، ۱۹۳ ، ۱۹۱ ، ۱۹۷ ، ۱۹۷ ،

7·7 , 3·7 , 0·7 , Γ·7 , ΚΓ7 , 3/7 , ·77 , 077 , P77 , ·77 ·

بوذيون (ج ۲) ۱۷ ، ۹۹ ، ۷۷ ، ۱۸۰ (ج ۳) ۱۸۷ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۳ ،

۳۰۱ ، ۳۰۲ ، ۳۰۲ ۰ بوذیساتفا (ج ۳) ۱۸۷ ، ۱۹۶ ۰

بورجوازية (ج ۱) ۸۳ (ج ۲) ۱۹۹ ، ۳۲۶ ، (ج ۳) ۳۲۹ ·

بورما (نج ۱) ۱٦٥ (ج ۲) ۸۷ (ج ۳) ۱۳٤ ·

بورنیو (ج ۱)۶۱ ، ۱۷۰ (ج ۲) ۷۷ ، ۲۸ ، ۷۵ ، ۸۱ ۰

بوشــمن (ج ۱) ۱۳۹ ، ۱۶۲ ،

بـولاس (ج ۱) ۱۳۵ ، ۱۳۸ ، ۲۲۸ ،

پولینیزیون (ج۱) ۲۰ (ج۲) ۲۲ ، ۲۵ ، ۲۷ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۱ ، ۲۳ ، ۳۳ ، ۲۵ ، ۳۳ ، ۲۲ ، ۳۲ ، ۲۲ ، ۳۲ ،

· 727 · 727 · 737 ·

بومرانج (عصا الرماية) (ج ۱) ۲۱۰ ، ۲٦٤ ، ۲٦٥ (ج ۲) ۲۰۰ ۰

پيبلو (قبيلة --) (ج ١) ٧٧ ،

پیرو (ج ۱) ۱۰۵ ، ۱۱۱ ، ۱۱۳ ، ۱۱۵ ، ۲۰۱ (ج ۳) ۲۳۱ ، ۲۰۱ ، ۱۱۱ ۰

بیکین (ج ۱) ۳۲ (ج ۳) ۲۲۶ ، ۲۲۲ ، ۲۸۹ ، ۲۹۳ ·

بیهار (ج ۳) ۱۸۹ ، ۱۹۵ ، ۲۰۶ ۰

۳۰، ا ترکیا (ج۲) ۱۶۸، ۱۲۳،

تشام (شعب) (ج ۲) ۸۳ ، ۸۶ ·

تشامپا (ج ۲) ۸۵ ، ۸۵ .

تشـــن (ج ۳) ۲۷۰ ، ۲۷۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۲ ، ۲۷۲ ،

YAR W Y Y Y Y Y AT

تشو (ج ۲) ۲۱۲ (ج ۳) ۲۵۹ ، ۲۸۲ ۰

تشورنجا (ج ۱) ۲۷۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۳ .

تشین لنج (ج ۳) ۲۵۹ ، ۳۰۳ ،

تشیکوسلوفاگیا (ج ۲) ۱۲۲ ۰

تصوف (ج ۲) ۲۹۵ ، ۲۹۲ ،

۲۹۷ ، ۲۹۷ (چ ۴) ۱۵۱ ۰

تعاویند (ج ۱) ۲۳۷ (ج ۲) ۹۰ (ج ۳) ۳۵ ، ۸۶ ۰

تعـــدین (ج ۱) ۱۷۳ ، ۱۷۷ ، ۱۷۱ ، ۱۷۷ ،

تکساس (ج ۲) ۳۳۹ ۰

تماسیم (ج ۱) ۵۸ (ج۳) ۶۵ ۰

تناسسخ الارواح (ج ۳) ۱۷۲ ،

* 197 · 107 · 107 · 107 · 107 · 107 · 107

تنجیم (ج ۲) ۲۲۲ ، ۲۲۵ (ج ۳)

137 . 137 .

تندرة (ج ٣) ٣٥١ ٠

تهــواناكا (ج ٣) ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٢٠٠

نوابل (ج ٣) ١٦٦ ، ١٧٠ .

تابو (ج ۲) ۳۳، ۳۶، ۳۵، ۳۳. ۷۷ ·

تارو (ج ۱) ۱۲۳ ، ۱۲۵ ، ۱۲۲ ،

٧٢١، ١٦٩، ١٧٢، ١٧١ (ج ٢)

۰۲، ۲۰، ۸۷ (۵۵) ۸۷، ۱۵، ۲۵

تاسا (ج ۲) ۲۰

تاسينوس (ج ۲) ۳۰۲ ، ۳۰۳ ،

3.7,0.7,7.7

تامیلیة (لغــة) (ج ۳) ۱۸۰ ، ۱۸۱ ، ۱۸۲ ۰

تانج (ج ۳) ۲۸۸ ، ۲۹۹ ، ۳۰۰ ۰

تبت (ج ۲) ۲۱۰ (ج ۳) ۱۹۶ ، ۱۹۵ ۲۰۶ ۰

تجارة ـ ال (ج ٢) ١٥١ ، ١٨٧ ،

PAI . 191 . 0 · 7 . P · 7 . 777 .

, TT. , T09 , T0. , TTT , TTT

177 , 777 , 177 , 777 , 777 ,

۱ ۲۲ ، ۲۲ (ج ۲) ۲۱ ، ۵۶ ، ۸۵ ،

· ٣٨٦ · ١٩٨ · ١٦٦ · ١١٣ · ٨٦

تحنیط (ج ۱) ۲۷۳ (ج ۳) ۲۷ ، ۲۸ ، ۶۳ ۰

تحوت (اله مصری) (ج ۳) ۳۹ ،

٠ ٤٥ ، ٤١ ، ٣٧

تراماری (شعب) (ج ۲) ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۱ ، ۳۲۲ ·

ترك (ج ۲) ۱۰۱ ، ۱۸۱ ، (ج ۳) ۱۹۱ ، ۲۲۱ ·

ترکستان (ج ۱) ۱۸۳ ، ۱۸۶ (ج ۲) ۱۶۸ ، ۲۶۱ ۰

ترکوین (ج ۲) ۳۲۶ ، ۳۲۰ •

توت (ورق ال _) (ج ۱) ۱٦٨ ، ١٦٩ · توت عنخ آمون (ج ٢) ٢٤٤ ، ٢٤٢ (ج ٣) ٤٨ ، ٤٩ ·

تودا (قبائل هندية) (ج ٣) ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٠ · توراة (ال _) (ج ٢) ٢١٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ·

(÷)

ثای (شیعب) (ج۲) ۸۷، ۸۸ ۰

، ۳۷ ، ۳٦ ، ۲۹ (ج ۱) ۳۹ ، ۳۹ ، ۳۷ ، ۱۵ ، ۶۱ ، ۶۳ ، ۲۵ ، ۱۰۵ ، ۱٤۷ ،

۱۶۹ ، ۲۲۸ ، ۲۶۷ ، (چ ۳) ۳۳۹ ،

ثورة اجتماعية (ج ۱) ۹۲ (ج ۲) ۳٤٠ .

ثورة البيسون (ج ٣) ٣٣٧ ، ٣٤٠ .

ثور الخوار _ ال (اك) (ج ١) ۲۷۲ ، ۲۷۳ (ج ٣) ۳۸۰ ٠ ثيران (ج ١) ۱۹۷ ، ۱۹۳ (ج ٢)

• ٣٦٩

ثیسیوس (اسطورة اغریقیة) (ج ۲) ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۸ ۰

(ج)

جـاموس (ج ۱) ۱۷۶ (ج ۳) ۱۲۵ ، ۱۷۹ ، ۱۸۱ ، ۲۶۲ ٔ

جــاوة (ج ۱) ۲۳، ۶۱، ۸۲ (ج ۲) ۷۰، ۷۲، ۷۵، ۱۶۸، (ج ۳) ۸۲۱، ۲۷۰

جب (اله الارض) عند المعريين (ج ٣) ٣٨ ٠

جذور النباتات (ج ۱) ۱۵۵ ، ۲۵۹ ، ۲۵۹ ، ۲۵۹ ، ۲۵۹ (ج۲) ۱۰ (ج ۳) ۲۲۹ ، ۳۲۹ ، ۳۲۹ . ۲۳۲ ، ۲۳۲ ،

جرکس (ج ۲) ۳۵۳ ۰ جرمان (ج ۲) ۱۶۳ ، ۱۰۸ ، ۳۰۰ ، ۳۰۲ ، ۳۰۲ ، ۳۰۳ ، ۳۰۲ ۰

جرنتش (ج ۱) ۸۲ ۰

جرینلاند (ج ۱) ۶۶ ۰

چزویت (ج ۳) ۳۰۰، ۳۲۰ .

جعة (ج ۱) ۱۳۳ (ج ۲) ۹۳، ۱۳۱ (ج ۳) ۱۹۱ ·

جلجمیش (بطل سومری) (ج ۱) ۱۵۲ (ج ۳) ۱۶۸ ۰ جلید (عصر) (ج۱) ۱۰۲ ، ۲۲۶ ،

٠٢٠ ، ٢٢٦ ، ٨٦٢ ، ٢٢٩ ، ٣٠٠ ،

۱۰ (چ۲) ۱۸۳ (چ۳) ۱۰، ۱۲، ۲۳۳، ۱۶۳۰

جمجمة روديسيا (ج ٣) ١١٠

جمع البذور (ج ٣) ٣٣٩ ، ٣٤١ ،

۰ ۲۰۸ ، ۳۸۳ ، ۳۷۳ ، ۳۸۰ ، ۳۹۰ ، ۴۹۰ ، ۲۳۸ ،

. 701 . 70. . 787 . 787 . 78.

۲۰۲ ، ۲۰۷ ، ۲۳۲ (ج ۲) ۱۱ ،

30 , 7// , 3// (5 %) 7/ ,

· 171 · 11

جبل (حیسوان) (ج ۱) ۱٦٠ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۲۷ ، ۲۳۷ ،

جنکیزخان (ج ۲) ۱۸۵ ، (ج ۳) ۲۳۲ ۰

جنوب شرق آسيا (ج ١) ١٠٨ ، ١٨٨ ، ١٨٨ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ، ١٩٨ ، ١٨

10. 1180 1188 1184 جنوب غرب آسيا (ج ١) ٦٢، ٨٠١ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٢١ ، , 190 , 191 , 181 , 17E , 17E (37) 18, 78, 48, ... 1.1, 4.1, 0.1, 1.1, 6.1, 111, 111, 111, 311, 011, 371,771.(37)771,331, 031 , 771 , 381 , 081 , 181 , 1.7 , 7.7 , 7.7 , 737 , 807 , ٠٠٠ (ج ٣) ١٤، ١٩، ٢٢، ٢٥، . 44. 031 . 131 . .01 . 044 . جنود مرتزقة ٠ (ج ٢) ٢٨٤ ، ٠ ٣٩٨ ، ١٦٦ ، ٥٣ (٣ ج) جواتیمالا (ج ۳) ۳۹۳ .

چوپتا (ج ٣) ۲۰۲، ۲۰۳ . جوتاما (اســم لبوذا) (ج ٢) ۲۹ (ج ٣) ۱۷۸ ، ۱۸۸ ، ۱۸۷ . جوز (ج ٢) ۱۱۹ (ج ٣) ۳۳۳ . جوز البلوط (ج ٣) ۳۸۳ . جوز الهند (ج ١) ۱۲۷ ، ۱۲۸ .

جویدار (ج ۱) ۱۰۸ ، ۱۰۹ . چینات (ج ۱) ۲۹ ، ۲۲ ، ۹۹ ، (ج ۳) ۱۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۷۸ ، ۱۸۲ ،

· 404 . 401

جونکوین (ج ۱) ۳۹ ، (ج ۳)

حبشة ـ ال (ج ۲) ۲۰۰، ۲۰۰ | ۲۳۰، ۲۳۶، (ج (ج ۳) ۱۵، ۱۵، ۲۰، ۲۰، ۲۵، ۱۵، - حرير (ج ۲) حبــوب (ج ۱) ۱۳۲، ۱۶۱، | (ج ۳) ۲۲۳، ۹

۱۱۷ ، ۱۹۷ (ج ۲) ۹۰ ، ۱۱۲ ،

حج ـ ال (ج ٣) ٢٤١، ٧٥٣ · حج ـ ال (ج ٢) ٢٤١، ٧٥٣ · حجرى ـ (العصر ال ـ) (ج ١) ٣٥ ، ٢٢، ٣٢ ، ١٠٠ ،

حدید (عصر ال ــ) (ج ۲) ۹۲ ، ۹۸ ، ۱۰۹ ، ۱۱۱ ، ۱۳۲ ، ۱۶۰ ، ۱۲۱ ، ۱۲۲ ، ۳۰۱ ، ۳۰۳ ۰

۰۳۰ ، ۱۳۶ ، (ج ۳) ۰۶۳ ، ۰۰۶ ۰ حریر (ج ۲) ۷۳ ، ۲۱۲ ، ۲۱۱ (ج ۳) ۲۲۳ ، ۲۲۹ ۰

حصارلیك (ج ۲) ۲۰۲، ۲۰۲۰ حصیر (ج ۱) ۲۲۷، ۱۲۸، ۱۹۰، ۲۶۲، ۲۰۹۰ (ج ۲) ۱۱،

· 17 . VE . TV . TO

حلی (ج ۲) ۲۰۱ ، ۲۱۲ ، ۳۱۱ ، ۳۱۱ ، ۳۲۱ و ۲۲۲ (ج ۳) ۲۹ ، ۳۰ ، ۲۰۶ •

حمسورابی (ج۱) ۱۹۳ (ج۲) ۱۹۲۰، ۲۲۱، ۲۲۲، ۳۳۲، ۳۳۳، ۱۳۷۷، ۲۳۲، ۵۶۲۰

حمیر (ج ۱) ۱۹۲ ، ۱۹۳ (ج ۲) ۱۹ ، ۲۲۹ ، ۲۳۰ ، ۲۳۳ ، (ج۳) ۱۵، حسوت (ج ۱) ۱۱۶ (ج ۳) ۲۲۷ ۰

حیثیون (ج ۱) ۲۱۲ (ج ۲) ۲۶۲، ۲۶۲، ۲۶۷، ۲۰۰، ۳۰۰

حيثية (اللغـــة ال ــ) (ج ٢) ٢٤٥ ، ٢٤٥ ·

ختان (ج ۱) ۲۷۲،(ج ۲) ۱۹۳، (ج ۳) ۲۹ ، ۷۷ ۰

خرز (ج ۲) ۷۰ ، (ج ۳) ۱۹ ، · ٣٣ ، ٣٢

خریستوف کولمب (ج ۳) ۳۳۵، . 459

خشب (ج ۱) ۱۲۹ ، ۱۶۰ ، ۱۶۱ ، (T _E) 770 , 787 , 787 , 778 11, 00, 00, 371, 071, 791, , ٣١٠ , ٣٠٢ , ٢٦٦ , ٢٦١ , ٢٣٢ (ج ۳) ۲۳ ، ۸۲ ، ۳۸ ، ۴۲ ، ۲۵ . TA7 . TTV . TET . 1V9 . 1V+

خصيان (ال _) (ج ٣) ٢٩٤ ، . ۲99

خضراوات (ج ۱) ۱۲۷ ، ۱۲۷ ، , 72. , 190 , 177 , 102 , 127 (ج ۲) ۹۶ ، ۹۳ ، ۹۳ ، ۱٤٠ ،

(ج ٣) ٥٤٣ ، ٢٠٩ ٠

· ٣٩0 , ٣٨٧

خطاف الصيد (ج ١) ١٤٥ ، · 45 (7 E)

خنسزير (ج ۱) ۱٦٠ ، ١٦٢ ، ٠١٠ (٦٥) ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٩٩ 10 , TV , OA , TP , P.7 , . 17 , . 450 . LL. . LLV . V. (L E) خوذة (ج ۲) ۱۵۲ ، ۲۶۹ ، ۲۲۶ ،

خيل (ج ۱) ۲۷ ، ۱۰۳ ، ۱۰۱ ، ۱۰۱ ، ٠٩٦ (٢ ج) ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠ . 101 . 120 . 127 . 121 . 179 , 174 , 177 , 170 , 100 , 104 , 1V+ , 179 , 17A , 177 , 170 ۹۷۱ ، ۸۸۱ ، ۳۰۲ ، ۳۲۰ ، ۲۰۹ ، ۲۰۱، ۲۰۹، ۲۰۱، (چ۳) ۱۱، 177 , 737 , 107 , 807 , 177 , . TTA . TTI . TOT . TTV . T99 . 44. . 479

(2)

دارا الأول (ملك فارسي) (ج ٣) . 177 . 170

داسيوس (ج ٣) ١٥٤ ، ١٥٥ ،

دانوب (نهر ال _) (ج ۲) ۱۳۲ ، (ج ۲) ۲۲۸ ۰

داهومی (ج ۳) ۹۸ ، ۹۹ ، ۹۱۲ ،

١١٤ ، ١٢٧ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ١١٤ . 175 . 175

دب (ج ۱) ۱۶۶ ، ۲۳۰ ، ۲۳۶ ، (ج ۲) ۲۸۲ (

دبوس القتال (ج ۲) ۹۹ ، ۱۰۰ ،

دجاج (ج ۱) ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۷۱،

دجلة (ج ۲) ۲۰۷، ۲۱۳، ۲۳۳۰

دخن (ذرة عويجة) (ج ٣) ١٤ ، ٢٣٠ .

دراثیدیة (ج ۲) ۱٤۰ ، ۱٤۱ ،

دراڤيديون (ج ٣) ١٨٤ ، ٢٠٥٠

درع (ج ۱) ۲۲۰ (ج ۲) ۱۱ ،

· 7 · · 10 · 1 · · · VE · 0 ٣

707 , 377 , 7.7 , 3.7 , 177 .

دكن (هضبة ال _) (ج ٣) ١٣٣ ، ١٣٣ . ١٣٤ ، ١٣٤ .

دلتا (ال_) (ج ٢) ٢٢،٠٤، ٥٥.

دلهی (ج ۳) ۱۹۹ ، ۲۰۳ · دمشق (ج ۲) ۱۰۰ ، ۲۰۳ ·

دنج _ صن (حضارة _) (ج ٢) ٦٤ ، (ج ٣) ١٤٤ ، ٢٤٣ ٠

دولة قديمة (عصر ال _ في مصر)

(37) .4, 44, 43, .0, 40.

دولمن (ج ۲) ۱۲۹ ، ۱۳۰ · ديترو ــ ملايو (ج ۲) ۱۷ ، ۱۹ ،

. 77

دیدالوس (ج ۲) ۲٦۱ ، ۲٦٢ ، ۲۲۲ ، ۲۷۲ *-*

(ذ)

ذئب (ج ۱) ۱۵۲ ، ۱۶۶ ، ۱۵۱ •

ذرة (ج ۱) ۹۳ (ج ۳) ۷۲ ، ۸۱ ،

, ۳۸۲ , ۳۸۰ , ۳۷۰ , ۳٦٩ , ۳٦۷

7.77 · 0.77 · 7.3 · V·3 · 8·3 ·

ذهب (معدن ال _) (ج ۱) ۱۰۶ ،

()

· 119 . 11V

رئیسیات (ال _) (ج ۱) ۲۸ ، ۳۵ ، ۲٦ ، ۱۳۵ ، ۱۶۷ ، (ج ۳) ۱۳۸ •

رز ـ ال (ج ۱) ۱۷٤ ، ۱۷٥ ،

(ج٢) ٢٥، ٥٥، ٥٥، ٢٥ (٢ ج

۰۸، (چ۳) ۱۷۰، ۱۱۶، ۱۷۰، ۸۰

• WI • . TT • . TTA • 179

رسیف (ج ۲۲) ۷۳۳ ، ۲۳۸ ، ۱۲۸۸ •

... رع (السه مصری) (ج ۳) ۳۵ ، ۳۲ ۰

رع أتوم (اله مصرى) (ج ٣) ٣٦ ، ٣٧ •

رعاة الماشية (ج ٢) ١٤٧ ، ١٤٨ ،

رقص (ال ــ) (ج ۲) ۸۲ (ج ۳) ۲۱۰ ، ۲۱۰

رقیــق (ال –) (ج ۲) ه، ۱۹۰ ،

رنة (حيوان ال ــ) (ج ۱) ١٥١، ٢٥٣ (ج ٢) ١١٥ ، ١٣٣ ·

رهبان ــ ال (ج ٣) ١٩٧ ، ٢٠٤، ٣٠٠ •

روسسيا (ج ۱) ۱۹۷، ۱۹۳، ۱۹۰ ، ۱۹۰ ، ۱۹۰ ، ۱۹۰ ، ۱۹۰ ، ۲۶۶ ، (ج ۲) ۱۹۰ ، ۲۶۳ ، دوکی (جبال ال ــ) (ج ۱) ۲۰۳، ۲۲۳ ، ۲۲ ،

روما (ج ۲) ۱۸۲ ، ۱۸۲ ، ۱۲۳ . ۱۲۸ ، ۱۲۹ ، ۲۲۹ ·

رومان _ ال (ج ۱) ۰۹، ۰۸۱ (ج ۲) ع۱۶، ۰۵۲، ۰۸۲، ۱۸۲، ۳۸۲، ۰۶۲، ۳۶۲، ۲۰۳، ۶۰۳، ۰۲۳، ۲۲۳، ۸۱۳، ۱۲۳، ۲۲۳، ۵۳۳، ۲۳۳، ۰۳۳، ۲۳۳، ۳۳۳، ۱۲، ۲۶، ۲۲۱، ۷۷۲، ۲۰۳۰

الری _ طرق (ج ۲) ۱۸۷ ، ۲۰۷، ۲۰۷، ۲۰۷، ۲۰۷، ۲۰۱ (ج ۳) ۱۳۵ ، ۱۲۵، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲

ریاضیات (علوم) (ج ۱) ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۱۲۸ (ج ۲) ۲۰۰ ، ۲۸۰ ، ۲۸۲ ، ۳۹۷ ۰

رياضية (الإلعاب) (ج ۱) ۷٦ ، ۷۷ ، ۷۷ ، ۷۷

ریج قیدا (آناشید هندیة) (ج ۳) ۱۹۲۱ ، ۱۹۶۱ ، ۱۹۹۱ ۰ رین (نهسر ال ــ) (ج ۱) ٤٤ ،

(ز)

زجاج (ج ۱) ۱۲۹ (ج ۳) ۳۲ ، ۲۲۳ ۰

زرادشتية (ال ــ) (ج ۲) ۱٦٣، ۲۳۳ ، ۳۶۳ ۰

زراد شــــتيون (ال ــ) (ج ۲) ۲۰۰ (ج ۳) ۱٤۰ ۰

زراعة (ال ــ) (ج ۱) ۲۲ ، ۱۶۹ ، ۱۶۹ ، ۱۹۲ ، ۱۹۸ ، ۱۹۰

907 (37) 70 , 971 , 771 , 091 , 091 , 097 (37) 70 , 30 , 70 , 77 , 98 , 70 , 711 , 711 , 711 , 711 , 711 , 711 , 711 , 711 , 711 , 371 , 771 , 371 , 771 , 371 , 771 , 371 , 7

۳۴، ۱۰۰، ۱۰۱، ۱۳۵، ۱۹۵، ۱۹۵، ۲۶۳، ۲۶۹، ۲۶۹، ۱۹۵۰، ۲۶۹، ۳۶۳، ۳۶۳، ۳۶۳، ۳۶۳، ۳۲۳، ۲۳۹، ۲۸۳، ۲۰۶، ۴۰۳، ۲۲۰، ۲۲۰، ۲۲۰،

زلاقــة (ال ــ) (ج ۱) ۱۹۱ ، ۲۶۳ ، ۲۶۳ ، ۳۵۰ ،

ذواج (ال -) (ج ۲) ۱۰۲ ، ۱۰۳،

زیتون (ج۱) ۱۲۰ (ج۲) ۱۱۹، ۱۱۹، ۱۱۹، زیتون (ج۱) ۱۲۰ (ج۲) ۱۲۰، ۱۲۰ (ج۲) ۱۲۰ (ج۲) ۲۳۰ (یته (أدوات ال ــ) (ج۱) ۲۷۱، ۲۳۰ (ج۳) ۲۳، ۲۲، ۱۶۶، ۲۶۰ (ج۳) ۲۳، ۲۰۶ (ج۳) ۲۳، ۲۰۶ (ج۲) ۲۰۶ (ج۲)

زيوس (اله اغريقي) (ج ٢) ٢٦٩، ٢٧١ •

(w)

ساسانیون (ج ۲) ۳۳۲ ، (ج ۳) ۱٤۰ ·

ســـاکسون (ج ۱) ۳۸ ، (ج ۲) ۲۷۲ ·

ساکیا موتی (بوذا) (ج ۳) ۱۸۲، ۱۸۷ ۰

سال _ می (زوجیة لاحد الآلهة السومریة) (ج ۲) ۲۲۱ ، ۲۲۱ . سالامیس (معرکة حربیة) (ج ۲) ۲۹۷ ، ۲۹۷

سالیش (ج ۳) ۳۶۶ ، ۳۶۰ · ۳۱۰ ، سامورای (ج ۳) ۳۱۰ ، ۳۱۲ ،

٧١٧، ٢٣٠، ٨٢٨، ٣٢٠

سامية (اللفات ال _) (ج ۱) ۱۹۰ (ج ۲) ۱۸۰ ، ۲۰۱ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ (ج ۳) ۱٦۳ ·

سرج (للخيــل) (ج ۱) ۱٦١ (ج ۲) ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳ ،

۱۸۸ ، ۳۰۹ ، (ج ۳) ۲۵۹ ، ۲۲۰ سرجون الاول (اکدی) (ج ۲) ۲۰۷ ، ۲۱۷ ، ۲۷۷ ۰

سردینیون (ج ۲) ۲٤٧ ، ۲٤٨ ٠

سفن (بناء ال ــ) (ج ۲) ۱۲۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۲۲۰ (ج ۳) ۱۸۰ ،

۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۳۶ (ج ۳) ۱۸۰ ، ۱۲۳ ۰

سکنی (ج ۱) ۱۲۸ ، ۱۳۱ ، ۱۳۲، ۱۶۳ ، ۱۶۶ (ج ۲) ۱۱ (ج ۳) ۲۰، ۱۶۳ ، ۲۶۰ ، ۲۶۳ .

سلاح (ج ۱) ۱۲۷، ۱۳۵، ۱۳۷، ۱۳۷، ۱۳۷ ۱۳۷، ۱۳۹، ۱۶۱، ۱۶۱، ۱۶۱، ۱۲۲، ۲۷۱، ۱۲۲، ۲۷۱، ۱۲۲،

. 777 . 787 . 777 . 777 . 777

357, 057 (57) 11, 07, 33,

۰ ۲۳ ، ۲۲۸ ، ۳۰۳ ، ۶*۲۳* ۰

سلال (صناعة ال ـ) (ج ۱) ۱۱۰ ، ۱۲۷ ، ۱۲۸ ، ۱۲۸ ، ۱۹۵ ، ۱۹۵

PTT . P3T . TVT . TVT . 3VT .

٠ ٣٨٧ ، ٣٨٤

ســــلحفاة (ج ٢) ٢٤ ، (ج ٣) ٢٣٧ ٠ . ٢٣٧ ٠

، ۱۶۲ ، ۱۶۰ ، ۱۲۲ ، ۱۶۵ ، ۱۶۳ ، ۱۰۵ ، ۱۰۲ ، ۱۲۲ ، ۱۷۷ ، ۱۷۰

۲۶۱ ، ۲۰۱ (ج ۲) ۱۲ ، ۳۶ ، ۲۶ ،

سمه (صيد ال -) (ج ١)

0\$1 , \$21 , \$31 , \$37 , \$37 , \$37 , \$07 , \$07 (5 7) \$\text{TO1 , \$07 (5 7) }\text{TO1 , \$07

٠٤٠، ٢٤٦ ، ٥٥٠ ، ٨٨٣ ، ٧٠٤ ٠

ســند (ال _) (ج ۱) ۲۸۱، ۱۹۱ ، ۱۹۱ ، ۱۹۱ ، ۱۹۲ ، ۲۰۲ (ج ۳) ۱۹۲ ، ۲۰۲ (ج ۳)

سنسكريتية (اللغة ال ــ) (ج ٢) ٨٢ ، ٨٤ (ج ٣) ١٣٥ ، ١٥٢، ١٩٦ ·

سودان (ال -) (ج ٢) ١٢٨ ،

- 98 . 97

ســودرا (ج ۳) ۱۷۱ ، ۱۷۳ ، ۱۷۷ ، ۱۷۷ ، ۱۷۷

سور الصين العظيم (ج ٣) ٢٧٧ . ٢٧٨ ·

ســـورية (ج ۲) ۲۶۲ ، ۲۶۳ ،

337 . 037 . 737 . 777 . 777 .

(چ ۳) ۲۳، ۳۸، ۳۵، ۱۶۰، ۲۰۲ و

سوسیتی (جزر ــ) (ج ۲) ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۲ ، ۲۳ ، ۲۹ ، ۳۸ ۰

سسوما (شراب هندی) (ج ۳) ۱٦۱ ، ۱٦۲ ۰

ســـومر (ج ۲) ۱۱۸ ، ۱۹۲ ،

ســومرية (للفــة ال ــ) (ج ۲) ۲۱۵ ، ۲۱۲ ، ۲۲۰ ۰

سومریون (ج ۱) ۱۷۷ ، ۱۸۱ ، ۱۸۱ ، (ج ۲) ۱۶۲ ، ۲۱۶ ، ۲۱۲ ، ۲۲۷ ،

سومطرة (ج ۱) ٤٦ ، ٨٨ (ج ٢) ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨١ ٠

سيام (ج ۲) ۸۲ ، ۸۳ ، ۸۸ ، ۸۸ ، ۸۷ ، ۸۷

سیبریا (ج ۳) ۲۳۲ ، ۳۳۳ ۰ سید دارثا (بوذا) (ج ۳) ۱۸۸ ، ۱۸۸ ، ۱۸۸ ۰

سیستان (ج ۳) ۱۵۰ ، ۱۵۰

سیقا (اله مندی) (ج ۲) ۸۸ ،

PF (3 7) N31 , IF1 , 7.7 , F.7 , .17 .

سيناه (ج ۱) ۱۵۷ ، ۱۸۹ (ج ۲)

. 40 ' 10 (LE) 14L . 41

سیوف (ج۲) ۵۶، ۷۶، ۷۵، ۷۵، ۲۵۲، ۲۸۱، ۳۱۱، ۳۱۱، ۳۱۱، ۲۸۱، ۲۸۱، ۲۸۱، ۲۸۱،

· 5 · · · 707 · 77 · · 3 ·

(m)

شـــامان (ج ۱) ۲۳۳ ، ۲۵۵ ، ۲۵7 ، (ج ۳) ۲۵۰ ·

شانج (أسرة -) (ج ٢) ٦٣ ،

711, 371, 6.7, (37) .77,

737 . 337 . 037 . 737 . 737 .

A37 . P37 . • • 7 . 107 . 707 .

707 , 307 , F07 , FP7 , KP7 , *

شبیه الانسان (ج ۱) ۲۸ ، ۳۳ ، ۳۳ ، ۳۳ ، ۳۳

. 11

شحم (ج ۱) ۱۹۶ ، ۱۹۹ (ج۳) ۳۳ ۰

شردن (ج ۲) ۲۶۷ ، ۲۶۸ ، ۳۲۳ (ج ۳) ۵۳ .

شرك (ج۱) ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۲ ، ۱۶۲ ، ۱۳۱ ، ۲۰۳ •

شرق ادنی (ال _) (ج ۱) ۷۳،

7 ۱ ، ۲۷۱ ، ۷۷۱ ، ۱۸۱ ، ۳۶۱،

9 ۲ ، ۴۰۲ ، ۶۱۲ ، ۱۰۲ ، ۱۶۲،

(ج۲) ۲۶ ، ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲،

137 ، ۶۸۲ ، ۶۸۲ ، ۲۳۳ ، ۲۳۳،

۲۳۳ ، ۲۶۳ ، (ج ۳) ۲۱ ، ۶۲،

۲۶ ، ۱۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲،

شطفة (من الحجر) (ج ۱) ۱۰۲، ۱۰۷، ۱۰۸، ۱۲۸، ۱۳۳، ۱۳۲۰ ۱۲۲، ۱۲۲۰، ۲۲۲، ۲۲۲، ۲۲۲، ۱۳۲، ۱۲۰، ۲۶۲، ۱۲۲، ۲۲۰، ۲۰، ۱۲۰، ۱۲۲، ۱۲۲، ۲۳۰، ۲۳۰،

شعوب البحر (ج ۲) ۲٤٧ ، ۲٤٨، ۲٤٩، ۲٤٩

شعیر (ج ۱) ۱۵۸ ، ۱۵۹ ، ۱۵۹ ، ۱۲۰ ، ۱۳۰ ، ۱۳۰ ،

۲۲۳ ، (ج ۳) ۲۰ ، ۲۶۱ ، ۲۰۱ ، ۲۷۰ ، ۲۷۰ ، ۲۶۲ ، شمال شرق آسیا (ج ۱) ۶۶۲ ، شمال شرق آسیا (ج ۱) ۶۶۲ ، شمانیة ٔ ل از ج ۲) ۲۷۱ ، شمانیة ٔ ل از ج ۲) ۲۳۱ ، شمر (نبات ال ل) (ج ۱) ۲۲۱ ، شمر (نبات ال ل) (ج ۱) ۲۱۸ ، ۲۱۹ ، ۲۱۹ ، ۲۲۹ ، ۲۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲

شـــوجن (ج ۳) ۳۰۸، ۳۱۵، ۳۱۵، ۳۱۸ ۱۳۱۸، ۳۲۲، ۳۲۷، ۳۳۰ شـــوفان (ج ۱) ۱۰۸، ۱۰۸، ۱۰۹،

شوكوتين (مدينة بالصين) (ج ١) ٢٥ ، ٥٣ .

شبيا (ال) (ج ٣ / ٢٣٢ ، ٣٣٣ ، ٢٤٢ .

شيعة (ال _) (ج ٢) ٣٤٥، ٣٤٦،

شـــــيمو (امبراطورية) (ج ٣). ٤١١ ، ٤١١ .

شین تسو (ج ۳) ۲۹۲ ، ۲۹۲ . شسسیه هوانج تی (ج ۳) ۲۷۳ . ۲۷۲ ، ۲۷۰ ، ۲۷۷ .

صــنوبر (ج ۲) ۱۱۸ ، ۱۲۰ ،

(ص)

(ج٣) ٣٣٠، ٣٣٠٠ صهر المعادن (ج ۱) ١٧٧، ١٨٢ (ج ٢) ٤٩٢ (ج ٣) ٨٣٠ مسوف (ال _) (ج ١) ١٩٢، ١٩٧ (ج ٢) ٧٩، ١٥١، ١٩١١ ١٣١ (ج ٣) ٣٢٠ صسومال (ال _) (ج ٣) ٢٠،

۶۳۰ ۰ ۲۰۱ ، ۲۰۳ ، ۲۰۳ . ۲۰۳ . ۲۰۳

صومالیون (ج ۲) ۲۰۱ ، ۲۰۳ ، ۲۰۶ ۰

صيد (ال _) (ج ۱) ۲۷ ، ۱۶۲، ۲۲۱ ، ۲۳۸ ، ۲۲۸ ، ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، صباغة (ج ۲) ۷۳ ، ۹۷ ، (ج۳) ۳۳ ·

. Y9A . Y97 . YV7 . YV1 · Y7Y

صب المعادن (ج ۲) ۲۱۲ ، ۲۶۶ ، (ج ۳) ۲۶۲ ، ۲۱۶ ۰

صحراء (ال ــ الكبرى) (ج ١) ١٩ ، ٩١ (ج ٢) ٩١ ، ١٨٥ (ج ٣) ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ١٦ ، ٦٢،

۰ ۲ ، ۷۹ ، ۲۸ ، ۷۹ ، ۸۲

صدف (ج ۳) ۳۲ ، ۸۸ ، ۱۸۰ · ۰ ۱۸۰ م صقلیة (ج ۱) ۶۷ ، (ج ۲) ۲۸۱،

• **٣**٢٨ ، **٢**٨٣

· ۲99

صلب (ج ۲) ۷۶ ، ۷۰ (ج ۳) ۱۳۱ ، ۱۶۶ ۰

شجرة الحضارة جـ ٣ ٥٩

707, 307, PF7, (37) 7/1,
7/1, 3/1, P0, PF7, YV,
00/1, 007 (37) 7V, 3V,
1/1,
1/2, 1/2, P0, PF7, VV,
1/2, P0, P0, PF7, PV,
1/2, P37, V37, P37,
1/2, P37, P37,
1/2, P37, P37,
1/2, P37, P37,
1/2, P37,

171 , 071 , 071 , 781 , 971 , 781 , 971 , 971 , 972 , 973 , 973 , 973 , 973 , 973 , 973 , 974 , 975 , 975 , 975 , 977 ,

صينية (اللغة ال ــ) (ج ۱) ۸۸ (ج ۲) ۸۱ · صينيون (ج ۳) ۱٤٠ ، ۲۲۰ ،

(ط)

طاوية (الديانة ال _) (ج ٢) ٢٨ (ج ٣) ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٧٢٧ ، ٨٢٧ ، ٢٠٣ ، ٣٠٥ ٠

صين (ال _) (ج ١) ٤٨ ، ٥٢ ،

طب ـ (ال ـ) (ج ۱) ۲۰۹ ، ۲۲۲ ، ۲۷۱ (ج ۳) ۳۳ ، ۲۹ ، ۷۰ ، ۷۷ ، ۲۷۷ ، ۲۷۷ ،

طابو (شیء محرم) (ج ۳) ۲۱۶ ، ۲۱۵ ، ۲۱۳ ، ۳۲۳ ، ۳٤۷ .

طروادة (ج ۲) 337 ، 637 ، 707 . 647 ، 707 .

طقوس دینیة (ج ۲) ۳۷ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۵۳ ، ۲۶ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۰ ، ۷۷ ، ۷۷، ۸۳ ، ۱۰۱، ۱۰۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۹ ،

Vol , VP7 , F/7 , F/7 , (5 7)
P7, 07 , F7 , · 2 , /2 , /2 , /P,
FP , / · / · / ، /2 /

طلائع الانسان (ج ۱) ۲۹ ، ۲۶ ، ۲۱ ، ۱۵ ، ۱۵ ، ۱۵ ، ۱۸۲ (ج۳) ۱۹۸ . طماطم (ج ۳) ۲۹۶ ، ۳۹۵ ، ۳۹۵ . طوارق (قبیلة ال ــ) (ج ۳) ۲۲،

طوطم (ج ۳) ۲۷ ، ۱۰۵ ، ۱۰۸ ، ۱۰۸ ، ۲۳۲ م ۲۲۲ ، ۳۸۷ ، ۳۸۸ ، ۳۸۸ طیبة (مدینة مصریة) (ج ۳) ۳۷، ۶۲۰ ، ۲۹۰

۳۲۲ ، ۱۲۲ ، (ج۲) ۹۹ ، ۹۹ (ج۳) ۲۰ ، ۲۶۱ ، ۲۳۰ ، ۳۳۳ ۰

ظران (حجر الصسوان) (ج ۱) ۱۱۹ ، ۱۲۶ ، ۱۲۹ ، ۱۵۸ ، ۱۸۱ ، ۲۲۳ ، ۲۲۲ ، ۲۶۰ ، ۲۶۲ ،

(ع)

علج (ج ۱) ۲۳۲ ، ۲۳۲ (ج ۲) ۲۳۲ ، ۳۲۲ ، ۱۲۶ (ج ۳) ۲۷ ، ۲۳۰ ، ۱۸ ، ۹۹ ، ۹۷۱ ، ۸۱۳ ۰

عبادة الأسلاف (ج ٣) ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ١١١ ، ١١٥ ، ٢٢١ ، ٢٢١ ، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧ .

عبادة الشمس (ج ۲) ۱۳۰ (ج ۳) ۱۲۳۰

عبرانیــون (ج ۲) ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۲٤۸ ، ۲٤۸ ۰

عبرية (اللغة ال _) (ج ١) ٣٧ (ج ٢) ١٨٥ ·

عبيد (ال ــ) (ج ۱) ۱۲ (ج ۲) ۱۹۰ ، ۲۹۷ ، ۷۲۷ ، ۲۸۷ ، ۲۹۷ ۲۹۷ ، ۲۹۷ ، ۳۰۵ ، ۳۰۳ (ج ۳)

٠٠، ١٠، ٧٧، ٨٥، ٩٠، ١٠٠٠

عجل البحر (ج ۱) ۲۳۲ (ج ۳) ۳٤٦ ٠

عجلة الفخار (ج ۱) ۱۹۳ ، ۱۹۶ ، ۱۹۲ (ج ۲) ۲۱۷ (ج ۳) ۲۳۰ ، ۲۶۷ ۰

عربة حربية (ج ٢) ١٤٢، ١٥١، ٢٢٩، ٢٣٠، ١٢٦، ٢٧٥، ٣٠١، ٣٠٧، ٢٠٩، (ج ٣) ١٦، ١٧٠

عـرب (ال ـ) (ج ۲) ۳۶۰، ۲۶۳ ، ۳۶۸ ، ۳۰۰ (ج ۳) ۱۲ ، ۱۲۰ ، ۱۹۸ ۰

عربة (ج ۱) ۱۹۲ (ج ۲) ۱۰۰، ۱۵۷ (ج ۳) ۱۹۷، ۳۳۰، ۱۳۳، ۱۵۲، ۱۵۲، ۱۵۲، ۱۵۲، ۱۵۲،

عربية (اللغة ال ــ) (ج٢) ١٨٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٠ ،

عصا الحفر (ج ۱) ۱۲۷ ، ۲۰۸ ، ۲۸۳ ، ۲۲۲ (ج ۲) ۷۳ ، ۹۶ ، ۱۰۲ .

عصور وسطى (ال ــ) (ج ١) ١٦١ (ج ٢) ١٥٤ ، ٢٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٠٣ (ج ٣) ٩ ٠

عملة معدنية (ج ٢) ٢٣٣ (ج ٣) ١٦٦٠ ٠

عنب (ج ۱) ۱۵۹ (ج ۲) ۱۱۹ ، ۳۲۷ . (غ)

غاب هندی (ج ۱) ۱۰۸ ، ۱۲۷ ، ۱۲۷ ، ۱۲۳ ۱۳۳ ، ۱۸۱ ، ۱۲۶ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۲ ، ۲۶۱ ، (ج ۲) ۱۲۲ ، ۲۷۱ ، ۲۷۷ ، ۲۱۷ ۰

غات (جبال بالهند) (ج ٣) ١٣٣٠، ١٣٤

غال ــ (قبـــائل ال ــ) (ج ۲) ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۳۰۷ ، ۳۰۸ ، ۳۰۸ ، ۳۱۸

غانا الجديدة (ج ٢) ٥١ ، (ج ٣) ٩٨ ·

غاندی (ج ٣) ۱۷۸ ، ۲۱۰ · غزل القماش (ج ٢) ۹۷ (ج ٣) ۸۲ ، ۲۳۹ •

غنم (ج ۱) ۱۲۰ (ج ۲) ۲۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۳۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ، ۱۳ ،

(ف)

قارذامانا (ج ۳) ۳۰ ، ۱۷۸ · فارسی ــ خلیج ــ ال (ج۲) ۱۹۰ ، ۲۱۳ ، ۲۳۲ ، ۳۵۰ ·

فارسیة ـ امبراطوریة (ج ۱) ۲۱۵ (ج ۲) ۱۰۸ ، ۲۰۹ ، ۳۳۸ ، ۳۶۸

فأس (ج ۱) ۲۷ ، ۳۵ ، ۱۰۵ ، ۱۰۵ ، ۱۲۵ ،

فاكهة الخبز (ج ١) ١٦٥ ، ١٦٦، ١٦٩ (ج ٢) ٥٢ ، ٥٥ ·

فحم خشب (ج ۱) ۱۱۷ ، ۱۱۹ ، ۱۸۱ ۰

نخ الصيد (ج ۱) ۱۶۳ ، ۱۶۶ · نخار (ج ۱) ۱۱۰ ، ۱۲۷ ، ۱۲۷ ،

فـــرات (ال ــ) (ج ۲) ۲۰۷ ، ۲۱۳ ، ۳۳۳ •

فرچینیا (ج ۱) ۷۱ (ج ۳^۴٬۳۵۰، ۳۵۱ ۰

فرس ـ ال (ج ٢) ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ۷۳۷ ، ۳۳۹ ، ۲3۳ ، (چ۳) ۲<mark>۴ ،</mark> · ۲۱۷ ، ۱٦٨ ، ١٦٥ ، ١٤٠ فرس النهر (ج ۱) ٤٤ ، (ج ٣) فرنسا (ج ۱) ۷۷ ، (ج ۲) ۸۹، · ٢٦٠ ، ١٢٥ (٣ ج) ٨٦ فضة (ج ۱) ۱۷۸، ۱۷۸ (ج ۲) , T7. , YTT , T1V , VE , 7T ۲۰۳ ، ۷۰۳ (ج ۳) ۲۳ ، ۵۵ ، ۹۷۳، فلسطين (ج ۱) ۲۲۷ (ج ۲) F-1 . TA1 . VA1 . TTT . 337 . • 789 · 787 · 789 · فلســفة (ج ۲) ۲۸۹ (ج ۳) · ٣·٣ ، ٣٠١ ، ١٩٧ ، ١٨٦ ، ١٦٤ فلك (ج ١) ١١١ ، ١١٢ (ج ٢) 0.1 , 077 , 047 , LVA (² ₄) • ٣٩٧ · ٢٧٤ فلوريدا (ج ٣) ٣٦٠ ، ٣٦٨ ٠ فن النحت والتصـــوير (ج ٢) ۰ ۲۸۸ (چ ۳) ۸۶ ، ۱۳۹ ، فوتان (ج ۲) ۸۱ ، ۸۲ .

فول سودانی (ج ۱) ۱٤٤ (ج ٣) 01 , 74 , 14 , 3 PT , V · 3 · فولسوم (حضارة ال _) (ج ٣). • 464 · 411

فولکلور (قصص) (ج ٣) ٩، . 107 . 100

فیانس (ج ۲) ۲۹۱ (ج ۳) ۲۷ . فیتامینات (ج ۱) ۱۹۲ ، ۱۹۳ · 458 (4 E)

فتيش (ج ٣) ٧١ ، ٩٣ ، ١١١ . قیجی (جزر) (ج۱) ۱۱، ۱۲۸،

(ج۲) ۶۲،۷۲۰ نیدا (ج ۳) ۱۵۳ ، ۱۰۷ ، ۱۰۸، · ۲·0 ، ۲·٤ ، ۱٧٣ ، ١٦١ ، ١٦٠

فيدزالي (النظام ال _) (ج ١) ٠ · ۲۱7 ، ۲۱۲ ، ۲۱۱

قيشتو (معبـود) (ج ۲) ۸۲ ، (3 7) 171 · 771 · 791 · 981 ·

نيل (ج ۱) ۶۲ ، ۲۸ ، ۹۹ ، ۲۰۱، ۲۰۱ (چ ۳) ۶۱، ۸۱، ۴۰۳۰ فیلیبین (ج ۲) ۱۷ ، ۲۰ ، ۲۳ ،

فینیقیـــون (ج ۱) ۱۸۹ ، ۱۹۰ (37) · P(, 7A7 , 3A7 , 3P7 , ٠٦١ (٣ج) ، ٣٢٨

(ق)

۲۲۲ (ج ۲) ۷۰ ، ۱۸۱ (ج ۳) ۳۳۹ ، قادش (موقعــة حربية) (ج ٢) قرآن ــ ال (ج ٢) ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، · 404 . 457

قاذفة حراب (ج ۱) ۱۰۸ ، ۱۳۷، · 771 · 77• · 771 · 187 · 177 ›

فول (ج ۱) ۹۳ ، ۱۹۲ (ج ۳)

• ٣٦١ ، **٣**٤٤ ، **٢٣**•

700, 727

قردة (ج ۱) ۲۷ ، ۳۱ ، ۳۳ ، ۳۳ ، ۳۳ ، ۳۷ (ج ۲) ۲۳۲ (ج ۳) ۲۳۲ ، ۲۳۷ (ج ۳)

قدوم (ج ۱) ۱۸۱ ، ۳۳۰ (ج۲) ۱۳۵ ، ۱۳۲ (ج ۳) ۱۶۳ ۰

قرطاجنــــة (ج ۲) ۲۸۳ ، ۳۲۸ ، ۳۲۸ ، ۳۲۸ ، ۳۲۹ ،

قرن حیوان (ج ۱) ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۱۰۸ ، ۱۰۸ ، ۱۶۲ ، ۱۶۲ ،

(ج ۲) ۹۰ ، ۱۳۵ ، ۱۳۸ ، ۱۳۸ ،

(ج٣) ۲۶۲ ٠

، ۲۰۷ ، ۱۳۹ ، ۷۰۷ ، ۳۸۱ ، ۲۰۵۷ ، ۸۰۲ ، ۸۰۲ ، ۸۰۲ ، ۸۰۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۱ (ج ۲)

قصائد البطولة (ج ٢) ١٤٩، ١٥٠،

101 · 701 · 701 · 701 · PFI · 3

قصـــدير (ج ۱) ۱۷۷ ، ۱۷۸ ، ۱۸۸۰ - ۱۷ ، ۱۷۷۳ - ۱۷۸ ، ۱۷۸ ،

۱۷۹ (ج۲) ۳۲۳ (ج۳) ۳۱، ۱۶۲، ۱۲۱۹ •

قطب شـــمالی (ال ــ) (ج ٣) ۲۲۷ ، ۳۰۹ ۰

قطن (ج ۲) ۷۷ (ج ۳) ۳۲ ، ۲۶۱ ، ۲۸۱ ، ۹۳ ۰

قمح (ج ۱) ۱۹۸، ۱۹۹، ۱۳۰، ۱۳۰، ۱۲۰، ۱۲۰، ۱۲۰، ۱۲۰ م ۱۳۰۶ (ج۲) <mark>۹۶، ۱۱۳، ۱۳۰، ۱۳۰، ۱۸۸، ۲۰۲ (ج ۳) ۲۰۰، ۱۲۱، ۱۲۰، ۱۲۰، ۱۲۰، ۱۲۰</mark>

قنب (ج ٣) ٢٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ · قوافل (دروب ال _) (ج ٣) ١٩ ،

قوقاز (ج ۱) ۲۹۰ (ج ۲) ۲۱۰ ۲۶۲ (ج ۳) ۱۳ ، ۱۳ ، ۲۶ ، ۷۲ ، ۱۳۹ ، ۲۰۹ ۰

قوقازیون (ج ۱) ۱۳ (ج ۳) ۱۳۹ ، ۱٤۱ ·

(신)

کاب (ال ۔) (ج ۳) ۱۱ ، ۱۸ ۰ کاثولیك (ج ۳) ۳۰۲ ، ۳۲۵ ۰ کارولینا (ج ۱) ۲۰۰ (ج ۲) ۲۱ ۰

کالیفورنیا (ج ۱) ۱۰۹ ، ۱۰۳ ، ۱۰۳ ، ۲۷۳ ۲۷۳ ، ۲۷۳ ، ۲۸۳ ، ۲۸۳ ، ۲۸۳ ، ۲۸۳ ، ۲۸۸ ،

کامبودیا (ج ۲) ۱۸ ، ۸۲ ، ۸۳ ، ۸۳، ۸۵ ، ۸۷ •

کانسو (ج ۳) ۲۲۸ ، ۲۲۹ · کاهن ــ ملك (ج ۳) ۲۳۶ ، ۲۳۰ ، ۳٦۱ ، ۳۹۹ ·

کایاك (قارب من الجلد) (ج ٣) ٣٤٨ ، ٣٤٨ ·

کتاب التاریخ (کتاب صینی قدیم)
(ج ۳) ۲۲۰ ، ۲۳۰ ، ۲۳۱ ، ۲۳۷ ۰
کتاب التغییرات (کتاب صینی قدیم)
(ج ۳) ۲۳۰ ، ۲۳۱ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۴۷ ۰
کتابه (ال _) (ح ۱) ۲۰۲ ، ۲۳۱ ،

۱۲۰ ، ۲۱۰ ، ۱۵ –) (ج ۱) ۳۰۱ ، ۱۱۱ ، ۲۱۰ ، ۱۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۱۰ ، ۲۲ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲ ، ۲۲۰ ،

۷۳۷ ، ۲۳۸ ۰ کرما (ج ۳) ۱۷۲ ، ۱۷۳ ، ۱۷۲، ۷۷۱ ، ۱۷۸ ، ۲۰۸ ۰

کرنب (ج۱) ۱۵۵، ۱۵۹، ۱۵۹ ۱۸۹۹

کریت (جزیرة) (ج ۲) ۱۲۰ ، ۲۲۸ ، ۲۲۸ ، ۲۲۸ ، ۲۲۸ ، ۲۲۸ ، ۲۸۷ ، ۲۸۷ ، ۲۸۷

کشاتریا (ج ۳) ۱۷۱ ، ۱۷۲ ، ۱۷۸ ، ۱۷۸ ، ۲۱۶ ، ۲۱۹ ·

کبیـة (ال ــ) (ج ۲) ۳۰۸ ، ۳۰۸

کلاسیکی (العصر ال ــ) (ج ۲) ۲۸۹ ، ۲۹۰ ، ۲۹۳ ، ۲۹۷ ۰

کلب (ج ۱) ۳۷ ، ۷۷ ، ۵۰ ، ۷۶۱ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱ ، ۳۶۲ (ج ۲) ۱۰ ، ۵۰ ، ۲۷ ، ۳۰۱ (ج ۳) ۸۰ ، ۸۲۲ ، ۳۲۰ ، ۶۶۳ ، ۵۶۳ ، ۸۶۳ ، ۸۲۳ ، ۶۲۳ ، ۷۸۳ ۰

کلت (ج ۲) ۳۰۱، ۳۰۸، ۳۰۹، ۳۰۹، ۳۰۹، ۳۰۹،

کسشری (ج ۱) ۱۵۹ (ج ۳) ۳۹،

P37 . 007 . NO7 . P07 . 077 . PVY .

کنعان (ج ۲) ۱۹۹ ، ۲۶۸ ۰ کنفر (ج ۱) ۶۷ ، ۲۲۹ ۰ کنیسة ـ ال (ج ۲) ۳۳۲ ، ۳۳۰ ، ۳۳۸ ، ۳۰۸

کوارتز ــ حجر (ج ۳) ۳۱ · کواکیوتل (شعب) (ج ۱) ۱۰۱ ، (ج ۳) ۳۸۷ ·

کوتا (قبیلة هنـــدیة) (ج ۳) ۱۸۰ ، ۱۸۱ ۰

کوتوکو (ج ۳) ۳۲۰ ، ۳۲۱ · کورتیز (ج ۳) ۳۲۸ ، ۴۰۵ ، ۶۰ ۰

کوریا (ج ۱) ۱۷۵ ، (ج ۲) ۲۱۰ ((ج ۳) ۲۳۲ ، ۲۱۱ ، ۲۳۱ ، ۲۳۱ ، ۲۳۲ ، کوزکو (مدینة ـ) (ج ۱) ۲۰۱ ((ج ۳) ۱۱٤ ، ۲۱۷ .

کولورادو (ج ۳) ۳۷۲ ، ۳۷۳ ، ۳۷۸ ، ۳۷۸ ،

کولومبیا البریطانیة (ج ۱) ۸۰، ۹۰ ، ۱۰۵ ، ۲۰۱ (ج ۲) ۱۰۰ (ج۳) ۲۲۱ ، ۲۸7 ، ۴۱۲ ۰

کونفــو (ال ــ) (ج ۱) ۷۰ ، ۲۰۲ (۲۰۲ ، ۲۰۸ ، ۲۰۲ (۲۰۳) ۲۰۸ ، ۲۰۸

کونفـــوشـــيوس (ج ۲) ۸^۲۱ ، (ج ۳) ۲۲۱ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۱ ،

۰۲۹ ، ۲٦۸ ، ۲٦۹ ، ۳۰۳ ۰ کیفا (مساکن تحت الارض) (ج ۳) ۲۷۹ ، ۷۷۹ ، ۳۷۸ ۰ کینیا (ج ۱) ۲۳۹ (ج ۳) ۷۷ ،

(1)

لابرانت (ج ۲) ۲۷۲ ، ۲۷۳ . لازورد (ج ۲) ۹۸ (ج ۳) ۲۹ . لاکروس (لعبة قدیمة) (ج ۳) ۲۵۷ ، ۳۵۷ .

لاما (حيوان ال ـــ) (ج ۱) ١٦١ ، (ج ٣) ٣٤٥ ، ٣١٤ ، ١٥٥ ·

لارتسو (فیلسوف صینی) (ج۳) ۲٦١ ، ۲٦٥ ، ۲٦٧ ٠

ابن (صناعة ال _) (ج ١) ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ (ج ٢) ٥٦ ،

لجش (مدينة سومرية) (ج ۲) ۲۳۹ ، ۲۶۰ ۰

لنج شان (حضارة ـ) (ج ٣) ٢٢٩ ، ٢٢٩ . ليوبانج (ج ٣) ، ٢٥٠ ، ٢٧٨ ، ٢٥٠ ، ٢٧٨ ،

(1)

مدغشقر (ج ۱) ۲۱ ، ۱۳۷ ، ۱٦٢ (چ ۲) ۲۰۸ (ج ۳) ۲۲ 331,011,(32),110,188 13,73, 31 . 11 . 77 . 37 . 77 . 30 . ما قبل التاريخ _ عصر (ج ١) 177 , A77 , P77 (3 7) P-1 , (75) (170,00,00,00) . TA. . TEI . 1EE 1TV . 1TE مرمرة و قرية مصرية ، (ج ٣) ۳۰۰ (ج ۲) ۹ ، ۱۲ ، ۲۶ ، ۳۹ ، · 77 . 70 . T\$T . TTV . 181 . 1TT . 1T1 · 404 . 450 مسلمون (ال _) (ج ٢) ٧٧ م ٠ ٢٠٠ ، ١٦٦ ، ٩٦ (٣ ق) ٢٠٠ ماموث (حيسوان ال ــ) (ج ١) . 111 . 7.7 . 1.1 ۱۶۲ ، ۲۳۸ (۵ ک) ۲۳۲ ، ۲۳۷ ، ۱۶۲ مسمارية (كتابة ولغة) (ج ٢) · 414 · 45 · · 788 , 777 , 710 مانا (ج ۲) ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۳ ، مسيحي (العصر ال _) (ج ٢) 3A , FYI , A3I , PP7 (3 T) • ٢٣٦ • ١٦٦ • ١٦ ماوو (الـــه داهومي) (ج ٣) • 178 • 177 • 177 مسيحية (الديانة ال ـ) (ج ١) مایا (شعب) (ج ۱) ۵۹ ، ۱۱۱ ، ۰۹ (ج۲) ۲۰۷ ، ۲۰۸ ، ۲۰۷ ، ۲۰۸ . ٣٠٩ . ٣٠٥ . ٢٩٧ . ٢٠١ . ١٩٩ ۱۱۳ (چ ۳) ۱۸۷ ، ۱۶۷ ، ۲۶۷ ، ۳۳۰ . ٣٩٧ . ٣٩٦ . ٣٩٥ . ٣٩٤ . ٣٣٦ · *** · *** · *\7 · *\8 · *\1 · ٤ · ٤ · ٣٩٩ · ٣٩٨ ۲۶۳ ، ۳۶۳ ، ۳۵۳ ، (چ ۳) ۲۰ ، .\9V . \AV . \79 . 97 . 95 . 78 محراث (ج ۱) ۱۷۶ ، ۱۷۵ ، . ٣٠٣ . ٣٠١ . ٢٧٠ . ٢٢٠ . ٢٠٣ (7 -) . 197 . 190 . 198 . 191 A.T. 077 . .TT . 157 . 0.3 . مسيحيون (ال ــ)(ج ٢) ٢٠٠ . 189 . 119 . 118 . 118 . 111 (ج ۲) ۱۳۱ ، ۲۰۵ • · 19 (× 5) LA (· 10) LA (· 2) LA (· 2) LA (· 10) LA (· 1 مصر (ج ۱) ۳۷ ، ۱۰۳ ، ۱۱۳ ، • 174 · 107 · 157 · 150 · 77 771 . 181 . 381 . 781 . 881 محمسد (نبي الاسلام) (ج ٢) (37) 7/1 , 57/ , 48/ , 3.7, . 450 . 454 . 454 . 454 . 444 · ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٤٦

محمـود الغزني (ج ٢) ٣٥٥ ،

محمود الغوری (ج ۲) ۲۰۶ ۰

(ج ۲) ۱۹۸ (

V37 · K37 · P37 · K07 · IF7 · 0F7 · KF7 · PY7 · · K7 · 3K7 ·

037 , F37 , A37 , .07 , 007 ,

۲۰۳ (ج ۳) ۹ ، ۱۱ ، ۱۷ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۱ ، ۲۲، ۳۲ ، ۲۶ ، ۳۲ ، ۱۹ ، ۹۵ ، ۲۹ ، ۲۹ ، ۱۹۷ ،

مصر السفلي (ج ٣) ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ٠

• 77. . 719

مصر العليا (ج ٣) ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٧

مصریون (ج ۱) ۱۳۳ ، ۱۶۱ ، ۱۰۳ ، ۱۸۱ ، ۱۸۹ (ج ۲) ۱۸۰ ، ۲۲۰ ، ۲۲۶ ، ۲۲۲ ، ۲۲۷ ، ۲۷۷ ، ۲۲۷ ،

۰ ۹۲۰ ، ۹۲۰ ، ۲۲۹ (چ ۳) ۱۰،۲۶

معـادن (ج ۱) ۱۱۳ ، ۱۲۶ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵ ، ۱۲۵

, 171 , 170 , 110 , VE , 77

۰ ۲۶۲ ، ۳۶۳ ، ۶۶۲ ، ۲۲۰ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۰ ، ۲۲ ،

331 > 171 - 777 > 777 > 777 > 713 .

مغــزل (ج ۱) ۱۹۱ ، ۱۹۵ ، ۱۹۵ ،

مغول (ج ۱) ۵، ۱۶۰ (ج ۲)

٠٢١ ، ٢٦١ ، ٢٠٦ ، ٨٣٨ ٠

مقشط (ج ۱) ۲۲۸ (ج ۲) ۱۱، ۹۹ (ج ۳) ۱۶۳ ، ۳۶۰ ۰

مقلاع (ج ۱) ۱۳۱ ، ۱۳۷ ، ۱۵۲ (ج ۲) ۱۱ ، ۱۳۰ •

، ۱۱۳ ، ۱۰۹ (۲) مکسیك (ج) (۳۲ ، ۲۰۱ ، ۱۹۱ ، ۱۳۷ ، ۱۱٤)

737 , 777 , 779 , 777 ,

مكة (ج ٢) ١٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣، ٧٥٣ (ج ٣) ١٩٩ ·

ملاریا (ج ۱) ۲۰ ، ۲۱ ، (ج۲) ۲۶ (ج۳) ۱۳ •

ملايو (ج ۱) ٦٤ (ج ۲) ١٠، ۱۱ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٣ ، ٨٨ ، ١٧ ، ۱۸ ، ١٨ ، ٤٨ ، (ج ٣) ١٣٤ ، ١٤٠ ،

ملايو _ يولپنيزية (ج ١) ٦٦٠ (ج ٢) ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦٠ ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٢٥ ، ٢٢ ، ٧٦ (ج ٣) ٨٨ ٠

ممالیك (ال ــ) (ج ۲) ۳۵۵ ، ۳۵۳ •

منا (ملك مصرى) (ج ٣) ٢٦ . ٢٨ •

منبــوذون (ال ــ) (ج ٣) ۲۰۰ ، ۳۱۳ ·

منجل (ج ۱) ۲۶۰ (ج ۲) ۹۰ (ج ۳) ۲۵ ، ۲۶۱ ۰

منشــو (ال ــ) (ج ٣) ٢٢١ ، . . .

... منغولیــــا (ج ۲) ۱۷ ، ۱۳۳ ،

۱۲۰ ۱۸۱ (۳۳) ۲۲۲ ۰

منگیوس (مؤرخ صینی) (ج ۳) ۲۱۹ ، ۲۲۳ ، ۲۲۹ ۰

مهشم (آلة) (ج ۳) ۱۶۳،۱۶۲ ،

مهیانا (مذهب) (ج ۲) ۸۸ ، (ج ۲) ۱۹۶ ۰ موتســو (ج ۲) ۲۶۱ ، ۲۹۹ ، موستیریة (ج ۱) ۲۲۷ ، ۲۳۱ (ج ۲) ۱۱ ۰ موسیقی (ج ۱) ۸۲ (ج ۳) • 78• • 71• موشکینو (ج ۲) ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۳۱ (چ ۳) ۱۱۱ ۰ موهنچو دارو (ج ۳) ۱٤٩ ، · \VE . \0\ . \0. میاو (ج ۳) ۲۳۲ ، ۲۳۳ ، ۲۳۲ ۰ میجالیتیة (ج ۲) ۱۲۹ ، ۱۳۰ (ج ۳) ۱۶۲ ، ۱۶۶ ، ۱۶۵ ۰ میجاستینس السلوقی (ج ۲) ۰ ۱۸۲ ، ۱۷۱ ، ۱۷۱ ، ۲۸۱ ، ۲۸۱ ۰ میزولیتی ــ عصر (ج ۱) ۱۰۷ ،

. TET . TEO . TEE . 1VT . 10.

۱۹۵۷ ، ۱۹۵۷ (۲ ی ۲) ۱۳۵۷ ، ۱۹۵۷ ، ۸۳۸ (چ ۲) ۱۲ ، ۲۲۷ ۰

میکونج (نهر 🗕) (ج ۲) ۸۲ ۰ میکروتیزیا (جزر _) (ج ۱) ١٧٢ (٢٠ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٧) . 07 . 70 . 40

میلانیزیا (جزر ۔) (ج۱) ۷۱، · \VE · \VY · \70 · \1.6 · 07 747 (37) VI , 61 , 12 , 13, · 1.1 , 78 , 0. , 8V

میلانیزیون (ج ۱) ۳۱ ، ۱۳۲ ، · 01 , 27 (7 E) 777

مینوس (ملك كريتي) (ج ٢) · TVI · TTA · TTV · TT0 · TTT · 774 · 777

مینویة (ج۲)۲۰۸ ، ۲۰۹ ، ۲۳۰، · 779 . 777

مینویون (ج ۲) ۲۲۷ ، ۲۲۷ ،

ميوسين (عصر ال _) (ج ١) 77 1 1 (5 7) 507 (5 7)

میوسینیون (ج ۲) ۲۷۷ ، ۲۷۸ ۰

(i)

ناجا (اله هنـــدی) (ج ۳) ۱۹۰ (ج ۲) ۱۸۷ ، (ج ۳) ۲۰۸ ۰ نادينية (اللغة _) (ج ٣) ٣٧٧ ، ٣٧٨

نبید (ج ۲) ۷۶ ، ۱۲۰ ۰ تحسناس (ج ۱) ۱۰۶ ، ۱۷۳ ، ~\AY •\A\ •\A\ •\\A •\\ ١٨٤ ، ٢٠٠ ، (ج ٢) ٧٤ ، ٩٩ ،

. TET . TIV . 1TA . 1T0 . 1T. · TV · To (T ;) · TTT · T7. . Yo . YE . YA . OE . TI . TA 3/1 , 791 , 337 , N·7 , 1P7 , . 217

نســيج (ج ۱) ۱۰۵ ، ۲۰۹ ، ١٩٦ (ج ٢) ١١ ، ٢٥ ، ١٥ ، ٣٧ ،

777 (37) V7 , 0A , PV/ , P77, 7/7 , 0V7 , AV7 , P·3 , 0/3 , V/3 ·

نصل (ج۱) ۱۰۷ ، ۲۳۱ ، ۲۳۷ ، ۲۳۷ ، ۲۳۸ ، ۲۳۸ ، ۲۳۸ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ،

نعام (ج ۱) ۹۹ ، ۱۶۲ ، ۹۵۲ ۰

نفاجو (قبسائل ال ــ) (ج ٣) ۳۷۷ ، ۳۷۷ ، ۳۷۷ ، ۳۷۷ ۰

نقود (ج ۱) ۷۶ ، ۱۱۱ ، ۳۳۳ (ج ۲) ۳۰۷ (ج ۳) ۰۰

. نمر (ج ۱) آغ (ج ۳) ۲٤۲ ·

نهر الاصـــفر (ال ــ) (ج ٣) ٢٥٤ ، ٢٥٩ ·

نورسسيون (قوم) (ج ۱) }} ، (ج ۲) ۳۳۸ ۰

نورمانیون (ج ۱) ۳۸ ، ۲۱۳ ، (ج ۲) ۲۷۷ ،

نوســـوس (قصر ــ) (ج ۲) ۲۵۷ ، ۲۷۷ ، ۲۲۸ ، ۲۷۰ ، ۲۷۲ ، ۲۷۲ ، ۲۷۷ ، ۲۷۷ ، ۲۷۹ ۰

نول (ال =) (ج ۲) ۱۱ ، ۵۰ ، ۹۲ ، ۹۲ ، ۹۲ ، ۹۲ نیاندرثال (انسان ال =) (ج ۱)

77 , 7.1 , 7.1 , 7.7 , 7.7 ,

VIA · 611 · 411 · 241 (2 4)

نیپسال (ج ۱) ۱۹۲ (ج ۳).

نيل (نهر ال ـ) (ج ۲) ۲۰۷ (ج ۲) ۲۳ ۰

نپلجیری (تلال) (ج ۴) ۱۳۳ ، ۸۰ ،

نيوليتي (العصر ال -) (ج ١) ١٩٥١ (ج ٢) ١٠٠١٠

71 . 75 . 77 . 77 . 18 . 78 .

78, 7.1, 8.1, 11.1, 011,

71 , 31 , 01 , 11 , 11 , 77 ,

37 . AP . 731 . F31 . F01 .

377 , 777 , 777 , 777 , 777 , 777 ,

نیومکسیکو (ج ۳) ۳۶۰ ، ۳۶۳ ، ۳۲۳ ، ۳۷۳

نيويورك (ج ٢) ١٣٣ (ج ٣) ٣٥٩ •

(4)

مان (أسرة ـ) (ج ۲) ١٢ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٣٧١ (ج ٣) ٢٣٨ ، ٨٧٢ ، ٨٧٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٢ ،

٠ ٤١٠

1 199 , 197 , 1AV , 1A0 , 1AE هكسوس (ال ــ) (ج ٢) ٢٤٦ . 7.0 . 7.2 . 7.7 . 7.7 . 7.. (ج ۳) ۱۱ ۰ . 411 . 411 . 4.4 . 4.1 هلستات (ج ۲) ۳۲۱ (ج ۳) هنود أمريكا (ج ١) ٣٦ ، ٣٩ ، ملینیستیه (ج۲) ۲۰۹ ، ۲۱۰ ، · VV · 77 · 71 · 7 · 0 · 40 , TTT , TTT , TTT , TTT . 144 . 141 1.4 . 1.1 . 34 (ج ٣) ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ٠ 171 , V71 , -31 , 001 , T01 , مليو پوليس (ج ٣) ٢٦ ، ٣٦ ، 151. 137 (3 7) 07 , 7/1 , 311, 441, 637, 6.4 (34) مملایا (جبال ال ـــ) (ج ٣) • 184 • 184 • 185 • 186 • 187 737 . YAY . هند (ال ـ) (ج ۱) ۲۰۰ هوانج هو (نهر ال _) (ج ٢) رج۲) ۹، ۱۰ ، ۳۲، ۲۷ ، ۸۱ ، ۲۸ *،* ۰ ۲۲۲ (۳ چ) ۲۱۰ ، ۲۰۹ ، ۲۰۷ ، ۷۸، ۱۶۸ ، ۱۵۰ ، ۲۱۰ ، ۵۵۳ • ٢٣٦ ، ٢٢٩ (ع ۲) ۲۰ ، ۱۳۱ ، ۱۳۲ ، ۱۳۶ ، هــوتنتوت (ج ٣) ٦٥ ، ٧٢ ، · 197 · 190 · 198 · 178 · 189 · ۲۱۳ · ۲۰٤ · ۲۰۳ · 19A · 19V هولاندة (ج ۲) ۱۳۱ (ج ۳) ۲۲۸، . TA. . TEV . T\A . T\V . T\E • 444 · 444 هـــون (قبائل ال ــ) (ج ١) الهند الصينية (ج ١) ١٦٥ ، ٠٤٠ ، ١٦٥ (ج ٢) ١٦٥ ، ١٤٠ ۱۸۱ (ج ۲) ۲۰ ، ۸۵ ، ۸۲ ، ۸۷ ، ۸۲ (ج ۲) ۲۲۱ ، ۲۲۱ ، ۲۷۲ ۰ ۲۱۰ (ج ۲) ۲۲۳ ۰ هوهوکام (ج ۳) ۳۸۰ ، ۳۸۱ ، الهند الأوربية (شعوب) (ج ١) ٠ ٣٨٢ ۰ ۱۹ ، ۱۲۲ (ج ۲) ۲۲۲ ، ۱۹۸ ، هوميروس (ج ۲) ۱۶۲ ، ۲۵۰ ، · 790 , 7V0 , 780 , 189 , 175 , 207 , 400 , 405 , 40K الهند الأوروبية (لغة (ج ٢) ١٤٨ ، • ۲۷۷ ، ۲۷٦ ، ۲۷۰ · . 720 . 717 . 177 . 100 . 129 هویتزیلو پوشتلی (ج ۳) ٤٠١ ، V37 , X07 , 3V7 , TV7 , . 1.7 ۳۱۹ (ج ۳) ۱۱۱ ، ۲۰۱ ، ۱۳۱ ، • T•7 . \AE . \VT . \\V . \\T ھیدیوشی (ج ۳) ۳۲۶ ، ۳۲۰ ، • **٣٢٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦** هندوس (ال _) (ج ۲) ۱۷ ، هــيرودوت (ج ۲) ۱٤۷ ، ۲۱۸ · VV · V٦ · V٢ · V١ · ٦٩ · ٦٨ (ج ٣) ۲۲ ، ۳۰ ، ۱۳۸ ۰ ۸۰ ۸۱، ۸۶، ۷۸ (ج ۳) ۱۹۹ ، . 00 . 22 مینایانا (ج ۲) ۲۸ ، ۸۸ ۰ هندوسية (ال _) (ج ٣)

(0)

وادی الجانج (ج ۳) ۱۳۳ ، ۱۵۰ ، ۱۵۷ ، ۱۷۷ ۰

وادی السند (ج ۳) ۱۳۲ ، ۱۳۳ ،

. 184 . 187 . 180 . 18. . 189

وادی النیل (ج ۳) ۲۳ ، ۳۱ ، ۳۲ ، ۶۶ ، ۹۷ ·

وادی ماکنـــزی (ج ۳) ۳۳۹ ، ۳۳۹ .

وحي (ال _) (ج ٢) ٢٩٣،٢٧٧ ،

7.7 , 137 (5 7) 111 , 177 , 777 , 777 .

ورق (ال _) (ج ۱) ۱٦٨ (ج٢) ٢١٢ ·

(ema) 16 -) (+ 7) 77 , 84, 84

وعل (ج ۱) ۱۶۲ (ج ۳) ۷۶، ۲۶۲، ۲۵۰۰

الولايات المتحدة الامريكية (ال _) (ج ۱) ۹۳، ۱۰۱، ۱۰۹، ۱۰۹، ۱۶۳ ۲۱۱، ۲۱۱ (ج ۲) ۱۵، ۲۱۲ ۰

يهود (ج ۲) ۱۹۹۱ ، ۱۶۳،۲۶۳، ۳۶۳ (ج ۳) ۱۲۱۰

يهوه (ج ۲) ۱۹۸ ، ۱۹۹ .

يوريموتو (ج ٣) ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

یوقاطان (ج ۳) ۳۹۷ ، ۳۹۸ ۰

يوليــوس قيصر (ج ٢) ١٤٣ ،

یومان (ج ۳) ۳۶۰ ،۳۷۳،۳۲۳،

· ٣٢١ ، ٣١٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧

(ی)

یابان (ال ــ) (ج ۱) ۱۲۱ ، ۲۱۰ ، ۲۳ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۹۱ ، ۲۲۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ،

. 411 . 4.7 . 4.1 . 4.1

يام (نبات ال _) (ج ١) ١٥٥ ،

۰۲۱ ، ۲۶۱ ، ۱۷۶ (ج ۲) ۰۲ ، ۲۲ ، (ج ۲) ۸۱ ·

ياناكونا (ج ٣) ١٥٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ·

یانجتسی کیانج (نهــر ال ــ) ـ ۲ ، ۲۲۲ ، ۲۲۳ .

(ج ٣) ۲۲۲ ، ۲۲۳ · یانج (امبراطور صینی) (ج ٣)

· ۲77 , 777 , 777 , 777

يشم (حجر ال _) (ج ١) ١٣٢ ،

(ج ۳) ۲۶۱ ، ۳۰۰ ین (ج ۳) ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۷۷ ۰

ر ـــونان (ج ۲) ۱۱۲ ، ۱۶۲ ، ۱۹۲ ۱۹۰ ، ۲۰۲ ، ۲۰۱ ، ۱۹۶ ، ۲۰۲ ، ۲۰۲ ۱۹۲ ، ۲۷۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۸۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲ ، ۲۳۲

يونانيون (ج ١) ١٤١ ، ١٩٠ ، (ج ٢) ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٣٦ ٠



الإشـــراف اللغــوى: حسام عبد العزيز الإشــراف القـنـى: حسـن كـامل التصميم الأساسى للغلاف: أسـامة العبد



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



إذا كان لنتون في أواسط القرن العشرين قد آمن بضرورة دراسة الحضارة الإنسانية عبر تاريخها، بسبب ازدياد التواصل والصلات بين الشعوب، فكيف بنا ونحن نعاصر ثورة في وسائل الاتصال ونقل المعرفة، كما نعاصر تطورات العولمة التي تسعى لأن تجعل من العالم قرية كونية واحدة تخضع للهيمنة الغربية - الأمريكية، مما لا يتفق مع طبيعة "اختلاف" الحضارات والثقافات وتنوعها الخلاق. إن حاجتنا الأن، في بدايات القرن الحادي والعشرين، لدراسة ومعرفة أصول هذه الحضارات والثقافات أكثر ضرورة، ومن هنا تكمن أهمية مراجعة هذا الكتاب لمعرفة أصل الشجرة، التي ننتمي إليها جميعًا، شجرة الحضارة الإنسانية.